شبهات حول القرآن وتفنيدها

« شبهات حول القرآن وتفنيدها »

تأليف
الاستاذ الدكتور غازي عناية

دار ومكتبة الهلال
بيروت

الطبعة الاولى

1996

دار و مكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية - ملك دار و مكتبة الهلال

تلفون: ٨٣٦٩٨١ / ٨٢٠٦٧٧ - فاكس: ٦٠٣٢٨٦ ١ (٩٦١) - ص.ب: ٥٠٠٣ / ١٥ - بيروت لبنان
٦٠١٠٢٠ / ٦٠١٠٠٢ / ٨-٧-٨٢٣٥٢٦ مقسم ٢١٦

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.
سورة الحجر آية 9.

إهداء

«إلى المجاهدين المسلمين في فلسطين بلد الإسراء والمعراج».

مقدمة الكتاب

الحمد لله لا إله إلا هو المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل، والإجمال تقديراً، وتدبيراً المتعالي بعظمته، ومجده. وصدق رسوله «ﷺ» تسليماً كثيراً. بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة ونصح الأمة، وكشف الغمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين. وسلام على صحابته الميامين، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

قرآن ربّنا هو موضوع دراستنا أعظم كتاب وجد على ظهر هذه البسيطة، سمت، وتعالت به معجزاته، فجعلته بترتيب سوره، وآياته في الدنيا هي نفس ترتيبها، وبتمامه في اللوح المحفوظ، بدءاً بكلمة الحمد لله، وانتهاءً بكلمة الناس. تجلت معالم عظمته بأن جعلت أول لفظ فيه ـ وهو الحمد لله ـ يتلفظ بها النّاس آخر كلمة في القرآن؛ تأصيلاً لإيمانهم، وتكريساً لشواهد توحيدهم في الألوهية، والربوبية، وأسماء الله وصفاته. كلمة الحمد لله أول كلمة في قرآننا الكريم تتكون من ثمانية

حروف، والجنة لها ثمانية أبواب، من قال الحمد لله إيماناً، واحتساباً، دخل الجنة بإذن الله من أبوابها الثمانية.

هذا هو قرآن ربنا، معجزة رسولنا، وإعجاز آدميتنا، وهداية بشريتنا، ونور عالمنا، نؤمن بتنزيله، ونصدق بألوهيته، ونتعبد بتلاوته، ونخشع لأحقية نزوله، وربنا يقول فيه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ سورة الإسراء آية 105. وربنا يحق الحق، ويثبت أحقية إنزاله على أفضل أنبيائه خير سيد ولد آدم، ولا فخر، وبالتأكيد اللفظي المتكرر، وبالنص المعجز في بيانه، وبلاغته. وهو يقول فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ سورة الإنسان آية 23.

وهذا هو قرآن ربنا الذي فيه يمترون، نحمده تعالى على كمال إنزاله، وتمام نعمائه، وربنا يقول فيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ سورة المائدة آية 3.

قرآن ربنا موضوع كتابنا هذا تعالت شواهد سموه، ورفعته عن دنايا الآدمية، وأحقاد البشرية من حثالات الكفر، والشرك؛ تعالت معالم هداياته وكراماته عن أن تنال منه بالتحريف، والتغيير خبائث الشرك من الصليبيين، والشيوعيين، وضلالات الكفر من الوثنيين، والوجوديين، وجهالات الشيطنة من يهود، وصهاينة. ولنا، وللبشرية العقلانية أن نستجدي الله دوماً على تمام نعمائه، وأن نركع له دوماً على إنزاله لهداية قرآنه، وأن نسجد له دوماً؛ عرفاناً، وثناءً، وحمداً لله تعالى على عنايته، وتكفل حفظه لنوره، وشفائه، وبرهانه، وذكر قرآنه العظيم مصداق قوله فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ سورة الحجر آية 9.

هذا هو قرآننا، دستور عالم إيماننا، ونظام حياتنا، ومعيار سلوكنا، وطريق هدايتنا، وسبيل آخرتنا. تنكرت لمعالمه، وأنظمته، وهداياته، وأنواره ألسنة الباطل فتلقته بالطعن، والدّس، وأفواه الشطأنة؛ فتقوّلت عليه بأخس الكلام، وأقذع السباب. إذ يتلقونه بألسنتهم، ويقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم، إلا حقد الضغينة على الإسلام، ومكر

القلوب على المسلمين، لا يجدون مدخلاً يدخلونه للطعن في القرآن والهدم في جدار الإيمان إلاّ دخلوه. جعلوا من الكفر منطلقاً لهم، ومن التقوّل على القرآن سلاحاً لهم؛ ومن الشرك هدفاً لهم، ومن التثليث مخلصاً لهم، ومن الإلحاد هداية لهم، وهم بذلك نصّبوا من أنفسهم حماة لجاهليتهم، وحراساً لرفاهيتهم؛ وهم بذلك أطلقوا عنان شهواتهم، ورذائل أخلاقياتهم؛ وهم بذلك داسوا على كل فضيلة، وأشبعوا كلّ غريزة، وأحلوا كل حرام، وحرموا كل حلال. وهم بذلك أشهروا أسلحة حقدهم، وصوبوا وسائل قتلهم، ونفثوا سموم عداوتهم اتجاه كل من حال دونهم، ودون رذائلهم، وحتى لو كان إلٰهياً، حتى ولو كان سماوياً ما دام ذلك جاء هادياً لهم. فتطاولوا على رمز الإسلام، دستور السماء في الإيمان، ولم يرقبوا فيه إلاً ولا ذمة، ولم يرعوا له حقائق سمات إعجازه، ولم يقدروا فضائله، ولم يعقلوا علومه، ومفرداته، ولم يتدبروا سوره، وآياته، ولم يعوا موضوعاته، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده، ومجمله ومبينه، ومنطوقه ومفهومه، ووجوه مخاطباته، وتقديمه وتأخيره وأمثاله، وأقسامه، وجدله، ومجازه، واستعاراته، وتمثيله، وكناياته، ومبهماته، وأسمائه، وكناته، وألقابه، وناسخه ومنسوخه، وآياته، وبياناته، وبلاغته، وفصاحته.

هكذا تعامت عيون الكفر عن سماته في إعجازه، فلم تر في القرآن العظيم إلا قيداً على شهواتهم، وحداً لرفاهياتهم، ومنعاً لتجاوزاتهم، فكالوا له الشتائم، والسباب، وأحاطوه بالشبهات، وهم لم، ولن يستطيعوا كسر حصون مناعته، أو هدم أسوار حقائقه في هدايته حتى لمن عادوه من البشر، وقد نقلهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن اليهودية إلى الإسلام، ومن الصليبية في التثليث إلى الوحدانية في الألوهية، ومن الوثنية في البرهمية إلى الوحدانية في الربوبية، ومن البوذية في عبادة الأصنام إلى التوحيد في عبادة الله. هذا القرآن العظيم دستور المحبة في الائتلاف، والمودّة في التعاون، والرحمة في التكافل غيّبه دعاة الكفر من

الشيوعيين، والصليبيين، واليهود، ودعاة الكفر من المسلمين الذين لا ينتسبون إلى الإسلام إلا اسماً، أو بشهادة الازدياد، وقد تناسوا أن في قرآنهم المخرج من متاهاتهم، وضلالاتهم، وفتنهم.

وكما قال رسولنا المصطفى «ﷺ»: «تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسُنّة نبيّه» رواه الإمام مالك، وأبو داود.

وقد تناسى دعاة الشطأنة قرآن ربنا مخرجهم من فتنهم، وفتنتهم، وهديهم إلى الصراط المستقيم. وكما قال حبيبنا المصطفى «صلوات الله عليه وسلم»، وفيما رواه الترمذي، والدارمي، وغيرهما من طريق الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فِتن، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله؛ وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. من قال به، صدق، ومن عمل به، أجر، ومن حكم به، عدل، ومن دعا إليه، هدي إلى صراط مستقيم». لقد تعدّى بابوات، وأهل، وقساوسة التثليث من الصليبيين، وأحبار الحقد، والسباب من يهود، وفلاسفة المتع، والرذائل من الوجوديين، وأساتذة المادة من الملحدين على حكم القرآن، وتنكروا لمعارفه وعلومه. وهم يعلمون، ولا يعلمون أنهم يتعدّون على شرف أقدس الكتب السماوية، وقد جمع علومها، وأنّهم يتطاولون على شرف كتاب المعرفة، والحكمة، وقد خصها الله تعالى لدارسي قرآنه، والعاملين بأحكامه، والعارفين لعلومه. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ سورة البقرة آية 269.

أخرج ابن أبي حاتم، وغيره من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال: المعرفة بالقرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وهكذا تكاتفت أيدي الشر من أهل الكفر، والشرك قديماً، وحديثاً، للطعن في القرآن ومن نزل عليه القرآن، يجمعهم هدف اللغو في القرآن. مصداق قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾سورة فصلت آية 26. ويوحدهم في ضغائنهم جحود الكفر بآيات الله مصداق قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام آية 33.

قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين، فعرفوا أنّه لا يكذب في شيء، ولكنهم كانوا يجحدون، فكان أبو جهل يقول: ما نكذبك يا محمد، وإنك عندنا لمصدق، وإنما نكذب ما جئتنا به».

وهكذا رفضوا إلاّ أن يعيشوا في متاهات ضلالاتهم، وسراديب ظلماتهم، فعميت بصائرهم قبل أبصارهم عن حقائق كتاب الله النورانية، قتل الإنسان ما أكفره. وقتل أبو لهب، وهو يقول للرسول «ﷺ»: لا أقول لك إنّك كاذب، وإنما ما جئت به باطل. وهكذا تمادوا في افتراءاتهم، وشبهاتهم، وأحاطوا بها سمات الإعجاز القرآني، والنبوي ظلماً وعلوّاً، وهكذا رفعوا معاول الهدم الشيطانية، وتمادوا في حملات النيْل من القرآن، وحملات التشهير بمن نزل عليه القرآن، وبشكل ممتد، وعلى امتداد عصور التاريخ منذ فجر الإسلام. فقالوا عن الرسول «ﷺ»: إنّه ساحر مصداق قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ سورة يونس آية 2. وقالوا عن القرآن: إن هو إلاّ سحر يؤثر، وإن هو إلاّ قول بشر. مصداق قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ سورة المدثر الآيتان 24 - 25. ولكن الله فنّد زعمهم، وأنذرهم بالعذاب الأليم، والشراب الحميم إن لم ينتهوا، ويرعووا، وأنّى للكافرين أن ينتهوا، وأنّى للمشركين أن يرعووا. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ سورة يونس آية 4. وقالوا عن الرسول «ﷺ»: إنه شاعر، وما القرآن إلاّ من خيالات شعره، وسبحات أفكاره. مصداق قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ

﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ سورة الأنبياء آية 5. ولكن الله أنكر عليهم زعمهم، وأبطل شبهتهم؛ فنفى عنه، وعن قرآنه صفة الشعر، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ سورة الحاقة آية 41. وقالوا عن الرسول «ﷺ» إنه لمجنون، وما القرآن إلا شطحات جنونه. مصداق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ سورة الدخان آية 14. ولكن الله أنكر عليهم افتراءهم، ونفى عنه صفة الجنون، ومن أصدق من الله قولاً، ومن أصدق من حديث الله نفياً. قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ سورة التكوير آية 22. وقالوا عن الرسول «ﷺ»: إنه كاهن، وما القرآن إلاّ من ترانيم كهنوته، وطقوس أفكاره. ولكن الله أبطل شبهتهم، وأثبت أحقية تنزيله لقرآنه. وأنّه من رب العالمين. قال تعالى: ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سورة الحاقة الآيتان 42 - 43. وقالوا عن الرسول «ﷺ»: إنّه كذّاب، وما القرآن إلا من سحرات كذبه. مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ سورة «ص» آية 4. ولكن الله تعالى لم يغفل كذبهم، وأثبت شكهم، وظنهم، فأذاقهم العذاب. قال تعالى: ﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ سورة «ص» آية 8. وقالوا عن الرسول «ﷺ»: إنّه شاعر مجنون. وما القرآن إلاّ من شعر جنونه، وخيالات شعره. مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ سورة الصافات آية 36. ولكن الله أبطل قولهم، وأكد صدق رسوله، وأحقية قرآنه. قال تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ سورة الصافات آية 37. وقالوا عن الرسول «ﷺ»: إنّه متقول، وناقل للقرآن من غيره، وما القرآن إلاّ أساطير الأولين. مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ سورة الفرقان آية 5. ولكن الله أبطل شبهتهم، وثبت إنزاله من عنده. قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ سورة الفرقان آية 6. وهكذا جاء الرد الإلهي، وفي كل مرة مفنداً لمزاعمهم، ومبطلاً لشبهاتهم، مفحماً لهم متحديهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين. فقد صدق تعالى، وهو يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سورة الطور آية 34. ولكن هل فعلوا قديماً، وقد أعجزهم؟ وهل فعلوا حديثاً، وقد أفحمهم؟ ولكن أما آن للكفر أن ينتهي عن تقولاته! وأما آن للشرك أن يقلع عن تفوهاته! وأما آن للصليبية، واليهودية أن تعلما أن هذا القرآن المعجز في بيانه، وعلومه، وآياته، وحقائقه ما كان ليفترى من دون الله، وقد أخبرهم الله بهذه الحقيقة إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة يونس آية 37.

وهكذا، وإن لم يقلع أهل الكفر، والشرك عن تقولاتهم على القرآن، وعلى الرسول «ﷺ» والله تعالى أكد عصمة قرآنه من أن ينالوا منه، وهم في إصرارهم في أباطيلهم، وشبهاتهم، فليحذروا من عذاب ربهم، وليعلموا أن الله أعدّ لهم ناراً وقودها الناس، والحجارة. مصداق قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة البقرة آية 24. ولكن ـ والكفر عناد ـ وبكأن أهل الكفر أبوا بعداوتهم لخالقهم، ورسوله، وقرآنه إلا أن يجعلوا من أنفسهم وقوداً لنار جهنم. ويا عجباً لأهل الشرك، وهم يصرون على كفرهم، ويا عجباً لهم، وقد جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا على كفرهم، وشركهم، واستكبروا استكباراً. وهكذا يتابع مسلسل الكفر والشرك حلقاته تتقاسم أدوار البطولة فيها عناصر الكفر الغرْبية، واليهودية، وأتباع إلحاد الشيوعية، والوجودية، وعبّاد أصنام الوثنية تجمعهم شواهد وحدة الهدف في مهاجمتهم للإسلام، والطعن في المسلمين، واللّغو في القرآن، والشتم للرسول «ﷺ». لا يردعهم عن غيهم رادع، ولا يؤنبهم على طعنهم ضمير. وقد جمعهم شمل الكفر، فكانوا في عدائهم لله وكتابه، ورسوله أولياء بعض. فصدق قول ربنا فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ سورة الأنفال آية 73 وبعد أن مَنّ الله عليهم بنعمه، وسخّر لهم الكون بعطائه، ويسّر لهم العلم بتوفيقه، ورأوا بأدواته، ووسائله آيات ربهم، ازدادوا بُعداً عن إلٰههم، وطعناً في آياته، وتطاولاً على معجزاته. فإننا نراهم اليوم قد أحكموا حلقات مسلسل طعنهم،

ومهاجمتهم للقرآن الكريم، آية ربهم الخالدة. وهم وبعد أن أبطل الله شبهاتهم حول سحر وكهنوت القرآن، وشعر، وجنون من نزل عليه القرآن نراهم قد ازدادوا شراسة في عدائهم، وطعنهم، وقذفهم في رموز الإسلام الخالدة. وأدخلوا أنفسهم في متاهات القحة، والضلالة، وميادين البذاءة، والدنايا، وكالوا الشتم، والسب، والقدح من غير أي تورع. وبرعوا في إنتاج أفكار الطعن والقذف، وتفننوا في اختراع أساليب الهدم، وأبدعوا في استعمال أخبث وسائل الإعلام من صحف، وكتب، وإذاعات، وتلفزيونات في النيْل من القرآن. والعجب في الأمر أنّهم في كلّ ذلك أجبن من أن يقابلوا الفكر بالفكر، أو الحجة بالحجة. وأنّهم عندما أعيتهم حقائق الحق، وألوهية التنزيل أصروا على عنادهم في الكفر، واحتكموا إلى شياطينهم، وتحصنوا من وراء جدر الجبن، والخبث، والدناءة، وفحش القول؛ وأسندوا أداء أدوار البطولة في مسلسلات الحقد، والشتم، والطعن إلى نفر من أمّة العرب، أمة الإسلام لا ينتسبون إليه إلاّ اسماً، أو بشهادة الميلاد، شهادة الازدياد. وجعلوا منهم أبواقاً يرددون أقاويلهم، وشبهاتهم حول القرآن معجزة رسولنا الخالدة، ومقابل قليل من فتات المال، والشهرة الزائفة يلتقطونها بإذلال من على موائد لئامهم الكفّار. وهذه شيمة الكفار في مهاجمتهم للإسلام، وهذه أساليبهم في الطعن في القرآن طيلة عهود الزمان. فهم دوماً ينطلقون من فراغ الحقيقه، ونبْذ الهداية، وفقر الدلالة؛ وأدلتهم أن لا أدلة لهم إلا كفر العناد، وقفل الأذهان، وحقد قلوب الشرك على نورانية التوحيد، وضغينة عقول الكفر على هدايات الإيمان؛ أو يهاجمون رموز الإسلام من وراء جدار.

وإننا نراهم اليوم يدفعون بأحد شياطينهم إلى ميدان القحة، والبذاءة. وهو سلمان رشدي، والذي أخلص لهم في ترديد شبههم عن القرآن، ونبي القرآن؛ شبه الشتم، والقذف، والسب. فهو يؤلف كتاب آيات شيطانية، ويهاجم فيه رموز الإسلام، ويوسعها الطعن، والسباب. فهو يصف القرآن بأنّه آيات شيطانية أملاها الشيطان على لسان الرسول «ﷺ»، وهو يتهمه

بالهلوسة، وبأنّه نبي الجاهلية، ويصف بيوت أزواجه بأمكنة الدعارة، والصحابة بأنهم سكارى، وأن سلمان الفارسي كان غشاشاً، وأنّ الكعبة بيت الجاهلية. وهو يبرر كل ذلك بأنّها محاولة جديدة لفهم الدين. وأسياده الصليبيون، واليهود يعذرون قباحته، وبذاءته، بأن ذلك من معالم الحريه الفكرية التي يجب أن يتمتع بها الجميع. وهم بأساليبهم الوقحة في كيْل الشتائم، والسباب، يلقون بأسلحتهم في ميدان مقارعة الفكر بالفكر، وتنكشف خططهم أمام قوة نور إعجاز القرآن. وإزاء فشل محاولاتهم لإلغاء القرآن تراهم يستعينون ببعض حثالات البشر من المفكرين الذين هانت عليهم أنفسهم، وتنكروا لدينهم، وأمتهم وهم الذين يعرفون بالعلمانيين، ويمدونهم بقمامات الفكر يشوهون بها أصالة القرآن الكريم.

فمرة ينادي هؤلاء العلمانيون بإلغاء لغة القرآن لغة الفصاحة، والبلاغة والبيان، واستبدالها باللغة العامية المحكيه. ومرة ينادون بإلغاء ديانة الإسلام، ومرة ينادون بفصل القرآن عن الحياة، ومرة ينادون بفصل القرآن عن الدولة، ومرة ينادون بفصل القرآن عن السياسة، ومرة ينادون بفصل القرآن عن أركان الإسلام كالزكاة.. وهكذا.

فهذا عميد العلمانيين يوسف الخال ـ تشومبي الثقافة العربية ـ يجاهر بإلغاء لغة القرآن، وإلغاء ديانة الإسلام. فهو يكتب في كتابه: «دفاتر الأيّام» وفي الصفحة 106 أن اللغة العربية ميتة، ويدعو إلى: الإقلاع عن استعمال اللغة الميتة. ويقول بالحرف الواحد: «وإنّنا شعوب لا لغة حيّة مكتوب لها، إذن لا أدب لنا ولها، وإذن لا قراء فيها، ولولا اعتمادنا على معرفة اللغات الأجنبية، لكنا أيضاً بدون ثقافة». وتراه يهاجم أهل اللغة العربية في الصفحة 139 ويقول بالحرف الواحد: «هؤلاء الموروبون الناعقون كالبوم، الجاثمون على صدورنا كالغربان، العاملون أنفسهم أتلجسيس[1] القومية العربية».

---

(1) حسب ورودها في كتاب يوسف الخال.

وفي الصفحة الحادية والثلاثين يدعو العرب إلى تغيير دينهم، فهو يقول: «إذا كانت النظرة إلى الكون، والحياة، والفن هي ما نسميه الدين، وإذا كان لنا بعد هذا السقوط الذي حل بنا منذ ألف سنه أن ننهض من جديد، فعلينا أن ننقد نظرتنا الحاضرة، ونتبنى تعديلاً لها، أو بدلاً منها». ويذكر في كتابه وفي أكثر من موقع ـ أنّه لا يعرف الله إلا بشخص السيد المسيح ـ. وهذا فارس الشرك «سلامة موسى» يجاهر بمعاداة الإسلام. فهو يذكر في كتابه «اليوم والغدْ» وبالحرف الواحد: «إنّ الرابطة الدينية وقاحة، وإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا، ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان، وحكومة برلمانيه كما هي في أوروبا، ويحب معاقبة كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد، أو المأمون. وهذا مذهبي طول حياتي سراً، وجهراً، فأنا كافر بالشرق، ومؤمن بالغرب».

وهذا هو أحدهم وهو شاعر العربية يطعن في رموز الإسلام بثوابته، ومتغيراته. وهذا هو، وغيره كثير ممّن يتزعم مدرسة استبدال لغة القرآن بلغة العوالم الدارجة. هذا نزار قباني شاعر الجنس يعري المرأة المسلمة في شعره من تاج حيائها.

وهذا كاتب ياسين عميل الإلحاد في المغرب المسلم يصف المؤذنين المسلمين بأنّهم كلاب الدوار. ويصف صومعة المسجد بالصاروخ الذي لا ينطلق (العدد 77 من مجلة جزائر الأحداث يوم 9 إبريل 1967 م). هذا بوق العلمانية الطبيب النفسي «فؤادِ زكريا» يهاجم الشريعة الإسلامية في كتابه: «الحقيقة والوهم» ويقول بالحرف الواحد: «أما التجارب التاريخية للإسلام فلم تكن إلا سلسلة طويلة من الفشل؛ والاستبداد كان القاعدة، والظلم هو أساس الحكم، وإن شخصية عمر بن الخطاب فذة فريدة لن تتكرر. وإنّ الانتشار الواسع للاتجاهات الإسلامية بشكلها الراهن إنّما هو مظهر صارخ من مظاهر نقص الوعي لدى الجماهير». وهذا متحذلق العلمانية «محمد أحمد خلف الله» يطعن في

الإسلام واللغة العربية بطريقته، فهو يصف الله بأنه عربي. ويقول في مقالة له في مجلة العربي عدد يونيو سنة 1984 ص 43 وبالحرف الواحد: «إن القرآن الكريم لم يجعل النبي (ﷺ) ملكاً، أو رئيس دوله. وإنما ظل دائماً النبي الرسول» قاصداً بذلك، وعن سوء نيّة عدم ضرورة قيام الدولة الإسلامية، وعدم صلاحية القرآن، والشريعة الإسلامية للحكم. وتقدم الصليبية بوقاً آخر هو المطران «أغناطوس مبارك»، والذي أبان عن حقده على المسلمين، وتحالفه مع الصهيونيين حيث يكتب في جريدة «بالستاين بوست» في السادس والعشرين من مارس سنة 1946 م بالحرف الواحد: «إننا ندرك أن الصهيونية تأتي بالتمدن لفلسطين، والشرق الأوسط كله، وإني متحمس جداً للصهيونية، لأني أحب الخير لفلسطين. وإذا أحببتم أن تماشوا رغبات العرب المسلمين، فهؤلاء يرغبون في السيطرة على البلاد، وطرد المسيحيين منها، وإنّي أقول لكم بصراحة: إنّكم إذا قاومتم الصهيونية في فلسطين، فإن ذلك يعني إرجاع الشعب إلى حكم الهمجيه، وإرجاع البلاد إلى حكم الفوضى، والبرطيل كما كانت أيام حكم سلاطين بني عثمان».

وهكذا تكاتفت شياطين كفر الصليبيةِ مع كفر اليهودية في عدائهم للإسلام، وطيلة عهود التاريخ، ولذلك حذّرنا الله منهم إذ يقول فيهم: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ سورة المائدة آية 51.

ولا عجب إذن ـ وهذه شِيَمُهُم دوْماً ـ أن يكيلوا التهم للإسلام، ويطعنوا في القرآن، ويشتموا نبي القرآن، وأن يتفننوا في اختراع الشبهات حول رموز الإسلام، وأن يستخدموا أحط، وأقذر وسائل الهجوم حتى ولو كانت سخف قول، أو بذاءة لسان، أو لغط كلام كما نشاهد اليوم من سب، وشتم، وقدح لا مبرر لهم في كل ذلك إلاّ الادعاء بحريّة الفكر والتعبير، ولا هدف لهم إلا القضاء على القرآن سر عظمة الإسلام والمسلمين. ولا حجة لهم إلا أنه دعاهم إلى الإيمان، والإسلام، وأراد نقلهم من ظلمات التثليث، والكفر إلى نور الهداية، والتوحيد. وإزاء

هجماتهم الشرسة هذه قمت بإعداد هذه الدراسة المتواضعة عن عدد من شبهاتهم الباطلة حول القرآن الكريم، وقمت بتفنيدها بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة لا أقصد بذلك الدفاع عن القرآن؛ فأصالته الألوهية، وأحقيّته الربوبية تُغنيه عن أي دفاع، وما هذه الدراسة إلا كشف لطيف لهذه الأصالة، وتفنيد لشبهات حوله بلغت أربعاً وسبعين شبهة.

وقد جعلت عنوان هذه الدراسة في هذا الكتاب: «شبهات حول القرآن، وتفنيدها» وقد ضمنتها اثنيْ عشر باباً. وإنّي لأرجو أن تكون بياناً شافياً لشبهات الباطل، وَقَدَراً موفقاً في تفنيدها، والرد عليها. وأن تكون عوْناً لأهل العلم، والإيمان في دفاعهم عن قرآنهم.

وإنّي لأدعو الله أن يغفر لي تقصيري، وأخطائي. وإني لأرجو الله أن أكون قد وُفّقت، وأن يوفقني دائماً في نُصرة دينه، والدفاع عن قرآنه، وتفنيد الشُّبَه من حوله.

اللهم نسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، وغمومنا. اللهم اجعله حجة لنا لا حجة علينا، وحجة على أعدائك لا حجة لهم.

اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقيم حدوده، ويعمل بأحكامه. اللهم اجعلنا من أهل القرآن المدافعين عن القرآن، المفنّدين لشبه الكفار حول القرآن. يا أرحم الراحمين.

قال عزّ منْ قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ سورة سبأ آية 38.

المؤلف

الأستاذ الدكتور غازي عنايه

1416 هـ ـ 1996 م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

قسنطينه ـ الجزائر.

الباب الأول

شبهات حول الوحي بالقرآن، وتفنيدها[1]

الشبهة الأولى:

إن القرآن من تأليف محمد. صاغه بأسلوبه، وعبّر عنه ببيانه، ونمّقه ببلاغته، وزخرفه بتهيؤاته، ودعمه بمعجزاته، ثم نسبه إلى خالقه، وادعى أنّه وحيه؛ ليكسبه هالة قدسية، جذباً لاحترام، وثقة النّاس فيه، ليصبو به إلى مآربه الدنيوية في التسلط، والسيادة، والحكم، والزعامة.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إذا كان القرآن من تأليف محمد، فحديثه الأضعف منه بلاغة، وفصاحة، وبياناً، يكذب ذلك. ولكان الأولى ألاّ ينسب لنفسه حديثاً، وأن يجعل كل كلامه قرآناً. فالتمايز بين القرآن، والحديث النبويّ

---

(1) انظر في مثل هذه الشبهة: دكتور غازي عناية: كتاب: هدى الفرقان في علوم القرآن. جـ 1 ص 65 وما بعدها.

على درجة من الشدة، والوضوح، بحيث لا يخفى على أحد، وعلى الأخص على فطاحل اللغة العربية. فالقرآن في أسلوبه، ونمطه، وبيانه وتناسقه، وخصائصه الأخرى تجعله فريداً في نوعه، مميزاً عن كلام البشر؛ حيث جاء معجزاً، متحدى به، لم يستطع أحد أن يعارضه، أو يقلده، أو يضاهيه، أو يعيبه، أو يأتي بمثله، أو حتى يحرّفه. أمّا الحديث النبوي ـ وإن بلغ الذروة في فصاحته، وبيانه ـ فقد تناولته ألسنة المعارضة، والتقليد، والتحريف، فهو لم يجيء معجزاً، ولم يتحد به؛ ولذا فقد مسته شواهد التحريف، فكان منه الحديث الصحيح، والحسن، والضعيف، والموضوع. وأما ادعاء أعداء الإسلام أن لكلام محمد ضربين: الأول: وهو أن القرآن جاء به على انتظار، وتمهل، وترتيب، وتحضير، فأكسبه مزيداً من التهذيب، والتنميق، والتحبير. والثاني: وهو الحديث النبوي، فعبر عنه دون تريث، أو تفكير، أو تمهل، فجاء محرراً من كل تنميق، أو تحبير. ويردّ عليهم: بأن هذا الادعاء يفقد كل أساس مسوغ لصحته. فالقرآن الكريم نزل معظمه مفاجأة، وعلى غير انتظار، أو تمهل، أو تريث، فجاء منمقاً، مهذباً، سامياً في لغته، وأسلوبه، وإعجازه. ونفس الشيء بالنسبة للحديث النبوي: فمنه ما جاء على انتظار، وتمهل وتريث، ومنه ما جاء على غير ذلك، ومع ذلك فكلاهما ورد بنفس الأسلوب، والنمط، والخصائص. وقلما نجد تفاوتاً بينهما، وإنما يبقى التفاوت واضحاً بين القرآن، والحديث في الأسلوب، والنمط، والبيان، والخصائص؛ ويبقى بينهما كالتفاوت بين مقدور الخالق، ومقدور المخلوق لا يقلل من هذا التفاوت زعم، أو باطل، أو ادعاء، وإلى قيام الساعة.

ثانياً: إن القرآن الكريم لو كان من تأليف محمد، لكان قد نسبه إلى نفسه، ولادعى الألوهية فضلاً على النبوة؛ فيحيطه بهالة أكثر قدسية؛ فيكسب مزيداً من ثقة الناس فيه، فتزيد قداسته فيهم، وبالتالي تتقوى زعامته فيهم، ويشتد تسلطه عليهم. فلو كان القرآن من تأليف محمد لكان الأولى ألا يفرق بينه وبين الحديث؛ ولا ينتظر أن ينسبه غيره إليه،

ولكن ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ فالمؤكد تماماً حتى عند أدعياء الكفر أنّ الرسول «ﷺ» لم يدع جاهاً، ولا زعامة، ولا دنيا، وهو الذي قال لأعرابي عندما هالته عظمة النبوة: «هوّن عليك؛ فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة». ومن الثابت أيضاً حتى بالنسبة لأدعياء الكفر أنّه لم يدّع كتاباً، أو علماً من عنده، وما هذه الشبهات إلاّ من قبيل الكفر، والكفر عناد. والرسول «ﷺ» هو الذي قال فيه ربه في سورة العنكبوت: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ آية 48.

ثالثاً: إنّ القرآن الكريم لو كان من تأليف محمد لاستطاع أئمة الفصاحة، والبلاغة، والبيان من العرب أن يكتشفوا ذلك، وكان سهلاً عليهم، فيدحضوا به زعم محمد أن القرآن يوحى إليه من عند الله من جهة، ويقلدونه ـ وهم قد عجزوا عن ذلك ـ من جهة أخرى. فالقرآن الكريم ـ وهم أهل الفصاحة، والبيان ـ أعجزهم في لغتهم، وغزاهم في عقر بلاغتهم، وتحداهم، وبأطلق لسان فيهم، وأعرب لغة بينهم، أن يجاروه، ولو بأقصر سورة منه تتكون من ثلاث آيات، وهي سورة الكوثر، ولكن هل استطاعوا؟... قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ سورة البقرة آية 23 وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ سورة يونس آية 38. ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ سورة الطور آية 34. ولكن هل استطاع هؤلاء العرب ـ وهم أصحاب الصناعة البيانية، والبلاغية الفائقة ـ أن يجاروا هذا القرآن، أو يعارضوه، أو يقلدوه؟... وهل قبلوا التحدي، وهم ملاك النّباهة، والحسّ والذوق الأدبي الرفيع؟ الجواب على ذلك أبداً: فقد عجزت أقلامهم، وخرست ألسنتهم، وسقطت شبهاتهم، وفنّدت ادعاءاتهم، فهم المتقولون مصداق قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الطور آية 33. وهم الخراصون، مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ سورة الزخرف آية 20. وقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ

﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ سورة الذاريات آية 10. وهم المجادلون مصداق قوله تعالـى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ سورة الكهف آية 56.

رابعاً: إن القرآن الكريم لو كان من تأليف محمد، لكان أسرع الناس في الرد على من حاجّهُ في ادعائه، أو افترى على زعمه، أو اعتدى على حرماته. فهذه قصة الإفك التي نالت من شرف زوجته عائشة، ومن كرم نبوته، فقد تأخر نزول الوحي بالقرآن تبرئة لها حوالي الشهر ذاق هو، وزوجته الأمرين طيلة هذه المدة، فلو كان القرآن من تأليفه، فما الذي يمنعه من الرد السريع القاطع لألسنة المتقولين في شرفه؟... ولكن، وأنّى لرسول الله «ﷺ» أن يتقول على الله، أو يتقول على الناس وإن فعل ـ وحاشا لله أن يفعل ـ فحكمه إلى الله مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ سورة الحاقة الآيات 44 - 47.

وهذه قصة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، حيث صلّى الرسول ﷺ، وصحابته حوالى ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس بقي طيلة هذه المدة يقلب وجهه في السماء راجياً من الله تعالى أن يحوّل القبلة إلى المسجد الحرام بمكة، فاستجاب له، مصداق قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ سورة البقرة آية 144. فلو كان القرآن من تأليفه فما الذي منعه من تحويلها ـ أي القبلة ـ من أول الأمر!!.

وهذه قصة أصحاب الكهف، والذين سئل عنهم رسول الله ﷺ، فأبطأ عليه الوحي حوالي مدة أربعين يوماً بقي طيلتها في حرج من يهود حيث سألوه عنهم، فلو كان القرآن من عنده فما الذي يمنعه من سرعة الرد عليهم؟!!.

خامساً: إنّ القرآن الكريم لو كان من تأليف محمد، فكيف نفسر عتاب الله له في القرآن، وفي أكثر من موضع؟!! فهذا عتاب الله له في

قبوله لأعذار المنافقين، وإذنه لهم بالتخلف عن غزوة تبوك، مصداق قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ سورة التوبة آية 43. فمن خلل الرأي، وفساد العزيمة، ونقص الادعاء أن يعتب مدع، أو صاحب فرية على نفسه، وبقوله الذي يدعيه. ولو صحت دعوى نسبة القرآن لنفسه، لما عاتب نفسه، ولما خطأ رأيه؛ لأنّ هذا من قبيل التناقض الذي يتحاشاه أصحاب الافتراءات، والرسول «ﷺ» كان أحوج إلى ادعاء الصحة في أقواله وتصرفاته؛ جذباً للناس حوله، ولاعتناق قرآنه، وليس تنفيرهم، وليس بأن يناقض نفسه، وأن يعيب كتابه. إذن فلو كان القرآن من عنده لما كانت هناك ضرورات لأن يعاتب نفسه أكثر من مرة. وأيضاً هذا عتاب الله له في قبوله الفداء من أسرى بدر، مصداق قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة الأنفال آية 67 - 68. فمن شطحات الأفكار، وتجنب الصواب أن يعتب صاحب فرية على نفسه في تصرف سلكه، أو في رأي أبداه، أو في حكم قرره، وأن يخطىء نفسه، وينذرها بالعذاب العظيم، ومن غيره. وأيضاً هذا عتاب الله له في تولّيه عن أعمى هو عبد الله بن أم مكتوم جاءه يسأله عن دينه، فتولّى عنه اهتماماً بأكابر من قريش كان يرجو أن يهديهم الله إلى الإسلام، وهم له كارهون، مصداق قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ سورة عبس آية 1 - 11.

الشبهة الثانية:

إن الرسول «ﷺ» أخذ، وتعلم القرآن من أناس من البشر. فمرة ينسبون علم الرسول القرآني إلى راهب نصراني هو بحيرا، ومرة إلى غلام رومي يعمل قيناً في مكة، ومرة إلى ناسك مكي هو ورقه بن نوفل.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: فبالنسبة للراهب النصراني «بحيرا»: فيكفينا الرد بالقول: بأن الرسول «ﷺ» لم يقابله إلا مرة واحدة في حياته، وعمره إثنتا عشرة سنة، ومع عمه أبي طالب عندما صحبه في تجارة له إلى بصرى في بلاد الشام؛ وكان ذلك في فترة قصيرة جداً يستحيل معها أن يأخذ منه ما نسب إليه من علم، ومن الثابت يقيناً أنّه لم يأخذ عنه شيئاً من العلوم، فضلاً عن أنّ «بحيرا» عاجز في عقله، وعلمه عن الإحاطة بأقل القليل من العلوم التي جاء بها القرآن؛ وكل ما هنالك، وتؤيده الروايات أن الراهب بحيرا تنبأ للرسول «ﷺ» بالشأن العظيم، وهي النبوة التي شاهد أماراتها فيه. حيث قال «بحيرا» لأبي طالب: إنّ هذا الغلام سيكون له شأن عظيم، وحذره من يهود. وهذه القصة حجة للرسول «ﷺ» في نبوته، وليست حجة عليه؛ وإنما هي حجة على من افتراها بأن الرسول «ﷺ» أخذ القرآن من بحيرا.

ثانياً: وأمّا بالنسبة للغلام الرومي، فيكفينا الرد بالقول: بأنّه كان أعجمياً، وغير ملم بالعربية، وكان حداداً في مكة، وليس له شأن بعلم العربية، أو تعلمها، فكيف يقبل العقل ادعاءهم بأنّ الرسول «ﷺ» تعلم القرآن منه؟!! وقد فنّد القرآن مزاعمهم، وادعاءاتهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ سورة النحل آية 103.

ثالثاً: وأما بالنسبة للناسك المكي ورقة بن نوفل: فيكفينا الرد بالقول: بأنّ الرسول «ﷺ» لم تكن له العلاقة الوثيقة بذلك الناسك، ولم يقابله إلاّ بعد نزول الوحي عليه، حيث صحبته خديجة إليه، فشهد له ورقة بدلاً من أن يعلمه، فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى؛ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. قال: أو مخرجي هم؟! قال: نعم! لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني

يومك، أنصرك نصراً مؤزراً. ويكفينا الرد بالقول أيضاً بأنّ ورقة بن نوفل ولو أنّه كان حنيفياً على دين إبراهيم إلاّ أنّه، ومن الثابت أنّه كان لا يملك العلم، والمعرفة التي جاء بها القرآن، وكما ورد في الرواية: ثم لم يلبث ورقة أن مات بعد المقابلة بفترة قصيرة.

الشبهة الثالثة:

إنّ الرسول «ﷺ» شاعر، أو ساحر، أو مجنون، أو كاهن. قالوا: إنّه شاعر، وما القرآن إلاّ من خيالات شعره، وسبحات فكره مصداق قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ سورة الأنبياء آية 5. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ سورة الطور آية 30. وجاء الرد الإلٰهي مفنداً لزعمهم، منكراً عليهم ادعاءهم، ومن أصدق من الله حديثاً، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ سورة الحاقة آية 41. قالوا: إنّه ساحر، وما القرآن إلاّ سحر يؤثر، مصداق قوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ سورة يونس آية 2. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ سورة القمر آية 2. وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ سورة المدثر آية 24 - 25. وجاء الرد الإلٰهي مفنداً لزعمهم منذراً لهم بالعذاب الأليم، والشراب الحميم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ سورة يونس آية 4. وجاء الرد الإلٰهي أيضاً بالتولي عنهم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ سورة القمر آية 6. وجاء الرد الإلٰهي أيضاً بصليانهم سقر. قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ سورة المدثر آيات 26 - 29. قالوا: إنّه مجنون، وما القرآن إلا من شطحات جنونه، وفلتات شذوذه، مصداق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ سورة الدخان آية 14. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ سورة القلم آية 51. وجاء الرد الإلٰهي مدحضاً لافتراءاتهم مرة مشفوعاً بالقسم في قوله تعالى: ﴿نٓ

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ سورة القلم الآيتان 1 - 2 ومرة بأنهم للحق كارهون في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ سورة المؤمنون آية 70. ومرة بالنفي القاطع لصفة الجنون عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ سورة التكوير آية 22. قالوا: إنه كاهن، وما القرآن إلاّ من طقوس خيالاته، وبنات أفكاره، وقدسيات كهنوته. وجاء الرد الإلٰهي بالتذكير بأنّه ليس بكاهن، وأن القرآن تنزيل من رب العالمين في قوله تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الحاقة الآيتان 42 - 43. قالوا: إنّه شاعر مجنون، وما القرآن إلاّ من شعر جنونه، وخيالات ذهنه، مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ سورة الصافات آية 36. وجاء الرد الإلٰهي مؤكداً صدقه، وبأن ما جاء به هو الحق بعينه في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سورة الصافات آية 37. قالوا: إنّه ساحر مجنون، وما القرآن إلاّ من سحر جنونه، مصداق قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ سورة الذاريات آية 52. وجاء الرد الإلٰهي بالتولي عنهم: فإنّهم قوم طاغون، في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ سورة الذاريات آية 54. قالوا: إنّه ساحر كذاب، وما القرآن إلا من سحر كذبه، مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ سورة ص آية 4. وجاء الرد الإلٰهي بأنّهم في شك من ذكر الرحمٰن، وبأنهم لم يذوقوا العذاب بعد. في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ سورة ص آية 8. قالوا: إنّه كاهن مجنون، وما القرآن إلاّ من كهنوت جنونه، وهذيان كهنوته، وجاء الرد الإلٰهي بالتذكير لهم بأنّه ليس كما يدعون في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ سورة الطور آية 29. قالوا: إن هذا القرآن إلا أضغاث أحلام مفترى. مصداق قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ سورة الأنبياء آية 5. وجاء الرد الإلٰهي بأنّه لا يصرفهم عن قولهم إلاّ العذاب، والهلاك. وجاء في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة

الأنبياء آية 6 قالوا: إن هذا القرآن إلا إفك مفترى، مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ سورة الفرقان آية 4. وجاء الرد الإلهي بأن ما قالوه ظلم، وزور في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ سورة الفرقان آية 4. قالوا: إن هذا القرآن إلا أساطير الأولين. مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ سورة الفرقان آية 5. وجاء الرد الإلهي بالتأكيد بأنّه منزل من عالم السر في السماوات، والأرض في قوله تعالى. ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ سورة الفرقان آية 6. قالوا: إن هذا القرآن إلا قول تقوله محمد، وافتراه مصداق قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الطور آية 33. وقد جاء الرد الإلهي مرة بالتحدي لهم أن يأتوا بحديث مثله مفترى، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ سورة الطور آية 34، ومرة بالتحدي لهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ سورة هود آية 13. ومرة بالتحدي لهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ سورة يونس آية 38. وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ سورة البقرة آية 23. وجاء الرد الإلهي مرة أخرى بالنفي القاطع أن في مقدورهم الاستجابة للتحدي، أو الإتيان بمثل هذا القرآن. قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ سورة هود آية 14.

ومرة أخرى بالتحذير لهم، وإفحامهم بأنهم لا، ولن يستطيعوا، ولم، ولن يفعلوا، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة البقرة آية 24. وجاءت خاتمة الرد الإلهي باستحالة أن يكون هذا القرآن مفترى من دون الله، قال

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة يونس آية 37 وقد جاءت ذروة الرد الإلٰهي بالنفي القاطع لقدرة الإنس، والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن حتى ولو اجتمعوا له. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء آية 88.

ولما أسقط في أيديهم، وأيقنوا أن لا قبل لهم بتأييد مزاعمهم، وهم يعلمون أكثر من غيرهم بأنّ محمداً «ﷺ» ليس بشاعر أو مجنون، أو ساحر، أو كاهن عمدوا إلى افتراء الوحي من خارج النفس المحمدية. وقد تناسوا أنّهم في الرهان خاسرون، وأمام التحدي الإلٰهي فاشلون، ومع ذلك أصروا، وعاندوا ـ والكفر عناد ـ فادعى بعضهم، وشاركه البعض النبوة، وادعى أنّه يوحى إليه، وعندما حاول تأكيد افترائه، وتقليد القرآن، جاءت عباراته ـ وهم أفصح العرب ـ على غير فصاحة، وعلى كل سخافة وتفاهة، وعلى كل ركاكة، وإسفاف، فكان قرآنهم حجة على تفاهتهم، وبرهاناً على سقط متاعهم، وفشل ادعاءاتهم.

أمثلة على بعض المتقوّلين على القرآن:

أولاً: مسيلمة بن حبيب الكذاب: تنبأ باليمامة في بني حنيفة، وتقع شرق مدينة الرياض حالياً، وقد وفد على الرسول «ﷺ» وأعلن إسلامه، وكان أليفاً مع الناس، ويجاهر بقبحه، وعندما عاد إلى اليمامة كتب إلى الرسول «ﷺ» سنة 10 للهجرة: أمّا بعد، فإني شوركت في الأرض معك وإنّما لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، لكن قريشاً قوم يعتدون[1]. وكان الرسول «ﷺ» قد أرسل أحد المسلمين، وهو «نهار الرّجال» ـ وكان فقيهاً وقارئاً للقرآن ـ إلى مسيلمة ليرده عن فتنته، فارتد هو الآخر عن

(1) مصطفى صادق الرافعي: كتاب: إعجاز القرآن ـ ص 175.

الإسلام، وكان أعظم فتنة من مسيلمة على بني حنيفة، إذ شهد أنّه سمع الرسول «ﷺ» يقول: إن مسيلمة قد أشرك معه، فصدقوه. وكان لا يقول شيئاً إلا تابعه مسيلمة؛ وكان يستعين به على التعرف على أحوال الرسول «ﷺ». فكان الرّجال شريكاً لمسيلمة في الارتداد عن الإسلام، وشريكاً له في النار بإذن الله ضرسه كجبل أحد في النار بل وأعظم.

عن أبي هريرة «رضي الله» عنه قال: «جلست مع النبي «ﷺ» في رهط معنا الرّجال بن عنفوة، فقال: إن فيكم رجلاً ضرسه في النار أعظم من أُحُد؛ فهلك القوم، وبقيت أنا والرجال، فكنت متخوّفاً لها حتى خرج الرجال مع مسيلمة، فشهد له بالنبوة»(1). وقد قتل الرّجال مع مسيلمة في حرب المرتدين في اليمامة.

وقد زعم مسيلمة أنّ له قرآناً يوحى إليه عن طريق ملك يسمى رحمٰن. وكان قرآنه فصولاً، وجملاً يترسل به في أمر أو حادثة تعرض له، فكان أقرب إلى سجع الكهان، وكان يقلد بكلامه أوزان، وتراكيب القرآن.

أمثلة على أقوال مسيلمة الكذاب قوله:

«الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب، وبيل، وخرطوم طويل». وقوله: «الشاة وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون».

وقوله: «يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء، ونصفك في الطين، لا الماء تكدّرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله: «والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات

(1) مصطفى صادق الرافعي: كتاب: إعجاز القرآن ـ ص 175.

لقماً، إهالة وسمناً... لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المضر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه...».

ثانياً: سجاح بنت الحارث بنت سويد التميمية:

كانت نصرانية من بني تغلب في شمال الجزيرة، وهم أخوالها، تنبأت في خلافة أبي بكر، وتبعها بعض رؤساء القبائل، وكانت تقول لهم: «إنما أنا امرأة من يربوع، وإن كان ملك، فالملك ملككم». وسارت بجيشها تريد قتال أبي بكر، وقد سمعت بقوة مسيلمة، فسارت إليه، وسألته عن وحيه، فقال: نعم. قالت: أسمعني، قال: أرأيت إن كنت حبلى، وفي بطنك حية تسعى، قالت: صدقت، وتزوجته. فقال مسيلمة: لنأكل بقومي، وقومها العرب. وقد ذكر ابن جرير الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»: أنه عندما عادت إلى قبيلتها سألها قومها: هل أصدقك شيئاً؟ قالت: لا. قالوا: إرجعي إليه، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق. فرجعت، فقالت له: أصدقني صداقاً. قال: من مؤذنك؟ قالت: شبث بن ربعي الرياحي. قال: علي به. فجاء، فقال: ناد في أصحابك، إن مسيلمة بن حبيب رسول الله... وقد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة العشاء الآخرة، وصلاة الفجر. وقد ذكر الكلبي أن مشيخة بني تميم حدثوهم أن عامة بني تميم لا يصلونها، وقالوا له: هذا حق لنا، ومهر كريمة منا لا نرده. وكان مسيلمة عندما سمع بقدوم سجاح إليه قد أمر بنصب سرادق كبير، وبفراش وثير مملوء بالطيب، فاستقبلها به، وحادثها بشجون الأحاديث، والشعر التي تثير غرائزها، إغراءً لها على تصديقه، ومن ثم زواجه منها. وكانت سجاح تزعم أنّه يوحى إليها، وتسجع بكلامها كقولها حين توجهت إلى مسيلمة: «عليكم باليمامة، ورفوا رفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة». وكان لها قرآن قليل ذكر منه صاحب الأغاني: «يا أيّها المؤمنون المتقون، لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يبغون».

وذكرت الروايات أن سجاح رجعت إلى الإسلام، ورجع قومها معها، وحسن إسلامها، وتوفيت، ودفنت بالبصرة جنوب العراق.

ثالثاً: ـ طلحة بن خويلد الأسدي:

قدم على النبي «ﷺ» سنة تسع للهجرة على رأس وفد أسد بن خزيمة، وأعلن إسلامه، وكان شجاعاً يعد بألف فارس، تنبأ بعد وفاة الرسول «ﷺ»، وزعم أن ملكاً اسمه ذو النون يأتيه بالوحي. ولم يكن له قرآن إلاّ قليل جداً، ومنه كما ذكره ياقوت في معجم البلدان: «إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً، فإن الرغوة فوق الصريح». وقد أرسل إليه أبو بكر الصديق جيشاً بقيادة خالد بن الوليد، وعندما التقى الجمعان تزمل طلحة بكساء، انتظاراً لنزول الوحي عليه، ولما أطال سأله عيينة بن حصن ـ وكان معه في سبعمائة من بني فزارة ـ هل أتاك بعد؟!! فقال طلحة من تحت الكساء: لا والله. ما جاء بعد. فأعاد إليه مرتين، وهو يقول: لا. قال عيينة: لقد تركك أحوج ما كنت إليه. فقال طلحة. قاتلوا عن أحسابكم، فأما دين فلا دين.

وقد ذكر ابن الأثير في كتابه. «أسد الغابة» أن عيينة قال له: تباً لك آخر الدهر ثم جذبه جذبة جاش منها، وقال: قبح الله هذا، ومن تبعوه، فجلس طلحة، فقال عيينة: ما قيل لك؟!! قال طلحة: إن لك رحى كرحاه، وأمراً لا تنساه، فقال عيينة: قد علم الله أن لك أمراً لن تنساه. يا بني فزارة، هذا كذاب، ما بورك لنا وله في ما يطلب. وقد انهزم طلحة، وهرب إلى الشام، ولكنه أسلم، وحسن إسلامه، وأبلى بلاءً حسناً في القادسية.

رابعاً: الأسود العنسي:

وهو عبهلة بن كعب. يلقب بذي الخمار، لأنّه يدّعي أنّه يأتيه ملك

اسمه «ذو خمار». وكان فصيحاً بليغاً، معروف عنه بالكهانة، والسجع، والخطابة، والشعر، والنسب. تنبأ على عهد النبي «ﷺ»، ومعاذ بن جبل والياً على اليمن، وقد قتل الوالي المسلم، وتزوج من زوجته فيروز، وكان له حمار علّمه أن يأتي بحركات غريبة حتى يوهم الناس بصدق نبوته، وكان جباراً شقياً، بسط سلطانه على اليمن، وجنوب الجزيرة إلى أن قتله عم زوجته فيروز بتدبير منها، وقتل قبل وفاة النبي «ﷺ» بيوم وليلة، ورجع الحكم إلى الإسلام.

الشبهة الرابعة:

إنّ الرسول «ﷺ» كان يتمتع بوحي نفسي، وما القرآن إلا من استنباطه العقلي، وإدراكه الوجداني عبّر عنه محمّد بأسلوبه، وبيانه، ولغته، ومكنه من ذلك ذكاؤه، وفراسته، وقوة فطنته، وعمق تأملاته، ورفاهة أحاسيسه استخدمها كلها في تلفيق الأخبار، وسرد الغيبيات، وتبيان الحقائق العلمية.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا تفنيد هذه الشبهة بعدة أمور هي:

أولاً: إن الرسول «ﷺ» لم يعرف عنه أنّه كان يتمتع بالوحي النفسي، وقومه يعرفونه حق المعرفة، والقرآن الكريم يتعدى، ويتجاوز كل ما نسبوه إلى الرسول ﷺ من صفات، وخوارق، بل يتعدى كل استنباط عقلي، أو إدراك وجداني.

وكذلك لم يعرف عن النبي «ﷺ» قبل البعثة أنه أُوتي خوارق الأخبار، والغيبيات، والعلوم، كما أنّه لم يحدّث عن أساطير الأولين، وهو المشهور بصدق الحديث الصادق الأمين.

ثانياً: فالبنسبة لأخبار الأمم، وقصص الأنبياء مع أقوامهم، فإن ما جاء به القرآن فوق طاقة العقل البشري، ومهما أوتي من ذكاء، أو فطنة، أو فراسة؛ مما يثبت أن تلك الأخبار، والقصص إنما وردت، وبكل يقين للنبي «ﷺ» عن طريق التلقي، والتلقين، والإيحاء ممن يعلم الغيب. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ سورة هود آية 49.

وقد ربط الله تعالى بين التنزيل القرآني، وسرد القصص على مسامع النبي «ﷺ» مصداق قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ سورة يوسف آية 3.

وقد تناول القرآن قصص الأنبياء، والرسل، وأخبار الماضين بتفصيل لحقائقها، وتبيين لوقائعها بشكل واضح تعجز عنه العقول، والتنبؤات، وبشكل يخرس الألسنة، ويسكت الأقلام، ويفند الافتراءات؛ فالقرآن يضرب في أغوار التواريخ، ويخبر عن أقدم الأخبار في خلق الأمم مما يتجاوز حدود إعمال الفكر بحيث يستحيل على النبي «ﷺ» أو غيره أن يعرفها، أو يطلع على أخبارها. والقرآن نفى ذلك عن الرسول «ص».

فهذه آيات قرآنية تفصل أحوال موسى، وفي أخباره مع أهل مدين. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾سورة القصص آية 44- 45.

وهذه آيات قرآنية تخبر عن كفالة زكريا لمريم، وولادة المسيح منها كلمة من الله تعالى. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ

﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ سورة آل عمران آيات 44 - 45.

وهذه آيات قرآنية تسهب في سرد قصة يوسف مع إخوته. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ سورة يوسف آية 102.

وقد تناولت الحكمة الربانية في سرد القصص، ورواية الأخبار بين جميع الأنبياء، والرسل أيضاً. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ سورة يوسف آية 109. وقد أصّل القرآن الكريم عظمة الاعتبار من سرد القصص، وشواهد تثبيت معالم الألوهية لهذا القرآن. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة يوسف آية 111.

وقد تناول الإعجاز الإلهي في سرده للقصص أرقاماً حسابية وحقائق عددية تثبت ألوهية هذا القرآن، وتنفي عنه صفة الوحي النفسي البشري.

القرآن يذكر مدة مكث نوح ـ عليه السلام ـ في قومه، وهي: ألف سنة إلاّ خمسين عاماً.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ سورة العنكبوت آية 14.

والقرآن يذكر مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم، وهي: ثلاث مائة وتسع سنوات. قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ سورة الكهف آية 25.

ثالثاً: وبالنسبة للغيبيات المستقبلية: فقد أعجزهم القرآن، وأثبت أن ذلك ليس في مقدور البشر حتى والأنبياء منهم، فقد أخبر القرآن غيبيات كثير من الأمور، والحوادث التي ستقع مستقبلاً، ومنها:

أ - انهزام المشركين في غزوة بدر، مصداق قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ سورة القمر آية 45. فسورة القمر مكية، وانهزام المشركين حصل في بدر في المدينة بعد هجرة النبي «ﷺ» إليها بسنتين.

ب - غيبية انتصار الروم على الفرس في بضع سنين مصداق قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الروم آيات 1 - 4.

ج - غيبية أداء عُمرة القضاء، ودخول المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين مصداق قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ سورة الفتح آية 27.

د - غيبية انشقاق القمر: مصداق قوله تعالى في سورة القمر: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ الآية 1 - 2.

رابعاً: وبالنسبة للحقائق العلمية فما ورد في القرآن يؤكد ألوهية التنزيل القرآني. والجميع على علم بأميّة محمد «ﷺ»، ولا شأن له بحقائق العلم الغيبية، والتي أوردها القرآن؛ والتي لا يزال العلم يكتشفها، ويؤكد حقيقتها كآيات ربانية تنفي عن النبي «ﷺ» قرآنية الاستحداث الغيبي، أو الافتراء العلمي، أو الإيحاء النفسي كما يزعمون.

أمثلة على هذه الحقائق:

الأولى: حقيقة خلق الإنسان من طين. مصداق قوله تعالى في سورة ص: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ الآية 71.

الثانية: حقيقة خلق الإنسان أطواراً،* مصداق قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ

خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الآيتان 13 - 14. ومصداق قوله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الآية 14.

الثالثة: حقيقة خلق كل شيء من ماء، مصداق قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۚ﴾ الآية 30.

الرابعة: حقيقة دوران النجوم، والكواكب في أفلاكها. مصداق قوله تعالى في سورة يس: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الآية 40.

ولنا القول: بأن شبهة تمتع الرسول «ﷺ» بالوحي النفسي لا تقوم على دليل، وتفقد كل مسوغ. بل هي في حد ذاتها من قبيل الهذيان النفسي الذي انتاب نفراً من الضعفاء الحاقدين من أهل الكفر الذين لم يستطيعوا بأي حال من الأحوال أن ينكروا نبوة محمد «ﷺ»، أو الوحي الإلٰهي بالقرآن له مصداق قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ﴾ الآية 203. والرسول «ﷺ» بشر من الناس اختصه الله بالنبوة، فلم العجب، والأنبياء والرسل كلهم من البشر!! قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية 110. وإنّه «ﷺ» بشر لا يملك لنفسه نفعاً، ولا ضراً، ولا يعلم الغيب إلاّ بإيحاء من الله تعالى مصداق قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ الآية 188.

وإنه «ﷺ» يشهد على نفسه بالبشرية مصداق ما رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن: «سمع رسول الله «ﷺ» خصومة بباب حجرته فخرج إليهم، فقال: إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنّه صدق، فأقضي له بذلك؛ فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها، أو يتركها».

ولعل من المفيد أن نختم الرد على هذه الشبهة بما قاله المفكر المسلم محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم» حيث يقول: «هذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاؤونا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنما هو الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته، ولا في تفصيله، فقد صوروا النبي «ﷺ» رجلاً ذا خيال واسع، وإحساس عميق، فهو إذن شاعر، ثم زادوا، فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه، حيث يخيل إليه أنّه يرى ويسمع شخصاً يكلمه. وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجدانه، فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام. على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة الوحي النفسي حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلية؛ فقالوا لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذن قد علمه بشر. فأي جديد ترى في هذا كله؟!! أليس كله حديثاً معاداً يضاهون به قول جهال قريش!! وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة متسخة، بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى مصداق قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية 118. وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنّه كان صادقاً أميناً، وإنّه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلٰهي؛ لأن أحلامه القوية صورتها له وحياً إلٰهياً، فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم، حيث يقول في سورة الأنعام: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الآية 33. فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه، فما عذره في دعواه أنّه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا، بينما هو سمعها بزعمهم من قبل. فليقولوا إذن: إنّه افتراه، ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل. وهم يدعون التعقل، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون».

الباب الثاني

شبهات حول جمع القرآن، وتفنيدها [1]

الشبهة الأولى:

إن في المصحف ما ليس بقرآن. ويمثلون على ذلك بفاتحة الكتاب والمعوذتين؛ وحجتهم في ذلك أنّ الصحابي عبد الله بن مسعود أسقطها من مصحفه، ومن ثم أنكرها كقرآن.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: عدم صحة النقل. فإن ما نسب إلى ابن مسعود غير صحيح، بل ومخالف لإجماع الأمّة. ولا يعقل، بل يستحيل أن يحصل إنكار مثل هذا من صحابي جليل كعبد الله بن مسعود صاحب رسول الله «ﷺ» الذي كان لا يفارقه، وشهد كثيراً من نزول الوحي، وهو

(1) أنظر في مثل هذه الشبهة: دكتور غازي عنايه ـ كتاب: هدى الفرقان في علوم القرآن. جـ ١ ـ ص 291 وما بعدها.

الذي، عاصر نزول الوحي في معظمه، وهو الأعلم من غيره بما هو قرآن، وما هو ليس بقرآن. وهو الصحابي الجليل الذي عرف عنه تقواه، وشدة غيرته على دينه، وعلى قرآنه؛ وبذلك فالعقلانية السليمة تقتضي بطلان ما نقل عن ابن مسعود في هذا الشأن.

قال الإمام النووي في «شرح المهذب»: «أجمع المسلمون على أنّ المعوذتين، والفاتحة من القرآن، وأنّ من جحد شيئاً منها كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح».

وقال الإمام ابن حزم في كتاب «القدح المعلى»: «هذا كذب عن ابن مسعود، وموضوع».

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر: «أنّه ﷺ قرأهما في الصلاة».

وأخرج ابن حِبّان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً: «فإن استطعت ألا تفوتك قراءتهما في صلاة، فافعل».

وأخرج أحمد بن حنبل من طريق أبي العلاء بن الشخير عن رجل من الصحابة: «بأنّ النبي «ﷺ» أقرأنا المعوذتين، وقال له: إذا أنت صليت، فأقرأ بهما».

وقد صح عند العلماء عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم، وفيها المعوِّذتان والفاتحة. وكذلك قرأ المعوِّذَتيْن حمزة، والكسائي، وجميع القُراء السبعة والعشرة، وغيرهم.

ثانياً: احتمال أن إنكار ابن مسعود كان قبل علمه بأنهما من القرآن. وبعد أن علم أنهما من القرآن آمن بهما، وأخذ بهما، وتمسك بهما. قال بعض العلماء: «يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوِّذَتيْن من النبي «ﷺ». ولم تتواتر عنده، فتوقف في أمرهما، وإنما لم ينكر ذلك عليه؛ لأنّه بصدد البحث، والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر».

ثالثاً: عدم صحة النقل عن ابن مسعود بأنّه أنكر قرآنية الفاتحة. وحاشا أن تكون الفاتحة قد خفيت عليه، وهي أم القرآن، والسبع المثاني، ومثلها مستحيل أن يخفى على ابن مسعود. وكذلك لو صح أنّه أسقطها من مصحفه، فلا يعني هذا أنّه ينكرها.

قال ابن قتيبة ما نصه: «وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه، فليس لظنه أنّها ليست من القرآن (معاذ الله)، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب، وجمع بين اللوحين، مخافة الشك، والنسيان، والزيادة، والنقصان».

رابعاً: إن إنكار ابن مسعود لقرآنية الفاتحة، والمُعَوِّذَتَيْن، لو صح، فإنّ هذا لا ينقض قرآنيتهما، وتواترهما، ولا يرفع العلم اليقيني بقرآنية ما صح قرآنيته؛ وليس من شروط تواتر القرآن، والعلم اليقيني بثبوته ألا يخالفه مخالف حتى ولو كان من الصحابة، وإلاّ لأمكن هدم كل تواتر، وإبطال كل علم يقيني قام عليه.

قال ابن قتيبة في «مشكل القرآن»: «ظن ابن مسعود أنّ المعوِّذَتَيْن ليستا من القرآن؛ لأنه رأى النبي «ﷺ» يعوذ بهما الحسن، والحسين، فأقام على ظنه، ولا نقول إنّه أصاب في ذلك، وأخطأ المهاجرون، والأنصار».

الشبهة الثانية:

إنّ في المصحف آية هي من تأليف، وكلام أبي بكر، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ سورة آل عمران آية 144. وحجتهم في ذلك: أنّه عندما توفي الرسول «ﷺ» قال عمر بن الخطاب: «إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله «ﷺ» توفي،

وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: مات. والله ليرجعن رسول الله «ﷺ» كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال، وأرجلهم، زعموا أنّ رسول الله «ﷺ» مات». قالوا: فقام أبو بكر، ورد على عمر. فقال: على رسلك يا عمر، أنصت. فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: «أيّها الناس، من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ سورة آل عمران آية 144 وزعموا أنّها من كلام أبي بكر رد بها على عمر عندما أنكر وفاة الرسول «ﷺ».

تفنيد هذه الشبهة:

إن مجرد تلاوة أبي بكر لهذه الآية في رده على عمر، وتهدئة الناس لا يعني مطلقاً، وبهذه السذاجة، أنّها من كلام أبي بكر تفوّه بها، أو قالها، وذلك من جهتين:

الأولى: إنّ جميع الصحابة، ومنهم أبو بكر يحفظونها، ويعلمون أنّها من القرآن، وأنّها كلام الله تعالى، وترتيبها في سورة آل عمران، ونزلت قبل وفاة الرسول «ﷺ» ببضع سنين.

الثانية: أنّ الكثير الكثير من الصحابة يعلمون سبب نزولها، ومكان، وتاريخ نزولها. وقد ورد في الروايات الصحيحة أن الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قد نزلت في غزوة أحد، عتاباً من الله تعالى على الصحابة، لفرارهم من القتال. حيث إنّه عندما أصيب المسلمون في غزوة أُحُد، وكسرت رباعية الرسول «ﷺ»، وشج وجهه، وجحشت ركبته، وشاع بين المقاتلة، أن رسول الله ﷺ قد قتل؛ هنالك قال بعض المسلمين: ليت لنا رسول إلى عبد الله بن أبي بن سلول، فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وبعضهم جلسوا. وألقوا بأيديهم، وقال أناس من

المنافقين: إن كان محمد قد قتل، فالحقوا بدينكم الأوّل. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: إن كان محمد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله «ﷺ»؛ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: «اللهم إنّي أعتذر إليك مما قال هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما قال هؤلاء ـ يعني المنافقين ـ ثم شد بسيفه، فقاتل حتى قتل. وروي أنّ أوّل من عرف رسول الله «ﷺ» هو: كعب بن مالك فقد ورد أنّه قال: عرفت عينيه تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه ينافحون عنه. ثم لام النبي «ﷺ» أصحابه على الفرار، فقالوا: يا رسول الله، فديناك بآبائنا، وأبنائنا، أتانا الخبر أنّك قتلت، فرعبت قلوبنا، فولّينا مدبرين. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى آخر الآية.

الشبهة الثالثة:

إن في المصحف آية هي من تأليف وكلام عمر بن الخطاب، وهذه الآية ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾. وحجتهم في ذلك: أن هذه من كلام عمر بن الخطاب خاطب بها الرسول «ﷺ»، وعرض عليه أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

تفنيد هذه الشبهة:

إن هذه الشبهة لا دليل لها، ولا سند إليها. ويرد عليهما ما رد على شبهة أبي بكر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالمسلمون، وخاصة الصحابة يعلمون أنّها من كلام الله، ويعرفون سبب نزولها، ومكان، وتاريخ نزولها، حيث قال عمر للنبي «ﷺ»: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى» فنزلت الآية، قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ

﴿إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ سورة البقرة آية 125. والفرق واضح بين لفظ عمر، ولفظ الآية. فالآية الكريمة جاءت بلفظ الأمر، وعلى سبيل الوجوب، أما كلام عمر فجاء بصيغة الماضي مقروناً بالتمني، والذي عبّر عنه بالحرف لو.

الشبهة الرابعة:

إنّ الخلفاء الراشدين الثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعثمان حرّفوا القرآن وغيروا، وبدلوا فيه، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره، وزعم بهذه الشبهة غلاة الشيعة، وقد استشهدوا في تأييد اتهاماتهم بأمور كثيرة منها:

1 ـ ما رووه عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله: «إنّ القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبع عشرة ألف آية».

2 ـ ما رووه، وما رواه محمد بن نصر عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله: «أنّه كان في سورة «لم يكن» اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم، وأسماء آبائهم».

3 ـ ما رواه محمد بن جهم الهلالي وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ: «أمّة هي أربى من أمة» في سورة النحل ليس كلام الله، بل هو محرف عن موضعه، وحقيقة المنزل: «أئمة هي أزكى من أئمتكم».

4 ـ روى بعض غلاة الشيعة أنّ هناك سورة تسمى سورة الولاية كانت في القرآن ثم أسقطت بتمامها.

5 ـ روى بعضهم: أنّ سورة الأحزاب كانت أكثر، ومعظمها سقط إذ كانت طويلة على مثل سورة الأنعام، وأسقطوا منها فضائل أهل البيت.

6 ـ ادعى بعضهم أيضاً: أن الصحابة أسقطوا لفظ «ويلك» من قبل، وأول آية: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

7 ـ ادعى بعضهم أيضاً أن الصحابة أسقطوا لفظ «عن ولاية علي» من بعد الآية: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

8 ـ ادعى بعضهم أيضاً أنّ الصحابة أسقطوا لفظ «بعلي بن أبي طالب» من بعد ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

9 ـ ادعى بعضهم أيضاً: أنّ الصحابة أسقطوا لفظ آل محمد من بعد: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا نقض هذه الشبهة من خمسة وجوه:

الأول: إن هذه اتهامات لا دليل لها، ولا سند إليها، اتهم بها الصحابة «رضوان الله عليهم» زوراً وبهتاناً، وما تنمّ عنه إلاّ أن تكون مجرد حقد، وضغينة، ودسائس، قصدوا بها تشويه أخلاقية، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، وسنتهم، والتي قال فيها الرسول «ﷺ» «عضوا عليها بالنّواجذ».

الثاني: إن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأوا من هذه الاتهامات.

قال الطبرسي، وهو من علماء الشيعة المفسرين، والمرموقين في كتابه «مجمع البيان» ما نصه: «أما الزيادة فيه ـ أي في القرآن ـ فجمع على بطلانها، وأما النقصان فقد روي عن قوم من أصحابنا، وقوم من الحشوية، والصحيح خلافه. وهو الذي نصره المرتضى، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء».

وقال الطبرسي أيضاً في تفسيره «مجمع البيان»: «أما زيادة في القرآن، فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فهو أشد استحالة. وإن العلم بصحة نقل القرآن، كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة. فإن العناية اشتدت،

والدواعي توفرت على نقله، وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيما ذكرناه؛ لأن القرآن مفخرة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه، وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه، وقراءته، وحروفه، وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيراً، أو منقوصاً مع العناية الصادقة، والضبط الشديد».

الثالث: إنّ التواتر قد قام، والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتيْ المصحف هو كلام الله، هو القرآن من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تغيير، ولا تبديل. والإجماع سبيل من سبل الحق قويم: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

الرابع: إنّ الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ وهو الذي يزعمون أنّهم يتشيعون له صح النقل عنه أنّه حبذ جمع القرآن، بل وأثنى على جامعيه: أبي بكر، وعثمان، فقد قال علي عن أبي بكر: «أعظم النّاس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أوّل من جمع كتاب الله». وقال عن عثمان ما نصه: «يا معشر الناس، اتقوا الله، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف، فوالله، ما حرّقها إلاّ عن ملأ منا أصحاب رسول الله «ﷺ»». وقوله أيضاً: «لو كنت الوالي وقت عثمان، لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان».

الخامس: لو كانت ادعاءاتهم صحيحة، لقام علي بن أبي طالب بعد أن استلم الخلافة، وصحح ما حرفه الخلفاء من قبله، ولكن هل فعل شيئاً من هذا؟ هل اتهم أحداً منهم أنّه حرف، أو غير، أو أسقط شيئاً من القرآن؟ أبداً أبداً.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الصافات آيات 180 - 182.

الشبهة الخامسة:-

إنّ هناك قرآناً سقط من المصحف. ويمثلون على ذلك بكلمة «متتابعات» الواردة في مصحفيْ عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب «رضوان الله عليهما».

أ - ففي مصحف ابن مسعود وردت كلمة متتابعات في آخر آية اليمين، وهي قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ سورة المائدة آية 89. وفي مصحف ابن مسعود بزيادة. «متتابعات».

ب - وفي مصحف أبي بن كعب وردت هذه الكلمة متتابعات في آية الصوم، وهي قوله تعالى. ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ سورة البقرة آية 184. وفي مصحف أبي بن كعب بزيادة: «متتابعات».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ هذا مخالف لما ثبت نقله بالتواتر من القرآن. فإن ورود كلمة متتابعات في مصحف ابن مسعود غير متواتر، ومنقول بالشهرة. وإن ما نقل عن مصحف أبي بن كعب منقول بخبر الآحاد، وليس بالتواتر.

ثانياً: إن ورود كلمة متتابعات في مصحفيْ ابن مسعود، وأبي بن كعب هي من قبيل التفسير، والإيضاح، والشرح، والتفصيل للجمل باتفاق جميع العلماء.

ثالثاً: عدم صحة الروايات المنسوبة إلى الصحابييْن الجليلين.

فلم يرد أبداً أنهما ادعيا أن كلمة متتابعات الموجودة في مصحفيهما هي قرآن، ولم يثبت أنهما قصدا بنيتهما أن هذه الكلمة من القرآن.

رابعاً: إنّ الادعاء بأن كلمة متتابعات من القرآن هو في حد ذاته مخالف لإجماع الأمة. ولا يعقل أبداً أن ينفرد هذان الصحابيان بقرآن مثل هذا يدعيانه خروجاً على إجماع الأمة والصحابة.

الشبهة السادسة:

إن الصحابي أبيّ بن كعب أسقط من المصحف دعاءً كان يُتلى. وكان يتلوه، وكان يسميه سورة الخلع والحفد، وهو: «اللهم إنّا نستعينك، ونستهديك، ونستغفرك، ونتوب إليك، ونؤمن بك، ونتوكل عليك، ونثني عليك الخير كله، نشكرك، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إيّاك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إنّ عذابك الجد بالكفار ملحق».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: عدم صحة ما نقل عن أبيّ بن كعب أنّه أثبت هذا الدعاء في مصحفه على أنّه قرآن. وكونه أنّه أثبته في مصحفه لا يعني أنّه اعتبره قرآناً، ولم تقم الحجة عليه أنّه قرآن، ولو كان ذلك لكان أبي بن كعب أعلم به من غيره.

قال صاحب «الانتصار» ما نصه: «إن كلام القنوت المروي عن أبي بن كعب أثبته في مصحفه، ولم تقم الحجة بأنّه قرآن منزل، بل هو ضرب من الدعاء، وأنّه لو كان قرآناً لنقل إلينا نقل القرآن، وحصل العلم بصحته».

ثانياً: من المحتمل أن يكون دعاء القنوت كلاماً من القرآن منزلاً، ثم نسخ، وأبيح الدعاء به، وخلط بما ليس بقرآن. أما ما روي أنّه أثبته في مصحفه كقرآن، فهذا لا دليل له.

قال صاحب «الانتصار» ما نصه: «ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآناً منزلاً، ثم نسخ، وأبيح الدعاء به، وخلط بما ليس بقرآن، ولم يصح ذلك عنه، إنّ ما روي عنه أنّه أثبته في مصحفه».

ثالثاً: إن الادعاء بأن أبي بن كعب أثبت دعاء القنوت في مصحفه على أنه قرآن ادعاء باطل يعوزه الدليل، وتنقصه الحجة، ويفتقد إلى السند، فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أعلم من غيرهم بالقرآن، وما أثبتوه أجمعوا عليه حفظاً، وتلاوة، وكتابة، وتواتراً فليس من العقلانية السليمة بشيء الاعتقاد أنّ صحابياً مثل أبي بن كعب قد خرج عن هذا، وانفرد دون الصحابة بالادعاء بأن دعاء القنوت قرآن، وحاشا أن يفعل ذلك صحابي جليل هو أبي بن كعب.

الشبهة السابعة:

إن الرسول «ﷺ» قد أسقط عمداً، أو أنسي آيات من القرآن الكريم. وحجتهم في ذلك حديث شريف، وآية قرآنية. أمّا الحديث الشريف فهو ما رواه الشيخان في صحيحيهما.

أ ـ روى البخاري في صحيحه عن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمع النبي «ﷺ» رجلاً يقرأ في المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا»، وزاد في رواية أخرى، وقال: «أسقطتهن من سورة كذا وكذا».

ب ـ روى مسلم في صحيحه عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي «ﷺ» سمع رجلاً يقرأ من الليل، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطها من سورة كذا وكذا».

جـ - قال النووي في كتابه «التبيان في آداب حملة القرآن» ما نصه «وثبت في الصحيحين أيضاً عن عائشة «رضي الله عنها» أن النبي «ﷺ» سمع رجلاً يقرأ، فقال: «رحمه الله، لقد أذكرني آية كنت أسقطتها». وفي رواية في الصحيح: «كنت أنسيتها».

وأمّا الآية القرآنية فهي قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ سورة الأعلى الآيات 6-7. فالاستثناء الواقع فيه يدل على أن الرسول «ﷺ» قد أسقط عمداً، أو أنسي آيات لم يتفق له من يذكره إياها.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا معالجة هذه الشبهة من حيث تفسير الحديث والآية.

أولاً: من حيث الحديث:

أ - إنّ هذا الحديث لا يصلح حجة، ولا يستقيم سنداً في تأييد هذه الشبهة، وإنّما هو حجة عليها. فإن كلمة «أسقطتهن» التي وردت في الحديث معناها الإسقاط نسياناً، وليس عمداً. وما يقوي معنى النسيان، ويؤكده هو مرادفها في نفس الحديث، وهي كلمة: «أنسيتها».

ب - إن العقلانية السليمة، وشواهد الإيمان الحقة تقتضي استحالة أن يغير الرسول «ﷺ» أو يبدل في القرآن شيئاً إلاّ إذا أمره الله بذلك، أو كان بإيحاء من الله تعالى كالنسخ، وغيره وإلا لما بلغ الرسول «ﷺ» الرسالة، ولما أدى الأمانة، والله تعالى يشهد على أمانة رسوله، إذ يقول على لسانه: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ يونس آية 15.

جـ - إنّ نسيان الرسول «ﷺ» الوارد في الحديث ليس نسيان تبليغ، وإنما

هو نسيان غفلة، وغيبة، وتذكر. وهذا ما يتعرض إليه البشر عادة، والرسول (ﷺ) من البشر ينسى، ويغفل، ويغيب عليه الأمر أحياناً. فروايات الحديث لا تعني أبداً أن الآيات القرآنية التي سمعها الرسول (ﷺ) من الرجل الذي كان يقرأها، وهو عباد بن بشار لا تعني أنّها قد انمحت من ذهن الرسول (ﷺ) وإنما غاية ما عنته: أن تلك الآيات كانت غائبة عن الرسول (ﷺ)، وكان لا يتذكرها في تلك اللحظة، ثم ذكرها، وافتكرها بقراءة عباد بن بشار. ومن المعلوم أنّ غيبة الشيء، وغفلة الذهن غير محوه. والدليل على ذلك أنّ الإنسان بطبعه ـ والرسول إنسان ـ قد يغيب عنه النص أحياناً إذا اشتغل الذهن بغيره، وهو يدرك في نفس الوقت أن النص مخزون في ذهنه سيستحضره إذا ما نبه إليه، وسيفتكره، وسيتذكره إذا ما ذكر إليه. أمّا النسيان التام المرادف لإيحاء الشيء من الذاكرة، فهذا مستحيل على الرسول (ﷺ)، وخاصة فيما يتعلق بمهام التبليغ للرسالة، والبيان للقرآن. فنسيان الرسول (ﷺ) لم يكن نسيان تبليغ، أو نسيان بيان للقرآن أبداً، فهو قد أبلغ ما نزل عليه من قرآن، وأطاع أمر الله في التبليغ، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ سورة المائدة آية 67.

والله تعالى قد تكفل ببيانه وتبليغه للناس على لسان رسوله. فهو يقول: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾سورة القيامة الآيات 16 - 19.

وما دامت العناية الإلٰهية قد تكفلت ببيان القرآن، وتبليغه للناس على لسان نبيه، فكيف يعقل أن يكون الرسول (ﷺ) قد نسي شيئاً من القرآن، أو أسقطه، ولم يبلغه للناس!!. ولا شك أنّ نسيان الرسول (ﷺ)، والذي ورد في الحديث لم يك نسيان تبليغ، أو بيان، أو تعليم، وإنما كان نسيان غفلة، وغياباً ذهنياً، وعدم تذكر ليس إلاّ.

وقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان»: «وقال الجمهور: جاز النسيان عليه فيما ليس طريقة البلاغ، والتعليم، بشرط ألا يقر عليه، لا بد أن يذكره، وأما غيره فلا يجوز قبل التبليغ، وأما نسيان ما بلغه كما في الحديث فهو جائز بلا خلاف»[1].

د - إن نسيان الرسول «ﷺ» الوارد في الحديث ليس نسيان ضياع، أو فقد، وليس إسقاطاً للقرآن الكريم. والدليل على ذلك: أنّ ما نسيه الرسول «ﷺ» من آيات قرآنية كان قد حفظها، وبلغها لأصحابه، وبينها لهم، فحفظوها ووعوها، وحفظوها في صدورهم، وعقولهم، وقلوبهم؛ وكتبوها في سطورهم، وفي كتبهم، وفي مصاحفهم. وليس هناك ما يدل على أنّهم لم يبلغوها، أو لم يحفظوها، أو نسوها حتى يخاف عليها من الضياع، والفقدان. والقرآن كله بآياته، والتي بلغت حوالي ستة آلاف ومائتي آية وأكثر، تعهدته العناية الإلٰهية بالحفظ من الضياع مصداق قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ سورة الحجر آية 9.

هـ - إن نسيان الرسول «ﷺ» الوارد في الحديث إنّما هو بمعنى غياب التذكر، والذي ينتاب الإنسان من بعد غفلة، ولكن سرعان ما يضمحل الغياب، ويصفو التذكر. فقد روى أبو منصور الأرجاني في كتاب «فضائل القرآن» أن النبي «ﷺ» كان يقول عند ختم القرآن: «اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته أناء الليل والنهار، واجعله حجة لي يا رب العالمين».

ولنا القول: بأن النسيان الوارد في الحديث لا يعني الإسقاط، كما لا يعني نسيان التبليغ. وإنما هو نسيان غفلة، وغيبة، وعدم تذكر من

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان. ص 267.

بعد حفظ، ومن بعد وعي، ومن بعد تبليغ. وهذه صفات بشرية، والرسول بشر، يصح منه النسيان، ويصح أن يغفل عما حفظ من القرآن سيتذكره فيما بعد؛ ولو حصل منه شيء من ذلك النسيان، أو الغفلة، فهذا لا يعني إسقاطاً، ولا امحاءً، لأن القرآن سبق أن حفظ، ودون، وجمع من قبل الرسول «ﷺ» وصحابته.

ثانياً: وأما بالنسبة للآية القرآنية التي استندوا إليها في تأييد شبهتهم: بأن الرسول «ﷺ» أسقط عمداً، أو أنسي شيئاً من القرآن، فهي قوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ سورة الأعلى آية 6 - 7.

وأصحاب هذه الشبهة يرون أن ما جاء في الآية يدل بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً «ﷺ» قد أسقط عمداً، أو أنسي آيات لم يتوفر له من يذكره إياها.

ويرد عليهم: بأن الاستثناء الوارد في الآية بجملة: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ معناه: أن عدم نسيان الرسول «ﷺ» هو بفضل من الله تعالى، ومشيئته، ولا يعني النسيان بذاته، قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه، والمشيئة لم تقع، والنسيان لم يقع، وبالقاعدة: فإن عدم حصول المعلق عليه، «وهو مشيئة الله» يستلزم عدم حصول المعلق، وهو النسيان. ودليل ذلك أن العناية الإلٰهية، والمشيئة الربانية، اقتضتا جمع القرآن، ومن ثم بيانه، وتبليغه على لسان الرسول «ﷺ»، وهذا يتنافى مع وقوع النسيان مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾. ومن هنا يبقى الاستثناء الوارد في الآية استثناءً صورياً، وليس حقيقياً، فالله تعالى وعد رسوله أن يقرئه القرآن فلا ينساه، وعلى وجه التأييد.

قال الإمام محمد عبده في تفسيره للاستثناء الوارد في الآية ما نصه: «ولما كان الوعد على وجه التأييد، واللزوم، ربما يوهم أن قدرة الله

لا تسع غيره، وأنّ ذلك خارج عن إرادته «جل شأنه» جاء بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، فإنّه إذا أراد أن ينسيك شيئاً، لم يعجزه ذلك، فالقصد هو نفي النسيان رأساً. وقالوا: إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه: «أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله» لا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أنّ ذلك التأييد والتخليد إنّما هو بكرم من الله وفضل منه لا بإيجاب وإلزام عليه، ولو أراد عكس ذلك، أي أن يأخذ ما وهب، لم يمنعه من ذلك مانع»(1).

الشبهة الثامنة: (2)

يقولون: روي عن هشام بن عروة عن أبيه أنّه قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وعن قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وعن قوله تعالى: «إنَّ الذين آمنوا والذينَ هَادوا والنَّصارى والصَّابِئونَ». فقالت: يا بن أخي، هذا من عمل الكُتَّاب، قد أخطَأوا في الكتاب.

قال السيوطي في هذا الخبر: إسناده صحيح على شرط الشيخين. ويقولون أيضاً: روي عن أبي خَلفٍ مولى بني جُمَح أنّه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة فقال: جئت أسألك عن آية في كتاب الله؛ كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أيَّةُ آيةٍ؟ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أو

---

(1) لقد أفاض وأجاد شيخنا محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» مناقشة مثل هذه الشبه، وتفنيدها.

(2) محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان في علوم القرآن. الجزء الأول ـ ص 393 - 398 فيقول حرفياً.

(الذين يأتون ما آتوا). قالت: أيُّهما أحبُّ إلَيْكَ؟ قلتُ: والذي نفسي بيَدِهِ، لإحدَاهُما أحبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيا جميعاً. قالتْ: أيُّهُمَا؟ قلتُ: (والذين يأتون ما آتوا) فقالت: أشهد أنَّ رسولَ الله ﷺ كذلك كان يَقْرَؤُها، وكذلك أُنزلت، ولكن الهجاء حرف.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: بأن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحاً، فإنّها مخالفة للمتواتر القاطع، ومعارض القاطع ساقط مردود، فلا يلتفت إليها، ولا يعمل بها.

ثانياً: أنّه قد نص في كتاب «إتحاف فضلاء البشر»، على أن لفظ ﴿هَٰذَٰنِ﴾ قد رسم في المصحف من غير ألف ولا ياء، ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها، كما شرحنا ذلك سابقاً في فوائد رسم المصحف. وإذن فلا يعقل أن يقال أخطأ الكاتب، فإن الكاتب لم يكتب ألفاً، ولا ياءً. ولو كان هناك خطأ تعتقده عائشة ما كانت تنسبه للكاتب، بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إن)، وبالألف لفظاً في (هذان). ولم ينقل عن عائشة، ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بما ذكر؛ وكيف تنكر هذه القراءة وهي متواترة مجمع عليها؟، بل هي قراءة الأكثر، ولها وجه فصيح في العربية لا يخفى على مثل عائشة. ذلك هو إلزام المثنى الألف في جميع حالاته. وجاء منه قول الشاعر العربي:

«واهــاً لسلمــى ثــم واهــا واهــاً ... يــا ليــتَ عيْنــاهَــا لنــا وفــاهَــا
ومــوضــعَ الخلخــال مــن رجــلاهَــا ... بثمــن يَــرْضَــى بــه أبــاهَــا
إنَّ أبـــاهـــا وأبَـــا أبـــاهَـــا ... قــد بلغَــا فــي المجــدِ غــايتــاهَــا»

فبعيدٌ عن عائشةَ أن تنكر تلك القراءة، ولو جاء بها وحدها رسم المصحف.

ثالثاً: إن ما نسب إلى عائشة «رضي الله عنها» من تخطئة رسم

المصحف في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالياء، مردود بما ذكره أبو حيان في البحر إذ يقول ما نصه: «وذكر عن عائشة رضي الله عنها، عن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف. ولا يصح ذلك عنهما؛ لأنها عربيان فصيحان، وقطع النعوت مشهور في لسان العرب. وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه، وغيره. وقال الزمخشري: «لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف. وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب «يريد كتاب سيبويه» ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان؛ وخفي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، كانوا أبعدَ همةً في الغيرة على الإسلام، وذبِّ المطاعن عنه، من أن يتركوا في كتاب الله ثلمةً يسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوهُ من يلحقهم».

رابعاً: أنّ قراءة «الصابئون» بالواو، لم ينقل عن عائشة أنّها خطأَتْ من يقرأ بها، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو. فلا يعقل أن تكون خطأَتْ من كتب بالواو.

خامساً: أنَّ كلام عائشة في قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ لا يفيد إنكار هذه القراءة المتواترة المجمع عليها. بل قالت للسائل: أيهما أحبُّ إليك؟ ولا تحصر المسموع عن رسول الله ﷺ فيما قرأت هي به. بل قالت: إنّه مسموع ومنزل فقط.

وهذا لا ينافي أن القراءة الأخرى مسموعة، ومنزلة كتلك. خصوصاً أنها متواترة عن النبي ﷺ. أما قولها: ولكن الهجاء حرف: فكلمة حرف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة، واللغة، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التي رسم بها المصحف، لغة، ووجه من وجوه الأداء في القرآن الكريم. ولا يصح أن تكون كلمة حرف في حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذي هو الخطأ؛ وإلا كان حديثاً معارضاً للمتواتر، ومعارض القاطع ساقط.

الشبهة التاسعة:

يقولون: روي عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال: «قالوا لزيد يا أبا سعيد «أوَهمتَ»! إنما هي «ثمانية أزواج من الضأن اثنين[1] اثنين، ومن المعز اثنين اثنين، ومن الإبل اثنين اثنين، ومن البقر اثنين اثنين». فقال: لا. إن الله تعالى يقول: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ فهما زوجان، كل واحد منهما زوج. الذكر زوج، والأنثى زوج» اهـ. قال أعداء الإسلام: فهذه الرواية تدل على تصرُّف نُسّاخ المصحف، واختيارهم ما شاؤوا في كتابة القرآن، ورسمه.

تفنيد هذه الشبهة:

والجواب: أن كلام زيد هذا لا يدل على ما زعموا. إنما يدل على أنّه بيان لوجه ما كتبه وقرأه سماعاً، وأخذاً عن النبي ﷺ لا تصرُّفاً، وتشهياً من تلقاء نفسه.

وكيف يتصور هذا من الصحابة في القرآن وهم مضرب الأمثال في كمال ضبطهم وتثبتهم في الكتاب والسنة، لا سيما زيد بن ثابت؛ وقد عرفت فيما سبق من هو زيد في حفظه وأمانته، ودينه، وورعه؟! وعرفت دستوره الدقيق الحكيم في كتابة الصحف والمصاحف! «فَأَنّى يُؤْفَكُونَ»؟

الشبهة العاشرة:

يقولون: إن مروان هو الذي قرأ «ملك يوم الدين» من سورة الفاتحة بحذف الألف من لفظ «مالك». ويقولون: إنّه حذفها من تلقاء نفسه دون أن يرد ذلك عن النبي ﷺ فضلاً عن أن يتواتر عنه قراءةً، ولفظاً، أو يصح كتابةً، ورسماً.

---

(1) يريدون آية سورة الأنعام ونصها: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ» الخ.

تفنيد هذه الشبهة:

والجواب أن هذا كذب فاضح.

أولاً: لأنه ليس لهم عليه حجة، ولا سند.

ثانياً: إن الدليل قام، والتواتر تم، والإجماع انعقد، على أن النبي ﷺ قرأ لفظ ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بإثبات الألف وحذفها، وأخذ أصحابه عنه ذلك. فممّن قرأ بهما عليّ، وابن مسعود، وأبي بن كعب. وممن قرأ بالقصر ـ أي حذف الألف ـ أبو الدرداء، وابن عباس، وابن عمر. وممن قرأ بالمد ـ أي إثبات الألف ـ أبو بكر، وعثمان «رضي الله عنهم أجمعين». وهؤلاء كلهم كانوا قبل أن يكون مروان، وقبل أن يولد مروان، وقبل أن يقرأ مروان. وقصارى ما في الأمر: أن مروان اتفق أن روايته كانت القصر فقط. وذلك لا يضرنا في شيء. كما اتفق أن رواية عمر بن عبد العزيز كانت المد فقط.

ثالثاً: أن كلمة «مالك» رسمت في المصحف العثماني هكذا «ملك» كما سبق.

خلاصة الدفاع:

والخلاصة أن تلك الشبهة وما ماثلها، مدفوعة بالنصوص القاطعة، والأدلة الناصعة، على أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثباته ورسمه؛ ولم ينسخه ناسخ في تلاوته، وهو هذا الذي حواه مصحف عثمان بين الدفتين، لم ينقص منه شيء، ولم يزد فيه شيء، بل إن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه وتعالى، ورتبه رسوله ﷺ من آي وسور. لم يقدم من ذلك مؤخر، ولم يؤخر منه مقدم. وقد ضبطت الأمة عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة، ومواقعها، كما ضبطت منه نفس القراءات، وذات التلاوة على ما سبق وما سيجيء في الكلام على القراءات إن شاء الله.

فليلاحظ دائماً في الرد على أمثال تلك الشبهات أمران:

أولهما: تلك القاعدة الذهبية التي وضعها العلماء: وهي أن خبر الآحاد إذا عارض القاطع سقط عن درجة الاعتبار، وضرب به عرض الحائط، مهما تكن درجة إسناده من الصحة.

ثانيهما: خطُّ الدفاع الذي أقمناه حصناً حصيناً دون النيْل من الصحابة، واتهامهم بسوء الحفظ أو عدم التثبت، والتحري، خصوصاً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الشبهة الحادية عشرة:

يقولون: إن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن، ولا يحسنون قراءته في المصحف، لعدم معرفتهم الرسم العثماني. فلماذا نتقيد بهذا الرسم، ولا نكتب المصاحف اليوم باصطلاح الكتابة المعروف، تسهيلاً على الناشئة، وتيسيراً على الناس؟

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: أن للعلماء آراءً في ذلك بالجواز. بل قال بعضهم ـ وهو العز بن عبد السلام ـ بوجوب كتابة المصحف للعامة باصطلاح كتابتهم الحديث؛ خشية الالتباس، كما يجب كتابته بالرسم العثماني محافظةً على هذا التراث العزيز. وقد سبق شرح آراء العلماء قريباً. وما هي منك ببعيد.

ثانياً: أن في الرسم العثماني مزايا، وفوائد ذكرناها سابقاً.

ثالثاً: أن مذهب الجمهور قائم على أدلة متوافرة على وجوب التزام هذا الرسم عندهم. وقد تقدمت تلك الأدلة أيضاً.

رابعاً: أنّ مصطلح الخط والكتابة في عصرنا، عرضة للتغيير والتبديل. ومن المبالغة في قداسة القرآن حمايته من التغيير، والتبديل في رسمه.

خامساً: أن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة، ربما يجرُّ إلى فتنة، أشبه بالفتنة التي حدثت أيام عثمان، وحملته على أن يجمع القرآن. فربما يقول بعض الناس لبعض، أو بعض الشعوب لبعض، عند اختلاف قواعدهم في رسم المصحف: رسمي خيرٌ من رسمك، أو مصحفي خيرٌ من مصحفك، أو رسمي صواب، ورسمك خطأ. وقد يجر ذلك إلى أن يؤثم بعضهم بعضاً، أو يقاتل بعضهم بعضاً. ومن المقرَّر أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح.

سادساً: أن الرسم العثماني أشبه بالرسم العام الذي يجمع الأمة على كتابة كتاب ربها في سائر الأعصار والأمصار، كاللغة العربية؛ فإنها اللسان العام الذي يجمع الأمة على قراءة كتاب ربها في سائر الأعصار والأمصار. وما يكون لنا أن نفرط في أمر هذا شأنه يجمع الشتات، وينظم الأمة في سلك واحد لا فرق بين ماضٍ، وحاضر وآت!.

سابعاً: أنّه يمكن تسهيل القراءة على الناس بإذاعة القرآن كثيراً إذاعة مضبوطة دقيقة، وبإذاعة فن التجويد في المدارس، وفي أوساط المتعلمين، وأخيراً يمكن ـ كما قالت مجلة الأزهر ـ أن ننبّه في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف، والاصطلاح المألوف. لا سيما أن رسم المصاحف العثمانية لا يخالف قواعدنا في الخط والإملاء إلا قليلاً، وفي كلمات معدودة، أضف إلى ذلك أن الفرق بين الرسمين لا يوقع القارىء اليقظ في لَبْس عند تأمله، وإمعانه غالباً.

الباب الثالث

شبهات حول كتابة القرآن ورسمه، وتفنيدها.

الشبهة الأولى:

إن في القرآن لحناً، بدليل أنه روي عن عثمان بن عفان أنّه حين عرض عليه المصحف بعد جمعه قال: «أحسنتم، وأجملتم، إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها». ويدعي أصحاب هذه الشبهة: أنّه روي عن عكرمه أنّه قال: «لما كُتِبت المصاحف عرضت على عثمان، فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال: لا تغيروها؛ فإنّ العرب ستغيرها، أو قال: ستعربها بألسنتها. لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل، لم توجد فيه هذه الحروف». وهم يستدلون بالروايتين ليطعنوا بالمصحف العثماني، وبأنّه غير ثقة، وبأنّه لا يستحق الاهتمام به، أو التعبد بتلاوته وقراءته في الصلاة، وإن أجمعت عليه الأمّة الإسلامية ـ وعلى رأسها الصحابة ـ بالقبول؛ وذلك لأنّ فيه لحناً.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: الروايتان عن عثمان - رضي الله عنه - غير صحيحتين وإسنادهما ضعيف، وفيهما انقطاع، واضطراب. قال العلامة الألوسي في تفسيره: «إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلاً».

ثانياً: الروايتان تتناقضان تماماً مع ما عرف عن عثمان بن عفان من ورع، ودقة، وكمال، وشدة تحري؛ وخاصة فيما يتعلق بالقرآن وجمعه. ويدلل على هذا ما أخرجه أبو عبيد عن عبد الرحمٰن بن هانىء مولى عثمان قال: «كنت عند عثمان - وهم يعرضون المصاحف - فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها: «لم يتسنَّ»، وفيها: «لا تبديل للخلق»، وفيها: «فأمهل الكافرين»، فدعا بدواة، فمحا أحد اللامين، وكتب ﴿لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، ومحا «فأمهل»، وكتب ﴿فَمَهِّلِ﴾، وكتب ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ فألحق فيها الهاء. قال ابن الأنباري: «فكيف يدعى عليه أنّه رأى فساداً فأمضاه؟! وهو يوقف على ما يكتب، ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين فيه، فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب، وتخليده».

ثالثاً: على فرض صحة الروايتين، فإننا يمكن أن نؤولها بما يتفق ويتلاءم مع الصحيح المتواتر عن عثمان في كتابة المصاحف وجمعها؛ ومن الدقة، والضبط، ونهاية التثبت. فالمراد باللحن في الروايتين المذكورتيْن وجه في القراءة. فيكون المراد: أن في القرآن ورسم مصحفه وجهاً في القراءة لا تتقنه، ولا تجيده ألسنة العرب جميعاً، ولكنها، ومع مرور الزمن ستلين ألسنتهم، وستتقنه، وستجيد قراءته، وتلاوته؛ بكثرة القراءة، والمران، والتلاوة بهذا الوجه. فاللحن المراد في قول عثمان -إن صح- هو الوجه في القراءة سيصعب على العرب التلاوة به في أوّل الأمر ثم تستقيم القراءة به في نهاية الأمر، وقد ضرب العلماء مثلاً على ذلك، وهو كلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ بالصاد المبدلة من السين، فتقرأ العرب بالصاد عملاً بالرسم، وبالسين عملاً بالأصل.

الشبهة الثانية:

إنّ في القرآن لحناً بمعنى خطأ، بدليل ما روي عن سعيد بن جبير أنّه كان يقرأ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ويقول: «هو من لحن الكتاب».

تفنيد هذه الشبهة:

على فرض صحة ما نقل عن سعيد بن جبير، فإن مراده باللّحن يستحيل أن يكون بمعنى الخطأ، بدليل أن سعيد بن جبير كان يقرأ بهذا الوجه من القراءة، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. فلو كان يعني باللحن: الخطأ، لما رضي لنفسه أن يقرأ بالخطأ. واللحن في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني اللغة والوجه في القراءة. وكلمة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، واردة في آية في سورة النساء، وفي قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ آية 162. فكلمة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وردت منصوبة بالياء في قراءة الجمهور؛ ووردت مرفوعة بالواو في قراءة أبي عمرو في رواية يونس، وهٰرون عنه. والقراءتان وجهان صحيحان في التلاوة. فالنصب مخرج على المدح، والتقدير: «وامدح المقيمين الصلاة». والرفع مخرج على العطف، والمعطوف عليه، وهو المؤمنون مرفوع.

الشبهة الثالثة:

إن في القرآن ما ليس منه. بدليل ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟﴾ أنّه قال: إن الكاتب أخطأ، والصواب: «حتى تستأذنوا».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: يقول أبو حيان: «إن من روى عن ابن عباس أنّه قال ذلك

فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين، وابن عباس بريء من ذلك القول».

ثانياً: أخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس أنّه فسر ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ فقال: أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها. أي أصحاب البيوت.

ثالثاً: إن قراءة «تستأذنوا» لم تثبت عن ابن عباس؛ ولو كانت صحيحة، لنقلت عنه تلاوتها.

رابعاً: على فرض صحة الخبر المنقول عن ابن عباس كما روى ذلك الحاكم، فإنّه يُرَدُّ بدعوى أنّه معارض للمتواتر في القرآن وهو ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾، وليس تستأذنوا. والقاعدة المعمول بها: أن معارض المتواتر القطعي ساقط، ولا يؤخذ به، ولا يعتد به، ولا يتلى به. وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف، فهي شاذه لا يلتفت إليها، ولا يعوّل عليها.

الشبهة الرابعة:

إن في القرآن تحريف. بدليل ما روي عن ابن عباس أنّه قرأ: «أفَلَمْ يَتَبَيّنِ الذين آمَنُوا أنْ لو يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النّاسَ جَميعاً» فقيل له: إنّها في المصحف: «أفَلَمْ يَيْأَسِ الذينَ آمنوا» فقال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: قال أبو حيان: «بل هو قول ملحد زنديق».

ثانياً: قال الزمخشري: «ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكيف يخفى هذا؟! حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام ـ (أي المصحف الإمام)، وهو مصحف

عثمان ـ وكان متقلباً بين أيدي أولئك الأعلام المحتاطين لدين الله المهيمنين عليه، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي أقيم عليها البناء، هذا والله فرية، ما فيها مرية».

ثالثاً: قال الفرّاء: «لا يُتلى إلا كما أنزل: ﴿ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾».

رابعاً: قال الزرقاني: «وعلى ذلك تكون رواية ذلك في الدر المنثور وغيره عن ابن عباس رواية غير صحيحة. ومعنى: ﴿ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أفلم يعلموا. قال القاسم بن معن: هي لغة هوازن. وجاء بها الشعر العربي في قول القائل:

أقولُ لَهُمْ بالشّعْبِ إذ يأسِرونَني ... ألَمْ تَيأسُوا أني ابنُ فارس (زَهْدَم)

أي ألم تعلموا»[1].

الشبهة الخامسة:

إنّ في القرآن تغييراً. بدليل ما روي عن ابن عباس: «أنّه كان يقول في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾: إنما هي: «وَوَصّى رَبُّكَ» التصقت الواو بالصاد. وكان يقرأ: ووصى ربك. ويقول: أمر ربك، إنهما واوان التصقت إحداهما بالصاد. وروي عنه أنّه قال: «أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم. ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه. فلصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾. ولو نزلت على القضاء، ما أشرَكَ أحدٌ».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: قال ابن الأنباري: «إن هذه الروايات ضعيفة».

---

(1) قال في القاموس: زَهْدَمْ: كجعفر. فرس لعنترة. وفرس لبشر بن عمرو الرياحي.

ثانياً: قال أبو حيان في البحر: والمتواتر هو: «وقضى»، وهو المستفيض عن ابن عباس، والحسن، وقتادة بمعنى أمر. وقال ابن مسعود وأصحابه: بمعنى «ووصى».

ثالثاً: قال الزرقاني: «فرواية «وقضى» هي التي انعقد الإجماع عليها من ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما، فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد، ولا يرفع عقيرته بها إلا عدو من أعداء الإسلام».

رابعاً: إنّ الروايات عن ابن عباس مخالفة للمُتواتر القطعي. وهو قراءة: «وقضى» والمعارض للقاطع ساقط لا يعتد به. فتبقى: «وقضى» هي الصحيحة، وما روي عن ابن عباس أنّها «ووصى» ساقط غير صحيح، ولا يعتد بتلاوته.

الشبهة السادسة:

إنّ في القرآن اختلافاً في الرسم، والتلاوة. بدليل ما روي عن ابن عباس أنّه قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ - سورة الأنبياء آية 48 - بدون الواو قبل كلمة ضياء. وروي عنه أنّه قال: خذوا هذه الواو، واجعلوها في ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾. وروي عنه أيضاً أنّه قال: انزعوا هذه الواو، واجعلوها في: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: جميع هذه الروايات ضعيفة، ولم يصح منها شيء عن ابن عباس.

ثانياً: إنّها معارضة للقراءة المتواترة قطعية الثبوت.

ثالثاً: إنّ إعجاز القرآن البياني، والبلاغي يقتضي وجود الواو قبل ضياء، وليس عدمها. فابن عباس نفسه فسر الفرقان في الآية المذكورة بالنصر. وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة. فالمقام للواو لأجل هذا التغاير.

الشبهة السابعة:

إن في القرآن حذفاً في الرسم، والتلاوة. بدليل ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أنّه قال: «هي خطأ من الكاتب، وهو أعظم من أن يكون نوره مثل المشكاة. إنّما هي: مَثَلُ نورِ المؤمنِ كَمِشْكاةٍ».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّها رواية معارضة للثابت المتواتر القاطع من القرآن.

ثانياً: يقول الزرقاني في مناهل العرفان: «إنّه لم ينقل عن أحد من القرّاء أن ابن عباس قرأ: مثل نور المؤمن، فكيف يقرأ ـ رضي الله عنه ـ بما يعتقد أنّه خطأ، ويترك ما يعتقد أنّه صواب؟!! ألا إنّها كذبة مفضوحة!! ولو أنّهم نسبوها لأبي بن كعب لكان الأمر أهون؛ لأنّه روي في الشواذ أنّ أبي بن كعب قرأ: مثل نور المؤمن. والذي ينبغي أن تحمل عليه هذه الروايات أن أبياً ـ رضي الله عنه ـ أراد تفسير الضمير في القراءة المعروفة المتواترة، وهي: مثل نوره. فهي روايات عنه في التفسير لا في القراءة، بدليل أنّه كان يقرأ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[1].

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 1 ص ـ 392.

الباب الرابع

شبهات حول تواتر القرآن، وتفنيدها

الشبهة الأولى:

إنّ القرآن غير متواتر جميعه، ودليل ذلك أن البسملة عند من يعتبرها قرآناً في بداية السور القرآنية لم يجر التحدي بها، في حين أن القرآن المتحدى به هو المتواتر. فالبسملة لا يتحدى بها، فهي غير معجزة، ولا يتحقق فيها أنّها أصل لأحكام فكيف إذن تكون متواترة؟!!

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن التحدي بالقرآن ليكون معجزاً هو ما يكون أقله ثلاث آيات أي سورة واحدة، والتحدي بالبسملة كقرآن إنّما يكون بإضافتها إلى آيتين أخريين ليتألف من الثلاثة قرآناً معجزاً، ومتحدى به، وهذا متواتر في نقله وحفظه.

ثانياً: إنّ التحدي بالبسملة إنّما يتعلق بنظمها، وبذلك تتناولها

الأحكام المعروفه بأنّ لتلاوتها ـ على اعتبار أنّها قرآن ـ الأجر الكبير، والثواب العظيم.

الشبهة الثانية:

إن الاختلاف في قرآنية البسملة يخلخل، ويزعزع حقيقة تواتر القرآن ومن ثم يؤدي إلى الاختلاف بين المسلمين، ومن ثم يؤدي إلى تكفير بعضهم البعض. فالقول بأن القرآن وبما فيه البسملة كله متواتر يؤدي إلى تكفير من ينكرها كقرآن. والقول بأن القرآن ـ والبسملة ليست منه ـ كله متواتر يؤدي إلى تكفير من يصنفها كقرآن.

تفنيد هذه الشبهة:

إن قرآنية البسملة في بداية السور ليست متواترة، وليست مما علم من الدين بالضرورة. وإنما مختلف في قرآنيتها، وهي قضية اجتهادية. وكل ما كان من هذا القبيل لا يكفر منكره أو مثبته.

أما البسملة في سورة النمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية 30، فهذه محكوم بقرآنيتها عند الجميع، ويكفر منكرها، وهي متواترة، ومما علم من الدين بالضرورة.

الشبهة الثالثة:

إن إثبات تواتر القرآن بناءً على حجية تواتر الدواعي لنقله ليس دليلاً كافياً على تواتر القرآن. فإن تواتر الأسباب الداعية لحفظه ونقله إلى الآخرين، لا يعتبر دليلاً شافياً يُستند إليه لإثبات حجية تواتر القرآن ـ وَدَليلُ ذلك السنة النبوية ـ فقد توفرت الأسباب الداعية لنقلها، ومع ذلك فليست كلها متواترة ـ فمنها المتواترة، ومنها خبر الآحاد. ومع أنها أصل للأحكام كالقرآن.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن توافر أسباب ودواعي نقل القرآن متواتراً لم يأت من ناحية أصالة الأحكام فقط، وإنما جاء منها، ومن نواحي الإعجاز، والتحدي، والتعبد بتلاوته، وقراءته في الصلاة، والرقية به، والتبرك به، وهذا كله لا يجتمع في السنة النبوية كلها، وإنّما في بعضها، فجاء بعضها متواتراً، وبعضها غير متواتر.

ثانياً: إن المراد بأصالة الأحكام الفرد الكامل الذي لا يوجد إلا في القرآن؛ وذلك لأن أصالة الأحكام، وكما يقول شيخنا الزرقاني «في القرآن ترجع الأصالة إلى اللفظ والمعنى جميعاً. أما المعنى فواضح. وأما اللفظ فمن ناحية الحكم بإعجازه، وبثواب من قرأه، وبالوعود الكريمة والعطايا العظيمة لمن حفظه، وبالوعيد الشديد لمن نسيه بعد حفظه؛ ولمن مسه أو قرأه جنباً إلى غير ذلك. والسنة النبوية ليس للفظها شيء من هذه الأحكام؛ ولذلك تجوز روايتها بالمعنى. أما معناها: فإن كان مما تتواتر الدواعي على نقله، وجب تواتره، وإلا فلا. ولهذا يُقطع بكذب نقل الروافض ما نسبوه إلى الرسول «ﷺ» من أنّه نص على أن الإمامه العظمى من بعده محصورة في علي، وولده. وبيان ذلك: أنّه لو صح ما زعموه، لنقل متواتراً؛ فإنّه مما تتوافر الدواعي على نقله لتعلقه بأمر يتصل بمستقبل الحكم الأعلى، والولاية العظمى في الإسلام لجميع بلاد الإسلام»[1].

الشبهة الرابعة:

إنّ تواتر القرآن منقوض بأنّ ابن مسعود لم يوافق على مصحف عثمان بن عفان، ودليل ذلك:

---

(1) الزرقاني: ـ مناهل العرفان ـ جـ 1 ص ـ 475.

أ ـ ما رواه النسائي، وأبو عوانه، وابن أبي داود أن شقيق بن سلمة قال: «خطبنا عبد الله بن مسعود على المنبر، فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، غلوا مصاحفكم، (أي اخفوها حتى لا تحرق). وكيف تأمرونني أن أقرأ قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت مِنْ فِيْ رسول الله «ﷺ» مثله؟!».

ب ـ ما رواه الحاكم من طريق أبي ميسره قال: «رحت، فإذا أنا بالأشعري وحذيفة، وابن مسعود، فقال ابن مسعود: «والله، لا أدفعه ـ (يعني مصحفه) ـ أقرأني رسول الله «ﷺ»»، فذكرهُ.

جـ ـ إن خير بن مالك يقول: «لما أمر بالمصاحف أن تغير، ساء ذلك عبد الله بن مسعود، فقال: من استطاع أن يغل مصحفه (أي يخفيه حتى لا يحرق)، فليفعل. وقال في آخره: أفأترك ما أخذت مِنْ فِيْ رسول الله «ﷺ»؟!!».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ هذه الروايات لا تنفي تواتر القرآن، وقراءته أبداً. ولا تدل على هذا النفي. فهي تدل على امتناع عبد الله بن مسعود عن إحراق مصحفه. وبهذا الامتناع لا ينقض تواتر القرآن في مصحف عثمان. فإنّه ليس من شرط التواتر إحراق المصاحف الأخرى، ومنها مصحف ابن مسعود. فمن المؤكد توافر شروطها لتواتر القرآن في مصحف عثمان، وليس منها شرط أن تحرق ما عداه من مصاحف. فإن ما جاء في مصحف عثمان كله مروي جماعة عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب.

ثانياً: إنّ هذه الروايات لا تفيد مطلقاً أن ابن مسعود خالف ما جاء في مصحف عثمان بن عفان. والدليل على ذلك قول ابن مسعود نفسه: «وقد قرأت مِنْ فِيْ رسول الله «ﷺ» مثله». فكلمة «مثله» تفيد أن زيد بن ثابت قرأ القرآن نفسه من رسول الله «ﷺ»، ودونه في مصحف عثمان.

ثالثاً: إن المصحف العثماني أجمعت الأمة على قبوله، وتواتره، وإنّه من الرسول (ﷺ) حتى ولو خالفه ابن مسعود أو غيره؛ حتى وإن احتج ابن مسعود بمصحفه، فهو ليس بحجة؛ فقد نقل بخبر الآحاد، ولم تجمع الأمة على قبوله. وتفيد الروايات أن ابن مسعود أحرق مصحفه أخيراً كما ورد في حديث شقيق من رواية ابن أبي داود عن طريق الزهري، وخاصة لما علم بكره الصحابة مخالفته لعثمان بن عفان عندما دعا إلى إحراق الصحف الأخرى، ومنها مصحفه أي مصحف ابن مسعود.

الباب الخامس

شبهات حول المكي والمدني من القرآن، وتفنيدها

الشبهة الأولى:

إنّ أسلوبيْ القرآن المكي، والمدني متعارضان. فالأسلوب القرآني المكي يتسم بالعنف، والتشدد، والحدة، والقسوة، والغضب، والوعد، والوعيد، والتهديد، والترهيب، بينما يتسم الأسلوب القرآني المدني بالليونة، والصفح، والسماحة، والعفو، والفضل، والاستنارة.

تفنيد هذه الشبهة:

إن نظرة عقلانية فاحصة في أسلوبيْ القرآن المكي، والمدني تفنّد هذه الشبهة، وتدحض افتراءات التعارض بينهما. فالقرآن الكريم بقسميْه المكي، والمدني يشتمل على الشدة، والعنف، والليونة، والصفح، وهو في دعوته إلى الحق، والفضيلة، والاقتناع، والإفحام، والشرح، والتوضيح، يستخدم شواهد الحكمة والتشدد، والعقلانية، والتسامح في

قسميه؛ وهو يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشدة والتسامح في مكيه، ومدنيه.

أولاً: فالعنف، والشدة، والحدة، والقسوة ليس قصراً على القرآن المكي. فالقرآن المدني يتسم في كثير من آياته بمثل هذه الصفات والشواهد.

فقد قال تعالى في سورة البقرة، وهي مدنية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ آية 13 - 14 - 15.

وقال تعالى في سورة آل عمران، وهي مدنية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ آية 10 - 11 - 12.

وقال تعالى في سورة النساء، وهي مدنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ آية 167 - 169.

ثانياً: وكذلك فإن الليونة، والتسامح، والصفح ليس قَصْراً على القرآن المدني. فالقرآن المكي تفيض آياته في الكثير من سوره بمثل هذه الصفات، والشواهد. فقد قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ

ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ آية 54.

وقال تعالى في سورة الأعراف، وهي مكيه: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ آية 46.

وقال تعالى في سورة يونس، وهي مكية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ آية 62 - 64.

الشبهة الثانية:

إنّ القسمين المكي، والمدني منقطعا الصلة.

فالقرآن المكي تتسم سوره، وآياته بالقصر، أما المدني فتتسم سوره وآياته بالطول.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا تفنيد هذه الشبهة بأمرين اثنين.

الأول: إن القول بانقطاع الصلة بين القرآنين المكي، والمدني استناداً إلى شواهد الطول، والقصر أمر تنقصهَ الدقة، ويحتاج إلى دليل. ونحن نسأل: متى كان الطول والقصر معياراً صحيحاً في الحكم على نظم أعظم كتاب، وأعجز فرقان، إلا أن يكون السوء في النية، والتطاول في الكفر، والتمادي في الباطل؟!!.

ومع الإقرار بصفة القصر للمكي، والطول للمدني، فإننا لا نشعر

بأي تفاوت أو انقطاع بينهما بل بكمال الصلة، والتناسق، وجمال الانسجام، وانتظام الأحكام.

ولو كان الأمر كما يدّعون، لما غاب ذلك عن أئمة الفصاحة والبيان من العرب؛ والذي نزل فيهم، وتحداهم فلم يجرؤوا - وعلى تماديهم في التحدي - على القول بانقطاع الصلة بين قسميْه المكي والمدني. وعلى العكس من ذلك، فقد شهدوا له بقسميْه المكي، والمدني بمراعاة قانون التحكم في قواعد البلاغة، والتناسق في السرد، والتلاوة، والانتظام في النظم، والأسلوب؛ وهو ينتقل من المكي إلى المدني بالنسبة للسور، ومن الآيات المكية في السور المدنية، والآيات المدنية في السور المكية بالنسبة للآيات.

وما القصر للمكي، والطول للمدني إلا شاهد بياني، وبلاغي في أسلوب المخاطبة، والتناسب مع الأحوال. فأهل مكّة اتسموا بالتمتع، والتشدد، والغلظة، والصلافه، فكان أسلوب الزجر المتسم بشواهد القصر مناسباً لهم. وعلى العكس من ذلك فأهل المدينة اتسموا باللين، والسماحة، والقبول، فكان أسلوب الإطناب، والإسهاب المتصف بشواهد الطول مناسباً لهم. وهذه غاية التناسق، والتناسب في التخاطب. وهكذا اقتضت شواهد التناسب في المخاطبة مع الأجوال أن يأتي القرآن المكي في معظمه موجزاً قصيراً، والمدني في معظمه طويلاً مطنباً.

الثاني: إن القول بقصر المكي، وطول المدني ليس مقبولاً على إطلاقه بل هو على الغالب، ولذا فقد احتوى القسم المكي على سور طويلة كسورة الأنعام، وقد احتوى القسم المدني على سور قصيرة كسورة النصر. ولو كان القول بقصر المكي، وطول المدني على الأكثر والأغلب، لكان صحيحاً، ونحن نسلم به. أما القول بذلك على الإطلاق، فلا يمكن قبوله؛ وخاصة أن هذا مصحوب بسوء النية، والافتراء على القرآن، والكافر لا يعدم الوسيلة، ولو اتّصفت بالتفاهة، والسفاهة للنيل من قرآن ربنا؛ قرآننا.

الشبهة الثالثة:

إنّ القرآن المكّي تأثر بالبيئة. ودليل ذلك القَسَمُ فيه بالكثير من المحسوسات كالليل، والنهار، والضحى، والشمس، والقمر، والتين، والزيتون، وطور سنين، والرياح، والخيل. وهذا عكس القرآن المدني حيث خلا من كل ذلك.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا تفنيد هذه الشبهة من خلال أمرين اثنين:

أولاً: إنّ القسم بالأمور الحسية إنما هو من قبيل رعاية مقتضى الحال. والقرآن المكي ـ وهو يخاطب صناديد قريش، وأئمة الشرك، وجبابرة العناد ـ أجاد في طرح دلائل الألوهية؛ وتفنن في عرض أساليب الإفحام بالقسم بالأمور الحسية؛ والتذكير بشواهد الخلق، والنعم المحيطة بأهل مكة؛ نبذاً لعقائد الشرك من عقولهم، وطرحاً لشواهد الجحود من أذهانهم سيما وأنهم يؤمنون بتوحيد الربوبية؛ وهي نسبة أفعال الله إليه تعالى: كالخلق، والرزق، والحياة، والممات، والشفاء، والمرض، وكل ذلك حتى يلفت أذهانهم إلى حقيقة الألوهية، وأنّها الخالقة لكل، ولمثل هذه المخلوقات، والنعم، والأمور الحسية التي أقسم الله بها.

وكما يقول أستاذنا المرحوم محمد عبد العظيم الزرقاني: بأن المصاب بداء الشرك لا سبيل لإنقاذه منه إلا بمثل الطريقة المثلى التي سلكها القرآن بعرض دلائل التوحيد من آيات الله في الآفاق على أَنظار المشركين. وهذا سبيل متعيّن في خطاب كل مشرك، ولو كان واحد الفلاسفة، ووحيد العباقرة، وأستاذ المثقفين، والمستنيرين. فَحلْفُ القرآن بأمثال هاتيك المخلوقات والحسيات، ليس سبيلاً إلى الطعن في القرآن[1].

---

(1) د. محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان. جـ 1 ص ـ 222.

ثانياً: إنّ القسم بالأمور الحسية يوحي، وينبيء بوجود أسرار عظيمة أودعها الله تلك المخلوقات الحسية، والتي أقسم بها. وغني عن البيان: أنّ هذه الأسرار لا يدركها، ولا يستشفها إلا أولو الألباب من الناس أصحاب العقول الكبيرة حيث إنّها لم تُشرح، ولم تُفسر في القرآن الكريم. فالله تعالى عندما أقسم بالتين، والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين، فهو يذكرنا بعظم الأسرار، والحوادث، والآثار المحيطة، والنازلة ببني البشر. قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة التّين: «وقد يرجح أنّها (أي التين، والزيتون) النوعان من الشجر. ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا، بل لما يذكران به الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر. فالله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل، فإنّه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين. وعندما بدت له، ولزوجته سوآتهما، طفقا يخصفان عليهما من ورق التين. والزيتون: إشارة إلى عهد نوح (عليه السلام) وذريته. وذلك أنّه بعد أن فسد البشر، وأهلك من أهلك منه بالطوفان، ونجي نوح في سفينته، واستقرت السفينة نظر نوح إلى ما حوله، فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الأرض، فأرسل بعض الطيور لعله يأتي إليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض، فغاب، ولم يأت بخبر. فأرسل طيراً آخر، فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون، فاستبشر، وسر، وعرف أن غضب الله قد سكن، وقد أذن للأرض أن تعمر، ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشريه العظيمة في الأرض التي امحى عمرانها، فعبّر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون. والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثه، وهي من أكبر ما يذكر من الحوادث».

وطور سنين: «إشارة إلى عهد الشريعة الموسويه، وظهور نور التوحيد في العالم بعدما تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى ـ عليه السلام ـ جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع. ثم طال الأمد على قومه، فأصابهم ما أصاب من قبلهم من

الاختلاف في الدين، وحجب نوره بالبدع، وإخطاء معناه بالتأويل، وإحداث ما ليس منه بسبيل. فمنّ الله على البشر ببداية تاريخ بنسخ جميع تلك التواريخ. ويفصل بين ما سبق من أطوار الإنسانية، وبين ما يلحق، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة. وإليه أشار بذكر البلد الأمين. وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه»[1].

الشبهة الرابعة:

إنّ القرآن المكي تأثر بكل الأوساط المنحطة. ودليل ذلك انفراده بالشدة، والعنف، والتقريع، والتوبيخ، والغلظة، والقساوة. ودليل ذلك أيضاً قصر آياته، وسوره، وخلوه من التشريع، والتفصيل، والأحكام الشرعية العملية، وخلوه من الجمال الأسلوبي، والفصاحة، والبيان.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا تفنيد هذه الشبهة من خلال ثلاثة أمور:

أولاً: إنّ الادعاء بتأثر القرآن المكي بكل الأوساط المنحطة بسبب انفراده بالشدة، والعنف، والغلظة، ادعاء باطل، ومتهور عقلاً ودليلاً ومعنى.

فالعقلانية السليمة المبصرة، والعالمة تعلم أن الوسط الذي نزل فيه القرآن وسط عنف، وصلافة، وعناد؛ فكان أسلوبه مناسباً لمثل هذا الوسط في المخاطبة. فجاء عنيفاً ليعنف عقولهم، وجاء شديداً ليَسفّه أحلامهم. فهو لم يخرج عن جادة الصواب في المخاطبة، فهذا هو الأسلوب المناسب لمخاطبتهم. وهو لم يخرج أبداً عن جادة الصواب في الأدب، والحشمة، واللياقة. وهو لم يصدف عن جادة الحكمة في إقامة الدليل

(1) محمد عبد العظيم ـ مناهل العرفان. جـ 1 ـ ص 224 ـ 225.

الواضح على سفاهة عقولهم، ودناءة أفهامهم، وأفكارهم. ونحن نتحداهم بالدليل القاطع، وبأن يأتوا بالدليل العابر على انحطاط هذا القرآن، وبقسميه المكي، والمدني ـ وأهل مكة اتصفوا بصعوبة المراس، وشدة العناد، والرغبة عن الانقياد لما ينقذهم من شفا جرف انهار بهم في جهنم ـ فجاء القرآن مناسباً لمثل هذا الوسط العنيد شديد المراس. وهل يطمعون أن يأتي قرآن سماته الليونة، والتعطف في المخاطبة، والرجاء في الانقياد؟ فهذا، والله، ليس بالصالح لهم. وبذلك خاطبهم بالحكمة الجادة، والموعظة الصادقة لعلهم يؤمنون، ولم يؤمنوا. فالله تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ سورة النحل آية 125. وهذه سِمَةُ القرآن الكريم في أسلوب التقريع، وبقسميه المكي، والمدني، وليس بالمكي فقط. فالله تعالى يقول في سورة البقرة، وهي مدنية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ آية 6.

الثاني: إن تفسير الانحطاط بقصر الآيات والسور، أو الخلو من التشريع، والتفصيل، أمر لا يمكن أن يخطر للعقول السليمة، ولا يمكن أن يكون دليلاً على الانحطاط المزعوم. فالقصر هو مظهر الإيجاز، وهو مظهر للرقي البلاغي، والبياني في التخاطب. وقديماً قيل: خير الكلام ما قل، ودل. ولنا القول المفعم بالثقة: إن قصر القرآن المكي قصر رقي، وليس قصر انحطاط. وهو قصر جاء في محله، ووسطه، وقديماً قيل: لكل مقام مقال، وهو قصر جاء بمعناه، ودلالته، وخير الكلام ما كانت دلالته على معناه، فكان قصر بلاغة، وفصاحة، وبيان مناسباً لوسط أهل مكة المعروفين بالبلاغة، والفصاحة، والبيان، فأين الانحطاط، وأين التسيب في القول أو الدلالة؟ وأين الاختلال في الأداء، والشرح، والمعنى؟! وكذلك بالنسبة لخلو المكي من التشريع: فكيف يفسر بالانحطاط، وهو لم يخل من التشريع؟!! وكيف يفسر القرآن المكي بالانحطاط، وقد أجاد التنقل في المخاطبة من وسط إلى وسط. وهل يعقل أن يبدأ القرآن في مكة بتفصيل الأحكام، وبيان التشريع، وقبل أن يخاطب العقول، ويطهرها من عقائد الوثنية، والكفر، والشرك؟!!

الثالث: إن تفسير الانحطاط بفقدان الجمال الأسلوبي، وشواهد الفصاحة، والبيان يجعل من دعوى الادعاء بذلك ثالثة الأثافي. والكل يعلم أن أهل مكة كانوا من أكثر القبائل علماً بلغتهم بياناً، وفصاحة، وبلاغة؛ وأن القرآن الكريم تحداهم ببيانه، وفصاحته، وفي عقر دارهم فعجزوا؛ وهم الذين اعترفوا ـ وعلى كفرهم وشركهم ـ بجمال القرآن في أسلوبه، وتناسقه بين آياته، وسوره، وإحكام نظمه، وترابط نسقه. فكلمة القرآن، وهم يشهدون على ذلك، لم تهبط أبداً إلى مستوى الدارج في التعبير، أو عدم النقاء في التوضيح ـ والإقرار حجة على المقر ـ وهذا زعيم فصحائهم، وكبير شعرائهم، وعالم بيانهم، وكبيرهم الذي علمهم السحر الوليد بن المغيرة يشهد على جمال أسلوب القرآن، وحلاوته، وطلاوته، فهو يقول ـ وقد سمع قرآناً مكياً من لسان المصطفى «ﷺ» ـ «والله، لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن؛ إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة؛ وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق؛ وإنّه يعلو ولا يعلى» ولتكن هذه الشبهة شبهة على ادعاءاتهم، ودليلاً واضحاً على سفاهة أقوالهم، وانحطاط أفكارهم، وهم الخرّاصون فعلاً، والساهون حقيقة. وخير مصداق عليهم قوله تعالى في قرآنه المكي، وفي سورة الذاريات وهي مكية: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ آية 10 - 11.

الشبهة الخامسة:

إن القرآن المكي اتسم بالبذاءة، والشتم، والسباب، وفحش القوْل. ودليلهم على ذلك ما جاء في بعض السور مثل: سورة ـ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وسورة ـ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾. وسورة ـ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وقوله تعالى في سورة الفجر: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

تفنيد هذه الشبهة:

يمكننا تفنيد هذه الشبهة من خلال أمرين اثنين:

الأول: إنّ من التناقض الغريب، والعجيب أن يُتهمَ أعظم كتاب، وأسمح فرقان، أسهب في الكلام عن فضائل الأخلاق، والحض على أدب السلوك، والكلام، أن يتهم بأنّه اتسّم بالبذاءة، والسباب. والتحدّي قائم لهم أن يأتوا ولو بدليل واحد فقط يؤيد شبهتهم، ويثبت بذاءتهم، وتفاهتهم، وفحشهم في أقوالهم؛ وأن القرآن في أسلوبه، ونظمه، وكلامه، خرج عن أدب اللياقة في التعبير، والأدب في القول، أو الكلام.

فقد صدق فيهم قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ سورة الكهف آية 5. ونحن نتساءل: هل يعقل أن يأتي كتاب بأصول الآداب، ويدعو إلى فضائل الكلام، وفي نفس الوقت يخرج عن أصول الآداب، ويتحلى برذائل الكلام، وينطق بمفردات السباب، ويتكلم بفحش الأقوال؟!! صحيح أنّه اتسم بالشدة في أسلوبه، والتقريع في إفحامه لكنه لم يخرج أبداً عن حدود اللياقة والأدب. وهو في شدته وتقريعه كان موفقاً في رعاية أحوال مخاطبيه؛ فهؤلاء اتسموا بشدة الصّلابة، وبذاءة المكابرة، وفحش المعاندة؛ فجاء بكلماته، ومفرداته، وتعابيره، وأساليبه محاطة بشواهد الأدب الجم، شديدة في دلالاتها، مناسبة لأحوال مخاطبيها تحدوها الرعاية لهم، وهدايتهم، وتلقينهم معالم الإيمان، ومؤشرات الإسلام. ومع أنّهم لم يؤمنوا، ومع أنّهم لم يسلموا اتهموا القرآن بالشدة، وأفرغوا آياته من معانيها الأدبية، وكللوها بمعاني الاتهام بالبذاءة، والسباب، والشتم؛ فخرجوا هم عن حدود اللياقة، والأدب في عنادهم وكبريائهم.

وأما إذا كانت الشدة بمعنى التسفيه لأحلامهم، والتقريع لترهاتهم، فهذا نقبل به. وفي نفس الوقت هو لصالحهم حتى لا تبقى لهم حجة لبقائهم على كفرهم، وعنادهم، وشركهم؛ فيسلموا، ويؤمنوا. ولكن هيهات

هيهات. وصدق فيهم قول ربنا في كتابه الكريم: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة البقرة آية 7.

وقوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ سورة البقرة آية 18.

وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ سورة يونس آية 8.

الثاني: إنّ أدلتهم في تأييد شبهتهم مردودة عليهم ـ وهي من الكلام الذي على عواهنه ـ فأدلتهم تحتاج إلى دليل، وشبهتهم تحتاج إلى تأييد.

فالسور التي استشهدوا بها على السباب، والشتم هي على العكس حجة عليهم؛ لأنّها خلت من كل سب، أو شتم، أو فحش قول:

أ ـ فسورة ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أقصى ما اشتملت عليه، وغاية ما جاءت به أنّه غلب على أسلوبها الوعيد العنيف، والإنذار الشديد، والمصير المحتوم، وفي النار إلى أبد الآبدين جزاء ما اقترفوا من إساءات، وإهانات للرسول الكريم «ﷺ». فقد أخرج الإمام أحمد، والشيخان، والترمذي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي «ﷺ» على الصَّفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، ويا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً، لينظر ما هو. فجاء أبو لهب، وقريش. فقال «ﷺ»: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟؟ قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني ﴿ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾. فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا!! فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير عن ابن زيد: أن امرأة أبي لهب كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق الرسول «ﷺ».

ورُوي عن مجاهد: أنّها كانت تمشي بالنميمة.

فلهـذه الأسباب نزلت هـذه السـورة مراعيـة أحـوال المخاطبين بالإنذار، والوعيد، وبأن أبا لهب، وزوجته حمالة الحطب سيصلون ناراً ذات لهب، وجاءت السور بألفاظ اللياقة في الوعيد، والأدب في التقريع دون قول دنيء، أو تفوه منحط غير سليم؛ وذلك تخويفاً لهم، ولأمثالهم؛ وتسلية، ومؤازرة للرسول «ﷺ» وصحابته أجمعين.

فبالله عليك، كيف تطمع أحلام المتنطعين أن ينزل قرآن بغير هذا الأسلوب؟! فهو، وإن نزل بغير ذلك ـ وحاشا لله ـ يكون قد خرج عن المألوف في رعاية مخاطبة الجاهلين. أيطمع هؤلاء المتنطعون أن ينزل القرآن بأسلوب الثناء، والمدح، والرفق، وحسن الخاتمة لأبي لهب، وزوجته، وأمثالهم!!

ب ـ وأما سورة: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾: فقد خلت من كل سباب، أو شتم، أو مما يدّعون. والسورة واضحة في تلاوتها وألفاظها؛ وبينة في تراكيبها، ومفرداتها فأين السباب، وأين البذاءة، وأين الانحطاط؟!! وهل خرجت هذه السورة في أسلوبها عن شواهد النقاء في التعبير، والوضوح في التمثيل؟! فالسورة من الوضوح في اللفظ، والدلالة، ما يسمو بألفاظها، وأسلوبها إلى غاية الفصاحة، والبيان في اللياقة، والأدب؛ وإلى غاية الدلالة في الإفحام والإقناع؛ وهذا مما دفع الإمام الشافعي «رحمة الله عليه» أن يقول: لو لم يأت القرآن بغير هذه السورة لكفى. أي لكفت البشرية إعجازاً في اللفظ، والتعبير، والدلالة، والمعنى، والتأصيل، والإنذار، والوعيد، والبشرى، والنذير.

جـ ـ وأما سورة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فقد أبانت مصير هؤلاء الذين شغلتهم الدنيا عن آخرتهم، وقد أنذرت هؤلاء باليقين بالعذاب بالنار، والجحيم إن لم يتوبوا، ويعودوا إلى بارئهم؛ ويتركوا شواغل الدنيا: كالتفاخر بالأموال، والأولاد. وقد ذكرتهم أيضاً،

وتذكرنا، وهي تذكر كل صاحب لب نير، ومستقيم بعواقب السلوك، والتصرف بالأموال، وهي تنذر الجميع بسؤالهم عن النعيم، أي المال من أين اكتسبوه، وفيما أنفقوه؛ تخويفاً للعباد بالاستقامة، وحسن التصرف، والسلوك في حياتهم، وأعمالهم.

د ـ أما قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. فغاية ما جاءت به مثل هذه الآيات هو التخويف لبني البشر حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من تتكلم عنهم هذه الآيات، وهم: أقوام ثمود، وعاد، وفرعون حيث طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد. وحتى يكون مصيرهم عبرة، وعظة لمن أراد أن يكون على طغيانهم، واستبدادهم، وعنادهم، وكفرهم، فيستعملوا عقولهم، وينقذوا نفوسهم من مصير هؤلاء الذين أهلكوا أنفسهم، وعصوا ربهم. وهكذا أسلوب القرآن الكريم بمكيه، وحتى بمدنيه، يستخدم أسلوب التخويف بألفاظ الشدة، والتقريع، ومفردات الإنذار والوعيد، والترغيب والترهيب حتى يرتدع الجبابرة المعاندون، ويعودوا إلى رشدهم. والقرآن الكريم في كل هذا نأى عن ألفاظ السباب، أو البذاءة، أو الإقذاع متذرعاً بالحكمة، والموعظة الحسنة، وضمن شواهد الأدب في الإرشاد، والاقتناع، ومن خلال معالم الإقامة حتى في التسفيه، والردع للمعاندين.

الشبهة السادسة:

إن القسْمَ القرآني المكي خلا من التشريع، والأحكام بينما اقتصر ذلك على القسم المدني. وبذلك فإن هذا يدل على تأثر القرآن بالوسط المدني، وبأهله، وبأن محمداً «ﷺ» هو الذي ألف القرآن من عنده، ناقلاً ومتعلماً من مثقفي المدينة أهل الكتاب حيث يسكنون، ويقيمون.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن القرآن المكي لم يخل تماماً من التشريع، والأحكام. وإنما جاء بها على الإيجاز، والإجمال، والاقتضاب؛ حيث كان أهل مكة كفاراً، فخاطبهم بأولوية العقيدة، وليس بالتشريع، فهناك سور وآيات مكيّة عديدة ورد فيها تشريع، وأحكام، منها:

أ - سورة الأنعام - قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الآيات 151 - 153.

وهذه الآيات المكية تعرض لمقاصد الدين الإسلامي الخمسة، ولكن بإيجاز، وإجمال. وهذه المقاصد هي: 1 - الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. 2 - حفظ النفس. 3 - حفظ العقل. 4 - حفظ النسل. 5 - حفظ المال.

ب - سورة المؤمنون - قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ الآيات 1 - 9.

جـ - سورة المعارج - قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ الآيات 23 - 25.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ الآيات 29 - 34.

د - سورة المرسلات - وهي من أوائل السور المكية في النزول. قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ الآية 48.

ثانياً: إن قلة ورود التشريع، والأحكام في القرآن المكي، وكثرته في المدني هو من قبيل التدرج الموفّق في النزول؛ والأسلوب الحسن في التلقين؛ والرعاية الجيدة لأحوال المخاطبين. وبقليل من التفكّر، والتدبر تدرك العقول السليمة أن النزول القرآني الأول - وهو المكي - جاء مناسباً لأحوال الناس، فبدأ بالعقيدة قبل الأحكام، والتوحيد قبل التشريع، والإيجاز في التفصيل قبل الإطناب. فمن البداهة بمكان أن ينزل القرآن متدرجاً بأصول الايمان، والعقيدة، والتوحيد، ومظاهر البعث، والجزاء، ومعالم الحشر، وشواهد الحساب والعقاب، وذكر الجنة والنار. ومن البداهة بمكان أن يخاطب القرآن المكي الناس في عقائدهم حتى إذا خلصهم من عقائد الشرك، والوثنية، ومن ثمَّ أصبحوا مؤمنين، قادهم إلى التكليف، ففصل لهم التشريع، وأوجب عليهم العمل بأحكام الحلال والحرام. أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال، والحرام. ولو نزل أول شيء: لا تقربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً». فإنّ قلة ورود التشريع والأحكام في القرآن المكي يعتبر شهادة له في الألوهية العالمة بأحوال العباد، وليس شبهة عليه أو حوله. فقد شاءت حكمة الله أن يتدرج مع هؤلاء المعاندين المكابرين في المخاطبة، فيبدأ بخلخلة عقائدهم، وإبطال شركهم حتى

يفرغوا عقولهم منها، ويحلّوا محلها عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد، وكان هذا حال النزول القرآني المكي. وبعد أن تمّ ذلك خاطبهم بالتكليف، وجاء بالأحكام، وفصّل التشريع. وكان هذا حال النزول القرآن المدني. والتساؤل يبقى وارداً في الأذهان في هذا المقام: هل من العقلانية السليمة، أو كيف يتقبل العقل السليم أن يكلف القرآن في بدء نزوله ـ وهو المكي ـ أهل مكة بالتكليف، ويفصّل لهم التشريع، ويطبق عليهم الأحكام وهم لا يزالون على عقائد الشرك، والكفر، والوثنية، والضلال؟!! إذن، وكذلك ومن أجل ذلك خلا القرآن المكي من تفاصيل الأحكام والتشريع، ومن أجل ذلك أَكْثَرَ القرآن المدني من تفاصيل الأحكام والتشريع. وإذن فَلْتُرَدّ هذه الشبهة على أصحابها؛ وليرد كيدهم إلى نحورهم، وليرد ارتيابهم إلى بطلانهم. وصدق فيهم قول ربنا ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ سورة العنكبوت الآية 48.

الشبهة السابعة:

إن القِسْمَ المكيَّ خلا من ذكر أهل الكتاب، بينما اقتصر ذلك على المدني. وهم بذلك يدللون على زعمهم بأن محمداً «ﷺ» ألف القرآن من عنده، وتعلمه من أهل الكتاب متأثراً بالبيئة التي كان يعيش فيها؛ حيث جاء القرآن المدني بذكر أهل الكتاب حيث يسكنون المدينة، وجاء القرآن المكي خالياً من ذكرهم حيث خلت مكة من وجودهم.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن القول بأن القرآن المكي خلا من ذكر أهل الكتاب على الإطلاق قول باطل. ولو قيل: إن القرآن قلل من ذكر أهل الكتاب لكان صحيحاً. ومن الخطأ الادعاء بأن مكة كانت خالية تماماً من أهل الكتاب. فقد وردت سور، وآيات مكية عديدة تذكر أهل الكتاب، ومنها:

أ ـ سورة الأنعام ـ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية 20.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ آية 114.

ب ـ سورة الأعراف ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ الآية 165.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ آية 166.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآية 167.

ثانياً: إن إكثار القرآن المدني من ذكر أهل الكتاب هو من قبيل التوفيق في رعاية أحوال المخاطبين. حيث إنّ أهل الكتاب كانوا يسكنون المدينة أكثر من أي مكان آخر في جزيرة العرب. وبذلك كان احتكاك الدعوة الإسلامية بهم كثيراً؛ وكانت مجابهاتهم، ومقابلاتهم، وتحدياتهم، واستفساراتهم، وأسئلتهم، ووقائعهم، وحوادثهم كثيرة مع الرسول «ﷺ». ولذلك؛ ومراعاة لمقتضيات أحوال أهل المدينة من أهل الكتاب أكثر القرآن المدني من الذكر لهم، ومخاطبتهم. وهم قد أوقعوا مثل تلك الوقائع، وأحدثوا مثل تلك الحوادث في مقر سكناهم في المدينة، وليس في غير سكناهم كمكة. ولذلك فمن البداهة بمكان أن يكثر ذكرهم في القرآن المدني، وليس المكي. وكان القرآن المدني طيلة نزوله في المدينة هو المؤثر فيهم، والمدحض لافتراءاتهم، والمفشل لتحدياتهم، والمعجز لتفاهاتهم، والمبطل لخرافاتهم وسحرهم حتى أعجزهم من أن يكذبوه، أو يتقولوا عليه، وحتى تثبت نبوة محمد «ﷺ» عندهم، فلجأوا إلى محاربته، والغدر به، وخيانته، وتأليب الأعداء عليه. في كل هذه

الأحوال كان ينزل القرآن المدني ينظم علاقة الرسول «ﷺ»، والمسلمين الصحابة معهم. فكان لا بدّ من ذكرهم، وكان لا بُدَّ من مخاطبتهم لعلَّهم يرعووا، ودون أي تأثير منهم. فكان القرآن المدني ذاكراً لهم لا متأثراً بوسطهم كما أراد المبطلون، والمُرجفون، والمستهزئون. وصدق فيهم قول ربّنا ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ سورة الحِجْر آية 11. وصدق فيهم قول ربنا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾آية 8. وصدق فيهم قول ربنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾سورة البينة آية 6.

الشبهة الثامنة:.

إن القرآن المكي خلا من الأدلة، والبراهين، والحجج بخلاف المدني؛ فقد جاء مليئاً بمثلها. وهذا يعني أن القرآن قد تأثر بالوسط الذي كان فيه محمد «ﷺ».

تفنيد هذه الشبهة:

إنّ هذه الفرية لا أساس لها من الصحة. وكلامنا ليس على عواهنه، وأدلتنا كثيرة، وعلى أن القرآن المكي عامر، وحافل بأقوى الأدلة، والبراهين والحجج المتعلقة بالعقيدة، وعلى الأخص في الإلهيات، والايمان والسمعيات، والنبوات.

أ - **فبالنسبة للإلٰهيات:** ففي سورة المؤمنون، وهي مكية يقيم الدليل على كذبهم، وأن من الاستحالة أن يكون للإلٰه شريك، أو أن يكون لهذا الكون أكثر من خالق، وإلا لدب الخلاف بينهم، واقتسموا ملكهم.

قال تعالى. ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا

كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الآيات 90 - 91. وفي سورة الأنبياء، وهي مكية، يقيم الدليل على فساد السماء، والأرض لو تعددت فيهما الآلهة:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. آية 22. والقرآن الكريم يقيم الدليل، ويأتي بالبرهان على صدق عقيدة الألوهية في التوحيد، فهو يتحداهم أن يقيموا الدليل، أو يأتوا بالبرهان على صدق تخرصاتهم في شركهم وكفرهم بتوحيد الألوهية.

قال تعالى في سورة الأنبياء كذلك: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ آية 24.

وقال تعالى في سورة النمل وهي مكية: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ آية 64.

والقرآن الكريم، وهو يفند أباطيلهم، وافتراءاتهم المتعلقة بالمشيئة الإلٰهية، والوحدانية، فهو يطلب منهم الدليل؛ أو يقدموا العلم على صدق ما يدعون، ومن ثم يفحمهم بأن الحجة البالغة لله وحده.

قال الله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. الآيات 148 - 149.

ب ـ **وبالنسبة لشواهد الإيمان**: ففي سورة القلم، وهي من سوره المفصّل المكية يخاطب القرآن العقول، وبصيغة الاستفهام الإنكاري، بأن الله

لا يساوي بين المسلمين المؤمنين وبين المجرمين الكافرين. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ الآيات 35 - 39.

وفي سورة لقمان، وهي مكية، يقيم الحجة أن يسلم وجهه إلى الله، وهو محسن، ويبشره بنجاته، وتمسكه بالعروة الوثقى - الإسلام - الإيمان - ويقيم الحجة على من كفر، ويبشره بالعذاب الغليظ:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ الآيات 22 - 24.

جـ - **وبالنسبة لتوحيد الربوبية**: ففي سورة النمل، وهي مكية، يستدرجهم القرآن بصيغ الاستفهام، ومناقشة العقول، أن يتفكروا بأن شواهد التوحيد بالربوبية من خلق، وإنزال المطر، وإنبات الشجر، وخلق الأنهار، والجبال، وكشف السوء، والهداية في ظلمات البر، والبحر. بأن مثل هذه الشواهد هي براهين، وأدلة، وحجج دامغة لهم ليوحدوا الله تعالى، ويجعلوا الإيمان، والعبادة، والخشوع، والربوبية له وحده، ويكملوا إيمانهم بهذين النوعين من التوحيد: توحيد الربوبية الذي آمنوا به، وتوحيد الألوهية الذي لم يؤمنوا به.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن

يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الآيات 60 - 64.

وفي سورة لقمان، وهي مكية يثبت لهم ـ وبدليل اعترافهم ـ توحيد الربوبية بشواهد الخلق. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آية 25.

د ـ **وبالنسبة للسمعيات:** ففي سورة «ق» وهي مكية يثبت القرآن الكريم حجية البعث، والنشور يوم القيامة بدلائل الإحياء للموات في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ الآيات 9 - 11. وقال تعالى في نفس هذه السورة المكية ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سورة ق آية 15.

وفي سورة «يس» وهي مكية يدحض القرآن الكريم جهالاتهم المنوه عنها باستفساراتهم عن كيفية إعادة الخلق من جديد لموات عظام أرِمَتْ، وفَنِيَتْ، وذلك بدليل وبرهان خَلْقها أول مرة، وهو على الله أهون.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات 78 - 79.

ثم يتابع في نفس السورة بقدرة الإِله في الخلق للأكبر، وبالتالي فالدليل قاطع، وثابت على قدرته في الخلق للأصغر. قال تعالى:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الآية 81.

وفي سورة الإسراء، وهي مكية يقيم الدليل على قدرة الإلٰه في إعادة الخلق، بأسلوب الدحض لتساؤلاتهم، وكفرهم، وتعجبهم، وبأن الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الآيات 98 - 99.

وفي نفس هذه السورة المكية، يضربون الأمثال، وعن إعادة خلق العظام والرُّفات، فيتناولهم الرد الإلٰهي ببرهان الإعجاز والتحدي، وبأن قدرة الله في إعادة الخلق لا لبس فيها حتى ولو كانوا حجارة أو حديداً، وهو الذي فطرهم أول مرة؛ وهو القادر على إحيائهم ثانية. فهو يقول: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾. الآيات 49 - 51.

هـ - **وبالنسبة للنبوات**: ففي سورة العنكبوت، وهي مكية، تثبت الآيات القرآنية صدق نبوته «ﷺ»، وبدلائل الرسالة، والكتاب المنزل، والذي يتلى عليهم. أليس هذا الكتاب، وبمعجزاته البيانية، والعلمية، والغيبية، والتشريعية، خير دليل وأعظم برهان على صدق نبوته ورسالته، وهو النبي الأمي كما يعلمون، وأنه يفقد المعرفة كما يزعمون؟!!

فاستمع إليه، وهو يقول: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ

إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات 50 - 51.

وفي سورة الأنبياء، وهي مكية يذكرهم الله تعالى بالكتاب الشاهد على نبوّة محمد «ﷺ» وصدق شهادته تكمن في ذكره لهم، وما نزل عليهم، وأخبارهم من قبل. فانظر إليه، وهو يقول: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ آية 10. وفي سورة فصّلت إحدى سور الحواميم السبعة، وهي المكية يزكي الله تعالى كتابه العزيز، وبأنه المنزل على رسوله حقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه فاسمعه يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآيات 41 - 43.

ولعل أفضل برهان، وأعظم حجة يؤيد بهما الله صدق نبوة نبيه وصدق رسالته أن الله تعالى هو الشاهد على ذلك، وهو المنزل لذلك، وبالحق.

مصداق قوله تعالى في سورة الإسراء، وهي مكية: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ الآيات 105 - 106. ومصداق قوله تعالى في سورة الزمر، وهي مكية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ آية 2.

الشبهة التاسعة:

إن القرآن المكي خلا من القصص، وإنّما انفرد بها القرآن المدني لتأثر الرسول «ﷺ» بأهل الكتاب فيها، فأخذ عنهم قصص إبراهيم وعلاقات الأنساب بين إسماعيل والشعب العَرَبي. وكما أورد المستشرق

«ماسيه» في كتابه «الإسلام»: أنه في مكة كانت الأساطير اليهودية والمسيحية في حالة تخطيط أولي[1].

وكما أورد المستشرق «لامنز» في كتابه: «الإسلام ـ عقائده ونظمه». أن محمداً لما اتصل باليهود في المدينة استطاع أن: «يؤلف قصص إبراهيم، وعلاقات الأنساب بين إسماعيل، والشعب العربي»[2].

وكما أورد المؤلف نفسه، والمستشرق «أندريه» في كتابه: «محمد ـ حياته ودعوته»: «ولقد عاش في البداية، وهو يسيطر عليه، وهم جميل بأن دعواه ـ أي القرآن ـ تتفق تماماً مع كتب اليهود، والمسيحيين المقدسة، ولكن معارضة اليهود المريرة أثبتت له العكس»[3][4].

تفنيد هذه الشبهة:

لعلها من أسخف الشّبه التي ألصقها المستشرقون الكفرة بالقرآن المكي، ولعلها من أسخف براهينهم التي دللوا بها على سخف هذه الشبهة. حيث إنها، وبكل سهولة نستطيع أن نكذب دعواهم، وأن نفند شبهتهم بالرجوع إلى القرآن الكريم حيث نجد العكس تماماً. فالسور المكية هي التي تعرض أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة. ولم تترك للسور المدنية إلا فرص استخلاص العبر والدروس منها، والتي غالباً ما تأتي في صور تلميحية إيجازية.

وأما بالنسبة لإبراهيم: فمن المعروف أن العرب في الجزيرة العربية، وفي مكة بالذات كانوا أحرص الناس على الوقوف بعلم الأنساب، وخاصة أولاد إسماعيل. سيما وهناك أماكن فيها تحمل، وما

---

(1) ماسيه ـ الإسلام ـ ص 21.

(2) لامنز ـ الإسلام ـ عقائده ونظمه. ص 33.

(3) أندريه ـ محمد ـ حياته، ودعوته. ص 139. ولامنز ـ المرجع الآنف الذكر ص 28.

(4) دكتور محمد عبد الله دراز ـ المدخل إلى القرآن الكريم. ص 156.

تزال، أسماء إبراهيم، وإسماعيل، ومن أولادهم، وبهذا ومما يدحض شبهتهم أن القرآن لم ينتظر انتقاله إلى المدينة لتوثيق هذه المعلومات، والاهتمام بالقصص؛ حيث أفاضت السور والآيات المكية بمثل قصص الأنبياء، والرسل، وأقوامهم. بل نجد أن كثيراً منها دعت الرسول «ﷺ» إلى اتباع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد جاء في سورة النحل، وهي مكية قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آية 123.

وإكمالاً للفائدة، وتحقيقاً لمكية السور التي تتكلم عن القصص نوردها تباعاً مع آياتها: سورة الأعراف عن آدم ـ الآيات: 11 - 25. وعن موسى: 102 - 176. وسورة يونس عن موسى: 75 - 92. وسورة هود عن نوح: 25 - 49. وعن إبراهيم ولوط: 69 - 82. سورة يوسف عن يوسف. وسورة الحجر عن آدم، وإبراهيم، ولوط: 26 - 27. وسورة الإسراء عن بني إسرائيل: 4 - 8. وسورة الكهف عن أهل الكهف: 9 - 25. وعن موسى: 60 - 82. وسورة مريم عن زكريا، ويحيى، ومريم، وعيسى... الخ. من 1 - 33. وسورة طه عن موسى: 9 - 98. وسورة الأنبياء عن إبراهيم. 51 - 70. وعن داود وسليمان. 78 - 82. وسورة الشعراء عن موسى وإبراهيم ونوح... 10 - 189. وسورة النمل عن موسى، وداود، وسليمان: 7 - 44. وسورة القصص عن موسى: 43 وعن قارون: 76 - 82. وسورة العنكبوت عن نوح، وإبراهيم، ولوط: 14 - 35. وسورة سبأ عن داود وسليمان: 10 - 14. وسورة ص عن داود، وسليمان، وأيوب: 17 - 44. وسورة الذاريات عن إبراهيم: 24 - 37.

الشبهة العاشرة:

إن القرآن المكي خلا من ذكر الصلوات الخمس ـ حيث كان عددها في العهد المكي صلاتين أضيف لهما صلاة ثالثة في العهد المدني ـ وهذا يعني الاختلاف الجذري بين القرآن المكي، وبين القرآن المدني، والسبب في ذلك يعزونه إلى تأثر الرسول «ﷺ»، ومحاكاته لليهود في المدينة كما

ورد في كتاب: «النظم الإسلامية» لمؤلفه «ج. ديمومبين» وكما ورد في كتاب «محمد» لمؤلفه: «أندرا»[1][2].

تفنيد هذه الشبهة:

وتدحض صدق ما تزعمه بنفسها حيث إنّها تفتقد إلى أي أساس نقلي، أو عقلي، أو منطقي، أو تاريخي يسوغ تصديقها، أو يدعو إلى الإيمان بها. ولعل، بل إن أساس الخطأ بالنسبة لمثل هذه الشبهات أنها إنما تنطلق دائماً من فراغ دليلي، أو أساس واه، فيصعب على أصحابها إثبات صحة دعواها. ونحن هنا نتساءل: متى كان عدد الصلوات التي نص عليها القرآن المكي في اليوم، والليلة أقل من خمس صلوات؟؟! وأي قرآن مكي نص على أن عددها كان اثنين ثم أضيفت لهما صلاة ثالثة في المدينة؟؟! وهذه مشكلة المستشرقين أو النقاد الغربيين في مهاجمتهم للإسلام دوماً؛ حيث إنهم دائماً يفتقدون إلى الدليل الذي يؤيد زعمهم، ومن ثم يُعرّون شبههم من كل دليل نقلي أو مسوغ شرعي، أو تواتر تاريخي سليم.

فمن المسلّم به عندنا وعند غيرنا، وتواتر في النقل، والتشريع والتطبيق أن عدد الصلوات المفروضة، ومنذ فرضيتها، هي خمس صلوات مفروضة، وقد أشار إليها القرآن المكي قبل المدني، وفصلتها السنة النبوية، وبينت أحكامها، وأركانها، وواجباتها، وبكل دقة. ولعله إذا جاز لنا أن نعذرهم في شيء أن نقول في هذا المقام: ربما كان منشأ خطأهم هو تفسيرهم المغلوط لكلمة، أو للفظ «الدلوك» الوارد في آيات الصلوات الخمس في سورة الإسراء[3]. ومن السور والآيات المكية التي نصت على الصلوات الخمس سورة الإسراء حيث يقول

---

(1) ج. ديمومبين. النظم الإسلامية. ص: 66.
(2) أندريه. محمد ـ ص: 81.
(3) ـ د. محمد عبد الله دراز. المرجع المشار إليه آنفاً. ص: 156.

تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ آية 78.

وسورة طه حيث يقول تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ آية 130.

وسورة الروم: حيث يقول تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ آية 17 - 18.

وسورة هود حيث يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ﴾ آية 114.

الشبهة الحادية عشرة:

إن القرآن الكريم بقسميْه المكي، والمدني تأثر بالمواقف السياسية للأمم الأخرى، وخاصة اليهود، والنصارى، مما جعله قابلاً للتطور غير ثابت. ولهذا السبب شرع صوم يوم عاشوراء، ثم نسخ بصوم رمضان. ولهذا السبب شرعت القبلة في الصلاة نحو بيت المقدس ثم نسخت بالتوجه إلى الكعبة. وكما يقول المستشرق «أندريه» إن هذا كان سببه الموقف العدائي لليهود من المسلمين[1]. وهكذا وعلى حد زعم «ج. ديمومبين» يتأثر التشريع التعبدي بالتقلبات السياسية[2] [3].

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: بالنسبة لصوم يوم عاشوراء: فيكفينا الرد هنا بالقول: بأنه لم يرد ذكر فرضية صوم يوم عاشوراء لا في القرآن المكي، ولا في القرآن المدني بتاتاً. ويكفينا القول أيضاً: إن علماء الحديث يقررون: إن

---

(1) أندريه ـ محمد. ص 137 - 138.

(2) ج. ديمومبين. النظم الإسلامية. ص 68.

(3) د. محمد عبد الله دراز ـ المرجع الآنف الذكر. ص 156.

صوم يوم عاشوراء كان معروفاً عند قريش قبل الإسلام، وأن الرسول «ﷺ» كان يصومه[1] وكذلك هناك أحاديث كثيرة تحث على صوم يوم عاشوراء[2]. أي أنه فرض بالسُّنَّةِ لا بالقرآن.

ومن الثابت ما تقرره الأحاديث النبوية أن الرسول «ﷺ» عندما هاجر إلى المدينة وجد يهوداً صائمين؛ فسألهم عن صومهم، فأخبروه أن هذا يوم نَجّى فيه الله تعالى موسى، وقومه من فرعون. فأمر الرسول «ﷺ» صحابته بصيامه، وقال: نحن أوْلى بموسى منهم. وبقي صوم عاشوراء فرضاً يوماً واحداً بالسُّنَّةِ في السَّنَةِ إلى أن نسخه القرآن بصيام شهر رمضان مرة واحدة في السنة، فأصبح صيام عاشوراء نفلاً فمن شاء صامه، ومن شاء أفطره ـ وكما ورد في حديث أم المؤمنين عائشة «رضي الله عنها»: أخرج البخاري، ومسلم عنها قالت: «كان عاشوراء صياماً فلما أُنزل رمضان كان من شاءَ صامَ، ومن شاء أفطرَ». وأخرج الإمام البخاري عن ابن عمر «رضي الله عنهما» قال: «صامَ النبي «ﷺ» عاشوراء، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان، ترك».

وقد ورد في تفسير الإمام الطبري لآية الصوم ما يفيد أن المسلمين كان عليهم أن يصوموا عاشوراء مرة واحدة في السَّنة؛ وأن يصوموا ثلاثة أيام من كل شهر صيام وجوب فرضاً بالسُّنَّةِ؛ ولما نزلت آية الصيام في سورة البقرة نسخت ما عداها من صوم، وأصبح صيام عاشوراء، والثلاثة أيام من كل شهر مندوباً، وليس فرضاً.

ثانياً: وبالنسبة لتحويل القبلة: فقد حصل فعلاً. فقد صلى «ﷺ»، وصحابته نحو بيت المقدس حوالي ستة عشر شهراً؛ كان الرسول «ﷺ» أثناءها يقلب وجهه في السماء راجياً الله أن تحوّل له القبلة إلى البيت الحرام بمكة. وهو تغيير اقتضته الحكمة الربانية في التكليف؛

---

(1) البخاري ـ صحيح البخاري ـ الكتاب الأول. باب الصوم. ومسلم. صحيح مسلم. باب 19.

(2) مسلم. صحيح مسلم. باب 36.

وهي حكمة اقتضتها العناية الإلٰهية في الفرضية والابتلاء والتصديق. وقد تخفى علينا الحكمة كما قد تظهر. وليس في تحويل القبلة صلة بمعاداة اليهود للرسول «ﷺ»؛ فالشرائع السماوية ليست خاضعة لأهواء البشر من المحبة، والمعاداة، والبغضاء؛ وإنما الشرع ما شرعه الله. وفضلاً عن ذلك لا نجد علاقة بين تحويل القبلة، وبين التقلبات السياسية في المدينة المنورة، أو في الجزيرة العربية. وإلا لما اقتصر ذلك الأمر على تحويل القبلة فقط. وكذلك فإنّ تحويل القبلة لم يكن سببه معاداة اليهود للمسلمين حيث إن الثابت أن عداوة اليهود بدأت سنة 625 م في حين كان تحويل القبلة سنة 623 م.

ولنا التساؤل في هذا المقام: أين العجب من تحويل القبلة من بيت المقدس أولَى القبلتين، وثالث الحرمين إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة، وإذا شاءت الإرادة الإلٰهية بذلك؟!! ولكن من فقد الإيمان والهداية والرشاد، ولا يؤمن بتوحيد الأُلوهية في المشيئة بالفرضية والتكليف، والتحويل، لا يعدم الوسيلة في إسداء الآراء، وبث الافتراءات، وإلقاء التساؤلات على عواهنها؛ قصده الوحيد الطعن في الإسلام ليس إلا. ولنا أن نؤكد، والجميع يعلم ـ مسلمون وغير مسلمين ـ أن التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس كان فرضاً بالسُّنةِ، والسُّنَّةُ وحي؛ حيث إن التوجه بالصلاة بادىء الأمر لم يكن معلوماً بالقرآن، فصلى المسلمون نحو بيت المقدس حوالي ستة عشر شهراً فرضاً بالسنة. وكانت الصلاة في بادىء الأمر بالتخيير إلى الجهة مصداق قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ سورة البقرة آية 115. ثم نسخت هذه السُّنَّة بالقرآن مصداق قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ سورة البقرة آية 144.

وما التوجه بالصلاة إلى القدس، وما التحويل لها إلى مكة المكرمة إلا وقد جاء في النصوص، وللنصوص التشريعية النبوية، والإلٰهية.

وأما التساؤل عن سر توجه المسلمين في بادىء الأمر إلى القدس

ـ وهي قبلة اليهود، والنصارى ـ وعن سر هذا التحول؟! فالإجابة عليه غاية في السهولة: إن الإرادة الإلٰهية لم تمنع الأول، وارتضته، وعندنا القاعدة الشرعية القائلة: إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا شرعٌ لنا ما لمْ يُخالفْ حُكْماً شرعياً، أو ما لمْ يَرِدْ خلافُ ذلك.

وكذلك فإن الإرادة الإلٰهية ـ والأمر لها ـ اقتضت الأمر الثاني، وأمرت به. وما المانع، وما العجب في التحويل للقبلة إذا كانت الجهات كلها مشارقها ومغاربها لله تعالى: مصداق قوله تعالى، ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة البقرة آية 142. فلم يبق ما نقوله في هذا المقام: إلا أنه إذا كان هناك عجب، أو سر يستعجب أو يفشى فيما يتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام بمكة، فإنه لا يتعدى الحسد، والحقد، والبغضاء من الكفار أنفسهم على المؤمنين الذين آمنوا بربهم، واقتدوا بسنة نبيهم، وأطاعوا رسولهم؛ وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بقبلة الصلاة، والتوجه بها إليها. وصدق الله تعالى حيث قال فيهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾ سورة البقرة آية 109.

الشبهة الثانية عشرة:

إن القرآن الكريم بقسميه المكي، والمدني تأثر بالمواقف الحربية مع الأمم الأخرى، خاصة اليهود، والنصارى، والوثنيين؛ مما جعلته أكثر تطوراً حتى بالنسبة لألفاظه، ومفاهيمه، ونصوصه عن الله تعالى، وصفاته. وكما ورد في كتاب: العقيدة، والتشريع في الإسلام: «فانضمت في الفترة المدنية صفة القوة، والجبروت ضد الكفار المعاندين إلى صفة الرحمة»[1].

(1) د. محمد عبد الله دراز ـ المرجع الآنف الذكر. ص 156.

ودليلهم في شبهتهم هذه: أن القرآن المكي كانت تغلب عليه صفة الرحمة، والصفح، والغفران، وهذا على عكس المدني حيث غلبت عليه الشدة في القتال، والغلظة على الكفار؛ فكان الله كما يزعمون رحيماً في القرآن المكي، شديداً في القرآن المدني.

تفنيد هذه الشبهة:

تالله، إنهم في سكرتهم يعمهون. إننا لا نناقشهم في صفات الله من الرحمة والغفران، والشدة، والعقاب؛ فهم كفروا بالله وحده، وبصفاته، ولكننا نرد شبهتهم بمناقشة أدلتهم. ولنا أن نسألهم: هل خلا القرآن المكي من آيات الشدة، والغلظة إلى جانب الصفح والغفران؟؟!

ولنا أن نسألهم أيضاً: وهل خلا القرآن المدني من آيات الصفح والغفران إلى جانب آيات القتال، والشدة على الكفار؟؟!

فقد ورد في القرآن المكي ما يفيد العقاب، والرحمة في آن واحد.

قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ آية 165 وقال تعالى في سورة هود، وهي مكية: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ آية 67. وقال تعالى في سورة يس: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الآيات 63 - 64.

وقال تعالى في سورة غافر، وهي مكية: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ آية 3.

وأيضاً فقد ورد في القرآن المدني ما يفيد الرحمة، والعقاب في آن واحد.

قال تعالى في سورة الرعد، وهي مدنية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ آية 6. وقال تعالى في سورة الحج، وهي مدنية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ آية 65. وقال تعالى في

سورة النور، وهي مدنية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآيات 19 - 20.

الشبهة الثالثة عشرة:

إن القرآن المكي اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السور مثل: ألم، وألر، والمر، والمص، وكهيعص، وطه، ويس، وص، وق، ون، وحم، وبذلك فإن القرآن لا يصلح أن يكون هدى وبياناً، ورحمة للناس؛ لأن اللغو لا يمكن أن يكون هدى، وبياناً.

ودليل شبهتهم: أن معاني أحرف التهجي هذه لا يفهم معناها حتى من قبل الراسخين في العلم. فالتلفظ بها، والخطاب بها، والبدء بها في بداية السور القرآنية لا معنى له، وهي تحصيل حاصل، وهي كعدمها من حيث معناها، ومفهومها. وأيضاً يزعم أصحاب هذه الشبهة كدليل لها: أن مثل هذه الألفاظ، والتعابير، والأحرف هي من اليهود، أخذها محمد «ﷺ» من كتبتهم الذين كانوا يكتبون له القرآن ليستدل بها على انقطاع الكلام، واستئناف آخر. ويفسرون معناها: بأنه أوعز إليّ محمد، أو أمرني محمد. وهم يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بها، والاعتقاد والتصديق بما يأمرهم محمد بكتابته.. أي يكتبون له هذه الأحرف، ويتبرأون من الإيمان، أو تصديقها. ويبررون تفاسيرهم لأحرف التهجي هذه بقول بعضهم: إن الحروف العربية المفتتح بها أوائل بعض السور إما أن يكون قصد منها التعمية، أو التحويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف؛ أو هي رمز للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها بمرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً.

تفنيد هذه الشبهة:

إن خير رد على هذه الشبهة هو ما قام به أستاذنا، وشيخنا العلامة

المرحوم محمد عبد العظيم الزرقاني حيث أفاض وأجاد رداً، وتفنيداً وبالأدلة المستفيضة، والمقنعة نستعين بها، وننقلها كما وردت في كتابه: «مناهل العرفان في علوم القرآن»[1] فبدأ بقوله:

«وننقض هذه الشبهة بأمور: (أولها) أنه لم يكن للرسول ﷺ كَتَبة من اليهود أبداً. وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم، ولا يحابي. فليسألوه إن كانوا صادقين. (ثانيها) أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تستعمل في تلك المعاني التي زعموها؛ وهي (أَوْعَزَ إليَّ محمد) أو (أمرني محمد)، لا عند اليهود، ولا عند غيرهم في أية لغة من لغات البشر. (ثالثها) أن اليهود لم يعرف عنهم الطعن في القرآن بمثل هذا. ولو كان هذا مطعناً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به، وتوجيهاً له؛ لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي «ﷺ»، والمسلمين؛ يتمنَّوْنَ أن يجدوا في القرآن مغمزاً من أي نوع يكون؛ ليهدموا به دعوة الإسلام. كيف، وهم يكفرون به حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق؟! (رابعها) أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس، وهدى، ورحمة؛ فإن هذه الأوصاف يكفي في تحقُّقها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته، ومجموعه، لا باعتبار تفصيله، وعمومه الشامل لكل لفظ فيه. ولا ريب أن الكثرة الغامرة في القرآن كلها بيانٌ للتعاليم الإلٰهية، وهدايةٌ للخلق إلى الحق، ورحمةٌ للعالم من وراء تقرير أصول السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا الجواب مبنيٌّ على أحد رأيين للعلماء في فواتح تلك السور، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا، بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها، ولم يطلع عليها أحد من خلقه. وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية، وهي ابتلاؤه سبحانه، وتمحيصه لعباده؛ حتى يميز الخبيث من الطيب، وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام

---

(1) الشيخ عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، الجزء الأوّل من ص 226 - 236.

بيانه، ودلائل هدايته، وشواهد رحمته، في غير تلك الفواتح من كتابه، بين آيات، وسور كثيرة، لا تعتبر الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر، أو غَيْضاً من فَيْض.

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم، ولو لم يفهموا معناها، ولم يدركوا مغزاها؛ ثقةً منهم بأنها صادرةٌ من لدن حكيم عليم، عمَّت حكمته ما خفي، وما ظهر من معاني كتابه، ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ سورة البقرة آية 255.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سورة آل عمران آية 7.

ونظير ذلك أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم، أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك، فتبتليهم بأمور يزلُّ عندها المزيَّفون، ويظهر الصادقون.

على حد قول القائل:

وعلى حدِّ المثل القائل: «إنَّ أخاك مَنْ واساكَ».

ابْلُ الرِّجَالَ إذَا أَرَدْتَ إخَاءَهُمْ ... وَتَوَسَّمَنَّ فِعَالَهُمْ وَتَفَقَّدِ
فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي اللُّبَانَةِ والتُّقَى ... فَبِهِ اليَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ

ونظير ذلك أيضاً: أن تكون أستاذاً معلماً، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك، ومبلغ ثقتهم فيك، وفي علمك بعد أن زوَّدتهم منك بدراسات واسعة، وتعاليم واضحة؛ فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الألغاز، والخفاء؛ ليظهر الذكيُّ من الغبيِّ، والواثق بك الوامق لك، من المتشكك فيك المتردِّد في علمك، وفضلك.

فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألغاز، والمعميَّات، صدرت عن علم منك بها، وإن لم يعلم هو تفسيرها، ويعرف أن لك حكمة في

إيرادها على هذه الصورة من الخفاء، وهي الاختبار، والابتلاء. وأما المتشكك فيك، فيقول: ماذا أراد بهذا؟ وكيف ساغ له أن يورده؟ وما مبلغ العلم الذي فيه؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زوَّدته بها من قبل ذلك، وكلها من أعلام العلم، وآيات الفضل.

ولا يفوتنك في هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلاً منهم «حاشاه حاشاه». فقد وسعَ كلَّ شيء علماً. إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم؛ فلا يتهمون الله في عدله، وجزائه، إذا جعل من الناس أهلاً لثوابه، وآخرين لعقابه. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ سورة الكهف آية 49.

(الرأي الثاني في فواتح السور) أن لها معنى مقصوداً معلوماً. قالوا: لأن القرآن كتاب هداية، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى؛ خصوصاً أننا أُمرنا بتدبر القرآن، والاستنباط منه، وهذا لا يكون إلاّ إذا فهم المعنى أيضاً.

غير أن أصحاب هذا الرأي تشعبت أقوالهم في بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور. فذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التي افتتحت بها، واستدلوا بآثار تفيد ذلك، منها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال «يس قَلْبُ القُرْآنِ» وقوله «مَنْ قَرَأَ السَّجْدَةَ، حُفِظَ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ». ومنها اشتهار بعض السور بالتسمية بها. ثم إن ورودها في فواتح سور مختلفة بلفظ واحد، ينافي كونها أسماء للسور. بل شأنها في ذلك شأن الأعلام المشتركة اشتراكاً لفظيًا كلفظ محمد المسمى به أشخاص كثيرون. فَيُضَمُّ إلى اسم كل منهم ما يميز مسماه عن غيره، فيقال: محمد المصري، ومحمد الشامي مثلاً. وكذلك فواتح السور يقال فيها: «الٓمٓ البقرة، والٓمٓ آل عمران، وحمٓ السجدة» وهلم جرا.

وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء للحروف الهجائية التي وضعت بإزائها. وهؤلاء منهم من قال: إن المقصود من ذلك هو إفهام

المخاطبين أن الذي سيتلى عَلَيْهم من الكلام الذي عجزوا عن معارضته، والإتيان بمثله، إنما تركب من مثل هذه الحروف التي في الفواتح، وهي معروفة لهم، يتخاطبون بما يدور عليها، ولا يخرج عنها.

ومنهم من قال: إن المقصود منها هو الدلالة على انتهاء سورة، والشروع في أخرى.

ومنهم من قال: إن المقصود منها القسم بها لإظهار شرفها وفضلها؛ إذ هي مبنى كتبه المنزلة.

ومنهم من قال: إن المقصود منها بيان نبوة محمد ﷺ من ناحية أنه ينطق بأسامي الحروف مع أنه أُميٌّ لم يقرأ، ولم يكتب. والمعروف أن النطق بأسامي الحروف من شأن القارىء وحده، لا سبيل للأمي إلى معرفتها، ولا النطق بها، فإتيانه بها، وترديده لها، دليلٌ ماديٌّ أمامهم على أنه لا يأتي بهذا القرآن من تلقاء نفسه، إنما يتلقّاهُ من لدن حكيم عليم.

ومنهم من قال: إن المقصود منها هو تنبيه السامعين، وإيقاظهم. وذلك أن قرْع السمع في أول الكلام بما يعني النفوس فهمه أو بالأمر الغريب، دافعٌ لها أن تصغي، وتتيقظ، وتتأمل، وتزداد إقبالاً: فهي كوسائل التشويق التي تُعرض في مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثة في التعليم.

ومنهم من قال: إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن. واستدراجها إلى الاستماع إليه. والمعروف أن أعداء الإسلام في صدر الدعوة كان يقول بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. فلما أُنزلت السُّورُ المبدوءة بحروف الهجاء، وقرع أسماعهم ما لم يألفوا، التفتوا، وإذا هم أمامَ آيات بيّناتٍ استهوتْ قلوبهم، واستمالتْ عقولهم، فآمن من أراد الله هدايته، وشارفَ الإيمانَ من شاء الله تأخيره، وقامت الحجَّة في وجه الطغاة المكابرين، وأخذت عليه الطرقُ فلا عذر لهم في الدنيا، ولا يوم الدين.

وقال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره لسورة آل عمران ما نصه:

«إعلم أن القرآن كتابٌ سماويٌّ. والكتب السماوية تُصرح تارةً، وترمزُ أُخرى. والرمز، والإشارة من المقاصد السامية، والمعاني، والمغازي الشريفة. وقديماً كان ذلك في أهل الديانات؛ ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين في المدينة، وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية؟ فيجعلون الألف بواحد، والباء باثنين، والجيم بثلاثة، والدال بأربعة؛ وهكذا مارِّين على الحروف الأبجديَّة، إلى الياء بعشرة، والكاف بعشرين؛ وهكذا إلى القاف بمائة، والراء بمائتين؛ وهكذا إلى الغين بألف، كما ستراه في هذا المقام.

كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية، ومصر، وبلاد الروم، وفي سوريا، قد اتَّخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن. وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر. وكانوا يرمزون بلفظ «إكسيس» لهذه الجملة: «يسوع المسيح بن الله المخلِّص» فالألف من إكسيس هي الحرف الأول من لفظ. «إيسوس» يسوع. والكاف منها هي الحرف الأول من «كرستوس» المسيح. والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في النطق في لفظ «ثبو» الله. والياء منها تدل على «إيوث» ابن. والسين الثانية منها تشير إلي «ثوتير» المخلص. ومجموع هذه الكلمات: يسوع المسيح ابن الله المخلِّص. ولفظ «إكسيس» اتفق أنه يدل على معنى سمكة، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإِلٰههم.

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلَّت عليه الحروف. قال الحبر الإنجليزي «صموئيل مونتج: «إنه كان يوجد كثيراً في قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب، والعظم. وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم».

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية، وتغلْغَلَت فيها، ونزل القرآن لجميع الناس من عرب، وعجم، كان لا بدَّ أن يكون على منهج يلذُّه الأمم، ويكون فيه ما يألفون. وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور، وبين الجُمَل عند اليهود، ورموز النصارى، إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل، والصبي؛ أو بين علم العلماء، وعلم العامَّة. وبهذا تبين لك أن اليهود، والنصارى كان لهم رموز، وكانت رموز اليهود هي حروف الجُمّل.

قال ابن عباس «رضي الله عنهما»: مرَّ أبو ياسر بن أَخْطب برسول الله ﷺ، وهو يتلو سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ثم أتى أخوه حُيَيّ بن أخْطب، وكعب بن الأشرف، فسألوه عن ﴿الٓمٓ﴾ وقالوا: ننشدك الله الذي لا إله إلا هو أحقٌّ أنها أَتَتْكَ من السماء؟ فقال النبي ﷺ: نَعَمْ. كَذٰلِكَ نَزَلَتْ. فقال حُيَيّ: إن كنت صادقاً إني لأعلم أَجَلَ هذه الأمة من السنين. ثم قالوا: كيف ندخل في دين رجل دلَّت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أُمته إحدى وسبعون سنة، فضحك النبي ﷺ. فقال حُيَيّ: فهل غير هذا؟ فقال: نعم ﴿الٓمٓصٓ﴾. فقال حُيَيّ: هذا أكثر من الأول: هذا مائة وإحدى وستون سنة. فهل غير هذا؟ قال: نعم ﴿الٓر﴾ فقال حُيَيّ: هذا أكثر من الأولى والثانية، فنحن نشهد إن كنت صادقاً ما ملكت أُمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة. فهل غير هذا؟ فقال: نعم ﴿الٓمٓر﴾. قال حُيَيّ: فنحن نشهد أنَّا من الذين لا يؤمنون، ولا ندري بأيِّ أقوالك نأخذ. فقال أبو ياسر: أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة، ولم يبيِّنوا أنها كم تكون؟ فإن كان محمد صادقاً فيما يقول، إني لأراه سيجتمع له هذا كله. فقام اليهود، وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير؟

فبهذا تعرف أيها الذكيّ أن الجُمَّل كانت للتعارف عند اليهود، وهو نوع من الرموز الحرفية، فكانت هذه الحروف لا بدَّ من نزولها في القرآن؛ ليأخذ الناس في فهمها كل مذهب، ويتصرف الفكر فيها.

ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف:

(الطريقة الأولى) أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله، كما روي عن ابن عباس «رضي الله عنهما أنه قال: الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم ملكه. وعنه أن ﴿الٓر﴾ و ﴿حمٓ﴾، و ﴿نٓ﴾ مجموعها الرحمٰن. وعنه أن ﴿الٓمٓ﴾ معناه أنا الله أعلم، ونحو ذلك في سائر الفواتح. وعنه أن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد. أي القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد «عليهما الصلاة والسلام» أقول: إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجلَّ في أكثر الأحوال، وذكر الله أجلُّ شيء. ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدَّم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية، ورومة. ولكن لا بدَّ أن يكون هناك ما هو أعلى، وأجلّ.

(الطريقة الثانية) أن هذه الحروف من أعجب المعجزات، والدلالات على صدق النبي ﷺ. وهذا مما ترضاه النفوس. ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة. وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها. والذي في أول السور أربعة عشر حرفاً منها، رهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً إن لم تعدَّ الألف حرفاً برأسه، فالأربعة عشر نصفها. وقد جاءت في تسع وعشرين سورة، وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدَّت فيها الألف. وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي: «فحثه شخص سكت» بنصفها، وهي الحاء، والهاء، والصاد، والسين، والكاف.

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة ـ أي يضعف الاعتماد عليها ـ وهي ما تقدَّم، وإما مجهورة، وهي ثمانية عشر، نصفها ـ وهو تسعة ـ ذكرت في فواتح السور، ويجمعها «لن يقطع أمر».

والحروف الشديدة ثمانية، وهي «أجدت طبقك» أربعة منها في الفواتح، وهي «أقطك».

والحروف الرخوة عشرون، وهي الباقية؛ نصفها عشرة، وهي في هذه الفواتح. يجمعها «حمس على نصره».

والحروف المطبقة أربعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، وفي الفواتح نصفها: الصاد، والطاء.

وبقية الحروف - وهي أربعة وعشرون حرفاً - تسمى منفتحة، نصفها، وهو اثنا عشر في الفواتح المذكورة.

فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية، إن لم تعدّ الألف، وجعلها في تسع وعشرين سورة عدد الحروف، وفيها الألف؟ وكَيف أتى بنصف المهموسة، ونصف المجهورة. ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة، ونصف المنفتحة؟!!.

ولقد ذكرت لك قُلاًّ من كُثر مما ذكره العلماء في هذا المقام، ولا أطيل عليك خيفة السآمة، والملل، وكفاك ما أمليته عليك في هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأوصاف؟ وكيف وضعت الحروف على هذا النظام؟.

وإني موقن أن المتعلم لو طلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصَّفة على هذا الوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة، فكيف يراعي الحروف الشديدة؟! وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد؟!.

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ. ففائدة هذا الوجه أهمُّ من الوجه الأول؛ فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى. وأما الوجه الثاني ففيه إعجازٌ للعقول، وحيرة. فيقال: كيف تنصَّف الحروف الهجائية، وتنصَّف أنواعُها من مهموسة، وشديدة الخ. وهذه الأنواع لم يدرسها أحد في العالم أيام النبوة. ثم لما ظهرت تلك الدراسات، وافقت تلك الحروف بأنصافها!

إن ذلك ليعطي العقول مثلاً من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذاً هو من الوحي. وهذا الوجه على قوّته يفضله ما بعده.

(الطريقة الثالثة) أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً، متناسقاً متناسباً. والكتاب السماوي إذا جاء مطابقاً لنظامه، موافقاً لإبداعه، سائراً على منهاجه، دلّ ذلك على أنه من عنده. وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفاً لنهجه، منافراً لفعله، منحرفاً عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعاً، مفتعلاً، منقولاً، مكذوباً؛ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ سورة النساء آية 82.

والعالم المشاهد، فيه عدد الثمانية والعشرين. وذلك فيما يأتي:

١ ـ مفاصل اليدين في كل يد أربعة عشر.

٢ ـ خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة في أسفل الصلب، وأربع عشرة في أعلاه.

٣ ـ خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الخلقة: كالبقر، والجمال، والحمير، والسباع، وسائر الحيوانات التي تلد أولادها، منها أربع عشرة في مؤخر الصلب، وأربع عشرة في مؤخر البدن.

٤ ـ عدد الريشات التي في أجنحة الطير المعتمدة عليها في الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة في كل جناح.

٥ ـ عدد الخرزات التي في أذناب الحيوانات الطويلة الأذناب: كالبقر، والسباع.

٦ ـ عمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة: كالسمك، والحيّات، وبعض الحشرات.

٧ ـ عدد الحروف التي هي في لغة العرب التي هي أتمُّ اللغات، ثمان وعشرون حرفاً. منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف، وهي: ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن. وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها، وهي: أ ب ج ح خ ع غ ف ق ك م هـ و ي.

٨ ـ والحروف التي تخط بالقلم قسمان. منها أربعة عشر معلمة بالنقط، وهي: ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن، وأربعة عشر غير معلمة وهي: ا ح د ر س ص ط ع ك و هـ ل م لا. وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة. أما الأولى فهي الهمزة. فهذه أربعة عشر حرفاً. وبقيت الياء، وهي تنقط في وسط الكلمة، ولا تنقط في آخرها؛ فأصبحت الحروف المعلمة أربعة عشر، وغير المعلمة أربعة عشر، والحرف التاسع والعشرون معلم، وغير معلم؛ لتكون القسمة عادلة. والفضل في هذا العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية، فإنه كان حكيماً، والحكيم هو الذي يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية. وهذا جعل ثمانية وعشرين حرفاً مقسمة قسمين، كل منها أربعة عشر كما في مفاصل اليدين، وفقرات بعض الحيوانات.

٩ ـ منازل القمر ثمان وعشرون منزلة، في البروج الشمالية أربع عشرة وفي الجنوبية أربع عشرة. فهذا يفيد أن الموجودات التي عددها ثمانية وعشرون تكون قسمين كل منهما أربعة عشر. فهكذا هنا في القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين، قسم منهما أربعة عشر منطوق به في أوائل السور، وقسم منهما أربعة عشر غير منطوق به في أوائلها. وكأنه تعالى يقول: أيْ عبادي، إن منازل القمر ثمان وعشرون؛ وهي قسمان؛ ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهي قسمان، وهكذا. والحروف التي تدغم في حرف التعريف، والتي هي معلمة كلٌّ منها أربعة عشر. وضدها أربعة عشر، فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل مني؛ لأني نظمت حروفه على هذا النمط الذي اخترته في صنع المنازل، والأجسام الإنسانية، والأجسام الحيوانية، ونظام الحروف الهجائية، فمن أين لبشر كمحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته، والسنن الذي رسمته، والنهج الذي سلكته؟ إن القرآن تنزيلٌ مني. وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك؛

فتعلموا أني ما خلقت السموات،والأرض وما بينهما باطلاً؛ بل جعلت النظام في العالم، وفي الوحي متناسباً. وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان. ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال. إن اللغات متغيِّرة، وليس في العالم لغة تبقى غير متغيِّرة إلا التي حافظ عليها دينٌ. وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين؟».

هذا ـ ولا يخفى عليك أن ذاك الرأي الثاني في فواتح السور أبلغ في نقض الشبهة من الرأي الأول؛ لأنه ينفي ما زعموه من أساس الاتهام، وهو أنه ليس لهذه الفواتح معنى مفهوم؛ ويقرر أن معانيها مفهومة على ما تبيَّن في تلك الوجوه السابقة. وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعاني، فليس ذلك عيباً في القرآن إنما هو عيب في استعداد بعض أفراد الإنسان. وكتاب الله خوطب به الخواصُّ كما خوطب به العوامُّ، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظٌ لا يفهمها إلا الخاصَّة دون العامة.

وعلى كلا هذين الرأيين يتَّضح لك أن اشتمال القرآن على هذه الألفاظ، ليس من قبيل اشتماله على لغو الكلام، أو إظهار القرآن بمظهر عميق مخيف؛ ولا يفهم منه أنها رموز للمصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن، إلى غير ذلك من الهذيان. بل ثبوت هذه الفواتح لا يقدح في كون القرآن من عند الله، سواء أفادت معنى ظاهراً أم لم تفد على ما بيَّناه من حكمة الله البالغة في إيرادها. والله هو الحكيم العليم.

معاني حروف التهجي:

ذهب العلماء مذاهب شتى في تفسيراتهم لفواتح السور القرآنية من حروف التهجي دون أن يصل أحد منهم إلى معنى يقيني مانع لما ترمز إليه تلك الحروف.

ومن تفسيرات العلماء:

1 ـ **إنّها سر من أسرار القرآن** ـ اختصها الله بعلمه، وهي من متشابه

القرآن الذي لا يعلم تأويله إلاّ هو. وهي مجرد فواتح افتتح الله بها كتابه، وله أن يضع لسوره ما يشاء محتفظاً بسرها، وبعلمه لها؛ إعجازاً للبشرية، وإلى قيام الساعة. ونقل عن مجاهد بن التابعين قوله: الم، الّر، فواتح افتتح الله بها القرآن[1] وذلك بالتوقف عند هذا المعنى بالافتتاح، وبأنّه سر من أسرار هذا القرآن.

وقد نقل عن الخليفة أبي بكر الصديق قوله: «في كلّ كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور»[2].

ونقل عن علي «كرم الله وجهه» قوله: «إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي»[3].

ونقل عن ابن مسعود، والخلفاء الراشدين قولهم: «إنّ هذه الحروف علم مستور، وسر محجوب استأثر الله به»[4].

ونقل عن الشعبي أنّه سئل عن فواتح السور فقال: «إنّ لكلّ كتاب سر، وإنّ سر هذا القرآن فواتح السور»[5].

2 ـ إنّها أسماء لله تعالى: عبّر عنها بهذه الحروف.

عن ابن مسعود قال: «هو اسم الله الأعظم»[6].

وعن ابن عباس قال: ﴿الٓمٓ﴾ اسم من أسماء الله تعالى الأعظم»[7].

---

(1) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 10.
(2) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 302.
(3) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 302.
(4) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 302.
(5) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2ص 968.
(6) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 9.
(7) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 9.

ونقل ابن عطية أنّ حروف التهجي هي الاسم الأعظم[1].

وعن السديّ قال: «فواتح السور أسماء من أسماء الرب جلّ جلاله فرقت في القرآن»[2].

3 ـ إنّها حروف تهجي مقطعه كلّ حرف مأخوذ من اسم الله تعالى.

أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: ﴿الٓمٓ﴾، و ﴿حمٓ﴾، واسم مقطع»[3].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قوله: ﴿ءَايَتُ﴾، ﴿حمٓ﴾، و ﴿نٓ﴾، حروف الرحمٰن مفرقه»[4].

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قوله. ﴿الٓمٓصٓ﴾ الألف من الله، والميم من الرحمٰن، والصاد من الصمد»[5].

وأخرج الحاكم وغيره من طريق سعيد بن جبير عن عباس قوله: «في ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ الكاف من كريم، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق»[6].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدّي عن أبي مالك، وأبي صالح عن ابن عباس وابن مسعود في قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: «قال هو هجاء مقطع: الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصور»[7].

---

(1) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 9.
(2) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 9.
(3) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 9.
(4) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(5) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(6) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(7) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمه في قوله: ﴿طسٓمٓ﴾ قال: «الطاء من ذي الطول، والسين من القدوس، والميم من الرحمٰن»[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿حمٓ﴾ قال: «حاء اشتقت من الرحمٰن، وميم اشتقت من الرحيم»[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ قال: «الحاء، والميم من الرحمٰن، والعين من العليم، والسين من القدوس، والقاف من القاهر»[3].

وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله ﴿الٓمٓ﴾ قال: «أنا الله أعلم، وفي قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال: أنا الله أفصل، وفي قوله: ﴿الٓرٰ﴾ قال: أنا الله أرى»[4].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: «أنا الكبير أنا الهادي، علي أمين صادق»[5].

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن سعيد عن ابن عباس في قوله ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال «كبير، هاد، أمين صادق»[6]. وحكى الكرماني في قوله: ﴿قٓ﴾ إنّه حرف من اسمه قادر، وقاهر[7].

«وحكى الكرماني في قوله: ﴿نٓ﴾ أنّه مفتاح اسم الله تعالى نور، وناصر»[8].

---

(1) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(2) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(3) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(4) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(5) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(6) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(7) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.
(8) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 9.

4 ـ **إنّها قَسَمٌ أقسم الله به ـ حيث إنّ كلّ فاتحة منها اسم لله تعالى:**

أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن عباس قال: «﴿الٓمٓ﴾، و ﴿طسٓمٓ﴾، و ﴿صٓ﴾ وأشباهها قَسَمٌ أقْسَمَ الله به»[1].

5 ـ **إنّها أسماء للقرآن ـ كالفرقان، والذكر ـ وقيل إنّها أسماء للسور القرآنية.**

أخرج ابن أبي حاتم: «أنّ كلّ هجاء في القرآن هو اسم من أسماء القرآن»[2]. وقيل هي أسماء للسور أيضاً.

يذكر ابن جرير الطبري في تفسيره، وابن كثير في تفسيره أيضاً أنّ هذه الحروف أسماء علمية للقرآن بوجه عام، أو لبعض سور القرآن المفتتحة بها بوجه خاص.

ونقل الماوردي عن زيد بن أسلم أنّها أسماء للسور[3].

6 ـ **إنّها للحساب.**

يقول السهيلي: «لعل عدد هذه الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى بقاء الأمة»[4].

ويقول الخويبي: «وقد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أنّ البيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاث وثمانين وخمسماية، ووقع كما قال»[5].

---

(1) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 10.
(2) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 10.
(3) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 10.
(4) السهيلي هو أبو القاسم بن عبد الله السهيل توفي بمراكش سنة 581 له كتاب مبهمات القرآن.
(5) الخويبي هو الفقيه أحمد بن خليل بن سعاده صاحب الإمام فخر الرازي توفي سنة 637 هـ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي العاليه في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ قال: هذه الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين دارت بها الألسن ليس منها حرف إلاّ وهو مفتاح اسم من أسمائه تعالى، وليس منها حرف إلاّ وهو من آلائه، وليس منها حرف إلاّ وهو في مدة أقوامهم وآجالهم: فالألف مفتاح اسم الله، واللاّم مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، فالألف آلاء الله، واللاّم لطف الله، والميم مجد الله، فالألف سنة، واللام ثلاثون، والميم أربعون».

ويروي العز بن عبد السلام أنّ علياً «كرم الله وجهه» استخرج واقعة معاوية من ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

ويذكر الألوسي[1] في تفسيره أنّ بعض الشيعة يفسرون مجموعة هذه الفواتح إذا حذف فيها ما يفيد أنّ «صراط علي حق تمسكه»، فيرد عليهم بعض السنيين بخطاب مستنبط من الفواتح نفسها بحروف ذاتها غير المكررة «صحح طريقك مع السّنة».

ولقد أنكر جمهور علماء السّنة معنى الحساب لفواتح السور، ونسبوه إلى ما يعرف بِعَدِّ أبي جاد. حيث قال ابن حجر العسقلاني[2]: «إنّ هذا باطل لا يجوز الاعتماد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس «رضي الله عنه» الزجر عن عدّ أبي جاد، والإشارة إلى أنّ ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنّه لا أصل له في الشريعة»[3].

7 ـ إنّها أدوات تنبيه.

يقول الخويبي: «القول بأنّها تنبيهات جيد؛ لأنّ القرآن كلام عزيز،

---

(1) الألوسي هو ابن عربي محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي الملقب بالشيخ الأكبر له أربعماية كتاب ـ توفي سنة 638 هـ.

(2) ابن حجر العسقلاني هو أحمد بن علي بن محمد شهاب الدين أبو الفضل من أئمة الحديث وحفاظه.

(3) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 11.

وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد على سمع متنبه؛ فكان من الجائز أن يكون الله قد علِم في بعض الأوقات كون النبي «ﷺ» في عالمِ البشر مشغولاً، فأمر جبريل بأنّ يقول عند نزوله: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿حمٓ﴾؛ ليسمع النبي صوت جبريل، فيقبل عليه، ويصغي إليه. قال: وإنّما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألا، وأما، لأنّها من الألفاظ التي يتعارفها النّاس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد؛ لتكون أبلغ في قرع سمعه»[1].

ولكن الإمام رشيد رضا صاحب تفسير المنار يستبعد هذا التأويل، وجعل التنبيه للرسول «ﷺ»، فهو يقول: «كان يتنبه، وتغلب الروحانية على طبعه الشريف بمجرد نزول الروح الأمين عليه، ودنوه منه. كما يعلم ممّا ورد في نزول الوحي من الأحاديث الصحيحة، ولا يظهر فيه وجه تخصيص بعض السور بالتنبيه».

ويذكر رشيد رضا بعد ذلك: «أنّ التنبيه إنّما كان أولاً وبالذات للمشركين في مكة، ثمّ لأهل الكتاب في المدينة»[2]. وقد قال بعض العلماء: إنّه تنبيه للعرب حيث كانوا يلغون بالقرآن، فإذا سمعوا هذه الأحرف، استمعوا له تعجباً.

8 ـ **إنّها الحروف التي يتكون منها القرآن** ـ فتدل على أنّ القرآن يتكون، ويتألف من هذه الحروف التي جاء بعضها مقطعاً، منفرداً، وجاء تمامها مؤلفاً مجتمعاً؛ وذلك إعجازاً للعرب بأنّه نزل بالحروف التي يعرفونها، والتي تتكون منها لغتهم، ويتخاطبون بها، ويظهر بها بيانهم، وتتجلى بها فصاحتهم، ومع ذلك أعجزهُم، وأقرعهم، وأفحمهم.

---

(1) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ـ ص 11.

(2) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 303.

وقد قال بهذا الرأي الزمخشري[1] والبيضاوي[2]، وابن تيمية[3]، والحافظ المزي[4].

9 - **إنّها الحروف التي يتكون منها الكلام** - حيث ذكر منها أربعة عشر حرفاً هي نصف جميع الحروف في اللغة العربية. حيث ذكرها الله حروفاً مفردة، وحرفين حرفين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة، وخمسه، لأنّ تراكيب الكلام على هذا النمط، ولا زيادة[5].

10 - **إنّها أمارة لأهل الكتاب** بأنّه سينزل كتاب على محمد أول سور منه حروف مقطعة[6].

الترجيح بين معاني حروف التهجي:

لنا القول: بالجمع بين المعنى الأول، والسابع حيث لا تناقض بينهما.

فبالنسبة للمعنى الأول: فلا يزال القرآن، وسيظل معجزاً بفواتح بعض سوره، حيث إنّها سرّ من أسرار القرآن اختص الله بها علماً وحكمة. وهذا ما أخذ به الخلفاء الراشدون استناداً إلى أزلية القرآن

---

(1) الزمخشري هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ولد في زمخشر 460 هـ وتوفي في خوارزم عام 538 هـ.

(2) البيضاوي هو ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي صاحب تفسير البيضاوي توفي سنة 685 هـ.

(3) ابن تيمية هو الإمام المصلح المجدد تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي توفي سنة 728 هـ.

(4) الحافظ المزي هو يوسف بن عبد الرحمٰن أبو الحجاج المزي نسبة إلى المزة بدمشق وهو تلميذ ابن تيمية توفي سنة 742 هـ.

(5) السيوطي - الإتقان - جـ 2 - ص 11.

(6) السيوطي - الإتقان - جـ 2 - ص 11.

بحروفه، وحيث يقول الخليفة الصديق: «في كلّ كتاب سرّ، وسرّه في القرآن أوائل السور»[1].

وحيث يقول الإمام علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه»: «إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي»[2].

وحيث نقل عن ابن مسعود، والخلفاء الراشدين: «إنّ هذه الحروف علم مستور، وسرّ محجوب استأثر الله بها»[3].

واستناداً بالأخذ بهذا المعنى فله دلالته السليمة، والممتدة وإلى قيام الساعة، حيث ومهما تعددت التفاسير للحروف فهي على ضعف سندها لا تقوى على مناقشة أو الحط من قوة معنى الاستدلال بالحروف على أنّها سرّ هذا القرآن المعجز للبشرية دوماً.

وأمّا بالنسبة للمعنى السابع: فلا يزال القرآن، وسيظل الكتاب المعجز بتنبيهاته للنّاس إلى قيام الساعة، فهو في كلّ لحظة، وفي كلّ آية، وفي كل سورة، بل وفي كل تلاوة منبّه، ومؤثر، وحافز، تزداد تنبيهاته حدّة، وأثراً، وتأثيراً، بسماع أو بتلاوة حروف التهجي التي تفتتح بها بعض السور ناقلاً المرء إلى ملكوت الروحانية مفكراً، ومتأملاً، ومتّعظاً، وثمّ واعياً لما يسمع، أو يتلو.

ولعل قول الإمام المفسر رشيد رضا في هذا المعنى ما يعطي المقصود حقه حيث يقول: «من حسن البيان، وبلاغة التعبير، التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع، والتأثير أن ينبه المتكلم المخاطب إلى مهمات كلامه والمقاصد الأولى بها، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها، ومن ذلك التنبيه

---

(1) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 302.
(2) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 302.
(3) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 302.

لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها. وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه، وأداة الاستفتاح، فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حدّ الإعجاز في البلاغة، وحسن البيان. ويجب أن يكون الإمام المقتدى، كما أنّه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟! ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت، وتكييفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر، أو غنّة الاسترحام والعطف، أو رنة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب التهويش وقت الجدل، ومنه الاستعانة بالإشارات، وتصوير المعاني بالحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة، أو وضع خط فوقها أو تحتها»[1].

ولنا القول: بالتوافق بين حكمة التنبيه، وحكمة أسرار القرآن؛ حيث إنّ التنبيه القرآني بمثل حروف التهجي هذه سرّ من أسرار إعجازه في مخاطبته لأهل مكّة من المشركين، أو لأهل المدينة من أهل الكتاب.

(1) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ جـ 8 ـ ص 299.

الباب السادس

شبهات حول نزول القرآن على سبعة أحرف، وتفنيدها.

الشبهة الأولى:

إن في القرآن اختلافاً، وتناقضاً تثبته أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف. ودليل ذلك أنّ هذه الأحاديث تفيد الاختلاف في القرآن. وهذا يتناقض مع نفي القرآن لأي اختلاف مصداق قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ سورة النساء آية 82.

وسؤال أصحاب الشبهة يتمثل في: كيف توفق بين نفي القرآن لأي اختلاف فيه، وبين تأكيد وتثبيت أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف لذلك الاختلاف؟ فهذا هو عين التناقض. فلو نزل القرآن على حرف واحد، لما كان هناك اختلاف!!.

تفنيد هذه الشبهة:

في الحقيقة لا توجد شواهد تناقض أو معالم اختلاف. وما مصدر

هذه الشبهة إلا عدم الفهم لتلك الأحاديث، ومعنى الآية القرآنية. فالاختلاف الذي تثبته الأحاديث تلك هو غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن. فالاختلاف الذي تثبته أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف هو اختلاف تعددي، وسردي، وليس اختلاف تضاد، وتناقض، سواء بالنسبة للمراد من، وما تعنيه الأحرف السبعة، أو سواء بالنسبة لما يعنيه القرآن من عدم وجود الاختلاف فيه.

فالأحاديث تلك تثبت الاختلاف التعددي لمعاني الأحرف السبعة، وما تدل عليه. أي الاختلاف في المعاني، والتنويع في طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه، والتنويع في أوجه قراءاته؛ وفي حدود السبعة معاني، أو السبعة أوجه، أو السبعة أحرف، وبشرط الصحة لها؛ وأنها منقولة كلها عن الرسول «ﷺ»، وبشكل متواتر. أمّا الاختلاف الذي ينفيه القرآن فهو بمعنى التناقض، والتعارض، والتدافع بين معاني القرآن الكريم، وتعاليمه وأحكامه، فليس في القرآن شيء من ذلك، وإن اختلفت طرق أدائه، وأوجه قراءته، وهي التي تسمى بالأحرف السبعة، فهذه الأحرف كلها صحيحة، ولا تناقض بينها، وبين القرآن الصحيح في نزوله، ومعانيه وتواتره. وكما يقول شيخنا محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان(1): «ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف لا يلزم منه تناقض، ولا تخاذل، ولا تضاد، ولا تدافع بين مدلولات القرآن، ومعانيه وتعاليمه، ومراميه، بعضها مع بعض. بل القرآن كله سلسلة واحدة، متصلة الحلقات، محكمة السور والآيات، متآخذة المبادىء، والغايات، مهما تعددت طرق قراءته، ومهما تنوّعت فنون أدائه».

وكما يقول الإمام ابن الجزري: قد تدبرنا اختلاف القرآن، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال: **إحداهما**: اختلاف اللفظ لا المعنى. **والثانية**: اختلافهما جميعاً مع جواز اجتماعهما في شيء واحد. **الثالثة**: اختلافهما

(1) الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 1 ـ ص 185.

مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد، لكن يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.

فأما الأول: فكالاختلاف في ألفاظ «الصراط، وعليهم، ويؤوده، والقدس، ويحسب»، يطلق عليه أنه لغات فقط.

وأما الثاني: فنحو لفظ «مالك وملك» في الفاتحة؛ لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى لأنّه مالك يوم الدين وملكه.. وكذا ننشزها بالزاي، وننشرها بالراء؛ لأنّ المراد بهما هو العظام. وذلك أن الله تعالى أنشرها أي أحياها، وأنشزها أي رفع بعضها إلى بعض حتى التأمت، فضمن الله المعنيين في القراءتين.

وأما الثالث: فنحو قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قرىء بالتشديد، والتخفيف في لفظ «كذبوا» المبني للمجهول. فأما وجه التشديد، فالمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم. وأما وجه التخفيف، فالمعنى: وتوهم المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم (أي كذبوا عليهم) فيما أخبروهم به. فالظن في الأولى يقين، والضمائر الثلاثة المرسل. والظن في القراءة الثانية شك، والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ بفتح اللام الأولى، ورفع الأخرى في كلمة: «لتزول» وبكسر الأولى وفتح الثانية فيها أيضاً. فأما وجه فتح الأولى، ورفع الثانية من «لتزول» فهو أن تكون كلمة «إن» مخففة من الثقيلة، أي وإن مكرهم كامل الشدة تقتلع بسببه الجبال الراسيات من مواضعها، وفي القراءة الثانية «إن» نافية أي ما كان مكرهم، وإن تعاظم، وتفاقم؛ ليزول منه أمر محمد «ﷺ»، ودين الإسلام. ففي الأولى: تكون الجبال حقيقة، وفي الثانية تكون مجازاً. ثم قال أيضاً: «فليس في شيء من القرآن تناف، ولا تضاد، ولا تناقض. وكل ما صح عن النبي «ﷺ» من ذلك، فقد وجب قبوله، ولم يسع أحداً من الأمة رده، ولزم الإيمان به؛ وأنّه كله منزل من عند الله، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب

الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته علماً، وعملاً، ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظناً أن هذا تعارض».

إلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: «لا تختلفوا في القرآن»[1].

الشبهة الثانية:

إن في القرآن شكاً، وريبة سببها أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف. فبعض الروايات تفيد معنى التخيير للمرء بأن يأتي باللفظ من عنده وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى كحديث أبي بكره، وفيه: «كلها شاف كاف، ما لم تختم آية عذاب برحمة. أو آية رحمة بعذاب. نحو قولك: تعال، وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وعجّل». وهذا اللفظ جاء من رواية أحمد بإسناد جيد. ومثل هذا الحديث جاء من رواية أبي بن كعب. وجاء أكثر من ذلك حيث روى أكثر من ذلك أبو عبيد في فضائله: إن عبد الله بن مسعود أقرأ رجلاً: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ فقال الرجل: «طعام اليتيم»، فردها عليه، فلم يستقم بها لسانه. فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر. قال نعم. قال: فافعل.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن الحروف السبعة كلها من عند الله تعالى نزولاً، وتواتراً، وتلاوة. وما دام الأمر كذلك فكيف يعقل أن يؤدي تعددها، واختلافها في أوجه التلاوة إلى الشك، والريبة؟!! إلا إذا كان شك الطبعة في الإسلام، والريبة في القرآن، وعن سوء نية من أعداء الإسلام لا فهم لهم لمعنى اختلاف الأحرف السبعة، أو تعددها، ولا دليل لهم على شك أو ريبة قد يسببها تعدد أوجه القراءة أي نزول القرآن على سبعة أحرف!

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان في علوم القرآن. الجزء الأوّل. ص 186.

ثانياً: **بالنسبة لحديث أبي بكره** فإنه من الاستحالة بمكان أن يعني جواز تبديل شيء من القرآن بما لا يضاده كما يزعمون. أو أنّه يعني التخيير للشخص بأن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى.

فروايات نزول القرآن على سبعة أحرف إنما تعني فقط التوسعة على الناس بقراءة القرآن بمترادفات من اللفظ الواحد مع ملاحظة أن جميع هذه المترادفات قد نزلت فعلاً من عند الله تعالى. وبمعنى آخر فإن تلك الأحاديث إنما جاءت لتوسع على الناس، فيقرأون القرآن على أكثر من وجه، أي يقرأون المعنى الواحد بأكثر من لفظ، وكل يقرأ بالوجه أو اللفظ الذي يسهل عليه التلفظ به. مع العلم أنّ هذه الأوجه أي هذه الألفاظ التي تدلّ على المعنى الواحد كلها نزلت من عند الله تعالى، وكلها مما وردت به الأحاديث المذكورة، وهو من معانيها، وما تعنيه وتدل عليه.

ويدل على ذلك، وأن جميع مترادفات اللفظ الواحد للمعنى الواحد نازل من عند الله هو قول الرسول «ﷺ» لكل من تنازع فيها من الصحابة: «هكذا أنزلت». وكذلك قول كل من اختلف من الصحابة فيها لأخيه: «أقرأنيها رسول الله ﷺ». وكذلك قوله تعالى لرسوله جواباً لمن سأله تبديل القرآن: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سورة يونس آية 15.

روى البخاري في صحيحه، وأحمد في مسنده، والطبري في تفسيره، والزركشي في برهانه، ومسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه، والنسائي في سنته، والترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة الرسول «ﷺ»، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله «ﷺ»، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم؛ ثم لببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ قلت له: كذبت؛ فوالله، إن رسول الله «ﷺ» أقرأني هذه

السورة التي سمعتك تقرؤها. فانطلقت أقوده إلى رسول الله«ﷺ»، فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها!! وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال الرسول «ﷺ»: «أرسله يا عمر، إقرأ يا هشام؟ فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها. فقال رسول الله«ﷺ»: هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله «ﷺ»: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف. فاقرؤوا ما تيسر منها».

ثالثاً: وأيضاً بالنسبة لحديث أبي بكره هذا، والذي نصه ما رواه أحمد، والطبراني من حديث أبي بكره: «أن جبريل قال: يا محمد، اقرأ القرآن على حرف. قال ميكائيل: استزده حتى بلغ سبعة أحرف. قال: كلها شاف كاف ما لم تخلط آية عذاب برحمة، أو رحمة بعذاب»[1]. فلا يدل أبداً على جواز تبديل لفظ القرآن بما لا يضاده، وإنما هو من قبيل ضرب الأمثال التي يضربها الرسول «ﷺ» للحروف التي نزل عليها القرآن؛ ليفيد أن تلك الحروف على اختلافها ما هي إلا ألفاظ متوافقة مفاهيمها كما يقول شيخنا الزرقاني «وإنّها متساندة معانيها لا تخاذل بينها، ولا تهافت، ولا تضاد، ولا تناقض، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه، ويناقضه: كالرحمة التي هي خلاف العذاب، وضدها. وتلك الأحاديث بهذا الوجه، تقرير؛ لأن جميع الحروف نازلة من عند الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وأيضاً، كما يقول صاحب التبيان في مثل هذا المقام إذ يقول: «إن النبي «ﷺ» علّم البراء بن عازب دعاءً فيه هذه الكلمة: «ونبيك الذي أرسلت» فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على الرسول «ﷺ»، قال: «ورسولك الذي أرسلت» فلم يوافقه النبي «ﷺ» على ذلك؛ بل قال له: لا «ونبيك الذي أرسلت». وهكذا نهاه الرسول «ﷺ» أن يضع لفظة رسول موضع لفظة نبي مع أن كليهما حق لا يحيل معنى؛ إذ هو «ﷺ»

(1) الإمام السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 48.

رسول، ونبي معاً. ثم قال: فكيف يسوغ للجهّال المغفلين أن يقولوا: إنّه «عليه الصلاة والسلام» كان يجيز أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزيز حكيم غفور رحيم أو سميع عليم، وهو يمنع ذلك في دعاء ليس قرآناً؛ والله يقول مخبراً عن نبيه «ﷺ» ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ ولا تبديل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى[1].

رابعاً: وأما بالنسبة للرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة «الفاجر» بدلاً من كلمة ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ فتفسيرها: أن ابن مسعود سمع الروايتين عن رسول الله «ﷺ» ولما سمع الرجل لا يستطيع النطق بالقراءة الأولى، أشار إليه أن يقرأ ثانية، وكلاهما منزل من عند الله تعالى. وإلا، وحاشا أن يبدل صحابي مثل عبد الله بن مسعود، وهو أحفظ الناس للقرآن، وأكثرهم تلاوة له، وأعلمهم بنزوله أن يبدله، أو يبدل لفظاً مكان لفظٍ.

الشبهة الثالثة:

إن نزول القرآن على سبعة أحرف يتنافى مع ما هو مقرر، ومعروف من أن القرآن نزل بلغة واحدة هي لغة قريش. فمن المتفق عليه أن القرآن نزل على حرف واحد هو لغة، ولسان قريش، ولذلك فإن ما جاءت به الأحاديث من أنه نزل على سبعة أحرف يتنافى، ويتناقض مع القول السابق. وبذلك، وبتعدد الأحرف والألسنة التي نزل عليها القرآن تنتفي وحدة الأمة الإسلامية بسبب عدم تلاوتها للقرآن بلسان واحد.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنه من الخطأ الفاحش تفسير أو حصر معنى الحرف بأنه

---

(1) الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 1 ص 189.

لغة، وبالمعنى الجامد لها. فالعلماء فسروا الأحرف السبعة بأنها أوجه التغاير السبعة، وليس اللغة أو اللهجة. وهذه الأوجه على الأرجح هي:

الوجه الأول: اختلاف الأسماء إفراداً، وجمعاً. مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ سورة المؤمنون آية 8 وسورة المعارج آية 32.

فقد قرىء «لأماناتهم» بالجمع، وقرىء «لأمانتهم» بالإفراد. وقد رسمت في المصاحف العثمانية «لأمنتهم» وأضيف فوقها ألف صغيرة لتفيد القراءتين بالجمع، والإفراد.

الوجه الثاني: اختلاف تصريف الأفعال. مثل قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ سورة الأعراف آية 138. فقد قرىء اللفظ «يعكفون» بكسر الكاف، وضمها.

الوجه الثالث: اختلاف وجوه الإعراب ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ﴾ سورة البقرة آية 282. فقد قرىء باللفظ «يضار» بفتح الراء وضمها.

الوجه الرابع: الاختلاف بالنقص، والزيادة. مثل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. فقد قرئت الآية بمن وبدون من نحو: «جنات تجري من تحتها الأنهار».

الوجه الخامس: الاختلاف بالتقديم، والتأخير ـ مثل قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ سورة التوبة آية 111.

فقد قرئت بتقديم الفعل الثاني المبني للمجهول، وتأخير الفعل الأوّل المبني للمعلوم نحو: «فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ» وكلاهما صحيح.

الوجه السادس: الاختلاف بالإبدال. مثل قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ

﴿إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ سورة البقرة آية 259. فقد قرئت: كيف ننشزها بالزاي، وكيف ننشرها بالراء.

الوجه السابع: الاختلاف في اللهجات بالتضخيم، والترقيق، والإمالة، والإدغام، والإظهار... الخ. مثل قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ سورة طه آية 9.

فقد قرئت أتاك «بالإمالة نحو «أتيك» و«موسى» نحو «موسي».

ثانياً: إن نزول القرآن على سبعة أحرف لا يتنافى مطلقاً مع ما هو متفق عليه أنّ القرآن نزل بلسان قريش؛ لأن الأحرف السبعة كلها في لغة قريش. ولذلك لا داعي للبكاء على ضياع وحدة الأمة. ومما هو معروف أن معظم القرآن نزل بلغة قريش. وإذا كان قليل منه نزل بغير لغة قريش: كلغة هذيل، وكنانه، وقيس، وضَبّة، وتيم، وأسد، فإن هذه اللغات احتوتها لغة قريش، وهذبتها، وصهرتها، وصقلتها؛ فكانت معروفة لدى قريش؛ وأصبحت من لغة قريش بحكم أنها سيدة القبائل؛ ولغتها سيدة لغات قبائل الجزيرة، وكلها عربية. فلم يعد هناك لفظ أو قول يصعب على قريش فهم معناه حتى ولو كان من لغة قبيلة أخرى، وكلهم من قبيلة مضر.

الشبهة الرابعة:

إن الأحرف السبعة هي القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين في القرنين الثاني، والثالث الهجريين، وهم: نافع المتوفى سنة 169 هـ وابن كثير، وأبو عمرو البصري سنة 154 هـ وابن عامر الشامي 118 هـ، وعالم الكوفي سنة 127 هـ، وحمزة الكوفي سنة 156 هـ، والكسائي 189 هـ.

ويقصد أصحاب هذه الشبهة ـ وعن سوء نية ـ الطعن في القرآن، وإنكار حروفه السبعة، وإثبات الزيادة، والتحريف فيه؛ ومن ثم إنكار أحاديث الأحرف السبعة ليّاً بألسنتهم، وطعناً في الدين. وصدق فيهم

قول ربنا: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ سورة النساء آية 46.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن هذه الشبهة تتنافى تماماً مع ما هو متفق عليه بين العلماء على أن الأحرف غير القراءات السبعة. وكما يقول «أبو شامة» في كتابه: «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز»: «ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث؛ وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل»[1]. ويقول: «من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع، وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث، لقد غلط غلطاً عظيماً»[2].

ثانياً: إنّ أحاديث الأحرف السبعة متواترة عن النبي «ﷺ»، بينما القراءات السبع، فهي متواترة عن الصحابة. يقول الإمام الزركشي في البرهان عن القراءات السبع: «والتحقيق أنّها متواترة عن الأئمة السبعة، أما تواترها عن النبي «ﷺ» ففيه نظر؛ فإنّ إسنادهم بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات، وهي نقل الواحد عن الواحد»[3].

ثالثاً: إنّ الأحرف السبعة أعم من القراءات السبع عموماً مطلقاً. فالقراءات أخص من الأحرف السبعة النازلة خصوصاً مطلقاً. فإن وجوه الأحرف السبعة، والتي أنزل الله عليها كِتَابَه تشمل، وتنظم كل وجه قرأ به النبي «ﷺ»، وأقرأه لأصحابه. فالأحرف السبعة تنتظم القراءات السبع، والعشرة، والأربع عشرة.

---

(1) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 82.
(2) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 82.
(3) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 82.

رابعاً: إنّ أحاديث الأحرف السبعة أسبق من القراءات السبع، ولا يعقل أن النبي ﷺ أمر بتأجيل القراءة بالأحرف السبعة حتى القرن الثاني والثالث الهجريين حيث وجدت القراءات السبع.

الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع.

يجمع العلماء على أنّه من الخطأ القول بأن الأحرف السبعة هي القراءات السبع. يقول أبو شامة في كتابه: «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز»: «ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل»[(1)].

ويقول مكي: «من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع، وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث، فقد غلط غلطاً عظيماً»[(2)]. ويمكننا تأصيل الفوارق الأساسية بين الأحرف السبعة، والقراءات السبع فيما يلي:

أولاً: الأحرف السبعة قرآن، وحي نزل من عند الله على محمد «ﷺ» للبيان، والإعجاز، منقولة إلينا بالتواتر، متعبد بتلاوتها جميعاً، في حين أن القراءات السبع هي اختلاف لفظ الحروف، أي اختلاف لفظ الوحي المذكور في الحروف، أي اختلاف في كيفية النطق بالأحرف السبعة أي بالقرآن، وكيفية أدائها من تخفيف، وترقيق، وتثقيل، وتشديد، وإمالة، وإدْغام، وإظهار، ومد، وقصر، وإشباع، وحركات إعراب... الخ. فالقراءات مذاهب أئمة في كيفية أداء القرآن، أي الأحرف السبعة.

وأما الأحرف السبعة: فهي قرآن ليعبر عن معنى واحد بألفاظ

---

(1) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 82.
(2) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 82.

متعددة تصل أحياناً إلى السبعة ـ فتكون هي الأحرف السبعة ـ وأحياناً ينزل القرآن بلفظ واحد أو اثنين أو ثلاثة حسب ما تقتضيه اختلاف وتعدد لغات العرب، ويؤدي المعنى المطلوب. وذلك ضمن ما يحتمله اللفظ أو النص القرآني من وجوه التغاير، والاختلاف فيه من إفراد، وتثنية، وجمع وتذكير، وتأنيث مثل: لفظ «لأمنتهم» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ سورة المؤمنون آية 8. فقد ورد رسمها هكذا في المصحف فهي تحتمل الإفراد مثل أمانتهم، والجمع مثل أماناتهم؛ وذلك لأن رسمها جاء دون ألف فهي لفظان يفيدان معنى واحداً: فقراءتها بالإفراد يعني الجنس الدال على الكثرة، وقراءتها بالجمع يعني الاستغراق الدال على الجنسية. وكذلك يقصد بالأحرف السبعة الاختلاف في وجوه الإعراب مثل قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ سورة يوسف آية 31. و«ما هذا بشر» بالنصب والرفع. وكذلك الاختلاف في التصريف في الأفعال والأسماء مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ سبأ آية 19. وذلك بنصب ربنا لأنّها منادى مضاف، وتسكين باعد لأنها فعل أمر مبني على السكون أو «فقالوا ربُنا باعد بين أسفارنا» بضم ربنا لأنّها فاعل، وفتح باعد لأنّها فعل مبني على الفتح. وذلك الاختلاف في التقديم والتأخير مثل قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ سورة التوبة آية 111. ببناء الفعل الأول للمعلوم، والثاني للمجهول/ أو «فيُقْتَلُون ويَقْتُلون» ببناء الفعل الأول للمجهول والثاني للمعلوم. كذلك الاختلاف بالزيادة، والنقص مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ سورة التوبة آية 100. بنقص (من) و«أعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار» بزيادة (من) وهما قراءتان متواترتان.

وبالنسبة للقراءات: فالاختلافات في معظمها تدور حول:

1 ـ مخارج الحروف: كالترقيق والتفخيم، والميل إلى المخارج المجاورة: كنطق الصراط بإمالة الصاد بالزاي.

2 ـ الأداء: كالمد، والقصر، والوقف، والوصل، والتسكين، والإمالة، والإشمام.

3 ـ الرسم: كالتشديد، والتخفيف مثل: يغشي، ويغشى. وفتحت وفتّحت بتشديد التاء.

4 ـ الإدغام، والإظهار: مثل: تذكرون وتتذكرون.

5 ـ الهمز ومد الألف: مثل: ملك ومالك، ومسجد ومساجد، لتحمل الرسم النطقين.

6 ـ التنقيط والحركات النحوية مثل: يفعلون وتفعلون، ويغفر وتغفر، وفتبينوا، وتثبتوا، وييأس ويتبين، وأرجلكم وأرخلكم...

ثانياً: الأحرف السبعة متواترة عن الرسول «ﷺ» بينما القراءات متواترة عن الصحابة «رضوان الله عليهم»، ومنها المشهورة.

يقول الزركشي في البرهان عن القراءات السبع: «والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة، أما تواترها عن النبي «ﷺ» ففيه نظر، فإن إسنادهم بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات، وهي نقل الواحد عن الواحد»[1].

وبالنسبة للأحرف السبعة: فقد أورد السيوطي في إتقانه أسماء واحد وعشرين صحابياً شهدوا الحديث مما قطع بتواتره عند العلماء، ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام[2].

ثالثاً: الأحرف السبعة وردت في السنة النبوية على سبيل الحصر، بينما القراءات السبع ورد عددها اجتهاداً، وهي ليست على سبيل الحصر. فهناك القراءات العشر، وهناك القراءات الأربع عشرة، وكل قراءة يتحقق فيها ضابط الصحة الثلاث.

فبالنسبة للأحرف السبعة وردت بها الأحاديث النبوية حصراً. عن

---

(1) ـ السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 1 ص 82.

(2) السيوطي ـ الإتقان ـ ج 1 ص 47.

ابن عباس «رضي الله عنهما» قال: «قال رسول الله ﷺ: أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[1].

وقد أورد ابن جرير الطبري أحاديث كثيرة عن نزول القرآن على سبعة أحرف. أمّا بالنسبة لعدد القراءات السبع لم ترد به السنة النبوية، وتوافقه مع عدد الأحرف السبعة إنّما جاء مصادفة، وليس تحقيقاً. وعليه فكل قراءة غير السبع تحقق فيها ضابط الصحة تعتبر صحيحة، ويعتد بها. قال ابن الجزري في أول كتابه: «النشر في القراءات العشر»: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي قراءة صحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء أكانت عن الأئمة أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين»[2].

ويقول القراب في الشافي: «التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة، إنما هو من جمع بعض المتأخرين»[3].

(1) السيوطي ـ الإتقان ـ ج 1 ص 47.
(2) السيوطي ـ الإتقان ـ ج 1 ص 77.
(3) السيوطي ـ الإتقان ـ ج 1 ص 83.

الباب السابع

شبهات حول المتشابه في القرآن، وتفنيدها[1].

الشبهة الأولى:

إنّ القول بأن الله لا جهة له، وأنه ليس فوقاً، ولا تحتاً، ولا يميناً ولا شمالاً يستلزم أنّ الله غير معبود؛ لأنّ هذه من صفات المعدوم؛ وإنّ التجرد من الإنصاف بهذه المتقابلات جملة أمر لا يوسم به إلا المعدوم، ومن لم يتشرف بشرف الوجود.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: من الخطأ الفادح أن يشبّه الله بمخلوقاته، وأن يوضع موضع المخلوق من حيث النسبة. فالله تعالى لا يشبه خلقه حتى نحكم عليه بما نحكم على مخلوقاته في وجوب أنْ تكون له جهات ما دام

(1) انظر في مثل هذه الشبهة: محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان في علوم القرآن. جـ 2 ص 293 ـ وما بعدها.

موجوداً. فوجود الله غير وجود المخلوق. فالله ليس مجسماً، وليس مادياً. ومن الخطأ أن يقاس المجرد عن المادة بما هو مادي.

فالمادي هو الذي يجب أن يتصف بشيء من هذه المتقابلات بأن تكون له جهات ست أو جهة منها. أما غير المادي فترتفع عنه مثل هذه الصفات، ولا يمكن أن تكون له جهة من هذه الجهات. فالخالق لا يستوي أبداً مع خلقه في جريان أحكام الخلق على الخالق.

ونظير ذلك يمكننا القول: إذا صح، واتصف إنسان بأنه عالم أو جاهل، فإنّ الجماد كالجبل مثلاً لا يصح أن يتصف بالعلم أو الجهل، وهما مرتفعان عنه، بل وممتنعان عليه؛ لأنّ طبيعته تختلف عن طبيعة الإنسان. وكذلك لا يصح وصف الأرض بأنّها بكر، أو متزوجة، أو أرملة؛ وكذلك لا يصح وصف السماء بأنها سميعة أو بصيرة، أو خرساء؛ وكذلك لا يصح وصف البحر بأنه بالغ أو راشد، أو محلاف. وهكذا تنتفي المتقابلات كلها بانتفاء قابلية المحل لها أياً كانت هذه المتقابلات. وهكذا فإن لكل محل، ولكلّ مخلوق طبيعة خاصة به تتصف بصفات خاصة، ولائقة بها. وهذه مخلوقة، ومادية فما بالك لو كان الأمر يتعلق بما هو خالق، وغير مخلوق، وغير مادي، وهو الله تعالى، فقياس الغائب على الشاهد فاسد، ومغلوط.

ثانياً: إذا كان أنصار هذه الشبهة يقررون ضرورة أن يكون لله جهات حتى يكون معبوداً، فإن السؤال الذي يطرح ذاته هذا: أين كان الله قبل أن يخلق العرش، والكرسي، والسماء، والأرض، وقبل أن يخلق الزمان، والمكان، وقبل أن تكون هناك جهات؟؟. فإن قالوا: لم يكن له جهة، ولا مكان، فقد اعترفوا بخطأ ادعائهم، وناقضوا أنفسهم، واعترفوا بحقيقة أن الله لا تحده جهة، ولا مكان، ولا زمان، وهو حي باق موجود يدبر أمور الحياة في السماء، والأرض. وإن قالوا: إن العالم قديم بقدم الله تعالى، فقد ناقضوا أنفسهم، واستجاروا من الرمضاء بالنار، وهنا يقتضي الحال الانتقال بهم إلى إثبات حدوث العالم.

ثالثاً: لا يجوز الأخذ بظواهر النصوص على حقيقتها كما يبدو عند أنصار هذه الشبهة مما أوقعهم في لبس، تناقض غريب. فهم لا يستطيعون أن يوفقوا بين قوله تعالى:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ مع قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾. فهل هو في السماء حقيقة، أم في الأرض حقيقة، أم فيهما معاً حقيقة؟!!. فإن قالوا: إنّه في الأرض وحدها حقيقة، فكيف تكون له جهة فوق؟! وإذا كان في السماء وحدها حقيقة، فكيف تكون له جهة تحت؟! وإن قالوا: إنّه في السماء، والأرض معاً حقيقة، فلماذا يقال: إنّ له جهة فوق، ولا يقال له جهة تحت؟!! ولماذا يشار إليه فوق، ولا يشار إليه تحت؟!!

ناهيك عن التذكير بأنّ الجهات أمور نسبية، فما هو فوق بالنسبة إلينا قد يكون تحت بالنسبة لغيرنا.

رابعاً: إنّ الأخذ بظواهر النصوص على حقيقتها أعجز أنصار هذه الشبهة عن تفسير كثير من التساؤلات. فإذا كان الله تعالى يقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بإفرادها، ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ بتثنيتها، ويقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ بجمعها، فهم يعجزون عن الإجابة على ما يوجه إليهم من التساؤلات، والتي منها: هل له يد واحدة بناءً على الآية الأولى؟! أم له يدان اثنتان بناءً على الآية الثانية؟!! أم له أيد كثيرة بناءً على الآية الثالثة؟!!

خامساً: إنّ الأخذ بظواهر النصوص على حقيقتها أعجز أنصار هذه الشبهة عن تفسير كثير من الوقائع، والظواهر، وأدّى بهم إلى شواهد البلبلة، والتناقض.

فقد روى البخاري، ومسلم، وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني، فأستجيب له؟ من يسألني، فأعطيه؟ من يستغفرني، فأغفر له؟».

فكيف يؤخذ بظاهر هذا الخبر مع أن الليل مختلف في البلاد باختلاف المشارق، والمغارب؟!! وإذا كان الله ينزل لأهل كل أفق نزولاً حقيقياً في ثلث ليلهم الأخير فمتى يستوي على عرشه حقيقة كما يقولون؟!! ومتى يكون في السماء حقيقة كما يقولون؟!! مع أنّ الأرض لا تخلو من الليل في وقت من الأوقات، ولا ساعة من الساعات كما هو ثابت، وأكيد.

سادساً: يرد على أنصار هذه الشبهة بما قاله حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «نقول للمتشبث بظواهر الألفاظ: إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه، فأي فائدة في نزوله؟! ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك، وهو على العرش أو على السماء العليا. فلا بدّ أن يكون ظاهر النزول غير مراد، وأنّ المراد به شيء آخر غير ظاهره. وهل هذا إلاّ مثل من يريد، وهو بالمشرق، إسماع شخص في المغرب، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة، وأخذ يناديه، وهو يعلم أنّه لا يسمع نداءه، فيكون نقله الأقدام عملاً باطلاً، وسعيه نحو المغرب عبثاً صرفاً فلا فائدة فيه، وكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل»(1).

الشبهة الثانية:

إنّ القول بالمتشابه يؤدي إلى الترجيح بين الآيات القرآنية ترجيحاً مذهبياً يشوبه التعصب، وينتابه الضعف، والخفاء.

نقل السيوطي عن الإمام فخر الدين الرازي أنّه قال: «من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات»، وقال: إنّكم تقولون: إنّ تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثمّ إنّا نراه بحيث يتمسك به صاحب كل مذهب على مذهبه. فالجبري متمسك

---

(1) الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 1 ص 295.

بآيات الجبر: كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ سورة الكهف آية 57.

والقدري يقول: هذا مذهب الكفار بدليل أنّه تعالى حكى عنهم ذلك في معرض الذم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

وفي موضع آخر: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ سورة البقرة آية 88. ومنكر الرؤية متمسك بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ سورة الأنعام آية 103. ومثبت الجهة متمسك بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ سورة النحل آية 50. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ سورة طه آية 5. والثاني متمسك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ سورة الشورى آية 11. ثم يسمي كل واحد الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، والآيات المخالفة متشابهة، وإنما آل في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفية، ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجوع إليه في كلّ الدين إلى يوم القيامة هكذا؟!!.

تفنيد هذه الشبهة:

إنّ نسبة بعض أفعال الجوارح لله تعالى كالبصر، والإدراك، والاستواء، والرؤية، لا تعني تشبيه الله الخالق بمخلوقاته أو تجسيمه، وإنما الغرض من ذلك التقريب للأفهام، والتنبيه للعقول، والتأنيس للقلوب.

ويمكن تفنيد هذه الشبهة بالقول: بأنّ لوقوع المتشابه فوائد منها: أنّه يوجب مزيداً من المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب.

ويمكن تفنيد هذه الشبهة بما ذكره ابن اللبّان في مقدمة كتابه: «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات» إذ قال ما خلاصته: «ليس في الوجود فاعل إلا الله وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا

شريك، ولا معين؛ فهي في الحقيقة فعله، وله بها عليهم الحجة مصداق قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾. ومن المعلوم أنّ أفعال العباد لا بدّ فيها من توسط الجوارح مع أنّها منسوبة إليه تعالى، وبذلك يعلم أنّ لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين: مظهر عبادي منسوب لعباده، وهو الصبور، والجوارح الجثمانية. ومظهر حقيقي منسوب إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده. على سبيل التقريب لأفهامهم، والتأنيس لقلوبهم. ولقد نبه في كتابه تعالى على القسمين، وأنّه منزّه عن الجوارح في الحالين، فنبّه على الأول بقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾. فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدي العباد، فهو منسوب إلى الله تعالى. ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه (ﷺ) في صحيح مسلم: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

وقد حقّق الله ذلك لنبيه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوباً إليه تعالى، فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه، ولا تجسيم؛ ولكن الغرض من ذلك التقرب للأفهام، والتأنيس للقلوب. والواجب سلوكه إنّما هو رد المتشابه إلى المحكم على القواعد اللّغوية، وعلى مواضعات العرب، وعلى ما كان يفهمه الصحابة، والتابعون من الكتاب والسنة[1].

الشبهة الثالثة:

إنّ القول بالمتشابه يؤدي إلى التساؤل عن ماهية الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان، والهدى؟!!

---

(1) الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ ٢ ـ ص 298.

تفنيد هذه الشبهة:

إنّ الحكمة من القول بالمتشابه موجودة قطعاً. وهنا يفرّق بين المتشابه الذي يمكن علمه، والمتشابه الذي لا يمكن علمه. فالمتشابه الذي يمكن علمه، فالحكمة من وجوده يتمثل في حفزه العلماء، والفقهاء والدارسين على التبحر في العلم، والوقوف على موضوعاته، وجزئياته، والغوص في دقائقه، والإحاطة بخواصه.

وتتمثل حكمة المتشابه أيضاً في إظهار منازل الناس، وتكريس شواهد التفاضل، وتبيين درجات التفاوت منهم؛ نظراً لأنّه لو كان القرآن كلّه محكماً، لما احتاج إلى التأويل، والبحث، ومن ثم لاستوت منازل الناس، ودرجاتهم، ومن ثم لم يظهر فضل العالم الباحث المفسّر المؤول عن غيره من العوام. أمّا المتشابه الذي لا يمكن علمه أي الذي استأثره الله بعلمه، فحكمته تتجلى في ابتلاء العباد بالاستسلام لله، والأخذ به، والتفويض، والتوقف فيه لله تعالى، ومن ثم التعبد به تلاوة كالمنسوخ حكماً دون التلاوة؛ فقد بقي قرآناً يتعبد به تلاوة نثاب عليها، وبالتالي فإنّ حكمة هذا المتشابه تتمثل في أمر آخر هو إثبات إعجاز القرآن البياني حيث إنّه أعجز من نزل القرآن بلغتهم، وبيانهم، ومع ذلك أفحمهم، فعجزوا عن فهم معناه، والوقوف على حقيقته، مما يؤصل بالتالي حقيقة الألوهية للقرآن، وأنه كلام الله العربي المعجز، وفي أقصر سورة منه.

الشبهة الرابعة:

إن القول بالمتشابه يقود إلى السؤال التالي: «هل للمحكم مزية على المتشابه أولاً؟! فإن قلتم بالثاني، فهو خلاف الإجماع، وإلاّ فقد نقضتم أصلكم في أنّ جميع كلامه سبحانه سواء، وانّه منزل بالحكمة».

تفنيد هذه الشبهة:

وقد أجاب أبو عبد الله النكربازي على هذه الشبهة بقوله: بأن

المحكم كالمتشابه من وجه، ويخالفه من وجه، فيتفقان في أن الاستدلال بهما لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الواضع، وأنّه لا يختار القبيح.

ويختلفان في أنّ المحكم بوضع اللغة لا يحتمل إلا الوجه الواحد، فمن سمعه، أمكنه أن يستدل به في الحال. والمتشابه يحتاج إلى فكرة ونظر ليحمله على الوجه المطابق؛ ولأن المحكم أصل، والعلم بالأصل أسبق؛ ولأن المحكم يعلم مفصلاً، والمتشابه لا يعلم إلا مجملاً.

وقد ردّ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني على هذه الشبهة بقوله: ويمكن دفع هذه الشبهة بوجه أقرب: وهو أنّ المحكم له مزية على المتشابه؛ لأنّه بنص القرآن هو أم الكتاب؛ والاعتراض بأنّ هذا ينقض الأصل المجمع عليه، وهو أنّ جميع كلامه سبحانه سواء، وأنّه منزل بالحكمة: الاعتراض بهذا ساقط من أساسه؛ لأنّ المساواة بين كلام الله إنّما في خصائص القرآن العامة: ككونه منزلاً على النبي «ﷺ» بالحق وبالحكمة، وكونه متعبداً بتلاوته، ومتحدياً بأقصر سورة منه، ومكتوباً في المصاحف، ومنقولاً بالتواتر، ومحرماً حمله، ومسّه على الجنب، ونحو ذلك. والمساواة في هذه الخصائص لا تنافي ذلك الامتياز الذي امتازت به المحكمات. وكيف يتصور التنافي على حين أن كلاً من المحكم والمتشابه له حكمه، وله مزاياه؟! فمزية المحكم أنّه أمّ الكتاب إليه ترد المتشابهات، ومزية المتشابه أنّه محك الاختبار، والابتلاء، ومجال التسابق والاجتهاد، إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى.

ثم كيف يتصور هذا التنافي، والقرآن كلّه مختلف باختلاف موضوعاته وأحواله، فمنه: عقائد، وأحكام، وأوامر، ونواهي، وعبادات، وقصص، وتنبؤات، ووعد، ووعيد، وناسخ، ومنسوخ. ولا ريب أنّ كلّ نوع من هذه الأنواع له مزيته، أو خاصته التي غاير بها الآخر، وإن اشترك الجميع بعد ذلك في أنّها كلّها أجزاء للقرآن، متساوية في القرآنية، وخصائصها العامة.

وخلاصة الجواب: «أن امتياز المحكم على المتشابه في أمور،

ومساواته إيّاه في أمور أخرى، فلا تعارض، ولا تناقض، كما أنّ كلّ عضو من أعضاء جسم الإنسان له مزيته، وخاصته التي صار بها عضواً، والكل بعد ذلك يساوي الآخر في أنه جزء للإنسان في خصائصه العامة من حسن، وحياة»[1].

الشبهة الخامسة:

إن القول بالمتشابه يؤدي إلى التأويل، وهو اتباع المتشابهات بالتأويل. فإن الناظر في موقف السلف، والخلف من المتشابه، يجزم بأنّهم جميعاً مؤولون لأنّهم صرفوا ألفاظ المتشابهات عن ظواهرها؛ وصرفها عن ظواهرها تأويل لها. وبذلك فإنّهم مؤولون وقعوا جميعاً فيما نهى الله عنه، وهو اتباع المتشابهات بالتأويل، حيث وصفهم الله تعالى بأنّ في قلوبهم زيغاً، فقال تعالى في الآية السابقة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ سورة آل عمران آية 7.

تفنيد هذه الشبهة:

وننقل هنا ما قاله الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في الرد على أصحاب هذه الشبهة.

أولاً: إنّ القول بكون السلف، والخلف مجمعين على تأويل المتشابه قول له وجه من الصحة لكن بحسب المعنى اللغوي، أو ما يقرب من المعنى اللغوي. أمّا بحسب الاصطلاح السائد فلا؛ لأنّ السلف، وإن وافقوا الخلف في التأويل، فقد خالفوهم في تعيين المعنى المراد باللفظ بعد صرفه عن ظاهره، وذهبوا إلى التفويض المحض بالنسبة إلى هذا التعيين. أمّا الخلف فركبوا متن التأويل إلى هذا التعيين.

ثانياً: إنّ القول بأنّ السلف، والخلف جميعاً وقعوا بتصرفهم

---

(1) الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 2 ص 300.

السابق فيما نهى الله عنه قول خاطىء، واستدلالهم عليه بالآية المذكورة استدلال فاسد؛ لأنّ النهي فيها إنّما هو عن التأويل الآثم الناشىء عن الزيغ، واتباع الهوى بقرينة قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ميل عن الاستقامة، والجهة إلى الهوى، والشهوة. أمّا التأويل القائم على تحكيم البراهين القاطعة، واتباع الهداية الراشدة، فليس من هذا القبيل الذي حظره الله تعالى، وحرمه. وكيف ينهانا عنه، وقد أمرنا به ضمناً بإيجاب ردّ المتشابهات إلى المحكمات؛ إذ جعل هذه المحكمات هي أم الكتاب على ما سبق بيانه، ثمّ كيف يكون مثل هذا التأويل الراشد محرماً، وقد دعا به الرسول «ﷺ»، فقال في الحديث المشهور: «اللهم فقهه في الدين، وعلّمه التأويل».

وخلاصة هذا: أنّ الله أرشدنا في الآية إلى نوع من التأويل، وهو ما يكون به ردّ المتشابهات إلى المحكمات، ثمّ نهانا عن نوع آخر منه، وهو ما كان ناشئاً عن الهوى، والشهوة لا على البرهان، والحجة قصداً إلى الضلال والفتنة، وهما لونان مختلفان، وضربان بعيدان بينهما برزخ لا يبغيان.

إذن، فمن لم يصرف لفظ المتشابه عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال، فقد ضلّ كالظاهرية، والمشبهة. ومن فسّر لفظ المتشابه تفسيراً بعيداً عن الحجة، والبرهان قائماً على الزيغ، والبهتان، فقد ضلّ أيضاً: كالباطنية، والإسماعيلية، وكلّ هؤلاء يقال فيهم: إنّهم متبعون للمتشابه، ابتغاء الفتنة. أمّا من يؤول المتشابه أي يصرفه عن ظاهره بالحجة القاطعة لا طلباً للفتنة؛ ولكن منعاً لها، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم وردّاً لهم إلى محكمات الكتاب القائمة، وأعلامه الواضحة، فأولئك هم الهادون المهديّون حقاً. وعلى ذلك درج سلف الأمة، وخلفها، وأئمتها، وعلماؤها.

روى البخاري عن سعيد بن جبير أنّ رجلاً قال لابن عباس: «إنني أجد في القرآن أشياءً تختلف عليّ. قال: ما هو؟ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. وقال: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾. وقال: ﴿ قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾. قال ابن عباس: «فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى، ولا يتساءلون. ثم في النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون... فأمّا قوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنّ الله يغفر لأهل الإخلاص من ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول ما كنا مشركين. فيختم الله على أفواههم، فتنطق جوارحهم بأعمالهم، فعند ذلك لا يكتمون الله حديثاً. إلى آخر الحديث»[1].

(1) الزرقاني ـ المرجع السابق ـ ص 301 - 302.

الباب الثامن

شبهات حول النسخ في القرآن، وتفنيدها.

الشبهة الأولى:

إنّ وقوع النسخ في القرآن يستلزم القول بالجهل، والعبث على الله تعالى، بدليل أنّه لو جاز وصح أن ينسخ الله تعالى حكماً من أحكامه، فإن ذلك إما أن يكون لحكمة ظهرت لله تعالى حيث كانت خافية عليه؛ وهذا يعني، ويستلزم البداء، والجهل بالعواقب على الله تعالى، وهذا مستحيل. فإذن يستحيل وقوع النسخ. وإن كان النسخ لغير حكمة، فإن هذا يستلزم العبث على الله تعالى، وهذا مستحيل أيضاً. فإذن يستحيل وقوع النسخ في الحالتين؛ لأن الجهل، والعبث مستحيلان على الله تعالى بالأدلة النقلية، والعقلية.

تفنيد هذه الشبهة:

إن نسخ الله تعالى لحكم من أحكامه أساسه حكمة ظاهرة، ومعلومة لله تعالى، ويستحيل أن تخفى عليه. وغاية الأمر أن الله تعالى عندما ينسخ

حكماً بحكم آخر فإن الحكم الناسخ يأتي بحكمة غير الحكمة التي أتى بها الحكم الأول المنسوخ؛ وعلى اعتبار أن هناك مصلحة جديدة للعباد اقتضتها عملية النسخ، وجاء بها الحكم الناسخ. فمصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان، وتختلف باختلاف الأشخاص، والأحوال. ولذا فإن النسخ يعني أن هناك مصلحة جديدة، فيأتي الله بحكم جديد يتضمنها، وينسخ به الحكم السابق الذي يتضمن المصلحة السابقة؛ والله تعالى أحاط بكل شيء علماً. فلا يستلزم النسخ إذن الجهل، أو العبث على أو من الله تعالى.

الشبهة الثانية:

إن وقوع النسخ يستلزم تحصيل الحاصل، أي جهالة الله تعالى، وهذا باطل. ودليل ذلك: إمّا أنّه يعلم الله أنّ الحكم المنسوخ مؤبداً أو يعلمه مؤقتاً. فإذا علم الله تعالى الحكم المنسوخ مؤبداً ثم نسخه ومنع من استمراره، انقلب علمه جهلاً، وهذا محال على الله تعالى. إذن النسخ لا يقع. وإذا علم الله تعالى الحكم المنسوخ مؤقتاً بوقت معين ثم نسخه عند ذلك الوقت، وإذا ما علم أن للمؤقت ينتهي بمجرد انتهاء وقته، فإنهاؤه بالنسخ تحصيل للحاصل، وهذا باطل. إذن النسخ لا يقع.

تفنيد الشبهة الثانية:

إنّ الله تعالى يعلم تمام العلم أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد. ولكنه علم بجانب ذلك أن توقيته إنما هو بورود الناسخ لا بشيء آخر: كالتقيد بغاية في دليل الحكم الأول. ولذا فإن عِلْمَ الله تعالى بانتهاء الحكم المنسوخ بالناسخ لا يمنع النسخ بل يوجبه؛ وورود الناسخ محقق لما في علمه لا مخالف له.

الشبهة الثالثة:

إن النسخ يستلزم التناقض، وتحصيل الحاصل. ودليل ذلك: إما أن يكون الحكم المنسوخ محدداً بغاية معينة؛ فإنه ينتهي بمجرد تحقق

هذه الغاية، ولهذا فالنسخ في هذه الحالة يكون تحصيلاً للحاصل. وإما أن يكون الحكم المنسوخ مؤبداً، ففي هذه الحالة فإن النسخ يعني التناقض؛ لأن التأبيد يقتضي بقاء، وديمومة الحكم في حين أن النسخ يقتضي الرفع وعدم البقاء.

تفنيد هذه الشبهة:

إنّ القول بأنّ نسخ الحكم المؤبد يؤدّي إلى التناقض ينقض من عدة وجوه:

الأول: إنّ من الخطأ القول: بأنّ الحكم المؤبد لا ينسخ.

الثاني: إن التكاليف الشرعية مقيدة من أول الأمر بألا يرد ناسخ. كما أنّها مقيدة بأهلية المكلف، وألاّ يطرأ عليه جنون، أو عقلة، أو موت. ومن هذا فإنّ النسخ لا يفضي إلى تناقض بين الناسخ، والمنسوخ.

الثالث: إن الحكم للمنسوخ قد لا يكون مؤبداً، ولا يكون مؤقتاً، بل أحياناً يأتي خارجاً عن التأبيد، والتأقيت؛ ولذا فإنّه قد يخضع للنسخ. ونسخ الحكم ليس من المحالات فقد يكون مستمراً بحسب الظاهر.

الشبهة الرابعة:

إنّ النسخ يقتضي اجتماع الضدّين، وهذا محال. وتوضيح ذلك: أن الله إذا أمر بحكم، فيعني هذا أنّه حسن، ومرغوب فيه، وإذا نهى عنه، فيعني أنّه خبيث، وغير مرغوب فيه. ولذا فالأمر بالشيء، والنهي عنه معناه اجتماع الصفات المتضادة في الحكم الواحد أو الفعل الواحد الذي تعلق به الأمر، والنهي.

تفنيد هذه الشبهة:

إنّ الحسن، والقبح ليسا من صفات الفعل الذاتية حتى يكونا ثابتين فيها لا يتغيران؛ بل هما تابعان لتعلق أمر الله، ونهيه بالفعل. وعلى هذا

يكون الفعل حسناً، ومرغوباً فيه ما دام مأموراً به من الله تعالى. وكذلك يكـون هـذا الفعـل نفسـه قبيحـاً، غيـر مرغـوب فيه عند الله تعالى ما دام منهياً عنه منه تعالى. والقائلون بالحسن، والقبح العقليين هم المعتزله. وهـم يعتـرفـون أن الحسـن، والقبـح يختلفـان بـاختـلاف الأشخـاص، والأحوال والأوقات. وبهذا التأصيل ينتفي اجتماع الضدّيْن؛ لأنّ الوقت الذي يكون فيه الفعل حسناً غير الوقت الذي يكون فيه ذلك الفعل قبيحاً، فلم يجتمع الحسن، والقبح في فعل واحد، وفي وقت واحد.

الشبهة الخامسة:

شبهة العنانية، والشمعونية من يهود: وتتمثل شبهتهم في أن التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى (عليه السلام) لم تنسخ، وأنّها باقية. وهي منقولة إليهم بالتواتر؛ ويستندون إلى نصوص في التوراة تفيد عدم النسخ، ومنها: «هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض». ومنها أيضاً: «الزموا يوم السبت أبداً» ويرون أن مثل هذه النصوص تعني امتناع النسخ؛ لأن نسخ أحكام في التوراة: كتعظيم يوم السبت إبطال لما هو من عند الله تعالى، وهذا متعذر.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن لفظ التأبيد لا يصلح دليلاً يستند إليه اليهود في القول بعدم النسخ؛ لأنّ التأبيد كثيراً ما يستعمله اليهود معدولاً عن حقيقته. ومن ذلك ما جاء في البقرة التي أمروا بذبحها: «هذه سنة لكم أبداً».

وما جاء في القربان: «قربوا كل يوم خروفيْن قرباناً دائماً» وهذان الحكمـان منسـوخـان بـاعتـراف اليهـود أنفسهـم، رغـم التصـريـح بـأنهمـا مؤبدان.

ثانياً: إنّ التواتر الذي نعتوه للتوراة لا يصلح دليلاً يستند إليه في القول بعدم النسخ؛ لأنّ التوراة غير منقولة بالتواتر؛ وبشهادة، واعتراف

الكثير من أحبار اليهود، ومنهم الذي أسلم: كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار. ولو كانت التوراة متواترة، لعارضوا بها خاتم الأنبياء محمد «ﷺ»، ولنقل واشتهر لدى الناس.

ثالثاً: إنّ ادعاء يهود أن شريعة موسى لم تنسخ لم يمنعهم من الاعتراف بأنّ الشرائع السابقة نسخت بشريعة موسى؛ فكيف نفسر إذن إنكارهم لوقوع النسخ سمعاً؟!!. أي شرعاً؟!!.

رابعاً: إنّ ادعاء يهود بأنّ توراة موسى لم تنسخ، وأنّها لا تزال موجودة إلى الآن ادعاء باطل ليس له دليل عقلاني أو نقلي سليم.

وما ورد في نصوص كتب التوراة الموجودة لديهم الآن ما يناقض بعضه بعضاً. فطائفة السامريين في مدينة نابلس بفلسطين تدعي أن النسخة الأصلية للتوراة موجودة فقط عندهم؛ وهي تزيد في عمر الدنيا نحواً من ألف سنة على ما جاء في النسخة الموجودة عند طائفة العنانيين. والنسخة التي عند النصارى تزيد في عمر الدنيا نحواً من ألف وثلاثماية سنة. وقد ورد في بعض نسخ التوراة ما يفيد أن نوحاً أدرك جميع آبائه إلى آدم، وأنّه أدرك من عهد آدم نحواً من مائتي سنة، في حين ورد في نسخ أخرى ما يفيد أن نوحاً أدرك من عمر إبراهيم ثمانياً وخمسين سنة.

وما ورد في نسخ التوراة الموجودة حالياً يؤكد بطلانها، ويؤكد أنّها محرفة، وأنّ التوراة الأصلية فعلاً لم يكن لها وجود حيث يستحيل أن يرد فيها من أقوال منكرة نسبوها إلى الله ورسله. ومنها على سبيل المثال: أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنّه بكى حتى رمدت عيناه، وأنّ النبيّ يعقوب صارع الله تعالى، وأنّ إبراهيم كان يجلس تحت ظل شجرة بلوط في قرية «نمره» قرب القدس، وأنّه رأى الله قادماً عليه بين ملكين، فنهض إليه إبراهيم، وقال: لو أن عبدك يجد نعمة بين عينيك، فاقبل طعامي، وذبح له، وأكلوا جميعاً. ومن ذلك أيضاً: أنّ لوطاً شرب الخمر حتى ثمل، وزنى بابنتيْه. ومن ذلك أيضاً: أن هارون

هو الذي اتخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته. وأن يُوسف النجار خطيب مريم العذراء زنى بها، وأنجبت عيسى (عليه السلام). وتكفي الدلالة على فساد ادعائهم بأنّ التوراة الأصلية لا تزال موجودة هو ارتداد اليهود مرات عديدة عن ديانتهم، وقتلهم الأنبياء، والمصلحين؛ وخرافاتهم التي تملأ توراتهم المحرفة، والتي تنأى التوراة الأصلية عن قبولها.

الشبهة السادسة:

شبهة العيسوية من اليهود: وتتمثل شبهتهم في أن شريعة موسى «عليه السلام» لم تنسخها شريعة محمد «ﷺ»، وأنّ شريعة موسى باقية أبدية، ودليلهم: نصوص التوراة التي منها: «هذه شريعة مؤبدة عليكم ما دامت السموات، والأرض» وما شريعة محمد إلا شريعة للعرب فقط، وليست للناس كافة. وهم يعترفون بصحة، وصدق شريعة محمد «ﷺ».

تفنيد هذه الشبهة:

إنّ اعترافهم بصدق شريعة محمد «ﷺ» أكبر رد عليهم في تفنيد شبهتهم، فالاعتراف يقتضي أن يكون كاملاً، ومن التناقض أن يعترفوا بجزء أو ببعض دون بعض، وشريعة محمد «ﷺ» ورد فيها أنّها عامة لجميع الناس، وأنّها ناسخة للشرائع السماوية السابقة، ومنها شريعة موسى (عليه السلام) حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. سورة آل عمران آية 85.

حيث قال: «ﷺ»: «لو كان أخي موسى حَيّاً ما وَسِعَهُ إلا اتّباعي».

فإيمان اليهود العيسوية بشريعة محمد «ﷺ»، وتكذيبهم لنسخها لشريعة موسى هو تناقض يصلح أساساً ينبني عليه تفنيد شبهتهم هذه.

الشبهة السابعة:

شبهة النصارى: وتتمثل شبهتهم في أن شريعة عيسى مؤبدة، ولم تنسخ؛ ويستندون إلى نصوص في الإنجيل منها: «أنّ المسيح (عليه السلام) قال: السماء، والأرض تزولان، وكلامي لا يزول» وهذا يدل على امتناع النسخ سمعاً. أي شرعاً.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن ما يستندون إليه في الإنجيل لا يدل على امتناع النسخ مطلقاً، وإنّما يدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح (عليه السلام) فقط.

ثانياً: إن قول المسيح ذلك، والذي ورد في الإنجيل لا علاقة له بالنسخ نفياً أو إثباتاً؛ وإنّما يدل على أنّ تنبؤاته ستقع لا محالة ليس إلا. وذلك أن المسيح حدّث أصحابه بأمور مستقبلية، وبعد أن انتهى من حديثه قال هذه الجملة: «السماء، والأرض تزولان، وكلامي لا يزول».

ثالثاً: لقد ورد في الإنجيل لنصوص منها: ما ورد في إنجيل «متّى»: «إلى طريق أمم لا تمضوا، ومدينة للسامريين لا تدخلوا؛ بل اذهبوا بالجري إلى خراف بني إسرائيل الضّالة». وهذا اعتراف بخصوصية رسالة المسيح (عليه السلام) لبني إسرائيل. وقد ورد ما ينسخ مثل هذه النصوص كما في إنجيل مرقص: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة». فالقول الثاني هذا ناسخ للقول الأوّل.

رابعاً: إنّ جمهور المسلمين قاطبة ينكرون أنّ إنجيل عيسى الأصيل هو الذي بين أيدي النصارى اليوم، بل إن النصارى أنفسهم لم يستطيعوا إقامة الدليل على صحة ادعائهم بأنّ الذي بين أيديهم هو إنجيل عيسى؛ حيث ثبت بطلان السند، وروايته شذوذاً، وانقطاعاً، وخرافة فيما يتعلق بعقيدة الصلب، والأقانيم الثلاثة؛ وبالتالي فإنّه ينكر الاستناد على ما

ورد في أناجيلهم من أقوال نسبوها إلى المسيح (عليه السلام) زوراً وبهتاناً، ومنها عالمية رسالته، وعدم نسخها، وتأبيدها.

الشبهة الثامنة:

شبهة أبي مسلم الأصفهاني من المسلمين: وتتمثل شبهته في عدم وقوع النسخ في القرآن استناداً إلى قوله تعالى:
﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. سورة فصلت آية 42. وشبهته في الاستدلال أن هذه الآية تفيد أنّ أحكام القرآن لا تبطل أبداً، والنسخ فيه يعني إبطالاً لحكم سابق. وهو يسمى النسخ تخصيصاً.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ تفسير أبي مسلم الأصفهاني للآية خاطىء. وإنّه من الخطأ الفادح تفسير الباطل بالنسخ؛ فهذا من قبيل تحميل النص فوق ما يحتمل لتأييد ادعاء تشبث به صاحبه، وهو أبو مسلم؛ ومخالفاً به تفسير جمهور المسلمين. فمعنى الآية هو: أنّ عقائد القرآن موافقة للعقل، وأحكامه مسايرة للحكمة؛ وأخباره مطابقة للواقع؛ وألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل، والخطأ لا يمكن أن يتطرق إلى ساحته مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ سورة الحجرات آية 9. يعني الباطل في الآية ما خالف الحق. والنسخ حق.

ثانياً: إنّ إطلاق التخصيص على النسخ هو من قبيل تسمية الشيء بغير مسماه. فالتخصيص شيء، والنسخ شيء آخر، والفرق بين النسخ والتخصيص كبير.

الباب التاسع

شبهات حول ترجمة القرآن، وتفنيدها

الشبهة الأولى:

إنّ ترجمة القرآن ترجمة حرفية ومن لغته العربية إلى لغة أخرى جائزة، وغير متعذرة. وهم يقصدون بترجمة القرآن التعبير عن معاني ألفاظه العربية، ومقاصدها بألفاظ غير عربية مع الوفاء بجميع هذه المعاني والمقاصد.

ودليلهم: أنّ القرآن الكريم لم ينزل للعرب وحدهم فقط؛ ولذا يجب تبليغه للأمم الأخرى الإسلامية عن طريق ترجمته إلى لغاتهم. وتبليغ الإسلام واجب، وما لا يتم الواجب إلاّ به، فهو واجب.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ ترجمة القرآن ترجمة حرفية مستحيلة. فإنّه يستحيل أن يترجم القرآن بألفاظ أخرى غير عربية تقوم مقام ألفاظه، وتعبر عن نفس

معانيه ومقاصده. وبذلك فكلّ ترجمة من هذا القبيل لا تسمى قرآناً، وإلا كان محرفاً، ولا يستقيم التعبد به، والصلاة به ويكون في هذه الحالة ترجمة تفسير أو معاني، ولا يكون بل لا يسمى قرآناً.

ثانياً: إنّ تبليغ القرآن يمكن أن يتم من خلال ترجمة معانيه، وهو تفسيره بغير لغته. فينقل إلى الشعوب الإسلامية غير العربية، وبلغاتهم، فيفهمون علومه، وتكاليفه، وأحكامه، وعقائده، وشرائعه.. إلخ.

ثالثاً: إنّ الرسول «ﷺ» لم يترجم القرآن، ولم يأمر بترجمته إلى لغة أخرى حتى وفي دعوته للأمراء، والملوك، والشعوب غير العربية؛ وإنّما كان يدعوهم إلى اعتناق الإسلام بتوضيحه لهم عقائده، وعلومه وأحكامه.

رابعاً: وكذلك الصحابة (رضوان الله عليهم) لم يقوموا بترجمة القرآن حرفياً، وهم الحريصون على تبليغ الإسلام، والقرآن، والسنة النبوية للآخرين؛ وهم الذين قال فيهم الرسول «ﷺ»: «أيهم أقتديتُمْ، اهْتَدَيْتُمْ».

الشبهة الثانية:

إنّ ترجمة القرآن حرفياً واجبة، وأمر مفروض. ودليلهم: أنّ حماية القرآن من التحريف تقتضي ذلك؛ وأنّ الواجب يقتضي ألاّ تترك ترجمة القرآن إلى غير العرب حتى تبقى ترجمتنا هي الأصل الصحيح، والمعتمد عليه كقرآن مترجم.

تفنيد هذه الشبهة:

أولا: إنّ القضية بالنسبة لموضوع الترجمة لا تكمن في من هو الذي يقوم بالترجمة. فالقضية هنا: أن الترجمة مستحيلة سواء قمنا نحن

بها، أو قام غيرنا؛ لأنّه يستحيل أن يعبر عن معاني القرآن بألفاظ غير عربية، وغير ألفاظه. فلا توجد هناك بين لغات العالم لغة تشبه مفرداتها وألفاظها، وتراكيبها نظيرتها في اللغة العربية، أو يمكن أن تعبر عن معاني ومقاصد القرآن الكريم نفسها. ولتكن الترجمة إذن ترجمة تفسير للمعاني القرآنية، وهذه لا تسمى قرآناً. ولذلك فمهما أوتينا من حرص في ترجمة القرآن، والتعبير عن معانيه بألفاظ، ومفردات، وتراكيب تأتي بها لغات أخرى، فإننا لا نستطيع أن نحقق المراد المقصود من الترجمة، وأن نأتي بقرآن ألفاظه، ومفرداته، وتراكيبه غير عربية.

ثانياً: إنّ العناية الإلٰهية اقتضت أن يكون هذا القرآن، وأن يبقى عربياً لِحِكمةٍ عدم إمكانية ترجمته أو لِحِكَمٍ أخرى لا يعلمها إلا الله. فقد تظهر لنا بعض حِكَمِ القرآن، وقد يخفى علينا الكثير منها. حتى الذي يظهر لنا من الحِكَمِ قد لا يكون هو المقصود. وكما قال الإمام السيوطي في الإتقان: «إنّ تحت كل حرف من حروف القرآن الكريم معان لا يعلمها إلا الله تعالى».

وغني عن البيان القول: إنّ الله تعالى لم ينزل القرآن، ولم يجعله عربياً إلاّ لِحِكْمَةٍ هو ارتضاها، وإذا قال هو عربي، سيظل عربياً، وعلينا، ولعلنا نعقل ما فيه، ولما نزل لأجله. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ سورة يوسف آية 2.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. سورة الزخرف آية 3.

الشبهة الثالثة:

إنّ ترجمة القرآن حرفياً إلى لغة أخرى اقتضتها السُّنّة النبوية. ودليلهم: قال «الشربنلالي» في كتابه: «النفحة القدسية»: «روي أن أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية، فكتب

لهم: «بسم الله الرحمٰن الرحيم - بنام يزدان يحشايند) فكانوا يقرأون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم. وبعد ما كتب عرضه على النبي (ﷺ) كذا في المبسوط. قاله في النهاية، والدراية».

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ هذا الحديث خبر مجهول الأصل، وفي متنه، وسنده، ولذا لا يجوز الاعتداد به. ولو كان صحيحاً لتواتر، لأهميته.

ثانياً: إنّ هذا الخبر يحمل في طياته علامات نقضه. لأنّه لو صح، فإنّ المعلوم أن سلمان الفارسي لم يجبهم إلى طلبهم، وأنّه لم يترجم لهم الفاتحة، وإنّما ترجم البسملة فقط كما هو مستفاد من الحديث نفسه. زد على ذلك أن ترجمة البسملة أيضاً لم تأت كاملة. وإنّما نقصت ترجمة «الرحمٰن».

ثالثاً: إنّ الاختلاف في روايات هذا الحديث بالزيادة، والنقصان في لفظه يقتضي الحكم برده، وعدم الأخذ به. فالإمام النووي مثلاً نقله في المجموع شرح المهذب بلفظ آخر نصه: «إنّ قوماً من أهل فارس طلبوا من سلمان أن يكتب لهم شيئاً من القرآن، فكتب لهم الفاتحة بالفارسية». فهذه الرواية تذكر الفاتحة، والأولى تذكر البسملة، وهذا اضطراب يوهن الحديث ويضعفه.

رابعاً: يترتب على ما سبق عدم ثبوت صحة هذا الحديث. وكذلك تناقضه. وحتى على فرض صحته، فالظاهر، بل والثابت أنّه يعارض الأدلة الأكيدة، والمتفق عليها من قبل العلماء على عدم جواز وصحة ترجمة القرآن ترجمة حرفية؛ وأنّه قد يكون المقصود في حديث سلمان الفارسي هو الترجمة اللغوية التفسيرية ليس إلاّ. والله أعلى، وأعلم.

تعليلات العلماء
في عدم جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم.

والمقصود بها نقل القرآن من لغته العربية إلى لغة أخرى، أي التعبير عن معاني ألفاظ القرآن العربية، ومقاصدها بألفاظ غير عربية مع الوفاء بجميع هذه المعاني، والمقاصد. وبعبارة أخرى يقصد بالترجمة الحرفية للقرآن الكريم النقل الحرفي لألفاظه، ومفرداته، وتراكيبه العربية إلى أخرى مشابهة لها في اللغات الأخرى. بحيث يكون النظم موافقاً للنظم، والترتيب موافقاً للترتيب. أمّا إذا لم يلاحظ النقل الحرفي، ولم يكن النظم موافقاً للنظم، والترتيب موافقاً للترتيب، وكان هناك نقل لمعاني القرآن بألفاظ يختارها المترجم من لغة أخرى، فهذه هي الترجمة التفسيرية غير العربية للقرآن، وليس الترجمة الحرفية له.

ويقرر العلماء: أنّ حكم الترجمة النقلية الحرفية للقرآن الكريم غير جائز شرعاً، بل ومستحيل، بل وحرام شرعاً.

فالقرآن الكريم إلٰهي ولو أنّه نزل بلغة عربية، فهو ينفرد بمفرداته، وألفاظه، وتراكيبه، وبلاغته، وأسلوبه، ولطائف معانيه. وهو جميعه متواتر متعبد بتلاوته أعجز العرب أن يحاكوه. وقد نزل بلغتهم، فكيف يمكن ترجمة مثل هذا الكتاب ـ هذه خصائصه اللغوية ـ إلى لغة أخرى غير عربيّة. وتأصيلاً لحكم تحريم، واستحالة الترجمة الحرفية للقرآن الكريم نؤصل جملة تعليلات نستند إليها في توضيح، وتأصيل حكم هذه الاستحالة، وهي:

التعليل الأوّل: «إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم وجود مفردات وتراكيب، ونظم، وتراتيب، وروابط لغوية، وضمائر في اللغة المترجم إليها مساوية لتلك التي في القرآن حتى تحل محلها، ويحاط بها تماماً بجميع معاني القرآن. وهذا مستحيل، وغير ممكن. ومن ثم فليس هناك لغة على وجه هذه البسيطة تضاهي اللغة العربية في مفرداتها، وتراكيبها،

واشتقاقاتها، وألفاظها حتى يمكن إحلالها محل اللغة العربية لغة القرآن. ومن المعروف بداهة، وعند أهل اللغة قديماً، وحديثاً، وفي الشرق والغرب أنّ اللغة العربية لغة القرآن تنفرد بخصائصها اللغوية، والنحوية، والاشتقاقية؛ ومع ما يحمله السياق اللفظي من بلاغة، وفصاحة، وتقديم وتأخير، وتذكير، وتأنيث، وإفراد، وتثنية، وجمع، واستعارة، وكناية، وتشبيه، وتمثيل، وتورية، ووجوه إعراب، ومجاز، وترتيب مفردات الجملة: كتقديم الفعل على الفاعل، والمضاف على المضاف عليه، وشبه الجملة الخبر على المبتدأ، وحذف جملة الابتداء، أو حذف جملة الخبر؛ وغيرها من الخصائص اللغوية الأخرى، والتي تجعل لغة القرآن العربية لها استقلاليتها عن لغات العالم الأخرى. وبحيث يستحيل أن تضاهيها، أو تحل محلها لغة أخرى تحافظ على الأصل اللغوي لألفاظ القرآن، وتحيط بجميع معانيه. وذلك لأن الترجمة النقلية الحرفية تقتضي إحلال اللغة إليها بوجوه السياق اللفظي، والنحوي، والبلاغي محل لغة القرآن العربية، وتحيط بجميع معانيه، وهذا مستحيل مستحيل.

التعليل الثاني: إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم الوفاء بجميع معاني القرآن الكريم الأصلية الأولية، والثانوية التابعة، وهذا مستحيل، وغير ممكن.

أولاً: فبالنسبة لمعاني القرآن الأصلية الأوليّة: فإنّ الترجمة الحرفية لها مستحيلة، وممنوعة، وذلك لأنّ ألفاظ، ومفردات القرآن في دلالتها على معانيها الأصلية لها سماتها اللغوية، وخصائصها النحوية بحيث تجعلها ذات سياق بلاغي، ولغوي خاص بها تنفرد بها عن نظيراتها في اللغات الأخرى. وبحيث لا يمكن أن يكون لها شبيه في تلك اللغات الأخرى، أو مضاهٍ لها، وبالتالي يستحيل إحلالها محلها، والدلالة على نفس معاني ألفاظ، ومفردات القرآن العربية. وكذلك: فإذا كان العلماء قد أجازوا الترجمة التفسيرية المعنوية بغير العربية للقرآن الكريم، فإن تلك الإجازة أحاطوها بقيود، ومستلزمات أساسية أهمها:

غير العربية للقرآن ليس أو ليست نقلاً حرفياً له. ولم يقصد بها إحلال اللغة المترجم إليها محل لغة القرآن المترجمة، وإنّما تتم بمفردات وألفاظ يختارها المترجم من اللغة المترجم إليها، ويعبّر بها عن المعنى الذي فهمه من السياق اللفظي القرآني. وهي بالتالي - أي الترجمة التفسيرية - ليست ترجمة حرفية للقرآن، وأيضاً، فإنه، وحتى بالنسبة للترجمة التفسيرية بغير العربية لمعاني القرآن الأصلية قد تعوزها الدقة والوضوح في التعبير، والدلالة على المعاني المقصودة في اللفظ القرآني.
فعلى سبيل المثال: فإنّ اللفظ القرآني الواحد قد يحتمل معنيين أو أكثر تحتملها الآية الواحدة. فيأتي المترجم بلفظ من اللغة المترجم إليها ليدل على معنى واحد فقط، وقد لا يكون هو المعنى المقصود في الآية.
وكذلك فقد ترد الآية بمعنى مجازي، فيأتي المترجم بلفظ آخر من اللغة المترجم إليها، فيضعه في معناه الحقيقي. وبذلك فالعلماء أجازوا الترجمة التفسيرية المعنوية غير العربية لمعاني القرآن الأصلية تحت قيد الضرورة، وبقدر الحاجة فقط. وأما الترجمة الحرفية لمعاني القرآن الأصلية، فقد حرّمها العلماء.

ثانياً: وأمّا بالنسبة لمعاني القرآن الثانوية التابعة: فإنّ الترجمة الحرفية لها مستحيلة، وممنوعة أيضاً؛ وذلك لأنّ المعاني الثانوية هي من خواص نظم القرآن، والتي ينفرد بها كلام الله القرآني، وبها يكون معجزاً. وهي دلالات خصائصه السامية في البلاغة، والإعجاز، والتي يستحيل أن يحاكيها أي كلام بشري، وإلا لا يتحقق ذلك الإعجاز. وبالتالي لا ترتقي إلى لغة القرآن في دلالة ألفاظها على معانيها الثانوية أيّة لغة من لغات العالم، وكلها بشرية. ومن هنا فإن العلماء لم يمنعوا الترجمة الحرفية لمعاني القرآن الثانوية فقط، وإنّما منعوا الترجمة التفسيرية غير العربية لها أيضاً.

التعليل الثالث: إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم الوفاء بمقاصد القرآن الكريم الرئيسية، وهذا مستحيل، وغير ممكن، وهي: كونه هداية للجن والإنس، وكونه آية للنبي «ﷺ»، وكونه متعبداً بتلاوته.

أولاً: فكونه هداية للجن، والإنس: فإنّه يستحيل تحقيق هذا المقصد القرآني عن طريق الترجمة الحرفية للقرآن؛ وذلك لأنّ الكلام الرباني في مفرداته، وتراكيبه، وتناسقه، وتعبيراته، واستعاراته، وكناياته، ومجازه، وتوريته، وسياقه اللفظي يحمل في طياته أسس، ومعالم وحوافز تقريب شواهد الهداية لخلق الله من الجن، والإنس. ومن ثمّ فليس هناك كلام بشري له نفس تلك الخصائص اللغوية، ويمكن ترجمة القرآن إليه؛ ومن ثم يمكن إحلاله محل الكلام الرباني، وفي الوقت نفسه يحمل في طياته شواهد الهداية للخلق من الجن، والإنس. وأيضاً: إذا افترض أن هذا المقصد -وهو الهداية- يمكن تحقيقه بالترجمة لمعاني القرآن الأصلية، فإنّه يستحيل تحقيقه بالنسبة لترجمة معاني القرآن الثانوية. وبعبارة أخرى: فإنّ ما يمكن تحقيقه في الترجمة بالنسبة إلى كل ما يفهم من معاني القرآن الأصلية، فهو لا يمكن تحقيقه إلى كل ما يفهم من معاني القرآن الثانوية التابعة؛ لأنها كما قلنا مدلولة لخصائص القرآن العليا التي هي مناط إعجازه البلاغي.

ثانياً: وكونه آية: فإنّه يستحيل تحقيق هذا المقصد القرآني عن طريق الترجمة الحرفية للقرآن. فبالكلام البشري المترجم إليه القرآن عربياً كان أو أعجمياً، يستحيل أن تتحقق به معجزة القرآن الخالدة، وهي كونه آية النبي «ﷺ» سمت بدلالاتها، ومفاهيمها، وهدايتها، وأحكامها، ومناهجها عن غيرها من آيات الأنبياء الحسية الوقتية. فمقصد كون القرآن آية يخرج أن مقدور البشر تحقيقه حتى وإن سما كلام البشر في بيانه وفصاحته، وبلاغته؛ لأنّه سيبقى بخصائصه هذه عاجزاً تماماً أن تتحقق به معجزة انفرد بتحقيقها الكلام الرباني القرآني، بل ولا يقدر عليها إلا الله وحده.

ثالثاً: وكونه متعبداً بتلاوته: فإنّه يستحيل تحقيق هذا المقصد القرآني عن طريق الترجمة الحرفية للقرآن. فأي ترجمة للقرآن إلى لغة أخرى غير لغته ليست قرآناً، وبالتالي لا تحمل خصائصه في ألفاظه،

وأساليبه، ومفرداته، وتراكيبه، وتناسقه، وانسجام آياته، وبالتالي لا يمكن أن تحل محل القرآن، وبالتالي لا يتعبد بتلاوتها.

ولنا أن نزيد هذا الأمر وضوحاً فنقول: إنّ مقصد التعبد بتلاوة القرآن لا يتحقق حتى بالنسبة لكلام الله الآخر، وهو الحديث القدسي، والقرآن المنسوخ تلاوة، فبالله كيف يمكن تحقيقه بالكلام البشري المترجم إليه القرآن؟!! فالشرعية اللغوية، والدينية تأبى ذلك، وتنأى بمدلولاتها السليمة أن يترجم كلام الله حرفياً إلى لغة أخرى، وفي نفس الوقت يتحقق بتلك الترجمة مقصد التعبد بالتلاوة. ولذا يبقى تحققه بالقرآن، بالكلام الرباني، بالوحي النازل على خاتم الأنبياء المصطفى «صلوات الله عليه».

التعليل الرابع: إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم أن يكون هناك مثل القرآن الكريم، وهذا مستحيل، وغير ممكن؛ وذلك لأن الترجمة الحرفية للقرآن تقتضي التعبير عن معالجة ألفاظه العربية، ومقاصدها بألفاظ غير عربية مع الوفاء بجميع هذه المعاني، والمقاصد، وبحيث تصبح الترجمة صورة مطابقة للأصل القرآني تحل محله، وتتمتع باستقلالية يستغنى بها من أصلها، وقد تحمل اسمه، وفي نفس الوقت تتضمن الترجمة عرفاً دعوى الاطمئنان إلى أنّ جميع المعاني الأصلية، والثانوية للقرآن قد ترجمت، وتم نقلها بذاتها. وأنّها هي نفسها المرادة، والمقصودة في أصلها القرآني، وهذا مستحيل، ولا يمكن تحققه، ولا يمكن قبوله، بل ولا يمكن تصديقه، ولم تمكن القدرة عليه سواء على الواقع النظري، أو الواقع العملي.

أولاً: فالبنسبة للواقع النظري: فيكفينا القول: إنّه لا توجد لغة بشرية تماثل، وتشابه لغة القرآن العربية في مفرداتها، وتعبيراتها، وتراكيبها، واشتقاقاتها، وضمائرها، وروابطها، وخصائصها اللغوية الأخرى، حتى يمكن أن تساويها، أو تحل محلها، أو يستغنى بها عنها. ونزيد الأمر وضوحاً بالقول: بأنّ لغات البشر الوضعية، وإن تحققت وحدة عناصر

التشابه، والتماثل فيما بينها إلى حد بعيد إلاّ أنّ هذا التشابه، والتماثل نسبي، وليس على إطلاقه؛ وبحيث تبقى هذه اللغات دوماً على درجة من الاستقلالية، والاختلاف عن بعضها؛ نظراً لاختلاف خصائصها اللغوية. ومن ثم يبقى التماثل، والتشابه فيما بينها نسبياً، ولا يمكن تحققه على الواقع النظري. ولذلك يصرح الكثير من المتمكنين في اللغات البشرية أنّ ترجمة النصوص الأدبية من لغة إلى أخرى بصورة دقيقة أمر مستحيل، وما يتداوله النّاس من ترجمات النصوص أدبية أو وثائقية، هي في حدّ ذاتها ليست دقيقة، وليست ترجمة بالمعنى الدقيق؛ وإنّما يسمونها ترجمة من قبيل التسامح في ميدان نقل المعاني من الأصل المترجم إلى الفرع المترجم إليه. نقول: إذا كان ذلك التشابه، وإذا كان التماثل متعذراً بين لغات البشر الوضعية، والتي تجمعها شواهد وحدة عناصر التماثل والمتشابه إلى حدّ بعيد فما بالك بالنسبة للغة القرآن العربية، والتي نرى، وباعتراف الجميع من اللغويين، والعلماء، تمايزها، وانفرادها اللغوي تماماً، بحيث يبقيها في منأى عن وحدة عناصر، وشواهد التماثل والتشابه مع اللغات البشرية، الوضعية، حتى العربية منها. وبالتالي تتعذر الترجمة الحرفية لها، والتي يشترط فيها وجود مثل هذا التشابه، والتماثل بين اللغات، وإلى أي من تلك اللغات البشرية في الواقع النظري.

ثانياً: وبالنسبة للواقع العملي: فيكفينا القول: إنّ القرآن، وللآن، لم يحصل أن ترجم ترجمة حرفية. بل لم يستطع، ولم تكن القدرة على ترجمته حرفياً رغم المحاولات العديدة، ورغم الترجمات الكثيرة التي تمت، وحصلت للقرآن الكريم. فجلّ هذه الترجمات هي من قبيل التفاسير لمعاني القرآن بلغات أخرى غير عربية، وهي ليست بقرآن، وليست ترجمة حرفية له. ونزيد الأمر وضوحاً بالقول: إنّ استحالة، وعدم حصول ترجمات حرفية، إلى لغات أخرى للقرآن الكريم في الواقع العملي لا تتعلق باللّغات غير العربية، أو الشعوب غير العربية فقط؛ وإنّما تكرّست، وتأكدت شواهد تلك الاستحالة بالنسبة للعرب أنفسهم،

وهم أهل لغتهم العربية، فقد أثبت هؤلاء عجزهم عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله حتى ويمثل أقصر سورة منه، وتتكون من ثلاث آيات، وكل ذلك لأنّ معارضة القرآن، ومحاكاته تقتضي الإحاطة بجميع معانيه ومقاصده، ويعني هذا الإتيان بمثله، أي الإتيان بقرآن بشري وضعي أرضي. وهذا ما لم يحصل، ولن يحصل حتى بالنسبة للعرب الفصحاء البلغاء والّذين لغتهم هي نفسها لغة القرآن العربية. نقول: إن كان هذا لم تحصل القدرة عليه من قبل أهل لغة القرآن، فيكف يتسنى أو يعقل أن يحصل من أو يقدر عليه غير العرب من أصحاب اللغات الأعجمية الأخرى؟!!. فقد تحدّى القرآن العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، ولم يستطيعوا، مصداق قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ الطور آية 34.

وقد تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا، ولم يستطيعوا، مصداق قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ سورة هود آية 13. وقد تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله فعجزوا أيضاً، ولم يستطيعوا، مصداق قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ سورة يونس آية 38.

وقد حذّر الله العرب، وفي تحذيره لهم تحذير لغيرهم من الأعاجم أو كلّ من تسوّل له نفسه الافتراء على هذا القرآن، أو الادعاء أنّ في مقدوره الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ سورة البقرة آية 24. وفي هذا التحذير الرباني نفي، وأي نفي للإتيان بمثل هذا القرآن. وفيه نفي، وأي نفي لاستطاعة الإتيان بأية ترجمة للقرآن إلى لغة أخرى يُدّعى أنّها ترجمة حرفية له، تقوم مقامه، أو تحل محله، وفي الواقعين النظري، والعملي معاً.

التعليل الخامس: إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم طلب المستحيل العادي، وهو حرام. فطلب الاستحالة العادية حتى ولو بطريق

الدعاء حرام شرعاً، وأيّاً كان هذا المستحيل ترجمة، أو غير ترجمة؛ لأنّه ضرب من العبث، ونوع من اللهو الممقوت، وهلاك للنفس أي هلاك، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ سورة البقرة آية 195. وطلب المستحيل هو في حد ذاته غفلة، وجهل بسنن الله الكونية، وبحكمته في ربط الأسباب بمسبباتها العادية؛ تطميناً لخلقه، ورحمة بعباده. ومن ثمّ فإنّ ترجمة القرآن حرفياً هو ضرب من الجهل، والعبث لا عذر لفاعله، والله تعالى أخبر أن ذلك مستحيل على الجن، والإنس جميعاً، فهو يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء آية 88. والله تعالى أنذر بعد أن أخبر بالعذاب بالنّار لمن افترى، وادعى الترجمة الحرفية للقرآن، أو أنّها قرآن، يقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة آية 24. وتتأصل حرمة الترجمة الحرفية للقرآن الكريم وضوحاً في مخالفة، وتكذيب القرآن ذاته، فادعاء الإتيان بمثل للقرآن فيه للآية السابقة، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سورة يونس آية 15.

ففي الآية السابقة أمر إلٰهي للرسول «ﷺ» بأن ينفي قدرته على تبديل هذا القرآن. وهو أمر إلٰهي لكل إنسان ألاّ يحاول تبديل هذا القرآن بترجمة أو غير ترجمة؛ لأنّ ذلك هوى شيطاني، وعصيان للرّب، فهو حرام، وعاقبته العذاب العظيم.

ونزيد الأمر وضوحاً بالقول: بأنّه إذا كان النص القرآني ينفي عن الرسول قدرته على تبديل القرآن، والرسول «ﷺ» حبيب الرحمٰن، وعليه أنزل القرآن، وهو أعلم الناس بأسراره، ولغته، وهو أفصح العرب لساناً، وأعلمهم بمعاني القرآن، ومقاصده، نقول: فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للرسول «ﷺ»، فما بالك بالنسبة لتجار اللّغات من البشر، وهم أقل

الناس شأناً بالنسبة للرسول (ﷺ) وفي ميدان العلم، واللغة، فهل يستطيعون أن يصدقوا في افتراءاتهم، وفي أن يأتوا بمثل لهذا القرآن؟!! فلعمرك، إنّ هذا لهو المستحيل، وطلب المستحيل حرام، ومن ثم فطلب الترجمة الحرفية للقرآن، وإلى لغة أخرى، لهو الحرام بعينه.

التعليل السادس: إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم رواية القرآن بالمعنى، وهو حرام، بل، ولا يجوز. فترجمة القرآن بالمعنى الحرفي العرفي تساوي روايته بالمعنى تماماً، فكلتاهما صيغة مستقلة وافية بجميع معاني الأصل، ومقاصده لا فرق بينهما إلاّ في القشرة اللفظية. فالرواية بالمعنى لغتها لغة الأصل، والترجمة الحرفية للقرآن لغتها غير لغة الأصل، وهي مساوية للرواية بالمعنى، فإن جاز ترجمة القرآن حرفياً، فمعنى ذلك يجوز روايته بالمعنى، وهذا باطل، وغير ممكن. وبذلك إذا كانت رواية القرآن بالمعنى ممنوعة، وغير جائزة، فيجب أن تكون ترجمته الحرفية ممنوعة، وغير جائزة. بل، والأحرى، والأولى أن تكون كذلك، وأن تكون أحرى بالمنع؛ نظراً للاختلاف بينها وبين لغة الأصل، وهي لغة القرآن العربية.

التعليل السابع: إن الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم ضياع الأصل العربي القرآني، وهذا ممنوع، وغير ممكن، وحرام. فإنّ ترجمة القرآن الحرفية إلى غير لغته لو جازت، وصحت، فمعنى ذلك أنّ هذه الترجمة غير العربية يمكن أن تحل محل الأصل العربي للقرآن، بل، وتنتحل اسمه، وذلك لأنّ مستلزمات الترجمة الحرفية الحلول محل الأصل، والاستغناء عنه، ومن ثم انتحال اسمه، وبالتالي تصبح الترجمة غير العربية للقرآن قرآناً بديلاً يفترض أنّه يفي بجميع معاني، ومقاصد القرآن الأصيل؛ وهذا يعني بالتالي ضياع القرآن الإلٰهي العربي كما ضاع الأصل العبري للتوراة، والأصل السرياني أو الآرامي للإنجيل. وهذا كلّه حرام، وخيانة لكتاب الرب العزيز، وإهمال لقرآن الإلٰه الكريم، ورفض لهدايته، ونوره، وهداه، وشفائه. ونزيد الأمر وضوحاً، فنقول: لو جازت الترجمة الحرفية للقرآن إلى غير لغته العربية، فإنّ ذلك يؤدي لا محالة

إلى وجود ترجمات عديدة للقرآن الكريم، ومع مرور الوقت سيذهب عنها اسم الترجمة، وتبقى كلمة أو اسم القرآن وحده علماً عليها؛ فيصبح عند النّاس اعتقاد على مدى الأزمان، والأجيال أنّ هذا هو القرآن الأصيل، وليس المترجم، وبالتالي تصبح عند الناس كتب قرآن عديدة، فيكون هناك قرآن بالإنجليزية، وآخر بالفرنسية، وآخر بالألمانية، وآخر بالروسية... الخ وبالتالي يتعدد القرآن بتعدد اللغات، والشعوب، وينتهي مصيره إلى ما آلت إليه الكتب السماوية الأخرى من حيث التعدد: كالتوراة، والإنجيل. وهذا يعني في نهاية الأمر ضياع القرآن الإلٰهي العربي، وبانصراف النّاس إلى الترجمات الحرفية له اعتقاداً منهم أنّها قرآن رباني، وكتاب سماوي.

التعليل الثامن: إنّ الترجمة الحرفية للقرآن تستلزم تفكك، وانهيار وحدة المجتمع الإسلامي، وهذا ممنوع شرعاً، وغير جائز تحققه، وحرام وقوعه، وذلك لأنّ وجود ترجمات متعددة للقرآن الكريم يؤدي بلا شك إلى ضياع الأصل أولاً، ومن ثم إلى اختلاف المسلمين، وتخطئة بعضهم البعض ثانياً كلّ يتعصب إلى قرآنه، فتتفكك أواصر وحدة الأمة الإسلامية، ويدب الشقاق، والخلاف بينهم، ويتفرقون كما تفرق اليهود، والنصارى، كلّ ذلك لأنّهم فقدوا أهم عناصر الوحدة بينهم، الجامع لهم في لغتهم، ودينهم، ومبدأهم، ومنهجهم، ألا وهو القرآن الكريم. ونزيد الأمر وضوحاً فنقول: ولنا في قرآننا، العظة والعبرة، وفي سنتنا الهداية الحقة، وفي تاريخنا التذكر، والشهادة، ويوم أن كان القرآن دستورنا، والسّنة النبوية طريقنا، واللغة العربية علمنا، وأدبنا، أكرمنا الله بعزته، ونصره، وهدانا إلى صراطه، وحقه، وآزرنا بنصره، وعونه؛ فسدنا العالم، وغمرناه هداية، ونوراً، وعلماً.

ويوم أن تخلينا عن قرآننا، وسنتنا، ولغتنا، ساءت أحوالنا، وتفككت أواصر وحدتنا، وضعفت هيبتنا، فما بالك لو اقتنعنا باستبدال قرآننا العربي الأصيل بترجمة حرفية دخيلة، ولو باركنا ترك كلام ربنا العربي المعجز المتعبد بتلاوته بكلام بشري وضعي فاقد لكلّ أسس

الإعجاز؛ سندها التقليد الأعمى، والاقتداء الضال بمفاهيم، ولغات الكفر من إلحاد، ووجوديه، ويهوديه، ونصرانية، وبوذية، فانظر كيف سيصبح حالنا!! وكيف أنّه لا سبيل لنا إلا بالتمسك، والمحافظة على جامع وحدتنا، وعلم لغتنا، وشاهد نهضتنا؛ ألا، وهو قرآننا، كتاب ربنا. وصدق نبينا إذ يقول: «لقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

قال الإمام الشافعي في كتابه الرسالة ما خلاصته: «إنّه يجب على غير العرب أن يكونوا تابعين للسان العرب. وهو لسان الرسول «ﷺ» جميعاً ـ كما يجب أن يكونوا تابعين له ديناً؛ وإنّ الله قضى أن ينذروا بلسان العرب خاصة». . . ثم قال: «فعلى كلّ مسلم أن يتعلّم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد أن لا إلٰه إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده، ورسوله؛ ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه عن التكبير، وأمر به من التسبيح، والتشهد، وغير ذلك. وكلما ازداد من العلم باللّسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوّته، وأنزل به آخر كتبه، كان خيراً له».

وجاء في كتابه الرسالة للشافعي أيضاً: «أنّ المسور بن مخرمة رأى رجلاً أعجمي اللسان أراد أن يتقدّم للصلاة، فمنعه المسور بن مخرمة، وقدم غيره، ولما سأله عمر «رضي الله عنه» في ذلك قال له: إنّ الرجل كان أعجمي اللسان، وكان في الحج، فخشيت أن يسمع بعض الحجاج قراءته، فيأخذ بعجمته، فقال له عمر: أصبت. وقال الإمام الشافعي: لقد أحببت ذلك»[1].

وقال الإمام الشاطبي من علماء المالكية في كتابه الموافقات في الصفحة الثانية والأربعين ما نصه: «إنّ القرآن أنزل بلسان العرب، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة. ثم قال: فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهمه، لا سبيل إلى تفهمه من غير هذه الجهة».

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 2 ص 152.

وقد ذكر حجة الإسلام الإمام الغزالي من علماء الشافعية في كتابه المستصفى في الصفحة 169 ما نثبته بتصرف: أنّ ما تعبدنا الله فيه باللفظ لا تجوز روايته بالمعنى. وعلى هذا لا يجوز أن يترجم إلى لغة أخرى غير عربية بالأولى.

والقرآن الكريم معروف أنّه متعبد بتلاوته، ولفظه، فلا تجوز روايته بالمعنى، وبالتالي لا تجوز ترجمته.

وقال الإمام الزركشي في البحر المحيط: «لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية، وغيرها بل تجب قراءته على الهيئة التي يتعلق بها الإعجاز؛ لتقصير الترجمة عنه، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذي خص به دون سائر الألسن»[1].

موقف الأزهر من ترجمة القرآن الكريم

أجاز جامع الأزهر الشريف ترجمة تفسير القرآن الكريم إلى اللغات غير العربية الأخرى. وقد تألفت لجنة خاصة من كبار العلماء، وأساتذة وزارة المعارف المصرية، وبرئاسة مفتي مصر الأكبر، وعلى اجتماعات عديدة، أقرت هذه اللجنة ضرورة وضع تفسير عربي دقيق للقرآن الكريم تمهيداً لترجمته ترجمة دقيقة بواسطة لجنة فنية مختارة، وقد وضعت هذه اللّجنة أيضاً دستوراً تلتزم به في ترجمتها للقرآن، ثمّ بعثت نسخة من هذا الدستور إلى كبار العلماء، والجماعات الإسلامية في الأقطار العربية والإسلامية الأخرى، لاستجلاء رأيها. وهذه هي أهم قواعد ذلك الدستور[2]:

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 2 ص 161.
(2) مجلة الأزهر ـ مجلد 7- 648 - 649. والزرقاني، مناهل العرفان، جـ 2 ص 170.

أولاً: أن يكون التفسير خالياً ما أمكن من المصطلحات، والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم الآية.

ثانياً: ألاّ يتعرض فيه للنظريات العلمية. فلا يذكر مثلاً التفسير العلمي للرعد، والبرق عند ذكر آية فيها رعد، وبرق. ولا يذكر أيضاً رأي الفلكيين في السماء، والنجوم عند آية فيها سماء، ونجوم، إنّما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربي، ويوضح موضع العبرة، والهداية فيها.

ثالثاً: إذا اقتضت الضرورة التوسع في تحقيق بعض المسائل، وضعته اللجنة في حاشية التفسير.

رابعاً: عدم التقيد بمذهب من المذاهب في التفسير سواء أكانت مذاهب فقهية، أو مذاهب كلامية.

خامساً: تدوين، وتفسير ما تدل عليه الآية فقط، وعدم المبالغة، والتعسف في تأويل المعجزات، وأمور الآخرة، ونحو ذلك.

سادساً: أن يفسر القرآن برواية حفص، وعدم التعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها.

سابعاً: تجنب التكلف في ربط الآيات، والسور بعضها ببعض.

ثامنـاً: أن يذكر من أسباب النزول ما ثبت، وصح بعد البحث، وأعان على فهم الآية.

تاسعاً: يوضع في أوائل كلّ سورة ما تقتنع به اللّجنة مكيّة أم مدنية، والآيات المكية في السور المدنية، والآيات المدنية في السور المكية.

عاشراً: عند التفسير تذكر الآية كاملة، أو الآيات إذا كانت كلّها مرتبطة بموضوع واحد. ثمّ تحرّر معاني الكلمات بدقة. ثمّ تفسر معاني الآية، أو الآيات مسلسلة في عبارة واضحة قوية، ويوضع سبب النزول، والربط، وما يؤخذ من الآيات في الوضع المناسب.

أحد عشر: ألا يصار إلى النسخ، ولا يؤخذ به إلاّ عند تعذر الجمع بين الآيات.

اثنا عشر: توضع للتفسير مقدمة في التعريف بالقرآن، وبيان مسلكه في كلّ ما يحتويه من فنونه: كالدعوة إلى الله، والتشريع، والقصص، والجدل. . . ونحو ذلك.

ثالث عشر: توضع في مقدمة التفسير المنهج الذي سارت عليه اللجنة في تفسيرها.

رابع عشر: وضع قواعد واضحة تتبعها اللجنة في طريقتها في تفسير معاني القرآن الكريم، وهذه القواعد هي:

أ - تبحث أسباب النزول، والتفسير بالمأثور، فتفحص مروياتها، وتنقد، وتدون الصحيح منها بالتفسير مع بيان وجه قوة القوي، وضعف الضعيف من ذلك.

ب - تبحث مفردات القرآن الكريم بحثاً لغوياً، وكذلك خصائصها للتراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً ثم تدوّن.

جـ - تبحث آراء المفسرين بالرأي، والتفسير بالمأثور، ويختار ما تفسر الآية به مع بيان وجه المردود، وقبول المقبول.

د - وبعد ذلك كلّه يصاغ التفسير مستوفياً ما نص على استيفائه في الفقرة الثانية من القواعد السابقة، وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب حتى يفهمه جمهور المتعلّمين خال من الإعراب، والصنعة.

حكم الصلاة بغير اللغة العربية

يتفق جمهور علماء السنّة أنّ قراءة القرآن بغير اللغة العربية في الصلاة أو خارجها لا تجوز. وبذلك فهم منعوا الصلاة بالقرآن المترجم

إلى لغة غير عربية، وبصورة مطلقة، وسواء أكان المصلي يتقن اللغة العربية أم لا. ودليلهم: أنّ ترجمة القرآن إلى غير العربية ليست قرآناً. فالقرآن الذي تصح الصلاة به هو كلام الله العربي المعجز الموحى به من عند الله تعالى باللفظ، والمعنى. وترجمة القرآن ليست كلام الله كما أنّها ليست معجزة، وليست عربية، بذلك لا تصح الصلاة بها. وبالمقابل فإن للمذهب الحنفي رأياً يجيز فيه قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة، وذلك في حالة العجز، وعدم القدرة على الصلاة بالعربية. ويمكننا حصر موقف العلماء إزاء حكم الصلاة بغير العربية في اثنين:

الأول: عدم جواز الصلاة بغير العربية إطلاقاً.

الثاني: جواز الصلاة بغير العربية في حالة العجز.

الموقف الأول:

عدم جواز الصلاة بغير اللغة العربية إطلاقاً. ويأخذ بهذا الرأي علماء، ومذاهب جمهور السنة الثلاثة: المالكية، والشافعية، والحنابلة.

المذهب المالكي:

أولاً: ورد في حاشية الدسوقي على شرح الدردير[1] ما يفيد منع جواز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة حيث ورد فيها: «لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية. بل لا يجوز التكبير في الصلاة بغيرها، ولا بمرادفه من العربية، فإن عجز عن النطق بالفاتحة بالعربية وجب عليه أن يأتم بمن يحسنها؛ فإن أمكنه الائتمام، ولم يأتم، بطلت صلاته. وإن لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة، وذكر الله، وسبحه بالعربية. وقالوا على كل مكلف أن يتعلم الفاتحة بالعربية، وأن يبذل وسعه في ذلك، ويجهد نفسه في

(1) حاشية الدسوقي على شرح الدردير ـ جـ 2 ص 232 - 236.

تعلمها، وما زاد عليها إلا أن يحول الموت دون ذلك، وهو بحال الاجتهاد، فيعذر».

ثانياً: ورد في المدونة ما نصه[1]: «سألت ابن القاسم عمن افتتح الصلاة بالأعجمية، وهو لا يعرف العربية. ما قول مالك فيه؟!: سئل مالك عن الرجل يحلف بالعجمية، فكره ذلك، وقال: أما يقرأ؟! أما يصلي؟! إنكاراً لذلك. أي ليتكلم بالعربية لا بالعجمية قال: وما يدريه الذي قال أهو كما قال؟! أي الذي حلف به أنّه هو الله!! ما يدريه أنه هو أم لا!! قال مالك: «أكره أن يدعو الرجل بالعجميه في الصلاة، ولقد رأيت مالكاً يكره العجمي أن يحلف، ويستثقله. قال ابن القاسم: وأخبرني مالك: أن عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» نهى عن رطانة الأعاجم، وقال: إنّها خب. أي خبث، وغش»[2].

ثالثاً: ورد عن القاضي أبي بكر بن العربي، وهو من فقهاء المالكية، قوله في التفسير، أي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ سورة فصلت آية 44. قال علماؤنا: هذا يبطل قول أبي حنيفة «رضي الله عنه»: إنّ ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾. نفى أن يكون للعجمية إليه طريق، فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه؟!! ثم قال: إنّ التبيان والإعجاز إنّما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً، ولا بياناً، ولا اقتضى إعجازاً[3].

المذهب الشافعي:

أولاً: قال في المجموع: «مذهبنا ـ أي الشافعية ـ أنّه لا تجوز

---

(1) المدونة ـ جـ 1 ص 62. والزرقاني ـ مناهل العرفان. جـ 2 ص 161.
(2) محمد الخضر حسين ـ كتاب: بلاغة القرآن ـ ص 15.
(3) المجموع. جـ 3. ص 379.

قراءة القرآن بغير لسان العرب، وسواء أمكنته العربية أم عجز عنها، وسواء أكانت في الصلاة أم في غيرها. فإن أتى بترجمة في صلاة بدلاً عنها لم تصح صلاته، سواء أحسن القراءة أم لا. وبه قال جماهير العلماء، منهم: مالك، وأحمد، وأبو داود»[1].

ثانياً: وجاء في حاشية ترشيح المستفيدين: «من جهل الفاتحة لا تجوز له أن يترجم عنها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، والعجمي ليس كذلك، وللتعبد بألفاظ القرآن»[2].

ثالثاً: وقال الإمام السيوطي في الإتقان: «لا تجوز قراءة القرآن بالمعنى؛ لأنّ جبريل أدّاه باللفظ، ولم يبح له إيحاؤه بالمعنى»[3].

رابعاً: وقال الحافظ ابن حجر، وهو من فقهاء الشافعية في فتح الباري: إن كان القارىء قادراً على تلاوته باللسان العربي فلا يجوز له العدول عنه، ولا تجزىء صلاته (أي بقراءة ترجمته)، وإن كان عاجزاً. ثمّ ذكر: أن الشارع قد جعل للعاجز عن القراءة بالعربية بدلاً، وهو الذكر[4].

خامساً: وقال الإمام الشافعي: ـ رحمه الله ـ في كتاب الأم: «وإذا ائتموا به، فإن أقاما معاً أُمّ القرآن، ولحن، أو نطق أحدهما بالأعجمية، أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غيرها، أجزأته، ومن خلفه صلاتهم إذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن، فإن أراد به كلاماً غير القراءات، فسدت صلاته»[5].

قالوا في مراد الشافعي من كلمته هذه: «ومراده أنّ الإمام،والمؤتم

---

(1) حاشية ترشيح المستفيدين جـ 1 ص 52.
(2) الإمام السيوطي ـ الإتقان.
(3) الإمام السيوطي ـ الإتقان.
(4) الحافظ ابن حجر. فتح الباري ـ ومحمد الخضر حسين. بلاغة القرآن. ص 15.
(5) الإمام الشافعي. كتاب الأم. جـ 1 ص147.

إذا أحسنا قراءة الفاتحة ثمَّ لحن، أو نطق أحدهما بلهجة أعجمية في شيء من القرآن غير الفاتحة لا تبطل صلاتهما. والمراد من الأعجمية: اللهجة، ومن اللسان: اللغة. كما هو استعماله في هذه المواطن. فهذا النص يدل على أنّ اللسان الأعجمي بعد قراءة المفروض عدده، وهو الفاتحة، لا يبطل الصلاة، وهو موافق للحنفية في هذا».

ويذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» تعليقاً على تفسير مراد الإمام الشافعي بقوله: «أمّا الذي ذكروه من أن هذا هو مراد الشافعي ـ رحمه الله ـ فسلم به، بيد أنّه يحتاج إلى تكملة لا بد منها، وهي: أنّ عدم بطلان الصلاة في هذه الصورة مشروط بأن تقصد القراءة. أمّا إذا كان المقصود كلاماً غير القراءة، فإنّها تبطل. ثمّ إنّ منشأ عدم البطلان ليس هو جواز قراءة غير الفاتحة بالأعجمية كما فهموا، إنّما منشؤه أنّ هذه القراءة بالأعجمية وقعت في غير ركن، وفي غير واجب للصلاة لما هو مقرر في مذهب الشافعية من أن ما زاد على الفاتحة ليس واجباً في الصلاة بحال. وهذا لا ينافي أن القراءة بالأعجمية محرمة كما سبق في نصوص الشافعية، وكما عرف من كلام الشافعي نفسه، ولهذه المسألة نظائر منها: الصلاة في الأرض المغصوبة. فإنّها محرّمة، ومع حرمتها، فإنّها صحيحة. ويؤيد حرمة القراءة بالأعجمية أنّ الشافعي في كلامه هنا قد سوى بين اللحن، والقراءة بالأعجمية، ونظمها في سلك واحد مع ما هو معلوم من أنّ اللحن في القرآن حرام بإجماع المسلمين»[1].

المذهب الحنبلي:

أولاً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الإتيان بلفظ يبين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلاً. ولهذا كان أئمة الدين

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني. مناهل العرفان. جـ 2. ص 165.

على أنّه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية لا مع القدرة عليه، ولا مع العجز عنها؛ لأنّ ذلك يخرجه أن يكون هو القرآن المنزل»[1].

ثانياً: قال ابن قدامة في المغني: «ولا تجزئه القراءة بغير العربية، ولا إبدال لفظ عربي سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن. ثم قال: فإن لم يحسن القراءة بالعربية، لزمه التعلم، فإن لم يفعل مع القدرة عليه، لم تصح صلاته»[2].

ثالثاً: قال الإمام ابن حزم الحنبلي في كتابه المحلى: «من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها، أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية، أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامداً لذلك، أو قدّم كلمة، أو أخرها عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق، لأنّ الله تعالى قال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. وغير العربي ليس عربياً، فليس قرآناً. وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله. وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك، فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾. ومن كان لا يحسن العربية، فليذكر الله تعالى بلغته، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن، ولا شيئاً من القرآن مترجماً على أنّه الذي افترض عليه أن يقرأه؛ لأنّه غير الذي افترض عليه كما ذكرنا، فيكون مفترياً على الله»[3].

الموقف الثاني:

جواز الصلاة بغير العربية في حالة العجز: ويأخذ بهذا الرأي علماء المذهب الحنفي، وعلى رأسهم: الإمام أبو حنيفة، وصاحباه: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني. وقد أجازوا جميعاً قراءة القرآن

---

(1) محمد الخضر حسين ـ كتاب: بلاغة القرآن. ص 15.
(2) ابن قدامة ـ المغني ـ جـ 1 ص 526.
(3) الإمام ابن حزم الظاهري الحنبلي. كتاب: المحلى. جـ 1. ص 254. والزرقاني مناهل العرفان جـ 2 ص 162.

بغير العربية في الصلاة في حالة العجز عن قراءتها بالعربية. ودليلهم في ذلك هو: أنّ القرآن اسم للمعاني الذي تدلّ عليها ألفاظه العربية، والمعاني واحدة في جميع اللغات، ولا تختلف باختلاف الألفاظ الدالة عليها. المهم ألاّ يختل المعنى.

قال في «معراج الدراية»: «إنّما جوزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز إذا لم يخل بالمعنى؛ لأنّه قرآن من وجه اعتبار اشتماله على المعنى. فالإتيان به أولى من الترك مطلقاً، إذ التكليف بحسب الوسع»[1].

وقد ورد: أن أبا حنيفه أجاز القراءة للقرآن في الصلاة بالفارسية. وأجاز بعض أصحابه قياساً على رأيه الصلاة باللغات الأخرى: كالترجمة، والهندية، وغيرها.

ونلخّص رأي المذهب الحنفي كما ورد في مجلة الأزهر الشريف بقلم أحد علمائهم الكبار: إنّ أئمة المذهب الحنفي أجمعوا على أنّه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة. ويمنع فاعل ذلك أشدّ المنع؛ لأنّ قراءته بغيرها من قبيل التصرف في قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه، بل بما يوجب الركاكة. وأما القراءة في الصلاة بغير العربية فتحرم إجماعاً للمعنى المتقدم. لكن لو فرض، وقرأ المصلي بغير العربية أتصح صلاته أم تفسد؟!!. ذكر الحنفية في كتبهم: «أنّ الإمام أبا حنيفة كان يقول أولاً: «إذا قرأ المصلي بغير العربية مع قدرته عليها اكتفي بتلك القراءة». ثمّ رجع عن ذلك، وقال: «متى كان قادراً على العربية، ففرضه قراءة النظم العربي، ولو قرأ بغيرها، فسدت صلاته، لخلوها من القراءة مع قدرته عليها، والإتيان بما هو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآناً»[2]. ورواية رجوع الإمام هذه تعزى إلى الأقطاب في

---

(1) محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن. ومناع القطان مباحث في علوم القرآن. ص 318.

(2) مجلة الأزهر الشريف ـ مجلد 3 ـ ص 32 - 33 - 66 - 67. والزرقاني ـ مناهل العرفان. جـ 2 ص 163.

المذهب، ومنهم: نوح بن مريم، وهو من أصحاب أبي حنيفة، وعلي بن الجعد، وهو من أصحاب أبي يوسف، وأبو بكر الرازي، وهو شيخ علماء الحنفية في عصره في القرن الرابع الهجري.

وينوه محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان: بأنّه لا داعي أبداً للتمسك بالقول الأوّل للإمام أبي حنيفة، فالمجتهد إذا رجع عن قوله، فيعني هذا أنّه ظهر له أنّه ليس بصواب. ولذلك لا يكون في المذهب الحنفي إلاّ الرأي القائل: إنّ القادر على قراءة القرآن في الصلاة لا يجوز له أن يؤديها بغير العربية. أمّا العاجز عن قراءة القرآن بالعربية فهو كالأمي في أنّه لا قراءة عليه. لكن إذا فرض أنّه خالف، وأدى القرآن بلغة أخرى: فإن كان ما يؤديه قصة، أو أمراً أو نهياً، فسدت صلاته؛ لأنّه متكلّم بكلام، وليس ذكراً. وإن كان ما يؤديه ذكراً أو تنزيهاً لا تفسد صلاته؛ لأنّ الذكر بأي لسان لا يفسد الصلاة؛ لا لأن القراءة بترجمة القرآن جائزة، فقد أجمع على أنّها محظورة، وممنوعة.

حكم الذكر بغير العربية في الصلاة.
للعلماء رأيان مختلفان.

الرأي الأول:

إباحة الذكر بغير العربية في الصلاة. وهو رأي الشافعي، وأبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفه. وسواء أكان الذكر واجباً كتكبيرة الإحرام، أو غير واجب كسائر التكبيرات في الصلاة.

الرأي الثاني:

عدم إباحة الذكر بغير العربية في الصلاة. وهو رأي الإمام مالك، وإسحاق، والإمام أحمد بن حنبل، وسواء أكان الذكر واجباً أو غير واجب.

ولنا القول: وبما أخذ به جمهور العلماء بعدم جواز الصلاة بغير العربية مطلقاً. فالصلاة لا تجوز إلاّ بالقرآن، والكلام المترجم ليس قرآناً، وقد خرج عن خصوصية الكلام الإلٰهي، والنظم العربي، يسعفنا في ذلك أقوال جمهور العلماء، ومنها قول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب: «اقتضاء الصراط المستقيم» «أمّا القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور». وهذا هو الصواب الذي لا ريب فيه. بل قد قال غير واحد إنّه يمتنع أن يترجم سوره، أو مما يقوم به الإعجاز. ويقول أيضاً: «فإنّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب. فإن فهم الكتاب، والسنة فرض، ولا يفهمان إلاّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاّ به، فهو واجب».

ولنا القول أيضاً: إنّ إباحة المذهب الحنفي للصلاة بغير العربية على الغالب ليس مطلقاً، وقيدوه بالعجز عن الصلاة بالعربية، واعتبروه رخصة عند الحاجة فقط.

والأحناف يتفقون مع الجمهور على أنّ الترجمة ليست قرآناً. وإنّما هي رخصة لغير القادر تجزئه عن قراءة العربية في الصلاة كذكر الله في الصلاة عند غير الأحناف.

وهناك قول: إنّ الإمام أبا حنيفة رجع عن إباحته بالصلاة بغير العربية بصفة مطلقة.

الباب العاشر

شبهات حول إعجاز القرآن، وأسلوبه، وتفنيدها.

الشبهة الأولى:

إنّ إعجاز القرآن لا يكمُن في سر بلاغته، وبيانه، وفصاحته، أو في عدم قدرة العرب على معارضته، فهو لم يتجاوز في بلاغته، وفصاحته حدود طاقاتهم اللغوية، والبلاغية، وإنّما يكمن إعجازه في عدم توفر الأسباب الداعية لمعارضته، ولو توفرت لاستطاع العرب معارضته؛ ولو فعلوا، لأعجزوا، وأفحموا، وعارضوا، وأتوا بمثله؛ فليس كل ما لم يفعله الإنسان يكون خارجاً عن حدود قدرته. ولذلك فقد زعموا أن القرآن لم يصل في بلاغته بعد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة، وإنّما انصرف العرب عن معارضته، فيخيل للناس أنّه أعجزهم، أو أنّه معجز لأنّه الباقي وحده في الميدان ميدان التحدي، والإعجاز. وقد أرجعوا أسباب عدم معارضة العرب للقرآن لأمور عدة أهمها ثلاثة:

الأمر الأول: عدم توفر أسباب، وبواعث المعارضة.

الأمر الثاني: حدوث عارض فجائي عاق قدراتهم البلاغية، وعطل مواهبهم البيانية، وطمس فصاحتهم اللغوية، وأقعدهم عن تعاطي أسباب المعارضة رغم توافر الدوافع، والبواعث لها.

الأمر الثالث: وجود مانع إلٰهي، وقدرة إلٰهية صرفت العرب عن معارضته، وسلبتهم القدرة على المعارضة، وهم قادرون عليها؛ ولولا هذه الصرفة الإلٰهية لعارضوه، ولجاؤوا بمثله. وهذا الأخير هو المعبر عنه بالقول بالصرفة، والذي اشتهر عن النظّام من المعتزلة. ولم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ، وحتى أي أحد من علماء العربية. ويعزى أيضاً القول بالصرفة إلى أبي إسحاق الإسفراييني من السنة، وإلى المرتضى من الشيعة.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: بالنسبة للأمر الأول ـ وهو حجة عدم توفر أسباب، وبواعث المعارضة ـ فهذه الحجة مردودة على أصحاب هذه الشبهة. فيقيناً، وبالدليل التاريخي، والعلمي، واللغوي، أنّ أسباب، وبواعث المعارضة كانت موجودة، وموفورة، ومتضافرة، ودوافعها كانت قائمة. وقد حفز القرآن بواعث المعارضة فيهم، وأكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، وفي أكبر زمن؛ ولما لم يستطيعوا، تذرعوا بعدم توافر دواعي، وبواعث المعارضة في زمنهم. وتفنيداً لهذه الشبهة، وتأكيداً على تفاهتها، فقد تحدّاهم القرآن بالنسبة لأهم، وأعظم مجالات المعارضة، وهي الأسلوب، والعقيدة.

أ ـ فبالنسبة للأسلوب في البلاغة، والبيان، والفصاحة، فقد تحدّاهم أكثر من مرة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزوا مصداق قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ سورة الطور آية 34. أليس في هذا تقريع مثير لهم في المعارضة، وهم أهل الحديث والبلاغة كما يدعون. ورداً على تخرصاتهم، وإمعانهم في التذرع

بالأسباب والأعذار قطع عليهم آمالهم في تخرصاتهم واحتجاجاتهم، وشتى ما يتذرعون به في عدم قدرتهم على المعارضة؛ وطمأنهم إفحاماً لهم أنّهم لم، ولن يستطيعوا أن يعارضوا القرآن حتى ولو توفرت دواعي معارضته لديهم. أفليس في هذا استثارة لحمية أذهانهم، ودافعاً ومحركاً لمشاعرهم وألسنتهم، وهم أهل صناعة تحدّاهم القرآن بها!! فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء آية 88.

وقد أكمل القرآن إعجازه البياني بتحديه لهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه كسورة الكوثر، فعجزوا. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ سورة البقرة آية 23.

وبذلك فقد أحالهم القرآن، وأحاط شبهتهم بكل تفنيد، وكل زعزعة وخلخلة لكل ما يدعون. فهم سيظلون عاجزين عن معارضة القرآن حتى ولو توافرت لهم دوافع ذلك. ومن هنا، وقطعاً لدابرهم، وعنادهم، فقد حذرهم من تماديهم في افتراءاتهم ومعاذيرهم، فيبقون بلا حجة، وينتهون إلى غير مبرر؛ فأصبحوا بلا عذر لهم على كذبهم، وادعاءاتهم، وإلاّ وإن لم يتقوا الله ويكفوا، فالنار مثواهم. فالله تعالى يقول لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة البقرة آية 24.

ب ـ وبالنسبة للعقيدة ـ فقد تحدّاهم أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة أن يثبتوا صدق عقائدهم في الوثنية، والكفر، والشرك، بل وسفه أحلامهم، وأحط من عقائدهم، ودياناتهم، وعقائد آبائهم وأجدادهم. وكل ذلك بأساليب الترغيب، والترهيب. أوليس فيها دافع يثير حماسهم، ويوقظ عصبياتهم، ويستفزز حميتهم حمية

الجاهلية، وهم أهل الحمية، والأنفة، وإباء الضيم. أوليس فيها، وقد نعى عليهم جهلهم، وشركهم بواعث تحرك هممهم، فيتحركوا، ويعارضوا، ويحاولوا أن يأتوا بمثل ما تحدّاهم به. ولكن هل فعلوا، وهل استطاعوا، وأسباب المعارضة موفورة قائمة؟!! لا، ولن حتى ولو تذرعوا بعدم توافرها، فهم كاذبون.

ثانياً: أما بالنسبة للأمر الثاني: وهو حجة تعطل مواهبهم، فالواقع التاريخي، وأخبار التواتر، أنّهم، وحين تحداهم القرآن كانوا متمتعين بمواهبهم البيانية، وقدراتهم البلاغية، وعنفوان أدبياتهم؛ ولم يعرض لهم عارض، ولم يفاجئهم حابس حبس مواهبهم، أو سلب قدراتهم، أو طمس على بيانهم. وبالأدلة التاريخية، والعقلانية السليمة، والبراهين المنطقية أنّهم كانوا على ما هم عليه من قدرة في التفكير، وسلامة في التعبير، وسلاطة في المجادلة، وبلاغة في المخاطبة؛ ولكنهم عندما خوطبوا بالقرآن، اقتنعوا بعجزهم، وقعدوا عن تحدياتهم، ويئسوا من معارضاتهم؛ وهم لم يمنعهم مانع من ترهاتهم في المعارضة، والتحدي، اللهم إلاّ العجز، فقالوا، وادعوا أن عارضاً ألمَّ بهم، وأفقدهم بلاغتهم، وإن هم إلاّ يخرصون. فهم لم يتركوا وسيلة إلاّ استخدموها؛ وهم لم يتركوا باباً إلاّ سلكوه؛ وهم لم يتركوا منهجاً إلاّ اتّبعوه، ولا ذريعة إلاّ تذرعوا بها؛ ليردوه عن دينه، ويسلبوا منه قرآنه، ويعطلوا دليله. فهم ساوموه بالمال؛ وهم ساوموه بالملك؛ وهم ساوموه بالعزة الدنيوية؛ وهم ساوموه بالسلطان، وحبسوا عنه الزاد، والطعام، فقاطعوه، وعشيرته في شعب بني هاشم. حيث تحالفت قريش، وكنانة على مقاطعة بني هاشم وعبد المطلب بألاّ يناكحوهم، ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله «ﷺ» كما روى الشيخان عن الزهري. وحيث يرويان أيضاً أن الرسول «ﷺ» قال بشأن هذا التحالف في غزوة الفتح، وفي حجة الوداع: «منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر». فأي عارض هذا الذي عطل مواهبهم، وسلبهم قدراتهم في التحدي، وهم الذين ساوموا رسول الله «ﷺ» حتى في عقيدته، حيث روى ابن مردويه

بسند جيد: «جاء رجال من قريش إلى النبي «ﷺ» فقالوا له: يا محمد، تعال تمسح بآلهتنا، أو ألمّ بآلهتنا، وندخل معك في دينك، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ سورة الإسراء آية 73.

وقوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ آية 74. وأي سبب هذا الذي ألمّ بقدراتهم في التحدي، وهم الذين ألصقوا به كل صفات الطعن، وخصال الشبهات، فوصفوه مرة بالساحر، ومرة بالكاهن، ومرة بالشاعر، ومرة بالمجنون. مصداق قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ سورة الصافات آية 36. ورد عليهم شبهتهم، وفنّد مطعنهم: فقال: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ سورة الصافات آية 37.

وقد قادهم مطعنهم، وأوصلهم حقدهم، وسار بهم عجزهم، وألّبهم مكرهم في محاربة القرآن إلى أن جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وَغشُّوها على أعين فتيانهم، فمنعوهم حتى من سماعه حتى لا ترق لحلاوة طلائه. ولم يطق أشراف قريش أن يستعلن أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره، إذ كانت تهوي إليه أفئدة من أبنائهم، ونسائهم وعبيدهم، يستمعون لقراءته، فخشي المشركون أن يفتتنوا. وإن ابن الدّغنة قد أجاب أبا بكر، فأمروه أن يسترد جواره منه إذا أصر على الإعلان بقراءته. وقد فعل ـ وهذا ما رواه البخاري.

ثـمّ ألـم يمكـروا، ويطعنـوا، ويكيـدوا، ليثبتـوه، أو يقتلـوه، أو يخرجوه. وفي هذا صدق قول ربنا فيهم إذ يقول: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ سورة الأنفال آية 30.

ولقد مكروا، وكادوا، وقاتلوا، وأخرجوا المسلمين من ديارهم ونفوهم من مهجة حبه مكة أحب البقاع إلى الله، ورسوله، ومن ثم، وبعد هذا يدعون، ويزعمون أن شاغلاً شغلهم عن معارضة القرآن، وما

قتلوا، وما أخرجوا إلا بعد أن أفحموا، فعجزوا عن المعارضة للقرآن. ولعل مكرهم، وكفرهم، وعنادهم، لم يكن موجهاً إلى القرآن في الصدور كما يقول شيخنا محمد عبد الله دراز، وإنّما إلى هدف واحد هو إعلان هذا القرآن، ونشره بين العرب. وفي ذلك يروي أبو داود والترمذي: أن الرسول «ﷺ» حينما كان يعرض نفسه على الناس في الموقف يقول: «ألا رجلٌ يَحمِلُني إلى قومِهِ؟!! فإنَّ قُريشاً منعوني أن أبلغَ كلامَ ربي» فهو لم يقل: منعوني أن أتلو كلام ربي، أو أن أحفظه، وإنما قال: منعوني أن أبلغ كلام ربي، فهو في إعلانه، وتبليغه للناس، ونشره بينهم، أشد وطئاً، وأكبر حملاً عليهم. فمانعوا، وعاندوا، وكادوا، وقتلوا، وبعد أن عجزوا، قالوا: شغلنا شاغل عنه، وعرض لنا عارض، فمنعنا أن نعارضه، وأن نفحم معلنه، وأن نمنع رسوله، وأن نحاربه بسلاحنا. وإنه، ولولا هذا لقلنا مثله إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال آية 31.

وقالوا: فهذا القرآن ليس بحق، وإن ما جاء به من فصاحة أسلوبه، أو بلاغة بيان، وإن ما جاء فيه من ألوهية توحيد، أو ربوبية تأليه، أو نورانيّة هداية، أو موعظة، أو رحمة، أو شفاء إنْ هذا إلاّ اختلاق، ويا عجباً لهذا!! فناشره ساحر كذاب. مصداق قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ سورة «ص» الآيات 4 - 7.

وقادهم كفرهم إلى أن أعمى الله بصيرتهم، فدعوا على أنفسهم بالعذاب إن كان هذا الذي يدعيه محمد حقاً مصداق قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سورة الأنفال آية 32. أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قتَلَ النبي «ﷺ» يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث ـ وكان المقداد أسر النضر ـ فلما أمر بقتله،

قال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال رسول الله «ﷺ»: «إنّه كان يقولُ في كتابِ الله ما يقول» قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية. قال: نزلتْ في النضر بن الحارث.

وروى الواحدي: «قال أهل التفسير: نزلت في النضر بن الحارث. وهو الذي قال: إن كانَ ما يقوله محمد حقاً، فأمطر علينا حجارةً من السماء».

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: «قال أبو جهل: اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم. فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ سورة الأنفال آية 33. فهذه أحوالهم، وهذه مكابراتهم، وهذه عنجهيتهم؛ وهذا هو ضلالهم، وهذا هو جهلهم. ولو كانوا أصحاب عقول نيّرة لما دعوا على أنفسهم بالعذاب الأليم أو إسقاط الحجارة عليهم منِ السّماء، ولدعوا لأنفسهم بالهداية، والرحمة عندما تفوهوا بقولهم: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك. وبعد هذا كله يدّعون، ويزعمون أن عارضاً ألمَّ بهم، وصرفهم عن معارضة القرآن. صرف الله قلوبهم عما يزعمون، وعما يدّعون. فسقطت شبهتهم كما سقطت عقولهم في غياب الكفر، والضلال.

ثالثاً: وأمّا بالنسبة للأمر الثالث: وهو حجة وجود مانع إلٰهي منع العرب من معارضته. أي صرفهم عن معارضته، وهم قادرون على ذلك، وهذا هو القول بالصِّرْفَة. ولولا الصرفة الإلٰهية لاستطاع العرب أن يأتوا بمثل القرآن. فسبحان الله!! ألم يحاولوا مرات أن يعارضوه، فامتنع عليهم؟!! ثمّ والواقع البياني يكذب ذلك. فالقول بالصِّرْفة، أو الادعاء بالصِّرْفة ـ وهم يعلمون ـ يحمل في ثناياه المحاولة بالمعارضة. وإلاّ كيف يستسيغ الادعاء بالصِّرْفة، والصرفة لا تأتي إلاّ بعد المحاولة. فهم لم

يحسوا بزوال القدرة على المعارضة إلاّ بعد أن حاولوا وجربوا. ولذا لم تكن هناك صِرفة قبْلية، ولكن الصرفة بعديه، طمِس الله على قلوبهم، وأخرس ألسنتهم بعد أن عاندوا، وادعوا، وحاولوا فلم يستطيعوا. وبعد أن فشلوا، ادعوا أن الله صرفهم عن معارضة القرآن مسبقاً، وقبل أن يحاولوا، وقبل أن يجربوا. وفي هذا تستبين شواهد الكذب على القول بالصِّرفة المسبقة، وفي هذا تستبين شواهد الصدق على القول بالصرفة البعدية. وفي هذا تستبين شواهد الصحة على العجز بعد المحاولة. ويا ليتهم ادعوا الصرفة البعدية، وبأنّهم بعد أن حاولوا، وجربوا، فشلوا. ومن ثمّ فالقول بالصِّرفة يوقعهم في شر أعمالهم، ويوقعهم في أحط تناقضاتهم، وأقصى افتراءاتهم. فكيف يدّعون أن الله صرفهم عن المعارضة، أو أن العناية الإلٰهية سلبتهم قدرتهم على المعارضة، وفي الوقت نفسه تتحداهم الإرادة الإلٰهية أن يعارضوا القرآن؟!! فإذا كانت الإرادة الإلٰهية وقفت منهم موقف التحدي، ووضعتهم في موضع الابتلاء والامتحان في المعارضة للقرآن، ثم تأتي هذه الإرادة، وتسلبهم أسباب التحدي، وتعريهم من عوامل الابتلاء، والامتحان، وتفقدهم قدرتهم على المحاولة، وتصرفهم عن تجربة الابتلاء، وتحرمهم من دخول الامتحان؛ أوليس هذا يوقعهم في أشد مغالطاتهم، وأقبح تناقضاتهم؟ أوليس في هذا ـ لو صدقوا ـ تفريغاً لمعاني التحدي، من كل معنى، أو اعتبار، أو قيمة، أو فائدة؟!! وما قيمة الامتحان، وما قيمة الابتلاء دون المحاولة للتقدم لهذا الامتحان، أو تجاوز هذا الابتلاء؟! وهل يبقى للتحدي أية قيمة، وهل يظل للمعارضة أية فائدة إذا مُنِعَ المرء المُتَحدّى من التحدي، أو الأخذ بأسباب المعارضة؟! تالله إن هذا لهو التناقض بعينه، وإن هذا لهو التبجح ذاته، وإن هذا لهو العجز بشواهده ودلائله، وإن هذا هو العبث بأتم معانيه!! فالتحدي الإلٰهي قائم، وسيظل قائماً، وإلى قيام الساعة، وليس لقريش فقط، وليس للعرب فقط، وفي عصر من العصور، وإنّما إلى قيام الساعة، وللبشرية جمعاء. فليس هناك صارف، وليس هناك مانع يمنع من المحاولة للتحدي، وإلاّ كان هذا عبثاً. والتحدي قائم،

وأسباب التحدي قائمة وإلاّ كان التحدي عبثاً، والإرادة الإلٰهية منزهة عن العبث، سبحانك هذا بهتان عظيم. سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وما يحير العقول أنّهم يقولون بالصِّرفة، وهم يعترفون بعجزهم عن معارضة القرآن. وهل يأتي العجز أو الاعتراف به قبل المحاولة؟! إلاّ أن العجز جاء بعد أن حاولوا، وجرّبوا؛ فكان القرآن مثار إعجابهم، وسرَّ دهشتهم، وشهادة اعترافهم، وعلى ألسنتهم، ولسان أحد صناديدهم الوليد بن المغيرة حيث يشهد ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ: ما هذا بقول بشر. ولكن ـ والكفر عناد ـ فبدلاً من أن يحكّموا عقولهم، ويؤمنوا، قالوا: إن هذا إلاّ سحر يؤثر إن هذا إلاّ قول البشر. وعندما حاولوا معارضته وفشلوا ـ وهم بشر ـ ناقضوا أنفسهم، فقالوا: صرفنا الله عن ذلك ـ صرف الله قلوبهم، وأخرس ألسنتهم. روى الحاكم، والواحدي عن ابن عباس: «أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي (ﷺ)، فقرأ عليه القرآن ـ وكأنّه رق له ـ فبلغ ذلك أبا جهل، فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه؛ فإنّك أتيت محمداً تتعرض لما قاله. فقال: قد علمتْ قريش أنّي من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكر له وكاره. فقال: وماذا أقول؟! فوالله، ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها، وبقصيدها مني، والله، ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. والله، إنّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة؛ وإنّه لمثمر أعلاه، معذق أسفله؛ وإنه ليعلو، وما يعلى. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ سورة المدّثر الآيات 11 - 25.

وهكذا حال صناديد قريش، وهكذا حال فصحائهم، وبلغائهم، وخطبائهم، وشعرائهم. وهكذا حال قس بن ساعدة، وأميّة بن أبي الصلت،

وغيرهم كثير خروا لبلاغة القرآن سجداً، وركعوا لفصاحة القرآن ركعاً. وهم أخطب النّاس، وأشعرهم، وأكثرهم فصاحة، وبياناً، أحسوا ببيان القرآن أكثر من غيرهم، وأعجبوا ببلاغته أكثر من عوامهم، وقد وجدوا فيه قوة بيانية لا تجابه، وتياراً بلاغياً لا يقاوم؛ فبسطوا ألسنتهم فأخرسها، وفتحوا أفواههم، فأغلقها، وحاولوا معارضته فأفحمهم، وأعجزهم. ولما لم يجدوا سبيلاً آخر، وسدت عليهم منافذ التحدي في المعارضة، قالوا بالصِّرفَةِ، قالوا: إنّ الله صرفهم عن المعارضة، فأصبحوا غير قادرين، ولولا الصرفة لكانوا قادرين. ألاَ بئسَ الذّنْبُ الكفرُ بعدَ الإيمان. ألا بئس الذنب الكفر بعد الإفحام. ألا بئس صارف صرفهم عن إيمانهم، فعطل عقولهم، وأعمى أبصارهم، وضرب على آذانهم، وطمس على قلوبهم.

الشبهة الثانية:

إنّ تحدي القرآن للعرب أن يأتوا بمثله لا يدل على أنَّه معجز، أو أنّه كلام الله. ودليل ذلك: أنّ الصنعة البيانية ليست في النّاس بدرجة واحدة. وأنّ لكل قائل أو كاتب أو متأدب أسلوباً خاصاً به يتبع استعداده الأدَبيّ، وما تهديه إليه فطرته الأدبية، ومواهبه البيانية. وبذلك لا يستطيع أن يأتي اثنان بأسلوب واحد، وبخصائص متشابهة، وصفاته، وشواهده ونكاته البلاغية واحدة. ولذلك فكل أسلوب يعتبر معجزاً بالنسبة للآخر، أو الأساليب الأخرى. ولذلك فالإعجاز الأسلوبي أمر مشاع في كلام البشر. وهو إعجاز نسبي، وليس مطلقاً، وكذلك فإنّ هذا الإعجاز لم يضف على الأساليب البشرية شيئاً من القدسية، ولم يجعلها قرآناً. وما القرآن إلاّ كلام عبر عنه أساليب بلاغيةً، وبيانيه بشرية. وما القرآن إلاّ كلام بشر، وهو محمد «ﷺ». ويتساءل أصحاب هذه الشبهة: إذا كان اختلاف الأساليب البشرية أمراً يعترف به الجميع، وأنّه يستحيل أن يأتي أديب بأسلوب، أو يكتب كاتب بمنهج يشبه تماماً أساليب غيره، فكيف يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله، أو بمثل أسلوبه؛ وصاحبه يعلم أن

هؤلاء الناس يعجزون أن يأتوا بمثل أساليب بعضهم البعض؟!! وعندما يعجزون عن الإتيان بمثل القرآن يسميه إعجازاً، أو إفحاماً؟!! ويتساءلون أيضاً: إذا كان اختلاف الأساليب البشرية في نكاتها البلاغية، وفصاحتها التعبيرية، وألفاظها البيانية، لا يدل أبداً على قدسيتها، ولا يوصلها إلى المقامات الإعجازية، أو أنّها من صنع إلٰهي أو أنّها أساليب إلٰهية؟ فلماذا إذن ـ والتساؤل لهم ـ تعتبرون أسلوب القرآن إلٰهياً؟! وهو من جملة الأساليب البشرية الأخرى، ويشترك معها في خصائصها، وسماتها البيانية والبلاغية، والتعبيرية؟!. وكذلك وكما أن عجز المرء عن أن يأتي بأسلوب يشبه أسلوب غيره لا يعتبر دليلاً على قدسية هذا الأسلوب الأخير. فكذلك فإنّ عجز النّاس عن أن يأتوا بمثل أساليب القرآن يجب ألاّ يعتبر هذا العجز دليلاً على قدسية القرآن، وبأساليبه!!! وأصحاب هذه الشبهة يريدون أن يصلوا إلى أمرين: **الأوّل**: أن القرآن ليس من عند الله، وإنّما هو من صنع محمد (ﷺ)، وهو إنسان بشري ـ **الثاني** ـ أن كلام القرآن ليس معجزاً، وأنّ تحديه للناس أن يأتوا بمثله ليس بدليل على إعجازه، ولو فشلوا.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ منطلق هذه الشبهة أساسه خاطىء. وما بني على خطأ فهو خطأ، ويقود إلى الخطأ. فهم ـ أي أصحاب هذه الشبهة ـ ينطلقون من أمر خاطىء يسلمون به، وهو أمر غير مسلَّم به، وهو أن القرآن ليس إلٰهياً، وأنّه من تأليف بشر هو محمد (ﷺ)، ودون أن يثبتوا ذلك، ودون أن يقدموا ولو دليلاً واحداً على صدق دعواهم. والخطأ الثاني الذي ارتكبوه في تأييد شبهتهم أنّهم أجروا مقارنة بين القرآن الإلٰهي، وبين الكلام البشري عند كلامهم عن أساليب التعبير، والبلاغة، والبيان. فكانت مقارناتهم، وكانت مزاعمهم واهية لم تسعفهم البتة في تأييد شبهتهم، وتأكيد صحتها. فقد انطلقوا من فرضيات خاطئة لا يوافقهم عليها أحد ثمّ أجروا مناقشاتهم بناءً عليها.

ثانياً: إن تفنيد هذه الشبهة يكمن في أن القرآن الكريم تحدّاهم في مادتهم الكلامية، وفي صنعتهم البيانية، فلم يفلحوا. فالقرآن لم يتحداهم في لغة غير لغتهم، أو في بيان غير بيانهم، أو في كلام غير كلامهم، أو مفردات غير مفردات لغتهم، بل ذهب أبعد من ذلك؛ فالقرآن في إعجازه، وليثبت تحدّيه لم يكلفهم أن يأتوا حتى بنفس صورته الكلامية، أو بنفس أسلوبه المتبع، أو منهاجه المعين. وإنّما تحداهم أن يأتوا بكلام شبيه إلى حد ما بكلام القرآن، أو أسلوب يقترب في خصائصه، وسماته، أو منهاج يقارب القرآن في بيانه حتى ولو كان على غير صورة القرآن البيانية. المهم بالنسبة لتحدي القرآن ألاّ يأتوا بكلام يطيش في الميزان إذا قيس هو، والقرآن بمقياس واحد من البيان كما يقول شيخنا الزرقاني. والمهم في تحدي القرآن لهم، وكما يقول شيخنا دكتور دراز: «أنّنا حين نتحدى النّاس بالقرآن لا نطالبهم أن يُجيئونا بنفس صورته الكلامية. كلا. ذلك ما لا نطمع فيه، ولا ندعو المعارضين إليه. وإنّما نطلب كلاماً أيّاً كان نمطه، ومنهاجه، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيّاً كانت فطرته، ومزاجه، وبحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية، حاذاه، أو قاربه في ذلك المقياس، وإن كان على غير صورته الخاصة. فالأمر الذي ندعوهم إلى التماثل أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء، وفيه يتماثلون، أو يتقاربون. وذلك غير المعارض، والصور المعينة التي لا بدّ من الاختلاف فيها بين متكلم، ومتكلم»[1].

وكما يمثل على ذلك علماؤنا، فإنّ الحالة هذه: كقوم استبقوا إلى غاية محدودة أو هدف واحد، وكل واحد سار في طريق رسم له وحده، ولا يتعداه إلى طريق غيره من المتسابقين، ويسير موازياً لخصومه في الممشى، والاتجاه. ثم يتفاوتون في السباق، والسرعة؛ فتجد السابق

(1) الدكتور محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ـ ص 95.

المبرز، وتجد المساوي المتكافىء، وتجد اللاحق المتخلف؛ دون أن يكون اختلاف طرقهم فادحاً فيما يكون بينهم من هذا التفاضل، أو التكامل، أو التماثل. وهكذا تراهم، وهم مختلفون في المنازل، يقع بينهم التماثل كما يقع بينهم التفاضل. ويعرف هذا بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقه إلى ذلك الهدف المشترك. وكذلك المتنافسون في حلبة البيان، يختار كل واحد منهم طريقته الخاصة به، والتي يرضاها لنفسه، ويستريح لها، وتتناسب مع استعداده الفطري، والأدبي للوصول إلى غايته المنشودة في عالم البيان. ثمّ يقع بينهم التفاوت، والتفاضل، والتعادل؛ وذلك بمقدار مواهبهم البيانية، وقدراتهم البلاغية، وبمقدار وفائهم لخصائص البيان، أو نقصهم منها. فالمدعوون إلى معارضة القرآن: فمنهم الأكفاء، والأنداد في عالم البيان للرسول «ﷺ»؛ ومنهم الأكفاء منه، ويسبقونه بياناً، وفصاحة، ومنهم الأدنى منه.

فالمدعوون الأنداد للرسول «ﷺ» سيأتون بشيء أو بمثل ما جاء به. والمدعوون الأكفاء منه سيأتون بأعلى مما جاء به، والأدنى منه، فلن يشق عليهم، ولن يكبر عليهم أن يأتوا بقريب مما جاء به أو بشيء من مثله؛ ومع احتفاظ كل منهم بنمطه في الكلام، ونمطه في البيان، وأسلوبه في المخاطبة. ولكن شيئاً من هذه المراتب الثلاث لم يتم، ولم يحصل، ولم يتحقق، وإلاّ لبطل التحدي، ولفشل الإعجاز. فالعرب بشعرائهم وفصحائهم، وأدبائهم، ومن مختلف المستويات البيانية، والبلاغية، واللغوية، والنحوية، لم يستطيعوا أبداً أن يأتوا بأعلى منه، أو بمثله، أو بما يقاربه. لا بالنسبة إليه كله، وكان كله النازل منه عندما تحدّاهم فقط ثمان وأربعين سورة. فتحداهم أن يأتوا بمثله، ففشلوا - مصداق قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ سورة الطور آية 34.

ولم يستطيعوا بالنسبة لعشر سور من مثله. مصداق قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن

دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ سورة هود آية 13. ولم يستطيعوا حتى بالنسبة لسورة واحدة من مثله. مصداق قوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ سورة يونس آية 38.

وبذلك عبّر القرآن عن إعجازه في تحديه لهم بالتيئيس لهم بعدم القدرة في التحدي حتى لو كان من في الأرض جميعاً من الإنس، والجن ظهيراً لبعضهم البعض في ميدان التحدي، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ سورة الإسراء آية 88. قال الإمام فخر الدين الرازي: «وجه الإعجاز: الفَصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من العيوب». ولنا أن نتساءل: هل استطاع أي منهم ـ وهم أهل الميدان البياني، وفوارس الميدان البلاغي ـ أن يأتي بكلام، وعلى نمط، وأسلوب، ومنهج اكتملت فيه علامات البيان، وتحققت فيه شواهد الإعجاز؟!! كلا ثمَّ كلا. فقد فشلوا، وقد خسروا في ميدان الرهان، وبقي القرآن، وسيظل هو الفائز الرابح، وإلى الأبد بإذن الله في ميدان التحدي، والإعجاز. اللهم فاشهد. ولنا أن نؤكد أن وجه الإعجاز في القرآن راجع إلى التأليف الخاص به لا إلى التأليف المطلق. فلو نزعت لفظة منه لم يستطع لسان العرب أن يأتي أو يوجد غيرها، وفي محلها. فقامت الحجة بفصاحته، وبلاغته على العرب قاطعة. وكما يقول القاضي أبو بكر الباقلاني: «وجه إعجازه ما فيه من النظم، والتأليف، والتوصيف، وأنّه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم. ولهذا لم يمكنهم معارضته، ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعها في الشعر؛ لأنّه ليس مما يخرق العاده. ونظم القرآن ليس له مثال يحتذى، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً»[1].

(1) السيوطي، الإتقان. جـ 2. ص: 119.

الشبهة الثالثة:

إنّ عجز النّاس عن الإتيان بمثل القرآن لا يدل على أنّه معجز. ودليل ذلك: أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثل الكلام النبوي. ومع ذلك فعجزهم هذا لا يدل على إعجاز الكلام النبوي أو قدسيته ـ وكذلك القرآن، فإنّ العجز عن الإتيان بمثله لا يثبت إعجازه، أو أنّه كلام الله، كما لا يثبت قدسيته. فالعرب في قصورهم البياني، والبلاغي عن البلاغة المحمدية كان سبباً في عجزهم عن الإتيان بمثل الكلام النبوي. وهو كذلك السبب نفسه الذي أعجزهم عن معارضة القرآن. وبهذا فإن هذا العجز لا يدل على، ولا يثبت قدسية الأسلوب القرآني كما لا يدل على، ولا يثبت قدسية الأسلوب النبوي.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ الحديث النبوي غير معجز، وغير متحدى به كالقرآن. وما التفاوت، والفضيلة البيانية، والقدرة البلاغية بين الرسول «ﷺ»، وبين خاصة العرب من أهل البلاغة، والبيان؛ وما التفاوت هذا إلاّ في حدود القدرة البشرية، وليس بالأمر الشاذ الخارق للعادة. والرسول «ﷺ»، وهو أفصح العرب، وله المقام الأوّل في الصنعة البيانية، والقدرة البلاغية، إلاّ أنّه بالنسبة لغيره من فصحاء العرب كالتفاوت بين البليغ، والأبلغ، وبين الحسن، والأحسن. وبذلك فكلامه «ﷺ» بسماته البيانية، وخصائصه البلاغية قريب جداً إلى نظيره، وهو كلام فصحاء العرب، ومن ثمّ لا يستحيل على هؤلاء الفصحاء أن يأتوا ولو بقدر يسير من كلام الرسول «ﷺ»؛ وإن أعجزهم ذلك، فإنّه لا يستحيل عليهم إن يأتوا بحديث أو كلام قريب منه، ولو كان يسيراً. فالكلام النبوي لا يعجزهم؛ بل لم يعجزهم أن يأتوا بالقليل اليسير الذي يشبهه، أو القريب منه. وكذلك فإنّ سعة التحدي، والإعجاز في الميدان البياني تسمح لكل من الكلام النبوي، وكلام نظرائه من البلغاء العرب أن يتنافسا في هذا الميدان. ولو أنّ ذلك يتم تحت معيار

التفوق للكلام النبوي، ولكن ليس تحت معيار العجز المطلق بالاقتراب منه، أو العجز المطلق في مماثلته. فكل متنافس يدلي بدلوه، ويتقدم بصنعته، ويباري بأسلوبه؛ فإن عَجِزَ، فلا يمنع أن يتقوى بحليفه أو قرينه؛ فإن عجز، فجماعته، وجماعة البلغاء، والفصحاء من العرب لا تعجزهم حتماً شواهد البلاغة، ومؤشرات الفصاحة النبوية. فهم وإن عجزوا عن الإتيان بمثل الكلام النبوي، فلا يعجزون حقاً عن أن يأتوا بشيء، ولو قليل قريب منه أو يشابهه ـ وأين هذا من القرآن الكريم ـ فإعجازه في التحدي لا يتناول الفرد أو الفردين، والجماعة أو الجماعتين، وإنّما يتناول غاية البشر، والجن، وإلى قيام الساعة. فهو دائماً معجز لهم حتى ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وصدق ربنا، وهو يقول في هذا المقام: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء آية 88.

ولشيخنا الزرقاني كلام مفيد في هذا المقام: فهو يقول: وإنّما قلنا إنّ الحديث النبوي لا يعجز بعض الخواص الممتازين أن يأتي بمثله؛ لأنّ التفاوت بين الرسول، وبلغاء العرب مما يتفق مثله في مجاري العادة بين بعض النّاس، وبعض في حدود الطاقة البشرية: كالتفاوت بين البليغ والأبلغ؛ والفصيح، والأفصح؛ والحسن، والأحسن. وليس هذا التفاوت بالأمر الشاذ الخارق للنواميس العادية جملة؛ بحيث تنقطع الصلة بين الرسول «ﷺ»، وسائر البلغاء جميعاً؛ لاختصاصه من بينهم بفطره شاذة لا تمت إلى سائر الفطر بنسب إلاّ كما ينسب النقيض إلى النقيض، والضد إلى الضد. كلا بل إن هذا القول باطل من وجهيْن:

أحدهما: إنّه يخالف المعقول، والمشاهد لما هو معروف من أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة؛ ومن أن الطبائع الشخصية يقع بينها التشابه، والتماثل في شيء، أو أشياء في واحد، أو أكثر في زمن قريب، أو أزمنة متطاولة، في كل فنون الكلام، أو في بعض فنونه.

والآخر: أنّه يخالف المنقول في الكتاب، والسنة، من أنّ البشرية

قدر مشترك بين الرسول «ﷺ»، وجميع آحاد الأمة. ولا ريب أن لهذه البشرية المشتركة وجه شبه يؤدي لا محالة إلى المماثلة بين كلامه، وكلام من تجمعه بهم رابطة، أو روابط خاصة على نحو ما قررنا. أليس الله يقول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾. ويقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ثمّ أليس الرسول يقول في الحديث الشريف: «إنّما أنا بَشَرٌ، وإنّكم تختصمونَ إلي» إلخ. ويقول لرجل رآه، فامتلأ منه فرقاً ورعباً. «هوّن عليك، فإنّي لست بملك؛ وإنّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد». وأيضاً فإنّ لشيخنا محمد عبد الله دراز كلاماً مفيداً في هذا المقام، فهو يقول: «وأما إن قيل: إن التفاوت بينه «عليه السلام»، وبين سائر البلغاء كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة؛ لاختصاصه من بين العرب، ومن بين النّاس بفطرة شاذة لا تنتسب إلى سائر الفطر في قليل، ولا كثير إلاّ كما تنتسب القدرة إلى العجز، أو الإمكان إلى الاستحالة، فلا شك أن القول بذلك هو آخر القول بأنّ من الإنسان ما ليس بإنسان، أو هو التسليم بأنّ ما بجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان. ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة. والطبائع الشخصية تقع فيها الأشياء، والأمثال في الشيء بعد الشيء، وفي الواحد بعد الواحد؛ إن لم يكن ذلك في كل عصر، ففي عصور متطاولة؛ وإن لم يكن في كل فنون الكلام، ففي بعض فنونه. وكم رأينا من أناس كثيرة تتشابه قلوبهم، وعقولهم، وألسنتهم؛ فتتوافق خواطرهم، وعباراتهم حيناً، وتتقارب أحياناً؛ حتى لقد يخيل إليك أن الروح الساري في القولين روح واحد، وأنّ النفس ها هنا هو النفس هناك. وكذلك رأينا في الأدباء المتأخرين من يكتب بأسلوب ابن المقفع، وعبد الحميد ـ الكاتب، ومن يكتب بأسلوب الهمذاني، والخوارزمي، وهلم جرا. فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان، لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله من كأن أشبه بهذا الإنسان مزاجاً، وأقرب إليه هدياً، وسمتاً، وألصق به رحماً، وأكثر عنه أخذاً، وتعلماً. أو لكان جَدِيراً بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم، فقرأوه، واستظهروه، وتذوقوا معناه،

وتمثلوه، وترسموا خطواته، واغترفوا من مناهله أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضي به غريزة التأسي، وشيمة نقل الطباع من الطباع، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن»[1].

ثانياً: إنّ من الخطأ الفادح تشبيه القرآن الإلٰهي بالكلام النبوي تبعاً لمعيار أو بناءً على معيار ليس بدقيق، وليس بمانع؛ وحتى لم تثبت صحته، ونقضت سلامته. وهو معيار العجز النسبي عن الإتيان بمثل الكلام النبوي. والثابت المتواتر أنّ العجز بالنسبة للقرآن الكريم عجز مطلق، فإعجازه مطلق سواء بالنسبة للبشر جميعاً، أو الجن جميعاً، وفي مختلف الأزمنة، والأمكنة وإلى قيام الساعة. والثابت المتواتر أيضاً أنّ العجز بالنّسبة للكلام النبوي عجز نسبي. فإعجازه نسبي، وغير مطلق؛ ولو بالنسبة للقليل اليسير المماثل له، أو القريب منه. ولذلك وإيضاحاً لما نقول نؤصل أمريْن اثنيْن:

الأوّل: إنّ الحديث النبوي الشريف يقترب كثيراً، ويشابه كثيراً، ولو إلى حد ما، كلام كثير من الصحابة، والتابعين. ويصل بنا هذا التماثل وهذا التشابه إلى درجة أنّه يلتبس حتى على الكثير من المحدثين، أو أصحاب الاختصاص في علم الحديث، أو أصحاب الاختصاص في التفسير؛ وهل هو حديث مرفوع ينتهي إلى الرسول «ﷺ»،!! أم أنّه موقوف عند الصحابي،! أم أنّه مقطوع عند التابعي!! إلى أن يرشدنا السند إلى قائله؟

وقد استبان هذا التشابه بين كلام الرسول «ﷺ» وكلام الصحابة والتابعين المقربين جداً إليه، كالإمام علي ـ رضي الله عنه ـ وإلى درجة جعلت نفسه في الكلام من أشبه الأنفاس بكلام رسول الله «ﷺ» إن لم يكن أشبهها. ولنا أن نتساءل: فأين القرآن من الحديث النبوي في التماثل والتشابه؟! وأين القرآن الكريم من أحاديث الصحابة، والتابعين في هذا المقام؟! فكيف يقارن القرآن الإلٰهي بالكلام البشري؛ وبحجة معيار لم

---

(1) د. محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ـ ص 97.

تثبت صحته المطلقة في ميدان المقارنة؟!! وهو عدم القدرة على الإتيان بمثل الكلام النبوي، أو إعجازه النسبي.

الثاني: إنّ عدم قدسية الكلام النبوي لا يجوز أن يحتج بها، ولا تصلح أن تكون دليلاً على أن القرآن غير قدسي. فالثابت، وبالدليل القاطع أنّ إعجاز القرآن المطلق ليس كإعجاز الكلام النبوي النسبي. فلو كان القرآن في أسلوبه، وخصائصه البيانية، والبلاغية من عمل صاحبه، أي من تأليف صاحب الكلام النبوي لتماثلا من حيث الإعجاز، وكان هذا الإعجاز مطلقاً لكليهما. وهذا ما لم يحدث، ولم يثبت. فالقرآن يختلف تماماً في أسلوبه وبيانه ونسقه عن الحديث النبوي. والرسول «ﷺ» كثيراً ما كان يشير في أحاديثه إلى مثل هذه الفروق بين حديثه، وبين القرآن، ويدعو أصحابه أن يهتموا بالقرآن حفظاً، وتلاوة، وكتابة، وكما ورد في بعض الأحاديث النبوية: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه». **وغني عن البيان القول**: إن الفارق بين أسلوبيْ القرآن، والحديث النبوي من الثبوت، والوضوح وإلى درجة أنّه لا يستطيع أن يماري بها أي ممارٍ، أو أي مجادل. وكما يقول شيخنا محمد دراز عبد الله: «لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية، لوجب أن تنطبع هذه الصورة على سائر الكلام المحمدي؛ لأنّ الفطرة الواحدة لا تكون فطرتين، والنفس الواحد لا يكون نفسين، ونحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضرباً وحده؛ ونرى الأسلوب النبوي، فنراه ضرباً وحده لا يجري مع القرآن في ميدان إلاّ كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً. ثمّ نرى أساليب النّاس، فنراها على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلو عن سطح الأرض. فمنها ما يحبو حبواً، ومنها ما يشتد عدواً» ويتابع قوله: «أمّا الأسلوب القرآني، فإنّه يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثمّ يردها ناكسة الأذقان على الصدور»[1].

---

(1) د. محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم. ص 99.

وكذلك لو كان القرآن الكريم في أسلوبه، وبيانه من عمل الرسول «ﷺ»، لما استحال على المقربين منه، أو الأقربين منه فصاحة، وبلاغة، وبياناً، ولما استحال على أصحابه الذين أخذوا منه، وتعلموا أسلوبه، ونقلوا عنه فصاحته، وبيانه، أن يقتربوا بأسلوبهم من أسلوب القرآن الكريم، كما اقتربوا من أسلوب الحديث. ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق. وبحيث، وباليقين عند أصحاب اليقين، وبالدليل عند من تنكر للدليل أن القرآن يظل، وسيظل دوماً مستقلاً بأسلوبه، ومنفرداً بطابعه البياني، سامياً بخصائصه البلاغية، وسماته النسقية، والإعجازية عن أي أسلوب أو كلام أو نسق بشري أو جني، وإلى أبد الآبدين، حتى ولو كان كلاماً نبوياً.

فأسلوب القرآن يسمو بسماته الإلٰهية لا يُشابه، ولا يُماثل. والكلام النبوي يسمو بسماته النبوية، ولكن قد يُشابه، وقد يُماثل. والكلام البشري يَسمو، ولا يسمو، ويُشابه، ويُماثل دوماً.

الشبهة الرابعة:

إنّ القرآن غير معجز في أسلوبه. بدليل أنّه لم يخرج عمّا هو معهود عند العرب من أساليب، وتراكيب، ومناهج لغوية. فمن حروفهم ركبت كلماته، ومن كلماتهم ألفت جمله، ومن تراكيبهم، ومفرداتهم جاءت آياته، وعلى مناهجهم، وأساليبهم في التأليف جاء منهاجه. والقرآن في لغته ضمن أسلوبه مفردات موادها، وأبنيتها هي ذاتها التي انبنت عليها مفردات لغة العرب، وأساليبهم، ومناهجهم. والقرآن في مادته الكلامية يستقي من نفس مادة العرب الكلامية. والقرآن في صنعته البيانيه لا يخرج عن صنعتهم البيانية. فالقرآن لا يخرج في مادته الكلامية، وصنعته البيانية، ومفرداته، وتراكيبه، وأساليبه، ومناهجه عمّا هو معهود لدى العرب. فكيف يكون معجزاً؟!! وكيف يتسنى، وكيف يصح القول بأنّه معجز وفي أسلوبه، وتراكيبه، ومناهجه تلك؟!! فما هذا القول إلاّ تحصيل، حاصل ومن قبيل العبث، والادعاء في الكلام ليس إلاّ.

تفنيد هذه الشبهة:

إننا، ونحن ننتقض هذه الشبهة نحتج بالحجة، وبالشهادة.

أولاً: وأما بالنسبة للحجة: فإنّنا نستطيع القول، وبكل ثقة: إنّ حجتهم التي يؤيدون بها شبهتهم هي نفسها التي ننقض بها شبهتهم. والمَثَلُ يقول: مِنْ فَمِهِ أدينُه.

فكون لغة القرآن من نفس مادة العرب الكلامية، وكون مادته الكلامية من نفس مادتهم الكلامية، وكون صنعته البيانية هي نفسها، ولم تخرج عن صنعتهم البيانية، فهذا هو الإعجاز بعيْنه. ولو لم يكن القرآن كذلك، لما كان معجزاً في لغته، وأسلوبه، ومادته. فالإعجاز بالتحدي لا يكون حقيقياً، ويفقد كل معنى ذي بال، ومفيد إذا لم تكن الأمور والشواهد التي يُتحدى بها من جنس معالم الميدان الذي يعمل فيه المتحدي.

وهكذا القرآن، وهو يتحداهم بمادته الكلامية، وهي مادتهم؛ وهو يتحداهم بصنعته البيانية، وهي صنعتهم، ثمّ يفشلوا، ولا يثبتوا في هذا الميدان الذي هم فوارسه، وأساتذته؛ ثمّ يلقون أسْلحتهم وهي التي تحداهم القرآن بها. فلعمر الله، إنّه هو الإعجاز الحقيقي، والنافذ.

وهكذا القرآن، وهو يتحداهم بشيء يملكونه، ويملكون أدواته، ومراده؛ وبصناعة يملكون أدواتها، ويتقنونها، ويبرعون فيها ثمّ يفشلون، ويلقون أسلحتهم. فلعمر الله، إن هذا لهو التحدي الذي يملك كل معنى. ولعمر الله، إنّه هو الفشل، فشل الصانع، والصناعة. وهكذا الحال في كل ميادين الإعجاز أنْ يكون التحدي بشيء موجود، ومقدور عليه، وإلاّ لا يكون هناك تحدياً، أو إعجازاً حقيقياً، وذا بال.

وبذلك فالقرآن، وقد أعجزهم بمادته الكلامية التي مادتهم، وصنعته البيانية التي صناعتهم، فقد أثبت إعجازه في ميدان التحدي الكلامي

والبياني، وأقام الحجة على إعجاز أسلوبه، وفنّد بها شبهتهم، وأبطل حجتهم. وليعلم أصحاب هذه الشبهة أنه، وعندما يكون الكتاب ربانياً والكلام إلٰهياً، يخرج بالدليل القاطع، واليقين الثابت عن قدرة ما ليس هو برباني أو إلٰهي. ويبقى ذلك الكتاب، وذلك الكلام سامياً بمنبعه الرباني، كاملاً بمصدره الإلٰهي، معجزاً بلغته، ومادته، ومفرداته، وتراكيبه، وأساليبه، وإلى قيام الساعة. ويبقى ذلك الكتاب وذلك الكلام خارجاً عن القدرة البشرية، معجزاً لها في ميادين التحدي البياني؛ وإن كان في لغته، ومادته، وصنعته من نفس المادة الكلامية، والصنعة البيانية للبشرية. وهذه حجة له عليها، وليس حجة عليه. فالقرآن يبقى مميزاً بأسلوبه، ولغته، ومفرداته، وتراكيبه، ومناهجه، ومواده، وخواصه، وعامه، ومطلقه، ومقيده، ومنطوقه، ومفهومه، ووجوه مخاطباته، وتقديمه، وتأخيره، وأمثاله، وأقسامه، وجدله، ومجازه، وكناياته ومبهماته، وأسمائه، وألقابه، وكُناهُ، وعلومه. ورحم الله الإمام فخر الدين الرازي إذْ يشير في تفسيره لسورة البقرة إلى بعض شواهد إعجاز القرآن في أسلوبه حيث يقول: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه؛ فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه، ونظم آياته. ولعل الذين قالوا: إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنّي رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار. وليس الأمر في هذا الباب إلاّ كما قيل:

«والنجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيَتَهُ والذّنْبُ للطّرفِ لا لِلنّجْمِ في الصِّغَرِ»

أمّا، وقد فقدوا الحجة، فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ سورة الأنعام آية 149.

ثانياً: وأمّا بالنسبة للشهادة: ومن فمه أدينه. وكما قيل قديماً، وكما يقال حديثاً: الإقرار حجة على المقر. وهكذا، وبالنقل المتواتر، وباليقين الثابت، وبالدليل القاطع، وبالإقرار الشاهد، سيظل القرآن معجزاً،

وسيظل النّاس مؤمنهم، وكافرهم يقرون، ويشهدون على عظمة القرآن في التحدي، والإعجاز. وسيظل شاهداً في إعجازه على البشرية جمعاء، مفحماً لها، منتزعاً اعترافاتهم، وإقراراتهم، وشهاداتهم، ومن جوف أفواههم، وعلى عظمته، وإعجازه. حتى ولو تجاهلوا ذلك. قال تعالى: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ سورة الكهف آية 5.

وهكذا، ودوماً في ميدان إعجاز القرآن البياني للبشر قاطبة قديماً وحديثاً؛ دوماً كبرت كلمة تخرج من أفواه مسيلمة بن حبيب الكذاب، وطلحة بن خويلد الأسدي، وسجاح، والنضر بن الحارث، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الرواندي، وأبو الطيب المتنبي، وسلمان رشدي، وكاتب ياسين، ويوسف الخال، وأدونيس، وسلامة موسى، وغيرهم كثير. ومع هذا، ومع عناد هؤلاء، وأمثالهم على الكفر، فهم يشهدون ولو بفلتات ألسنتهم على عظمة القرآن في الإعجاز الأسلوبي والبياني. فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس: «أنّ ضماداً قدم مكة ـ وكان من أزد شنوءة ـ وكان يرقي من هذه الريح (الجنون، ومس الجن ـ) فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إنّ محمداً مجنون. فقال: لو أنّي رأيت الرجل، لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه. فقال: يا محمد، إنّي أرقي من هذه الريح، وإنّ الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله «ﷺ»: «إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده، ورسوله، أمّا بعد». قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء؟ فأعادها عليه رسول الله «ﷺ» ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغت ناعوس البحر ـ أي قعره ـ».

قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه. فقال

رسول الله «ﷺ»: «وعلى قومك؟» قال: وعلى قومي: قال: فبعث رسول الله «ﷺ» سرية، فمروا بقومه؛ فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مظهرة. فقال «ردوها، فإنّ هؤلاء قوم ضماد»(1).

ويروي ابن هشام في سيرته: «أن النضر بن الحارث، وقف يوماً، فألقى خطبة في جمع من قريش، وقال: «يا معشر قريش، إنّه والله، قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيْتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به، قلتم: ساحر. لا والله، ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة، ونفثهم، وعقدهم. وقلتم: كاهن. لا والله، ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة، وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر. لا والله، ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر، ورجزه. وقلتم: مجنون. لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخليطه، ولا وسوسته. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنّه والله، لقد نزل بكم أمر عظيم»(2).

ويروي الترمذي في سننه: أنّ أبا لهب ـ وهو عم الرسول «ﷺ» ـ قال له ذات مرة: «يا محمد، إنّني لا أقول: إنّك كاذب، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل». وقد أورد المؤرخ «ج. ساروار» في كتابه: محمد النبي: «أن الشاعر العربي لبيد بن ربيعة الشهير ببلاغته، ومنطقه، وفصاحة لسانه، ورصانة شعره. سمع أنّ محمداً يتحدى النّاس بكلامه، فقال بعض الأبيات رداً على ما سمع، وعلقها على باب الكعبة ـ وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تدركه إلاّ فئة قليلة من كبار شعراء العرب ـ وحين رأى أحد المسلمين هذا، أخذته العزة، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد. ومر لبيد بباب الكعبة في

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، جـ 2، ص 593. حديث رقم 868. طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

(2) ابن هشام ـ سيرة ابن هشام. جـ 1. ص 319.

اليوم التالي ـ ولم يكن لبيد أسلم بعد ـ فأذهلته الآيات القرآنية حتى أنّه صرخ من فوره قائلاً: «والله، ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين»(1)

ويروي ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء: «أن هذا الشاعر تأثر ببلاغة القرآن، فهجر الشعر. وقد قال له عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» يوماً: يا أبا عقيل، أنشدني شيئاً من شعرك. فقرأ سورة البقرة. وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة، وآل عمران»(2).

وقد ذكر الحافظ ابن نعيم في الحلية عن الشاعر لبيد بن ربيعة: «أن عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ كان في أوّل الإسلام يعيش في جوار الوليد بن المغيرة. فلما رأى ما يحدث لإخوانه من أذى المشركين، عز عليه أن يعذبوا من دونه؛ فرد جوار الوليد، ثمّ مضى إلى الكعبة، فوجد لبيد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان. فقال لبيد، وهو ينشدهم: أَلاَ كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ. فقال عثمان: صدقت. فقال لبيد: وكلُّ نَعيم لا محالةَ زائلُ. فقال عثمان: كذبت، نعيم أهل الجنة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش، والله، ما كان يؤذى جليسكم؛ فمتى حدث فيكم هذا؟! إلى آخر الخبر»(3). ومفهوم هذا أنّ لبيداً قد بقي على جاهليته، ولم يسلم حتى سنة تسع. وقيل: إنّه لم يقل في إسلامه غير بيت واحد هو: الحمدُ لِله إذْ لم يَأتِنِي أَجَلي = حتى كساني من الإسلام سِرْبالاً. وقيل هو قوله: ما عاتب المرءُ الكريمُ كنفسه = والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالح(4).

وقد أورد المستشرق «ولاستن» في كتابه «محمد» قصة: محاولة ابن المقفع لمعارضة القرآن، وعلق عليها قائلاً: «إنّ اعتداد محمد بالإعجاز الأدبي للقرآن لم يكن على غير أساس؛ بل يؤيده حادث وقع

---

(1) ج. ساروار ـ محمد النبي ـ كراتشي. ص 488.
(2) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء. جـ 1. ص 275.
(3) أبو نعيم ـ الحلية ـ جـ 1 ـ ص 103.
(4) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص 109.

بعد قرن من قيام دعوة الإسلام. والحادث هو أنّ جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير في عامة الناس، فقرروا مواجهة تحدي القرآن، واتصلوا لإتمام خطتهم بعبد الله بن المقفع (٧٢٧ م) ـ وكان أديباً كبيراً، وكاتباً ذكياً، يعتد بكفاءته ـ فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة..... وأخبرهم أنّ هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج إليه خلال هذه المدة. ولما مضى على الاتفاق نصف عام، عادوا إليه، وبهم تطلع إلى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدي رسول الله «ﷺ». وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسي الأصيل، وجدوه جالساً، والقلم في يده، وهو مستغرق في تفكير عميق، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض. بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة كتبها ثمّ مزّقها. لقد حاول هذا الكاتب العبقري أن يبذل كل مجهود عساه أن يبلغ هدفه، وهو الرد على تحدي القرآن المجيد. ولكنه أصيب بإخفاق شديد في محاولته هذه حتى اعترف أمام أصحابه، والخجل، والضيق يملكان عليه نفسه، أنّه على الرغم من مضي ستة أشهر حاول خلالها أن يجيب على التحدي، فإنّه لم يفلح في أن يأتي بآية واحدة من طراز القرآن، وعندئذٍ تخلى ابن المقفع عن مهمته مغلوباً مستخذياً»[1].

وقد أورد ابن هشام في سيرته أيضاً أن قريشاً بعثت عتبة بن ربيعة إلى الرسول «ﷺ»، فقال عتبة: «يا بن أخي، إنّك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب؛ وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم؛ فاسمع مني، أعرض عليك أموراً، تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له: «قل يا أبا الوليد، اسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد به شرفاً، سوّدناك علينا

---

(1) ولاستن ـ محمد. حياته. ص 143. و د. وحيد الدين خان. المرجع المشار إليه آنفاً ص 109.

حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه» حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله «ﷺ» يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم ـ قال: فاستمع مني. فقال: أفعل... فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة فصلت، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف»[1].

وإذا كانت هذه أحوال الكفار في شهاداتهم على تفوق القرآن الإعجازي في الأسلوب، والبيان فما زادهم ذلك إلاّ نفُورا. وسيظل القرآن معجزاً في أسلوبه، ونظمه، شهد على ذلك المؤمنون من العلماء. قال الشيخ ولي الدين الملوي: «ومن المعجز المبيّن: أسلوبه، ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثمّ المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها. ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له»[2].

وقال شيخنا محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم: «أسلوب عجب، ومنهج من الحديث فذ مبتكر، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول. وكأنّه بينها على حد قول بعض الأدباء: وضع مرتجل. لا ترى سابقاً جاء بمثاله، ولا لاحقاً طبع على غراره. فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء، لدلت على مكانها، واستمازت من بينها كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام»[3].

---

(1) ابن هشام ـ السيرة ـ جـ ١ ـ ص 313 - 314.
(2) محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مناهل العرفان ـ جـ 1 ـ ص 80.
(3) محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ـ ص 93 ـ 94.

ولنا القول؛ بأنّه، وقد فقدوا الحجة، والشهادة على شبهتهم، فإنّ الحجة البالغة تبقى لله وحده، وعلى إعجاز قرآنه في أسلوبه، وبيانه.

مصداق قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأنعام آية 149.

وحسبك أن ننقل هنا ما ذكره الداعية المسلم محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم» عن خصائص أسلوب القرآن، وإعجازه اللغوي، فهو يقول[1]: «إنّ أوّل ما يسترعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله، وجوهره.

١ ـ فدع القارىء المجوّد يقرأ القرآن، ويرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه. ثمّ انتبذ منه مكاناً قصيّاً لا تسمع فيه جرْس حروفه، ولكن تسمع حركاتها، وسكناتها، ومدَّاتها، وغنَّاتها، واتصالاتها، وسكناتها؛ ثمّ ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جرِّدَتْ تجريداً، وأرسلت ساذجة في الهواء؛ فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرِّد هذا التجريد، وجوِّد هذا التجويد.

ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنّه ليس بأنغام الموسيقى، ولا بأوزان الشعر. وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى، ولا في الشعر؛ ذلك أنّك تسمع القصيدة من الشعر، فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً، وشطراً شطراً؛ وتسمع القطعة من الموسيقى، فإذا هي تتشابه أهواؤها، وتذهب مذهباً متقارباً. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملّها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوّع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب، وأوتاد وفواصل[2] على أوضاع مختلفة يأخذ منها

(1) دكتور محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم. من ص ١٠١ ـ ١٠٥.
(2) هل أنت بحاجة إلى معرفة مسميات هذه الألقاب؟ الحرف المتحرك يتلوه حرف =

كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء. فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة، ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟!.

وترى النّاس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن، قارنت بينه، وبين شعر نفياً وإثباتاً، ولم تَعرِض لسائر كلامها من الخطابة، وغيرها؟

وأنت فهل تبينتَ ها هنا الجواب، وهديتَ إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟!!

إنّ أوّل شيء أحسَّته تلك الأُذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسِّمت فيه الحركة، والسكون تقسيماً منوَّعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المدِّ، والغُنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادى النَّفس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى. وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمَدت إلى شيء منه في أشعارها، فذهبت فيها إلى حدِّ الإسراف في الاستهواء ثمّ إلى حدِّ الإملال في التكرير. فإنَّها ما كانت تعهده قط، ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل، والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوبٌ تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلاَّ بإدخال شيء عليه، أو حذف شيء منه.

= ساكن يقال لهما «سبب خفيف». والحرفان المتحركان يتلوهما ساكن «وتد مجموع». والحرفان المتحركان لا يتلوهما ساكن «سبب ثقيل». والحرفان المتحركان يتوسطهما ساكن «وتد مفروق». وثلاثة أحرف متحركة يعقبها ساكن «فاصلة صغيرة». وأربعة أحرف متحركة يعقبها ساكن «فاصلة كبيرة».

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنَّه شعر؛ لأنّها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلاَّ في الشعر. ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه ـ كما قال الوليد[1] ـ ليس على أعاريض الشعر في رجزه، ولا في قصيده. ثمّ لا عجب أن تجعل مَرَدَّ هذه الحيرة أخيراً إلى أنّه ضرب من السِّحر؛ لأنّه جمع بين طرفي الإطلاق، والتقييد في حدٍّ وسط: فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله، ومتعته.

٢ ـ فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فطرقتْ سمعكَ جواهرُ حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة. فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف، ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَّفس. وآخر يحتبس عنده النفس. وهلمَّ جرًّا. الجمال اللغوي مائلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة[2] لا كركرة، ولا ثرثرة؛ ولا رخاوة، ولا معاظلة. ولا تناكر، ولا تنافر. وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدويِّ الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية، وفخامتها برقَّة الحاضرة، وسلاستها، وقدرَ فيه الأمر أن تقديراً لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيجٌ منهما كأنّما هو عصارة اللغتين، وسلالتهما؛ أو كأنّما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصية، والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني. وليس الشأن في هذا الغلاف إلاَّ كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلىء النفيسة، فإنّه ـ جلّت قدرته ـ قد أجرى سنته في نظام هذا العالم

---

(1) تقدمت كلمة الوليد في ذلك.

(2) من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علماً. وإن شئت فارجع إلى ما كتبه الأديب الرافعي عن هذه الناحية في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن) فقد أطال نفسه فيها، وأجاد.

أن يُغَشَّى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة، وجمال؛ ليكون ذلك من عوامل حفظها، وبقائها بتنافس المتنافسين فيها، وحرصهم عليها. أنظر كيف جعل باعثة الغذاء، ورابطة المحبة قِوَاماً لبقاء الإنسان فرداً، وجماعة. فكذلك لمَّا سبقت كلمتُه أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى النَّاس بعذوبته، ويُغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة «الحُداء» يستحث النفوس على السير إليها. ويهوِّن عليها وعثاء السفر في طلب كمالها. لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالبَ العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقي صوت القرآن أبداً في أفواه النَّاس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوقٍ، وحاسةٌ تَسمع؛ وإن لم يكن لأكثرهم قلوبٍ يفقهون بها حقيقة سرِّه، وينفذون بها إلى بعيد غَوْره ﴿إنّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافِظون﴾[1].

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزَّةً، وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوةً إلٰهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أنّ هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي، والإعجاز؛ واعتصم بها من أيدي المعارضين، والمبدِّلين؛ وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كفِّ أيديهم عنه؛ بل كان أجدر أن يغريهم به. ذلك أنّ النّاس ـ كما يقول الباقلاني[2]: ـ إذا استحسنوا شيئاً اتَّبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجِبِلّة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربَى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب، والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب النّاس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلاَّ

(1) سورة الحجر» الآية 9.
(2) في كتابه «إعجاز القرآن».

مناهل موروودة، ومسالك معبَّدة، تؤخذ بالتعلم؛ وتُراضُ الألسنة، والأقلام عليها بالمَرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع النّاس أن يُخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم، وأقلامهم وهم شَرَعٌ في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟!

ما ذاك إلاّ أنّ فيه مَنَعةً طبيعية كفَّت، ولا تزال تكفُّ أيديهم عنه؛ ولا ريب أن أوّل ما تلاقيك هذه المناعة فيما صوَّرناه لك من غريب تأليفه في بُنْيته، وما اتخذه في رصف حروفه، وكلماته، وجمله، وآياته، مِن نظام له سمتٌ وحده، وطابعٌ خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس، أو يتعاطَونه. فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه. وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يُدخل عليه شيئاً من كلام النّاس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء، لأفسد بذلك مزاجه، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع».

الشبهة الخامسة:

إنّ القرآن في أسلوبه من تأليف محمد. فهوغير معجز. بدليل أنّ محمداً كان إنساناً غير عادي، نبيهاً بين قومه، فذاً بين أقرانه، فرداً كاملاً بين ما جاء به قومه. آنس في نفسه اقتداراً في البيان، فجاء بالقرآن، ونسبه إلى ربه، ليغطيه بمسحة قدسيه تجعله أكثر قبولاً، وأجل احتراماً عند قومه.

ويزعم أصحاب هذه الشبهة أنّ محمداً أسعفه في ذلك هواجس مرضية توحي له الشعور بالعظمة؛ وعوارض نفسانية تجعله يصدق ما ينسبه إلى نفسه، ويدعو غيره لتصديقه.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: لقد ثبت بالدليل القاطع، والثابت المتواتر أنّ الرسول «ﷺ»

لم يكن يعاني من عوارض مرضية نفسانية كانت أم بدنية. وينفي عنه القاصي والدّاني من المؤرخين للسيرة النبويّة إصابته بمرض الهذيان النفسي أو الهستيري كما يحلو لبعضهم أن ينسبوه إليه. والمؤرخون يثبتون كماله الصحي في العقل والذهن، والحس، والبدن. وكذلك كماله الصحي في الخلق، والفضيلة، والعادة. ولنا أن نتساءل: كيف يتفق ما نسبوه إليه، ومع ما عرف عنه من صفاء في التفكير، وحسن في التدبير، وعقلانية سليمة في التخطيط كرئيس لدولة ناشئة قامت، وأخذت تزلزل الأرض من تحت قياصرة وأكاسرة أعظم الدول في ذلك الزمن على الإطلاق؟؟! ولنا أن نتساءل: وإذا كان هذا حال الرسول «ﷺ» من صفات صفاء الفكر، والذهن، وحسن البصيرة، فلماذ نسبوا إليه إصابته بتلك الأمراض عند كلامهم عن القرآن، وإعجازه، وتجاهلوا الكلام عنها، بل ونفوها عند كلامهم عن إدارته، ورئاسته؟! أوَلَيْس هذا يوقعهم في شبهتهم التي أرَادُوها للرسول «ﷺ»، وحيث لا يستطيعون الخلاص منها؟!! إنّ «مايكل هارت» وهو الكافر الناقد يحصي أسماء أعظم مائة رئيس دولة في التاريخ، ولم يسعه حياده إلاّ أن يصنف الرسول «ﷺ» بأنّه الأوّل، وأتى باسمه على رأس القائمة. ونتساءل أيضاً: هل يستطيع المريض بالهوس النفساني أو الهستيري أن يدير شؤون نفسه أو بيته؟؟! فكيف يتسنى له إذن أن يدير دولة ناشئة، ويثبت قدرة هائلة في التخطيط، والبناء، والإدارة، والحرب، وقدرة هائلة في المخاطبة والإقناع؟!!

ثانياً: واحتكاماً إلى جميع المعايير العلمية، والتاريخية، والنقلية، فإنّه من الثابت عند الجميع أنّ القرآن يختلف عن الحديث النبوي ـ وخاصة فيما يتعلق بمعالمه، وخصائصه، وسماته، وشواهده الإعجازية في البيان، واللغة، والأسلوب، وعدم القدرة على التحريف، وغيرها ـ ولو كان القرآن من تأليف محمد كما يزعمون لما قصّر العرب في إثبات ذلك أوّلاً؛ ولاستطاعوا أن يأتوا بقرآن أو بشبيه له كما استطاعوا ذلك بالنسبة للكلام النبوي، ويظهر لك من أوتي ذوقاً بيانياً سليماً الفرق

الكبير والبون الشاسع بين أسلوب القرآن، وأسلوب الحديث النبوي. والقناعة واردة بالنسبة لجمع الأدباء، والبلغاء، في جميع الدول، وعند جميع الأمم، أن الأسلوب القرآني خارج عن الطاقة البشرية حتى ولو كانت نبوية؛ وخارق لجميع مستويات الأساليب البيانية، والبلاغية في حقول المخاطبة، وميادين التلقين. ويسعفنا في هذا المقام القول: بأن الرسول «ﷺ» كان معروفاً في قومه، ويعلمون قدراته البيانية، والكلامية، ولم يعرفوه قارئاً أو كاتباً أو خطيباً. وكذلك يعلمون أخلاقه، وفضائله، فلم يعرفوه كاذباً، أو منافقاً، أو متحذلقاً، أو متفلسفاً، أو متشدقاً، أو متنطعاً، أو خائناً، أو مدعياً. فرجل هذه صفاته، فكيف تتسع الأذهان لادعاء أنّه كذب على الله، وكذب على نفسه، وكذب على أصحابه؛ وجاء بشيء خارق موجود عندهم هو لغتهم أفحمهم به أولاً، ونسبه إلى إلٰهه ثانياً؟!! أليس من تناقضهم الادعاء بالنسبة للرسول «ﷺ»: بالصدق، والكذب، والأمية، والعبقرية، والبلاهة، والبيان في وقت واحد؟؟! ألا حاشا أن يكون كذلك؛ وهو الصادق الصدوق. والظالم من افترى على الله ورسوله الكذب، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ سورة الأنعام آية 93.

ثالثاً: لو كان القرآن من تأليف محمد «ﷺ»، لما نسبه إلى غيره حتى ولو كان إلٰهاً. أو لادعى الألوهية، لأنّ في هذا يكون أكثر قدسية له.

ولعلّ شبهتهم تأتي من القول: بأنّ الرسول «ﷺ» كان له ضربان من الكلام.

أما الأوّل: فكان يهتم به، وينمّقه، ويتفنن في انتقاء مفرداته، ويأتي به على تروّ. وهذا سمّاه قرآناً، ونسبه إلى الله تعالى. أمّا الثاني فلم يكن يهذبه، أو ينمقه، ولم يكن يعتني بمفرداته، وأساليبه؛ وإنّما كان يرسله إرسالاً، ودون تَرَوٍ، وسمّاه حديثاً. ولكي يُرد كيدهم إلى

نحورهم، ويفتضح كذبهم، ويفرق بينهم، وبين ما يشتهون، فإنّنا نؤكد: بأنّ القرآن الكريم منه ما نزل بعد تَروٍّ. وتشوف، وتمهل، وطول انتظار، وهو أقله. ومنه ما نزل مفاجأة، وعلى غير انتظار وتفكير، ودون تلبث، وتدبير، وهو أكثره.

أ - ومثال ما نزل من القرآن بعد تَرَوٍّ، وعلى تمهل، وطول انتظار:

1 - سورة الكهف. فقد أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال: «بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله «ﷺ»، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، فقالوا لهم: سلوه ثلاثاً، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل، فالرجل مُتَقَوّلٌ. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان أمرهم؟! فإنّه كان لهم أمر عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض، ومغاربها، ما كان نبؤه؟! وسلوه عن الرّوح، ما هو؟! فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا: قد جئنا بفصل ما بينكم، وبين محمد. فجاؤوا رسول الله «ﷺ»، فسألوه، فقال: أخبركم غداً بما سألتم عنه، ولم يستثن، فانصروا. ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحْياً، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وحتى أحزن رسول الله «ﷺ» مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة. ثمّ جاءه جبريل من الله بسورة الكهف، فيها معاتبته إيّاه على حزنه عليهم. وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف».

وقيل إن هذه السورة نزلت بعد خمس عشرة ليلة، بعد سؤالهم للرسول «ﷺ»، وقيل أربعين يوماً. 2 - آيات قصة الإفك في سورة النور 11 - 20. من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا

﴿تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ إلى قوله، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.
وقد وردت هذه القصة في صحيح البخاري، وتأخر الوحي في النزول يبرىء عائشة حوالي شهر.

ب - ومثال ما نزل من القرآن على غير تَرَوٍّ وغير انتظار: 1 - قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء آية 85.

أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبيّ «ﷺ» بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من يهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح؟ فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرفت أنّه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال: «قالت قريش لليهود: علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾.

2 - قوله تعالى: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ سورة النساء اية 95.

روى البخاري عن زيد بن ثابت قال: «كنت عند النبي «ﷺ» حين نزلت عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، ولم يذكر «أولي الضرر». فقال ابن أم مكتوم: كيف، وأنا أعمى لا أُبصر؟! قال زيد: فتغشى النبيّ «ﷺ» في مجلسه الوحي، فاتكأ على فخذي. فوالذي نفسي بيده، لقد ثقل على فخذي حتى خشيت أن يرضها. ثمّ سرى عنه، فقال: أكتب ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾. وإمعاناً، وتأكيداً، وتثبتاً لبطلان شبهتهم، فإنّنا، وذوي البصيرة نجزم أن ما أوردناه من آيات هي أمثلة من كثير من القرآن منه ما نزل بعد تَروٍّ، وتمهل، ومنه ما نزل على تَرو وتمهل، ولا تجد بينهما فرقاً في الأسلوب، والاتساق، والتناسق

والبلاغة، والعذوبة، والبيان... الخ. فكلا النزولين يعتبران ضرباً واحداً من الكلام القرآني من حيث الأسلوب. وكذلك الحديث النبوي: فمنه ما قيل بعد تَروّ، وتمهل، وتفكير، وتدبر، وتشاور، وطول انتظار كأحاديثه «ﷺ» في شؤون الحرب، والصلح. ومنه ما قيل في الحال، ودون تَرو أو تمهل، أو تفكر، أو طول انتظار: كحديث المعتمر المتمضخ بالطيب. وجاء يسأل النبي «ﷺ» عن طيبه في عمرته، فسكت النبي ساعة حتى جاءه الوحي، ولما سرى عنه قال: «أين السائل عن العمرة»؟ فجيء به، فقال عليه الصلاة والسلام. «أما الطيب الذي بك، فاغسله ثلاث مرات. وأمّا الجبة فانزعها، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك» لما رواه الشيخان.

الشبهة السادسة:

إنّ القرآن في أسلوبه غير معجز، لأنّه من تأليف بشر. بدليل أن الرسول «ﷺ» تعلمه، وأخذه من أناس آخرين أمثال: ورقة بن نوفل، والحدّاد الرومي، وبحيرا الراهب. وذلك حتى يبعد تهمة تأليف القرآن عن نفسه عندما وجد من العرب من هو أفصح منه لساناً، وأبلغ منه بلاغة، وأقدر منه مخاطبة، وأسحر منه بياناً، وأطلق منه فصاحة.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن أولى شبهات شبهتهم أنّهم لم يتفقوا على اسم شخص مزعوم ينسبون إليه قول القرآن. وما كان اختلافهم وتفرقهم هذا إلاّ بغياً بينهم، ومن بعد أن جاءتهم البينات على أنّه الحق من ربهم. فكان اختلافهم هذا أوّل نقض لشبهتهم ـ وصدق فيهم قول ربهم: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة البقرة آية 213. وأيضاً قول ربهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ سورة البينة آية 4. وقوله أيضاً: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ سورة الشورى آية 14.

ثانياً: إنّ ثاني شبهات شبهتهم أنّهم لم يأتوا، ولو بدليل أو برهان واحد على صدق دعواهم، سواء أكان هذا الدليل أو ذلك البرهان نقلياً، أو علمياً، أو تاريخياً، أو عقلياً يصدقه العقل السليم أو الفطرة النقية. وبذلك فإنّ فقدان قولهم للدليل هو في حد ذاته نقض لشبهتهم؛ ويعريها ويفقدها كل مسوغ للقبول. وبذلك يبقى قولهم عبثاً، ولهواً.

وهنا يصدق فيهم قول ربهم: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ النمل آية 64. وهم، وقد فقدوا الدليل والبرهان على صدق دعواهم، قالوا هذا سحر مبين. حيث صدق فيهم قول ربهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ سورة الأحقاف آية 7.

وهم، وقد فقدوا الشهادة على صدق دعواهم، وقالوا افتراه كان الله تعالى شهيداً عليهم حيث صدق فيهم قول ربهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سورة الأحقاف آية 8. أي أنّ الله أعلم بما تخوضون في القرآن من وجوه الطعن، ومنها تهمة أخذه وتَعلمه من وعن الغير ـ وهم قد فقدوا من يشهد على صدق طعنهم ـ فكفى بالله تعالى أن يكون شاهداً يشهد للرسول «ﷺ» بالصدق، ويشهد عليهم بالجحود، والتكذيب. وهم وقد فقدوا كل دليل، وكل برهان على صدق شبهتهم خاطبهم الله تعالى بالعقلانية، وأن يستعملوا عقولهم، وأن يرجعوا إلى الحق، ويعترفوا بصدق ألوهية القرآن، ونبوّة الرسول «ﷺ»، فيخاطبهم بلسان رسوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ سورة الأحقاف آية 9.

وقال مخاطباً لهم على لسان رسوله، وفي نفس الآية مؤصلاً

لألوهية الوحي: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ سورة الأحقاف آية 9.

قال ابن كثير: «أي ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم؛ فقد أوصل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. وهم، وقد فقدوا كل برهان على صحة دعواهم، وصدق شبهتهم، والت العناية الإلٰهية إفحامهم؛ وبأن أشهدهم، ومن أنفسهم على صدق ألوهية القرآن، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة الأحقاف آية 10.

قال الإمام الزمخشري في الكشاف: «وجواب الشرط محذوف، وتقديره: إن كان القرآن من عند الله، وكفرتم به ألستم ظالمين؟! ودل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة الأحقاف آية 10 [(1)] .

وقال المفسرون: والشاهد من بني إسرائيل هو ـ عبد الله بن سلام ـ وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، جاء إليه عبد الله بن سلام يمتحنه، فلما نظر إلى وجهه، علم أنّه ليس بوجه كذاب، وعرف أنّه النبي المنتظر، والذي بشرت به التوراة. فقال له عبد الله بن سلام: إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيٌّ: ما أوّل أشراط الساعة؟! وما أوّل طعام أكله أهل الجنة؟! وما بال الولد ينزع إلى أبيه، أو إلى أمه؟! فلما أجابه، قال عبد الله بن سلام: أشهد أنّك رسول الله حقاً[(2)]. وهم، وقد فقدوا كل دليل، وكل برهان على صحة دعواهم ـ ومنهم أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة، والإنجيل ـ فقد ناقضوا أنفسهم في شبهتهم؛ فهم يصدقون بالتوراة، وفي نفس الوقت يكفرون بالقرآن، ويدعون أنّه من

---

(1) الزمخشري ـ الكشاف ـ جـ 1 ص 236.

(2) الإمام البخاري ـ صحيح البخاري.

البشر من بحيرا الراهب مع أنّ القرآن يصدق الكتب السماوية الأخرى، ومنها التوراة، فقال تعالى في هذا منذراً لهم ومبشراً للمؤمنين ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ سورة الأحقاف آية 12.

أي أن هذا القرآن عظيم الشأن، مصدق للكتب السماوية من قبله، نزل بلسان عربي فصيح؛ فكيف ينكرونه ويدعون أنّه من عند البشر، وهو أفصح لساناً، وأظهر برهاناً، وأفصح بلاغة، وأبلغ إعجازاً من التوراة؟!! وهم، وقد فقدوا الدليل على زعمهم، والبرهان على ادعائهم، فقد أفحمهم الله، ورد كيدهم إلى نحورهم، وهو إذ يَرُدُّ عليهم يُثَبِّت فؤاد الرسول «ﷺ»، ويؤكد لهم، وللبشرية جمعاء أنّ الله حق، وأنّ القرآن من عنده حق ـ مصداق قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الجاثية آية 6.

أي هذه آيات الله، وحججه، وبراهينه، الدالة على وحدانيته، وقدرته وصدق آياته، ومنها قرآنه العظيم، ثمّ يتساءل منكراً عليهم تكذيبهم، وبأنّه إذا لم يصدق هؤلاء الكفار بصدق آياته وقرآنه، وبراهينه فبأي حديث بعد كلام الله يؤمنون؟!! وبذلك تبقى حجتهم داحضة؛ بعد أن فقدوا أدلتهم، وعجزوا أن يقدموا براهينهم، وهم في نفس الوقت يحاجون في الله من بعد ما استجيب له إيماناً به، وبآياته، وقرآنه، وكتبه؛ فاستحقوا غضب الله، وعذابه الشديد. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ سورة الشورى آية 16.

ثالثاً: إنّ ثالث شبهات شبهتهم، وتثير السخرية من ادعاءاتهم وافتراءاتهم، أنّهم ينسبون القرآن، وهو بلسان عربي مبين ـ إلى أعاجم من غير العرب. وهو قد نزل بلسانهم، أي العرب، وتحداهم في لغتهم، وأعجزهم في بيانهم، وأفحمهم في بلاغتهم، وتحدّاهم في فصاحتهم؛ فتفوق عليهم، ولم يقدروا عليه؛ ولم يقدروا على التمثل به، أو

الاقتراب منه حتى وبالنسبة لأقصر سورة منه. ولعل من أعظم تفاهاتهم، وأكثر سواقطهم أن يتركوا أهل من نزل فيهم القرآن، وأهل صِناعَتِهِ؛ ثمّ يلجأون إلى غيرهم، يلتمسون فيهم شخصاً مزعوماً ينسبون إليه باطلهم وزعمهم!!. فمرة ينسبونه إلى حدّاد هو «جبر الرومي» كان يعيش في مكة، ومرة إلى نصراني هو الراهب «بحيرا» كان يعيش في بصرى الشام.

أ ـ أما بالنسبة للحدّاد الرومي: فقد عرف هذا الحدّاد قيّناً يتعاطي مهنة الحدادة بمكة، ولم يكن متفرساً وحتى متعلماً أو معلماً للغة العربية وفي التمثل بهذا القيّن الرومي أضاف أصحاب هذه الشبهة ضعفاً آخر، وسقطاً ثانياً لسقطات شبهاتهم: يتمثل في أنّ القرآن عندما أعجز أصحاب البيان في لغته، وهي العربية، بل وأفحم علماء لغته من العرب أهل قريش، فلما وجدوا ألاّ حيلة لهم، لجأوا إلى غير العرب يلتمسون شخصياتهم ينسبون باطلهم إليهم، فوقعوا في شبهتين ـ **الأولى** ـ أن هذا الحدّاد الرومي ليس لسانه بعربي، وإن ألم ببعض العربية رطانة، ولحناً، فخرج زعمهم من دائرة التحدي القرآني الذي جاء لمن يتكلم، بل يجيد العربية.

الثانية: أنّ هذا الحدّاد الرومي ليس بعالم أو متعلم للغة العربية؛ وليس بصاحب بيان، أو فصاحة، أو بلاغة عربية، فكيف يعقل أن يأتي بقرآن صفاته البيان في اللغة، والفصاحة في البيان؟!! وبذلك كان حرياً أن يتدحرج زعمهم من دائرة التحدي القرآني إلى دوائر التلاعب بالألفاظ، والسخرية في الادعاء، والباطل في الافتراء. ولعلهم وأمّا فقدانهم لكل عقلاني في التدليل والإثبات، ولكل منطقي في التأكيد والإشهاد فقد أوقعهم في متاهات الهزلية، والسخرية، والغباء. فجاؤوا بغلام سوقي، واعتبروه إماماً في البلاغة، والبيان، ومرجعاً في الثقافة، والعلوم. وكأنّهم بذلك أشهدوا على أنفسهم بتفاهة شبهتهم، وسقطات افتراءاتهم. وكأنهم أرادوا بذلك أن يُكسوا أدلة شبهتهم بلغط القول، وتفاهة اللفظ ـ وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن القرآن ليس عملاً إنسانياً، وإنّما هو إلٰهي ـ. وبذلك فالله تعالى فَنّدَ شبهتهم، بتذكيرهم

بدليل عقلاني، ومنطقي واضح فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ سورة النحل آية 103.

فبالعقلانية السليمة يخاطبهم الله، وبأن يحكّموا عقولهم؛ فكيف يتسنى لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟!! ومن أين للأعجمي أن يتذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في بلاغته وفصاحته وبيانه؟!! ولكن هل استخدموا عقولهم، وتخلوا عن عنادهم، وآمنوا بآيات الله، وعلى رأسها قرآن ربهم؟! ولكن هيهات أن يؤمنوا، فاستحقوا عذاب الله الأليم. وصدق فيهم قول ربهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة النحل آية 104. وهذا تهديد لهم على كفرهم وعنادهم وافترائهم.

ولنا القول: نحن لا ننكر أن يلم الحداد الرومي شيئاً من العربية، أو أن يقرأ، ويكتب بها أو بلغته ولكنّ الذي ننكره أن ينسب إليه القرآن الذي خشع له أفذاد العرب من أهل الصناعة البلاغية. تالله، إنّها لشواهد الغباء والضلال!! ومع العلم أنّ هذا القيّن كان يقيم في مكة، ويعرفه الجميع، ويشهدون على ضعف إلمامه بالعربية حيث كان لسانه يرطن ويلحن بها، والرسول «ﷺ» كان يسمع منه كما تقول الروايات، ولكن علمه بقواعد اللغة العربية، وعلمه بمثل علوم القرآن أدنى بكثير من شواهد تهمة الإلمام بها. أخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين بن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: «كان لنا عبدان، أحدهما يقال له يسار والآخر جبر، وكانا صيقلين، فكانا يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما. وكان رسول الله «ﷺ» يمر بهما، فيستمع لقراءتهما، فقالوا. إنّما يتعلم منهما». فنزلت الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

ب ـ أما بالنسبة للراهب النصراني بحيرا: فقد قادتهم شبهتهم إلى معالم وشواهد نقضها.

أولاً: فهم قد فقدوا الدليل، والحجة، والبرهان على أنّ الرسول «ﷺ» قد تعلم القرآن من الراهب بحيرا. وهم لم يتجاوزوا الادعاء باللفظ، والتلاعب بالقول. ولو أنّهم صدقوا على ما ادعوا، وافتروا، لأدلوا بدلوهم في مجال هذه الشبهة التعليمية، وهم الأحرص على نجاح دعوتهم، وتهمتهم. ولكن هل فعلوا، وهل قدموا الدليل أو البرهان؟! كلا، وألف كلا. فهؤلاء هم الخراصون، وقتل الخراصون. مصداق قوله تعالى فيهم: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ سورة الذاريات ـ الآيات 10 - 11.

قُتل الخراصون: أي لُعنَ الكذابون الذين كذبوا على الله، وعلى الرسول «ﷺ»، وعلى أنفسهم، وقالوا: إنّ القرآن من البشر، وليس من عند الله؛ كفراً بآيات الله، وهداياته. قال ابن الأنباري: «والقتل بمعنى اللعنة؛ لأنّ من لعنه الله، بمنزلة الهالك المقتول»[1]. وهم، وقد فقدوا الدليل، والبرهان، فقد صدق فيهم قول ربنا: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ النمل 64.

ثانياً: من الثابت بالعلم، والنقل، والتاريخ أن الرسول «ﷺ» لم يقابل بحيرا الراهب إلاّ مرة واحدة في حياته، وذلك أثناء رحلة له في تجارة مع عمه أبي طالب في بصرى من بلاد الشام. وكان عمره آنذاك لا يتجاوز الاثني عشر ربيعاً. وقد التقى به الراهب «بحيرا»، ورأى معالم النبوّة في وجهه، وبين كتفيه. ولما سأل عمه أبا طالب: ما هذا الغلام منك؟! قال: ابني. قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً!! قال: فإنّه ابن أخي مات أبوه، وأمّه حبلى به. قال: صدقت، ارجع به إلى بلدك، واحذر عليه يهود. وقد أخرج الترمذي[2] هذه الرواية من حديث أبي موسى الأشعري، وقال: هذا حديث حسن. وسواء صحت هذه الرواية،

---

(1) ابن الجوزي ـ زاد المسير في علم التفسير. جـ 8 ـ ص 30. ومحمد علي الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ جـ 3 ـ ص 252.

(2) الترمذي ـ السند جـ 4 ص 296.

أو بطلت ـ وهي صحيحة ـ فإنّ الرسول «ﷺ» لم يأخذ من بحيرا الراهب شيئاً من العلم، ولم يمكث عنده طويلاً؛ ليتدارس معه العلم، أو يفقهه.

فالروايات، ومنها رواية الترمذي ـ لم تذكر أن الرسول «ﷺ» تعلم من بحيرا شيئاً لا في العقائد، ولا في العبادات، ولا في الفقه، ولا في الأخلاق. وقد أملت ظروف المقابلة، ومدتها، وظروف الرسول «ﷺ» وسنه أن لا يكون من هذا شيء. وما هذه الشبهة إلاّ من أمر أحلامهم، فهم قوم طاغون. مصداق قوله تعالى فيهم: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ سورة الطور آية 32.

قال الخازن في تفسيره: «وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام، والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل، وهذا تهكم للمشركين»[1].

ثالثاً: إنّ فاقد الشيء لا يعطيه. ومن الثابت، وباليقين، أن «بحيرا» الراهب لا يملك شيئاً من علوم القرآن أو الفقه. فالعقلانية السليمة والمنطق الصحيح، يأبيان التصديق بأن الذي لا يملك شيئاً يعطي شيئاً.

وأصحاب هذه الشبهة أنفسهم يعلمون أنّ ما جاء به القرآن الكريم من لغة، وأسلوب، أو بيان، أو علم، أو معجزات، أو تشريع، لا يملك بحيرا الراهب منه شيئاً. فكيف يُدَّعى أن يقوم هذا الراهب بتعليم، وتلقين هذا القرآن الذي لا يملك منه شيئاً إلى النبي «ﷺ»؟!! والعقلانية السليمة تقتضي إذاً أن يدعيه بحيرا لنفسه ما دام يملكه أو يملك منه شيئاً؛ وأن يكون هو أحرى بالنبوة، وبالرسالة، ومن ثمّ بالقرآن من محمد «ﷺ»!! وهؤلاء أبوا على أنفسهم إلاّ أن يتبعوا الظن، وإن هم إلاّ يخرصون. وصدق فيهم قول ربنا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ سورة يونس آية 66. فهؤلاء كما يصفهم ربهم إن هم إلاّ يكذبون، ويظنون الأوهام حقائق.

---

(1) الخازن ـ التفسير ـ جـ 4 ـ ص 209.

رابعاً: إنّ طبيعة الديانة التي يدين بها الراهب بحيرا تأبى عليه أن يكون معلماً أو أستاذاً لدين غير دينه. أو أن يكون معلّم،اً وملقناً لدين آخر جديد، ومخالف لدينه. فهل يعقل أن يضع بحيرا من نفسه معلماً ومرشداً، وملقناً لدين أو عقيدة تخالف دينه، وعقيدته، بل ويهاجمهما ويفندهما؟! وهل يعقل أن يلقن الراهب المسيحي بحيرا الرسول «ﷺ» كتاباً هو القرآن الكريم يسفه أحلامه، وأحلام قومه النصارى، وينقض عقيدتهم، ويفند ديانتهم المحرفة؟!! ومن الثابت اليقيني أن هؤلاء وغيرهم من أصحاب مثل هذه الشبهة يعلمون علم اليقين ـ خاصة أهل الكتاب منهم ـ أنّ القرآن من عند الله تعالى، وما كان أن يفترى من دونه مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة يونس آية 37. ومما يندي الجبين، وتحتار له العقول أن هؤلاء ـ ومنهم أهل الكتاب ـ يفترون على القرآن، وعلى الرسول «ﷺ»، وينسبونه إليه، وهم يعلمون صدق نبوته، ورسالته، وحقيقة قرآنه من كتبهم، وأناجيلهم، وتوراتهم، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ سورة يونس آية 94.

أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة، والإنجيل، وبأن هذا محقق عندهم، وفي كتبهم. وقد جاءك يا محمد البيان، والخبر الصادق عن القرآن، فلا يكون عندك شك مما يمترون. وهؤلاء ما كان جحودهم بألوهية القرآن إلاّ من بعد معرفة، وعندهم الكتب السماوية، وفيها الخبر اليقين؛ فهؤلاء الكافرون حقاً. قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سورة العنكبوت آية 47. قال قتادة: «وإنّما يكون الجحود بعد المعرفة»[1]. والله تعالى في نفيه لتهمة هؤلاء الذين فقدوا كل دليل على ما يدّعون، فالله تعالى يسري عن نبيه، ويؤكد صدقه؛ وبدليل أنّه لم

---

(1) الطبري ـ التفسير ـ جـ 21 ـ ص 4.

يتل أي كتاب من قبله، ولم يكتب هذا القرآن، أو يتعلمه من غيره، من بحيرا، أو غيره مصداق قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ سورة العنكبوت آية 48. وهكذا تبقى دلائل نقائض شبهاتهم حول القرآن قائمة؛ حيث دوماً لا أدلة على ما يدعون، وهكذا تبقى حجتهم على ما يفترون قائمة. يقول فيهم ربنا ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ سورة الشورى آية 16.

هكذا يبقى التحدي الإلٰهي، وبالقرآن لهم دوماً قائماً، وبأن يأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. وهكذا يبقى قول ربنا صادقاً فيهم حيث يقول: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ سورة الطور آية 33 - 34.

الشبهة السابعة:

إنّ إعجاز القرآن من قبيل الكهانة، والسحر، والشعوذة. ومثل هذا لا يسمى إعجازاً. ودليل ذلك أنّه لم يثبت من عند الله، ولم يثبت أنّه نزل من عند الله قرآن، أو علم، أو دين. وكلّ ما نقرأه ونسمعه هو من قبيل شعوذة محمد، وسحره، وبنات أفكاره، وشطحات تضليلاته، وتخيلاته، وشعره.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ سرّ تناقضات أعداء الإسلام في مهاجمتهم للقرآن يكمن دوماً في عدم وجود الدليل. فهؤلاء، وأمثالهم يفقدون الدليل على ما يزعمون، والبرهان على ما يدّعون، والحجة على ما يفترون. ولا نعجب إذا رأينا المتقولين على القرآن يقعون دوماً في شبهات تناقضاتهم، وعري افتراءاتهم. فيقعون في أسخف أعمالهم؛ فلا يتورعون أن يثبتوا ما ينفُونه، ويُنفُون ما يثبتونه. فهذا كبيرهم الذي علمهم السحر الوليد بن

المغيرة ينفي عن الرسول «ﷺ» الكذب، والكهانة، والشعر، والشعوذة، وفي نفس الوقت يثبت له السحر، ويثبت للقرآن صفات السحر، وفي نفس الوقت ينفي عنه قول البشر.

روى الواحدي النيسابوري، والحاكم، والمفسرون عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهم قالوا: مرّ الوليد بالنبي «ﷺ»، وهو يصلي، ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته، وتأثر بها. فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال: والله، لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن. والله، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو، وما يعلى عليه. ثمّ انصرف إلى منزله. فقالت قريش: لقد صبأ والله، الوليد، ولتصبأن قريش كلها!! فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزيناً. فقال له الوليد: مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟! فقال: كيف لا أحزن، وهذه قريش تجمع لك مالاً، ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنّك زينت كلام محمد، وصبأت؛ لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله!! فغضب الوليد، وقال: ألم تعلم قريش أنّي من أكثرهم مالاً، وولداً؟! وهل شبع محمد، وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟! ثمّ قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون!! فهل رأيتموه يخنق؟! قالوا: اللهم، لا. قال: تزعمون أنّه كاهن!، فهل رأيتموه تكهن قط؟! قالوا: اللهم، لا. قال: تزعمون أنّه شاعر!! فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟! قالوا: اللهم، لا. قال: تزعمون أنّه كذاب!! فهل جربتم عليه كذباً قط؟! قالوا: اللهم، لا. فقالت قريش للوليد: فما هو؟! ففكر في نفسه ثمّ قال: ما هو إلاّ ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل، وأهله، وولده!! وما هذا الذي يقوله إلاّ سحر يؤثر فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات.

فالوليد بن المغيرة ـ وهذه شيمة الكفار في عنادهم قديماً، وحديثاً ـ يشهد أولاً أنّ هذا القرآن من غير كلام البشر، وينفي عنه صفة البشرية؛

ثمّ يقوده عناده ثانياً إلى الادعاء بأنّه سحر يؤثر، وبأنّه قول البشر، ويتم قوله هذا تحت مظلة تناقضه الشنيع، وكذبه الصريح، وفي ظل مظنة فقدانه الدليل، ومن خلال خلو صرح كلامه من البرهان. فقال فيه قرآن ربه على لسانه مثبتاً له عنفوان كفره، وعناده: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ سورة المدثر ـ الآيات 24 - 25. قال الألوسي في تفسيره: «هذا كالتأكيد للجملة الأولى؛ لأن المقصود منهما نفي كونه قرآناً، أو من كلام الله تعالى؛ ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفي وصف إشكاله، واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنّه عن الحق بمعزل. ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنّه إنّما قال ذلك عناداً وحمية جاهلية، لا جهلاً بحقيقة الحال. ألا ترى ثناءه على القرآن، ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر، والكهانة، والجنون»[1].

ثانياً: ويكفينا الرد في هذا المقام بالاستئناس، والاستشهاد بتنزيه الإله الواحد القهار لرسوله، وخاتم أنبيائه من شواهد، وصفات الشعر، والسحر، والجنون، والكهانة. وهذا دليلنا، ولا دليل لهم، وهذا شاهدنا، ولا شاهد لهم، وهذا استئناسنا إيماناً بربنا، ولا استئناس لهم، وقد كفروا بربهم. فالله تعالى ينفي عن رسوله الحبيب المصطفى «صلوات الله عليه وسلم» صفات الشعر، فهو يقول: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ سورة الحاقة آية 41.

وينفي عنه شواهد السحر، فهو يقول: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ الآيات 24 - 29.

وهو يقول أيضاً: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة السجدة آية 1 - 2. وينفي عنه شواهد الجنون، فهو يقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ سورة

---

(1) الألوسي ـ التفسير ـ جـ 29 ص 125 ـ 126.

المؤمنون آية 70. وهو يقول أيضاً: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سورة الصافات الآيات 36 - 37.

وينفي عنه صفات الكهنوتية، فهو يقول: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الحاقة الآيات 42 - 43.

والله تعالى ينفي عن القرآن صفات الافتراء بأنّه إفك، فهو يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ سورة الفرقان آية 4. وينفي عن القرآن أيضاً صفات الافتراء بأنّه أضغاث أحلام، فهو يقول: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنبياء الآيات 5 - 6.

وينفي عن القرآن أيضاً صفات الافتراء بأنّه أساطير الأولين، فهو يقول: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سورة الفرقان آية 5 - 6.

ثالثاً: ويكفينا الرد أيضاً لتفنيد شبهتهم أنّهم يخلطون بين المعجزة وبين السحر، والشعوذة. فالمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، والمعجزة نفحة من نفحات الحق تخرج عن أفق وشواهد، ومعالم الأسباب المعتادة، والغايات المشاهدة، والمألوفة. وأما السحر، فهو ليس بخارق للعادة، وإنّما هو فن خبيث ذو أصول، وقواعد ومعالم، وفنون، وأوضاع يعرفها كلّ من ألمّ بالسحر، وتعلمه. ويلم بها كل من أخذ بأسباب علم السحر، والولوج من بابه. ولهذا السبب، وعندما أبطل الله سحر قوم موسى، آمنوا به، وعرفوا أنّ ما جاءهم به موسى ليس سحراً، وإنّما هو معجزة. وتالله، إنّه الغباء بعيْنه أن يقارن الإعجاز بالسحر، وأن تشبه المعجزة بالشعوذة. وتالله، إنّه لفرق كبير بين معجزات الأنبياء، والرسل، وبين سحر، وشعوذة السحار، والكهنة. فالمعجزة وحي إلٰهي حتى ولو كانت حسية. ومعجزات الأنبياء كلها

حسية؛ فخرقت العادة، وسلمت من المعارضة. وأين هذا بالنسبة للسحر والشعوذة؛ فهي لم تخرق العاده، ولم تسلم من المعارضة. فقد تعلمها كل من هب، ودب ممن رضوا لأنفسهم تعلمها، والإلمام بها، وإتقانها.

وتالله، إن كانت معجزات الأنبياء والرسل ـ وهي حسية ـ لا تقارن، بل لا يجوز تمثيلها بالسحر، والشعوذة، فما بالك بالمعجزة المعنوية؛ معجزة الرسول «ﷺ»، القرآن كلام ربنا الخالد، والمعجز، هذه المعجزة الربانية معجزة البصائر لا الأبصار، معجزة العقول لا العيون!! فهل يعقل أن تخلط بالسحر، والشعوذة؛ وأن تساوى بهما؟!! تالله إنّه لكفر الغباء والجهالة، والعناد!!.

أخرج الإمام البخاري أن الرسول «ﷺ» قال: «ما من الأنبياء نبي إلاّ أعطي ما مثله آمن عليه البشر؛ وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً». وقيل في معنى الحديث: إنّ معجزات الأنبياء الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار. كناقة صالح، وعصا موسى، في حين أنّ معجزة القرآن تشاهد بالبصيرة؛ فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأنّ الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده؛ والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأوّل مستمراً. وقيل في معنى الحديث أيضاً: إنّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلاّ من حضرها. في حين أن معجزة القرآن إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه، وبلاغته، وأخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلاّ ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنّه سيكون دليلاً على صحة دعواه[1].

ويكفينا تفنيداً لهذه الشبهة القول: بأنّ الزلل الواضح، والفاحش الذي وقع فيه أصحاب هذه الشبهة أنّهم فقدوا البينات، المزعومة، بعد أن جاءتهم البينات اليقينية، مصداق قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ

---

(1) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 117

مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة البقرة آية 209. وأنّهم اختلفوا في الكتاب بفقدانهم البينات من بعدما جاءتهم البينات. مصداق قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ سورة البقرة آية 213.

الشبهة الثامنة:

إنّ معجزة القرآن المبنية على خوارق العادات ليست معجزة، وكذلك تصديق الله لرسوله، ولأنبيائه لا يسمى إعجازاً. ودليل ذلك: أن هذا يعتبر خروجاً عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة، وخروجاً عن السنن الكونية التي تناط بها المصلحة. وبهذا، فالخروج عن النظام العام والخرق للسنن الكونية لا يسمى إعجازاً. ويضربون مثلاً على ذلك الفتاة الفرنسية جان دارك في القرن الخامس عشر الميلادي. فقد اعتقدت أن العناية الإلٰهية أرسلتها لإنقاذ وطنها، وحماية أهل بلدها، فصدقت نفسها، وصدقها النّاس، وجاءت بخوارق عظيمة خرقت بها النظام العام والسنن الكونية التي جرى النّاس عليها في زمنها؛ فتقلدت إمرة الجيوش وسنت القوانين، وأصدرت التعليمات، ونشرت الأفكار، والمعلومات، وحققت الكثير من معتقداتها، وهزمت أعداءها، ومع ذلك لا يسمى عملها إعجازاً، ولم تكن دعوتها معجزة. وإنّما كان ذلك أثراً لمواهبها، ومعتقداتها، وأفكارها. وكذلك محمد، فالقرآن ما هو إلاّ أثر من آثار مواهبه حقق بها بعض الخوارق، فلا يجوز أن يسمى ما جاء به إعجازاً.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ الخروج عن النظام المعتاد الذي اعتاده النّاس في حياتهم لا يسمى خروجاً عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة، وتنوط به المصلحة. بل على العكس من ذلك، فإنّ الخروج عن النظام المعتاد

يعتبر من مقتضيات تحقيق النظام العام وتأكيده والمحافظة عليه. وخاصة إذا كان ذلك النظام العام يتمثل في الحق، ومن مقتضيات الحق. فإنزال القرآن على الرسول «ﷺ»، وما جاء به من أحكام، ومعتقدات، وتشريعات، وأخلاق، وأوامر ونواهٍ، وإن لم يكن متعوداً عليه عند العرب، وخرج عما اعتادوه من أنظمة حياة، وأخلاق، ومعتقدات، ومعاملات، فهذا ـ أي نزول القرآن ـ لا يعتبر خروجاً عن النظام العام أي الحق، وأصله؛ وإنّما جاء تأييداً له، وتأكيداً لأحقيته. قال تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ سورة الإسراء آية 105.

فالقرآن الكريم ولو خرج عما اعتاده النّاس في حياتهم من معتقدات، وبيانات، وأخلاق، ومعاملات، فهو لم يخرج أبداً، ولن يخرج، عما تقتضيه مقتضيات الحق، ومقتضيات تحقيق النظام العام، والتي تتطلبها شواهد الحكمة، ومعالم العقلانية السليمة، ومؤشرات تحقيق المصلحة لجميع من نزل فيهم، ولهم القرآن الكريم. فهذا أعظم كتاب وجد على ظهر هذه البسيطة إنما جاء، ونزل ليحق الحق، ويبطل الباطل، فهو يهدي للتي هي أقوم، فكيف يدعي أنه غير معجز، وأنه خرق للنظام العام ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ سورة الإسراء آية 9.

وقد نزل هذا القرآن شفاءً، ورحمة للمؤمنين، فكيف يدعي أنّه خرق لنواميس الحق والحكمة!! قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ سورة الإسراء آية 82.

ثانياً: إنّ القرآن الكريم في خرقه للعادات، والنواميس الكونية هو إعجاز في حد ذاته. وهذا هو الإعجاز الذي نؤكده، ونثبته. وهذا الخرق تقتضيه الحكمة، وتدعو إليه المصلحة. وما هذا القرآن إلاّ كتاب رباني نزل رحمة للبشر، ونوراً للناس، وهداية للأمم، والشعوب. وأنزله الله تعالى؛ ليفصل بين الحق، والباطل؛ والهداية، والضلال؛ والاستقامة

والاعوجاج؛ والنور، والظلمات؛ والعدل، والظلم. وقد خرق الله به سنن العادات، ونواميس الكون؛ إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، فكيف لا يكون هذا إعجازاً؟!! وكيف يسمى هذا خرقاً للنظام العام أو تحقيق الحق؟! أليس القرآن من عند الله؟! أليس الله أعلم بخلقه؟! أليس الله المالك لكونه؟! أليس الله المتصرف بمخلوقاته؟! إذن أين العجب من خرق الله لنواميس كونه؟! فليس في نزول القرآن شذوذ أو خروج باطل عن الكونية، وسننها؛ وإنّما به جاء الحق، وزهق الباطل. وبهذا خاطب الله رسوله محمداً «ﷺ» أن يقول لقومه على لسان ربه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ سورة الإسراء آية 81.

ولعلنا لا نبالغ إن قلنا: إنّ أساس شبهتهم الخاطىء أنّهم جعلوا القرآن بشرياً، وأنّه من محمد «ﷺ». فكانت شبهتهم، وبغير دليل، حجة عليهم، وعلى افترائهم، بأن القرآن لا يجوز أن يخرق نواميس الكون، أو أن يخرج عن النظام العام، وهم لا يعلمون معنى ذلك الخروج. وهم تناسوا، أو أغلقوا عقولهم عن التصديق، والإيمان بالله، وقرآنه؛ ولو فعلوا ذلك، لما طاحوا، ولعلموا دوماً أنّ هذا القرآن كتاب إلٰهي جاء ليحق الحق، ويبطل الباطل، ولو خرق نواميس الكون، ولو كره المجرمون مصداق قوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. سورة الأنفال آية 8.

ثالثاً: وأمّا بالنسبة لكون القرآن أثراً من آثار الموهبة كما يدعون، فإنّنا نعجزهم بأن يوحدوا بين الموهبة، والمعجزة. وما بينهما إلاّ كما بين الثرى، والثريا. فالموهبة تتحقق للكثيرين، ولمن أخذ بأسبابها، وعواملها. فهي تتحقق كثيراً بالنسبة للأفراد، والأمم، والشعوب، وفي كل العصور. وأمّا المعجزة فلا وسائل، ولا عوامل تكتسب بها أبداً، وإنما هي تدبير رباني، وخلق إلٰهي لا يعطى لأي إنسان، ولا يستطيعه فرد؛ وليس له أشباه ونظائر معتادة أبداً، وبذلك كانت معجزات الأنبياء، والرسل الحسية فريدة في إعجازها؛ ولم يستطع أحد من البشر الإتيان

بمثلها. فبالنسبة لموسى مثلاً، ظن فرعون، وسحرته أنّ ما جاء به موسى سحراً أو شعوذة؛ فاعتقدوا أنّهم سيغلبونه، ويفندون سحره؛ لأنّهم برعوا في هذا الفن. فقال الله تعالى على لسانهم: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ سورة طه آية 57 - 58.

وقال تعالى أيضاً على لسانهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ سورة طه آية 63.

ولكن، وبعد أن أبطل الله سحرهم، استيقن السحرة عظمة معجزة موسى. وأن ما جاء به موسى ليس سحراً؛ فآمنوا، وسجدوا لرب هٰرون وموسى. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ سورة طه آية 69 - 70.

وكما قال شيخنا الزرقاني: «أمّا المعجزات فلن تجد لها من وسائل، ولا عوامل، ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر؛ اللهم إلاّ إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف، وسنن الوجود المألوف»[1].

رابعاً: وأمّا قضية الفتاة الفرنسية «جان دارك».

أ ـ فلم يكن فيها أو بالنسبة لها خرق للسنن الكونية، ولم تكن معجزة بمعنى الكلمة. وعملها لم يكن من قبيل الإعجازات، اللهم إلاّ إذا كانت مثل الذي يتحقق فعله للكثيرين. وكثير حتى من النساء من فعل مثل فعلها.

ب ـ وأمّا كونها تدعي أنّها مرسلة من قبل العنايه الإلٰهية، فهذا كذب، ولم تثبت صحته حتى بالنسبة لأصحاب هذه الشبهة. ودليل ذلك أنّها هزمت، وأسرت، وأحْرقت، ولو أنّها كانت صاحبة معجزة

---

(1) الزرقاني ـ مناهل العرفان. جـ 1 ص 77.

حقيقية لما حصل معها ذلك. وبذلك لا تقارن، ولا يجوز مقارنتها مع معجزة القرآن أو الرسول «ﷺ» حيث كل ما جاء به تحقق.

جـ- إن الفتاة الفرنسية كانت تعيش في قريتها «جوارد رومي» والكل يعرفها. ولم تكن صاحبة معجزات حتى، ولم تكن فتاة سليمة صحياً، وعقلياً. وفي زمنها شاعت الخرافات، وكانت الفتاة خيالية تسبح في خيالات الأوهام، وتطلق لأفكارها العنان، فتأتي بما تدعيه أنّه وحي إلٰهي لها، وبأن الله أرسلها لتخليص أمتها، ووطنها من الأعداء؛ فصدقها النّاس، وهم المعروفون بالضلال في غياهب جهالة القرون الوسطى، وأسلموها القيادة؛ فحاربت أعداءها، وهزمتهم في بادىء الأمر، ثمّ انهزمت في نهاية الأمر. فكان أمرها عادياً كغيرها من القواد، والمحاربين الذين ينتصرون، وينهزمون - فأين إعجازها؟! وإن لم تكن فتاة معجزة، فكيف يجوز لمن له عقل أن يشبهها بالرسول «ﷺ»، ومعجزته الأبدية ثابتة، وإلى قيام الساعة!! وقصة «جان دارك» تتكرر دائماً، ولم تخل ديار الإسلام من مثلها: كالقاديانية، والبهائية، وغيرها. وبعيداً عن كل تشبيه أو مقارنة، فالمعروف عن الرسول «ﷺ» أنّه كان عاقلاً، خلوقاً، متزناً، صاحب رأي سديد، ومشورة حكيمة، وعقلانية راجحة، وسداد خلق، مفكراً متعبداً، بعيداً عن سراب الجهالات، وإسراف الخيالات. لا يحكم على الأمور إلاّ بروية، ولا يقول بقول إلاّ بعلم. ولا يفتي إلاّ عن بينة. وهو رسول الله يوحى إليه. روى الإمام مسلم وغيره: أنّه «ﷺ» أبى على عائشة - أم المؤمنين - أن تقول في شأن صبي من الأنصار - جيء به ميتاً ليصلى عليه - طوبى لهذا، لم يعمل شراً، فقال النبي «ﷺ»: «أو غير ذلك يا عائشة! إنّ الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النّار، وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم، وهم في أصلاب آبائهم». فالرسول «ﷺ» يأبى على عائشة أن تحكم على مصير صبي من الأنصار، وهو يعلم أنّ اطفال المسلمين غير

المكلفين في الجنة. ولكنه (ﷺ) أبى أن يأتل على الله، وأبى أن تسير عائشة مع أوهام عقلها، وظن تفكيرها، فتحكم بغير روية، وبلا علم. وكذلك انظر إلى ما رواه الإمام البخاري: «أنه لما توفي عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ قالت أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال (ﷺ): «وما يدريك أنّ الله أكرمه؟!» فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟! قال: «أمّا هو فقد جاءه اليقين. والله، إنّي لأرجو له الخير. والله ما أدري، وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوالله، لا أزكّي أحداً بعده أبداً، وكذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ سورة الأحقاف آية 9. وكفى تفنيداً لهذه الشبهة أنّ الرسول (ﷺ) ـ وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر ـ عندما أخبر صحابته أن لا يظنوا أنّ أعمالهم تدخلهم الجنة، قالوا حتى أنت يا رسول الله! قال: «حتى أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته». وبهذا تأبى العقلانية السليمة، والبصيرة الحاذقة، أن تقارن فتاة واهية خيالية مدعية برسول الله محمد (ﷺ)، وهو الراجح في عقله، السديد في رأيه، المتروي في حكمه، الخلوق في فضائله. وتكفيه تزكية ربه له، وهو الذي يقول فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سورة القلم آية 4.

خامساً: ولعل أوضح ما يفند شبهتهم أنّها تفتقد إلى الدليل، والحجة، والبرهان، في كل ما يدعون، أو يمثلون. فهم ينكرون معجزة القرآن الخارقة للعادات، ولكل ما هو سائد، وجلي، سواء بالنسبة للغة، أو البيان، أو العلوم، ودون أي دليل أو تثبت، والأنكى من ذلك أنهم يماثلون بين آيات الله المعجزة، وبين خوارق البشر العادية، كالفتاة الفرنسيّة جان دارك. ولعلّ ما يصبغ الإعجاز القرآني بعين اليقين أنّه يأتي خارقاً للعادات، والسنن الكونية دون أن يُماثَلَ، أو يستطيع أحد من البشر أن يجاريه، أو يمثل عليه، فضلاً عن أنّه يجعل من إعجازه آيات،

ودلائل حقيقية، وأكيدة، وثابتة، وتتمع بشواهد الصدق، والألوهية في التحدي، والإفحام في الإقناع.

ولذلك عندما أعجز الله أعداء الإسلام بقرآنه، أشار إلى شواهد ذلك الإعجاز من دلائل سماها آيات، وأحاطها بمعالم، وصفات اليقينية في البيان، والثبوت، والوضوح، فقال: ﴿ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾. وكما يظهر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ ﴾ سورة الحج آية 72.

ومن هنا نستطيع القول دوماً: إنّ إعجاز القرآن، بخرقه للعادات والسنن الكونية، يبقى دائماً قطعياً، ويقينياً بدلائله، وآياته البينات. بينما تبقى ادعاءات أصحاب الشبهة دوماً غير معجزة، وتفتقد إلى الأدلة، والبينات.

الشبهة التاسعة:

إنّ القرآن غير معجز في علومه، وأحكامه، وتشريعاته. فهذه لا يصبح أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز. بدليل أنّها ـ وإن اعتبرت معجزات ـ فهي شبيهة بالمخترعات الكثيرة؛ حيث لم يكن لها آثار خارقة، أو عجيبة، ولم تتعد في آثارها، وتأثيراتها شواهد القدرة الاستيعابية العادية للعقول، والأذهان. فعلوم القرآن، وتشريعاته علوم عادية لم تخرج عن حدود، وقدرات العقول، والأذهان في الفهم، والهضم والاستيعاب، وهي بمثابة آثار لمواهب بعض الأفذاذ من النّاس «كسولون» اليوناني مثلاً.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: هناك فرق كبير بين المعجزات، وبين شواهد العلم، وآثار المعرفة، وروائع الفنون، وبدائع المخترعات، وفنون الثقافات. فالمعجزة أسبابها مجهولة، ولا يعرف لها أسباب حتى تلتمس، وتطرق، ويؤتى بمثلها. فالمعجزة قد تقع فجأة، ودون أسباب، ومقدمات يستدل منها ويستشف على وقوعها. بينما العلوم، والمخترعات لها أسبابها المعروفة،

وسبلها المتبعة؛ ولا تقع فجأة، وإنّما تدريجياً، وبتطور حثيث، ويمكن إلتماسها، واتباعها، واستعمالها؛ لتحقيق مزيد من التطور في معرفة المكتشف منها ثمّ تطويره. فالسيارة، والطائرة من وسائل النقل الحديثة لم يجر اختراعها في لحظة واحدة؛ وإنّما استمر سنوات عديدة. ووسائل اختراعها عندما عرفت انتقل العلم بها إلى الكثيرين، فتعلموها، وطوروها، واخترعوا أمثالها، وأفضل منها. ونفس القول يقال بالنسبة لجميع العلوم والمخترعات، سواء التي تتعلق بالآفاق: كعلوم الفضاء، ومركباته؛ أو علوم النفس: كعلوم الطب، وأجهزته؛ أو علوم الكون الأخرى المتعلقة بالنبات، والبحار، والرياح، والجبال، والمعادن، وما شابهها. وهذا كله على خلاف المعجزات، فإنّها تبقى بلا وسائل، وبلا عوامل، وبلا أشباه، وبلا نظائر لها.

ثانياً: هناك فرق كبير، وبون شاسع بين علوم القرآن الإلٰهية، وبين علوم العلماء البشرية. ومن السخافة بمكان أن يقارن الإلٰهي بالبشري. فالعلم الإلٰهي دائماً معجز. والعلم البشري دائماً غير معجز، ويؤتى بمثله، وأحسن. والعلم الإلٰهي ثابت في إعجازه إلى أبد الآبدين؛ فلا ينقض، ولا يخالف. والعلم البشري غير ثابت في حقيقته، وقابل للنقض والتطور. والعلم الإلٰهي في القرآن يقيني في قطعيته لا تنتابه شواهد الظنية البشرية. والعلم البشري الظني لا يقوى على مخالفة العلم اليقيني القطعي في القرآن. والحقائق العلمية القرآنية حقائق نهائية، وقطعية. وأمّا نظيرتها البشرية، فليس كلها ذلك. وما ثبتت يقينيته أو قطعيته من العلوم والحقائق العلمية البشرية، فهو يقيني، وقطعي في القرآن. وعندما يذكّرنا القرآن بحقيقة علمية كحقيقة أطوار خلق الإنسان من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة ثمّ من عظم ثمّ من لحم، فإنّ هذه الحقيقة العلمية تبقى أبدية في إعجازها، وإلى أن تقوم الساعة. وعندما يذكّرنا القرآن بحقيقة علمية علاجية كالعسل، وشفائه، فإنّ هذه الحقيقة العلمية تبقى معجزة، وإلى قيام الساعة. ومن هنا لا يجوز أن تقارن علوم القرآن بعلوم البشر مهما أوتوا من عبقرية. وبذلك يبقى الفرق كبيراً بين ما جاء به القرآن، وبين

ما جاء به سولون اليوناني وغيره. ونحن نتحدى أن يثبت أحد أن علوم سولون، وغيره كانت ثابتة، أو اتصفت بصفات الفعالية، والكمال في الإصلاح، والرفاهية للأمم. ومن الخطأ الفادح أن يقارن سولون اليوناني بالرسول محمد «ﷺ». فالأوّل كان عالماً، وقائداً عسكرياً، وإدارياً، وانتخب عام 594 قبل الميلاد «أرجونا» أي رئيساً لأمة. وحكمها بالقانون الذي وضعه «زراكوت» من قبله. بينما الرسول محمد «ﷺ» كان أمياً لا يقرأ، ولا يكتب، ولم يكن حاكماً، أو سياسياً، أو زعيماً. ثمّ لنا التساؤل: أين قانون سولون الآن؟!! وأين علومه؟!! وما تأثيرها على البشرية حتى على أمته، وشعبه؟!! وما هي الحلول التي قدمتها لهم؟!! وهل حققت لهم السعادة الدنيوية؟! وهل ما زالت موجودة؟!! أين هذا من وحي السماء، والقرآن الكريم بعلومه، وتشريعاته، وأحكامه، والتي ما زالت، وستبقى، تثبت، وتؤكد إعجازها في كلّ لحظة من لحظات الزمن الأبدية؟!! وأين قانون سولون، وأين علوم العلماء، ومخترعاتهم من وحي السماء الذي أنقذ البشرية، وخلّصها من غياهب الجهالة، والضلال، ونقلها إلى بصائر النور، والعلم، والشفاء!! فكان القرآن الكريم بحق رحمة، وموعظة، وشفاءً، ونوراً للناس أجمعين. ومن رفض هذا، عاش في الظلام. وصدق قول ربنا فيه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ سورة الإسراء آية 82.

وقول ربنا يخاطب رسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأعراف آية 203.

ولنا التساؤل دوماً: أين علوم البشر، وأين علوم الوضع قديماً وحديثاً، والتي إن أفادت، قد تضر؛ وإن نفعت، قد لا تبقى، وإن أسعدت، فقد أشقت!! أين هذه من علوم القرآن التي تفيد، ولا تضر؛ وتنفع وتبقى؛ وتسعد، ولا تشقي، والتي هي بحق أخرجت الناس من الظلمات إلى النور. وهذه حقيقة ستبقى ما بقي قول ربنا في قرآنه العظيم: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ سورة إبراهيم آية 1.

هذا القرآن الخالد في نظمه، المعجز في آياته، وعلومه، والذي حَرِيّاً أن يسجد له كل من آمن به، وأوتي عقلاً أو علماً. وهذا ما صدق فيه قول ربنا: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ سورة الإسراء آية 107.

ولنا التساؤل دوماً: لماذا لا يكون هذا القرآن في علومه معجزاً وهو القول الفصل؟ مَنْ ابتغى الهدى في غيره، أضله الله. فكر الحضارة النيرة، وملاذ البشرية العاقلة. فيه تبيان لكل شيء، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين، مصداق قول ربنا فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ سورة النحل آية 89.

ولماذا لا يكون معجزاً؟! وهو في حد ذاته برهان من عند ربنا، وهو نور لنا. مصداق قول ربنا فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ سورة النساء آية 174.

ثالثاً: إنّ معنى الإعجاز العلمي للقرآن يجب ألا ينحصر في الشواهد والمعاني الجامدة، والمادية، وإنما يجب أن يتناول الشواهد، والمعاني الروحية التي تؤهل العقل للتفكر، والتدبر حتى يهتدي، ويؤمن بربه.

لقد نزل القرآن الكريم معجزاً في علمه، أساس الإعجاز فيه مخاطبته للعقل البشري، ودعوته إليه بالبحث، والتفكير، والتعلم، هدفه الأسمى هدايته إلى الله خالقه، وخالق علمه، وخالق هذا الوجود الّذي يحيا فيه. فالقرآن في إعجازه العلمي يؤصل معاني العقلانية السليمة في الاهتداء إلى حقيقة وجودها، وإلى حقيقة موجدها.

وما نزل القرآن إلاّ لتحديد نظم هذا الوجود بمخلوقاته، ومن ثمّ علاقتها بخالقها. والقرآن، وإن دعا الإنسان إلى التعلم، واكتساب المعرفه، وتأصيل العلوم بأنواعها، إلاّ أنّ القرآن قد نزل لأعمّ من هذا، وهو الاهتداء بهذه العلوم، وتسخيرها من أجل الوصول إلى حقيقة الخالق. فالقرآن مجاله النفس الإنسانية، هادياً لها، حاثّاً لها على التفكر

والتعلّم، والبحث ضمن طاقتها العقلية التي وهبها الله لها، وضمن حدودها المتاحة لها. ومن ثمّ فمن الخطأ أن تحاول النفس الإنسانية تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال عليه بما تتوصل إليه من العلم. فالقرآن كتاب منهجي كامل، وسام في وظيفته، وفي موضوعه؛ وحقائقه العلميه حقائق قاطعة، ونهائية، ومطلقة؛ وما يصل إليه الإنسان في علومه وأبحاثه بأدواته المسخرة له هو حقائق علمية غير قاطعة، وغير نهائية، وهي مقيدة بحدود تجاربه، وأدواتها؛ وهذه لا يمكن أن تعطي حقيقة واحدة نهائية، ومطلقة.

ومن هنا لا يجوز لنا أن نفسّر القرآن تفسيراً علمياً بمعنى أن نستدل على حقيقته، وألوهيته في التنزيل بما يتوصل إليه الإنسان من مسائل علمية، أو نظريات علمية. ولا يجوز تفسير القرآن بما يطابق تلك المسائل العلمية المكتشفة، والتي يتوصل إليها الإنسان كلّ فترة، أو بما يطابق النظريات العلمية المكتشفة دواماً. ومن ثمّ لا يجوز الاستدلال بهذه المسائل، وهذه النظريات العلمية على حقيقة القرآن، ومن ثمّ جعلها هي المعيار في الحكم على القرآن، وجعلها المهيمن، والقرآن تابع.

فالاستدلال على يقينية القرآن بمناهجه، وحقائقه يجب ألاّ يتم، بل لا يجوز أن يتم عن طريق حقائق علمية غير يقينية، وغير قطعية، وغير نهائية. فالمسائل العلمية، والنظريات العلمية، هي حقائق غير نهائية وغير قاطعة، وهي عرضة للتغيير، والتعديل، والنقص، والزيادة، بل والنقض رأساً على عقب.

وكثير من النظريات العلمية، والتي سادت العقل البشري أجيالاً، وأزماناً طويلة، واعتقد أنّها أصبحت نهائية، وقاطعة، نُقضت تماماً، وتعرضت للتغيير بل والفناء.

ومن هنا فإنّ تفسير القرآن اليقيني القطعي بمسائل غير قطعية، وقابلة للتغيير، والتبديل، ومن ثمّ للنقض، والبطلان، يعرضه ـ أي القرآن ـ للتناقض، كلّما نُقضت تلك المسائل، وكلما بَطلت تلك النظريات.

فالإعجاز العلمي للقرآن لا يُفسَّر باشتماله على نظريات علمية، ومسائل علمية تخمينية غير يقينية، وغير قطعية، وقابلة للتقويض، والتعديل، والبطلان؛ وإنّما يفسّر بدعوته للعقل البشري إلى التعقل، والتدبر، والتفكر، والتعلم، والتبحر في ميادين العلوم، ومخلوقات الله، ومن ثمّ الاستدلال بها على خالقها، وموجدها، ومنظمها.

ولنا في حديث الشهيد سيد قطب أسوة حسنة في تأصيل هذه المعاني حيث يقول في تفسيره في ظلال القرآن: «إنّ الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة... أمّا ما يصل إليه البحث الإنساني ـ أيّاً كانت الأدوات المتاحه له ـ فهي حقائق غير نهائية، ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه، وظروف هذه التجارب، وأدواتها، فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الإنساني ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كلّ ما يصل إليه العلم البشري». هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى علمية، فهي قابلة دائماً للتغيير، والتعديل، والنقض، والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة. وكلّ محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيّره، أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي.

كما أنّها تنطوي على معان ثلاثة كلّها لا يليق بجلال القرآن الكريم.

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض النّاس أنّ العلم هو المهيمن، والقرآن تابع. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أنّ القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه؛ والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس. وكلّ ما يصل إليه غير نهائي، ولا مطلق؛ لأنّه مقيد بوسط الإنسان، وعقله، وأدواته. وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية، ومطلقة.

الثانية: سبْق فهم طبيعة القرآن، ووظيفته، وهي أنّه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناءً يتفق بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية مع طبيعة هذا الوجود، وناموسه الإلٰهي؛ حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله بل يصادفه، ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه من خلافته؛ نواميسه التي تكشف له بالنظر، والبحث، والتجريب، والتطبيق وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلّم المعلومات الماديه جاهزة.

الثالثة: هي التأويل المستمر مع التحمل، والتكلّف لنصوص القرآن كي نحملها، ونلهث بها وراء الفروض، والنظريات التي لا تثبت، ولا تستقر، وكلّ يوم يجد فيه جديداً.

ومن هنا وكما يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي: فإنّ كلّ حقيقة علمية قطعية هي قطعية في القرآن. وكلّ مسألة من مسائل العلم يثبت يقينها هي يقينية في القرآن.

ولنا القول: بأنّ الحقائق اليقينية القطعية هي كذلك في القرآن، ولا تعارض بينها، وبين القرآن. وهناك الحقائق العلمية اليقينية القطعية، والتي اكتشفها، ولا يزال يكتشفها الإنسان، وردت شواهدها في القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. بل ونص عليها القرآن؛ معجزاً للبشرية، وهادياً لها حيث لم يسع العلم بعلمائه، وأجهزته، وأدواته، إلاّ أن يعترف بها ويخشع لخالقها، تدعمها الآيات القرآنية العديدة التي تحث العقل البشري، وتستزيده على الحقيقة العلمية، وبالبحث، والتقصّي، وبالتدبر، والتأمل في علوم الله، ومخلوقاته، حيث جعل منها شواهد على الإيمان يستدل بها الإنسان على ربه خالقه، وخالقها.

ولنا أن نؤصل معالم الإعجاز العلمي في القرآن ضمن الموضوعين التاليين:

الأول: الإعجاز القرآني في الدعوة إلى العلم.

الثاني: الإعجاز القرآني في الحقائق العلمية.

الإعجاز القرآني في الدعوة إلى العلم[1]

يتجلى الإعجاز العلمي للقرآن واضحاً في الدعوة إليه؛ يحدوه في ذلك العناية الربانية لبني الإنسان في الهداية، والإيمان، والتوحيد، ومن ثمّ السعادة في الدنيا، والآخرة. يؤازر ذلك كلّه الآيات القرآنية العديدة داعية الإنسان إلى طلب العلم، وتقصّي الحقيقة العلمية؛ وذلك ضمن معان وصيغ، مآلها التعقل، والتدبر، والتفكر، والتقصي؛ وغايتها تحقيق غاية الإيمان بتحقيق غاية العلم.

الإعجاز القرآني بنسبة العلم إلى خالقه:

قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[4].

التأصيل القرآني بتكريم أهل العلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6].

---

(1) أنظر في مثل هذه الأنواع، والأمثلة من الإعجاز القرآني ـ دكتور غازي عناية ـ كتاب: منهجية البحث العلمي عند المسلمين ص 29.
(2) سورة يوسف، آية 76.
(3) سورة النساء، آية 176.
(4) سورة البقرة، آية 32.
(5) سورة فاطر، آية 28.
(6) سورة آل عمران، آية 18.

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالنظر في مخلوقات الله:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[4].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالتفكر والتعقل:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[7].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بآيات الله:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[8].

---

(1) سورة المجادلة، آية 11.
(2) سورة يونس، آية 101.
(3) سورة العنكبوت، آية 20.
(4) سورة الغاشية، آية 17 - 20.
(5) سورة الأنعام، آية 50.
(6) سورة الزخرف، آية 3.
(7) سورة النحل، آية 67.
(8) سورة الروم، آية 22.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[1].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالدعاء:

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[3].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالغيب:

قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[6].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالإيمان:

قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[7].

---

(1) سورة الروم، آية 23.
(2) سورة طه، آية 114.
(3) سورة محمد، آية 19.
(4) سورة المائدة، آية 116.
(5) سورة البقرة، آية 33.
(6) سورة يوسف، آية 102.
(7) سورة آل عمران، آية 166.

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالحكمة:

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

الإعجاز القرآني بإقران العلم بالتوحيد:

قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3].

الإعجاز القرآني في الحقائق العلمية.[4]

إنّ أصالة القرآن في إعجازه العلمي ركيزتها العقيدة، وسلاحها العلم، وشواهدها حقائق العلم في مختلف العلوم، ونواحي الحياة، ذكرها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً معجزاً، وهادياً للبشرية في آن واحد؛ لتعرف ربّها، وتخضع لخالقها؛ اعترافاً، وحمداً على نعمائه. فالعلم هو دعوة القرآن الأولى في الإعجاز، والهداية، فالعلم روح الإيمان، ومؤشر النجاة. توّج القرآن دعوته للعلم بحقائق العلم أوردها على سبيل الترغيب والترهيب في آن واحد أنكرتها البشريه الجاحدة فترة من الزمن رضخ لها العلم حديثاً لم يستطع أن ينكرها، أو أن يجحدها، مؤكداً معترفاً أنها حقائق قطعية في قرآن يقيني لم يزعزعه أي اختلال في حقائقه، ولم تَشُبْهُ أية شائبة في علومه، معجزاً ودالاً للبشريه جمعاء أنّ ما هو قطعي في العلم، هو قطعي في القرآن.

---

(1) سورة آل عمران، آية 48.

(2) سورة آل عمران، آية 164.

(3) سورة محمد، آية 19.

(4) أنظر في مثل هذه الحقائق العلمية دكتور غازي عنايه ـ مناهج البحث العلمي في الإسلام ـ طبعة دار الجيل ـ بيروت ص 42.

أمثلة على الحقائق العلمية في القرآن:

الحقيقة العلمية الأولى:

حقيقة خلق الإنسان من طين.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾(3).

الحقيقة العلمية الثانية:

حقيقة خلق الإنسان من ماء مهين.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾(4).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾(5).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾(6).

الحقيقة العلمية الثالثة:

حقيقة خلق الإنسان أطواراً.

قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾(7).

---

(1) سورة المؤمنون، آية 12.
(2) سورة السجدة، آية 7.
(3) سورة ص، آية 71.
(4) سورة الطارق، آية 5 - 7.
(5) سورة المرسلات، آية 20.
(6) سورة السجدة، آية 8.
(7) سورة نوح، آية 14.

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

والظلمات الثلاثة هي الغشاء المنباري، والخوريون، واللفائفي.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2].

الحقيقة العلمية الرابعة:

حقيقة خلق كلّ شيء حي من ماء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3].

الحقيقة العلمية الخامسة:

حقيقة القيمة الغذائية والعلاجية للعسل.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

ولقد أكدت التجارب التي أُجريت على العسل في جامعة «ليبزغ» في ألمانية أنّه يحتوي على نسبة 25 - 40٪ من الجلوكوز، والتي تستخدم في علاج الكثير من الأمراض، وتشكل عنصراً رئيسياً في صناعة الكثير من الأدوية كمغذية ومعالجة في آن واحد. ولقد أثبت أحد

(1) سورة الزمر، آية 6.
(2) سورة المؤمنون، آية 12 - 14.
(3) سورة الأنبياء، آية 30.
(4) سورة النحل، آية 69.

الجراحين في مستشفى «نورفلك» في إنجلترا إيجابية العسل في قتل البكتيريا أثناء، وبعد العمليات الجراحية؛ ممّا يساعد على التئام الجروح. كما أعلن البرفيسور الفرنسي «كلود هيليو» أنّ عسل النحل الملكي له القدرة الكبيرة على قتل الجراثيم[1].

ويذكر دكتور عبد العزيز إسماعيل: «وإذا علمنا أنّ الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين حتى في حالة التسمم الناشىء عن مرض البول السكري علمنا مقدار فوائده. وإنّ القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة، ولكنّه تنزيل ممن خلق الإنسان، والنحل»[2].

الحقيقة العلمية السادسة:

حقيقة أضرار الخنزير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[3].

لقد أثبتت التجارب التي أُجريت على حوالي خمسين في المائة من الخنازير في بعض الولايات المتحدة الأمريكية: أنّها مصابة بمرض «تركيتا» وهو نوع من السموم تفرزه ديدان تحمل هذا الاسم، وتسبب أمراضاً تشبه الكوليرا[4].

ويقول بيتي ديكسون: «إنّ الإصابة بها تكاد تكون عامة في جهات من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا، ولكنها تكاد تكون نادرة الوجود في البلاد الشرقية؛ لتحريم دين أهلها أكل لحم الخنزير»[5].

---

(1) دكتور يوسف السويدي: كتاب: الإسلام والعلم التجريبي ـ ص 64.
(2) دكتور عبد العزيز اسماعيل ـ كتاب الإسلام والطب الحديث ص 199.
(3) سورة البقرة آية 173.
(4) دكتور يوسف السويدي ـ الإسلام والعلم التجريبي.
(5) دكتور عبد الرزاق الشهرستاني: كتاب أسس الصحة والحياة.

وقد ثبت علمياً أنّ لحم الخنزير يحتوي على «ديدان التريخينا»؛ وأنّ الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو 1500 جنيناً في الغشاء المبطن لأمعاء المصاب؛ فتتوزع الملايين المولودة من الإناث بطريق الدورة الدموية إلى جميع أنحاء الجسم، فتتجمع الأجنّة في العضلات حيث تسبب آلاماً شديدة، والتهابات عضلية مؤلمة تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي، وتكوّن الأورام.

وقد ثبت أيضاً أنّ نسبة الترسبات الدهنية في لحم الخنزير أكثر من ضعفي اللحوم العادية، وأنّ هذه الترسبات تفرز مادة الكولسترول «التي تساعد كثرتها على تصلب الشرايين، وبالتالي الجلطة في القلب»[1].

وقد أثبتت أحدث التحليلات العلمية أنّ فيروس الأنفلونزا يتوطن داخل جسم الخنزير يكمل دورة نموه فيه.

الحقيقة العلمية السابعة:

حقيقة أضرار شرب الخمر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال ﷺ: «كلُّ مُسكرٍ خَمر، وكلُّ خَمْرٍ حَرامٌ»[3].

وقال ﷺ: «لعن اللهُ الخمرَ، وشاربَها، وساقيها، ومُبْتاعَها، وبائِعَها، وَمُعْتَصرها، وحامِلَها، والمحمولَةَ إليه[4].

وقال ﷺ: لَيَشْرَبَنَّ أُناسٌ من أُمّتي الخمرَ وَيُسَمّونَها بغيرِ اسمها»[5].

---

(1) دكتور عبد الرزاق الشهرستاني: كتاب أسس الصحة والحياة.
(2) سورة المائدة، آية 90.
(3) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود في السنن.
(4) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود في السنن.
(5) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود في السنن.

وقـال ﷺ: «إنّ اللـهَ أنـزلَ الـدواءَ، وجعـلَ لكـلّ داءٍ دواءً، فَتداوَوْا ولا تَداوَوْا بِحرام»[1].

وقال ﷺ لطارق الجعفي عندما سأله عن الخمر، فنهاه. فقال طارق: إنّما أصفها للدواء. فقال رسول الله ﷺ: «إنّه ليس بدواء، ولكنه داء»[2].

وقال ﷺ: «لا شِفاءَ في نَجِس»[3].

يقول دكتور «أوبري لويس» رئيس قسم الأمراض النفسية في جامعة لندن، ونشره في أشهر مرجع طبي بريطاني «برايس الطبي»: «إنّ الكحول هي السُّمُّ الوحيد المرخص بتداوله على نطاق واسع في العالم كلّه، ويجده تحت يده كلّ من يريد أن يهرب من مشاكله. وبهذا يتناوله مضطربو الشخصية، ويؤدي هو بذاته إلى اضطراب الشخصية، وإنّ جرعة واحدة من الكحول تسبب التسمم، وتؤدي إلى الهيجان أو الخمود، وقد تؤدي إلى الغيْبوبة. أمّا شاربو الخمر المدمنون فهم عرضة للانحلال الخلقي الكامل ثمّ الجنون».

ويقول دكتور «لورنس» رئيس قسم الطب العلاجي في جامعة لندن: «أوّل ما يفقد من وظائف المخ بواسطة الكحول هو القدرات الدقيقة على الحكم، والملاحظة، والانتباه. كما أنّ الكفاءة العقلية والبدنية تنخفض بتناول الكحول مهما كانت الكمية قليلة، وتقلّل من دقة النظر، ومن القدرة على السمع الجيد، والشَّمِ، والتذوق. كما تؤدي إلى فقدان توازن العضلات.

وأثبت العالمان: «ستوكار» «وشارات» أنّ الكحول تنتقل بالوراثة

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه.
(2) أخرجه مسلم والترمذي.
(3) أخرجه الصحيح.

من دم الأم الحامل إلى دم الجنين عن طريق المشيمة داخل الرحم، وكذلك عن طريق حليب الرضاعة[1].

ويقول دكتور عبد العزيز إسماعيل: «وتزداد بالكحول الإنفعالات النفسية، وهذا هو الخطر؛ لأنّ الشخص يصبح شخصاً آخر، وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية، وهو لا يقوى على منع نفسه. وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاشية، ولكن ضعف الإرادة يجعل الشخص عبداً لعادة شرب الخمر»[2].

ولنا القول: ممّا استقرىء من المنشورات الطبيه إنّ الخمر يزيد من اضطرابات القلب، ونبضاته، وتضعفه، ويوسع الأوعية الدموية في الجلد حيث يحصل تورم، واحمرار فيه. ويؤدي الخمر إلى سوء التغذية، ونقص الفيتامينات، وخاصة فيتامين ب، حيث إنّ نقصه يسبب التهاب الأعصاب، والضمور الشحمي في الكبد مع ترسب المواد الذهنية. كما يسبب شرب الخمر فقر الدم.

وقد ثبت علمياً أيضاً أنّ شرب الخمر يسبب ارتفاع ضغط الدم، وانفجار شريان المخ، والإصابة بالشلل[3].

الحقيقة العلمية الثامنة:

حقيقة مضار الخبائث من المطعومات، والمشروبات.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[4].

والطيب هو كلّ ما ينفع جسم الإنسان، ولم يرد نص على تحريمه.

---

(1) دكتور عبد الرزاق الشهرستاني. المرجع السابق ـ 287.
(2) دكتور عبد العزيز اسماعيل: المرجع السابق.
(3) دكتور عبد الرزاق الشهرستاني ـ المرجع السابق ـ ص 287.
(4) سورة الأعراف، آية 157.

والخبيث هو كلّ ما يضر جسم الإنسان، ولم يرد نص على تحليله.

ومن الخبائث التي أوردها القرآن الكريم: الميتة، والخمر، ولحم الخنزير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾(1).

ولنا القول: بأنّ كلّ ما يبتدعه النّاس خاصة هذه الأيّام من أسماء المطعومات ومشروبات خبيثة لا يسوغ القول بتحليلها لعدم ورود النص على ذكرها بأسمائها. فالقرآن لا يتعلق بالجزئيات، وقد جاء بقواعد كليّة فحواها: أنّ كلّ ما هو طيب حلال، وكلّ ما هو خبيث حرام.

ومن عجب العجائب أن يحلل البعض تعاطي أنواع معينة من المطعومات، والمشروبات الخبيثة بحجة عدم تحريم القرآن لها بأسمائها. ومنها تعاطي، وشرب الدخان، والذي نستطيع القول بحرمتها، وعلى سبيل القطع والفور؛ فهي من الخبائث الضارة؛ والنصوص على تحريمها متوفرة، ومتحققة، والدلائل وافرة.

دلائل تحريم شرب الدخان:

الدليل الأوّل:

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾(2).

والتدخين من الخبائث، فهو حرام تعاطيه. ولقد أثبت العلم

---

(1) سورة البقرة، آية 173.

(2) سورة الأعراف، آية 157.

حديثاً الأضرار الكثيرة للتدخين، ومنها أمراض لم يستطع العلم على تقدمه من علاجها: كالسرطان بأنواعه: سرطان اللثه، وسرطان الحَلْق، وسرطان المعدة، وسرطان المريء؛ وحيث تأكدت العلاقة الوثيقة بين تعاطي الدخان، والإصابة بالسرطان.

وهناك أضرار كثيرة يسببها التدخين: كفقد الشهية ممّا يسبب الهزال، وفقر الدم، ومنها الخمول، والكسل، وضعف الأعصاب؛ ومنها روائح الفم الكريهة؛ ومنها تسوّس الأسنان.

وحسب القاعدة الشرعية: «فإن الأصل في الضار التحريم».

ولا تزال النشرات الطبية تصدر تباعاً عن المؤسسات، والهيئات الطبيه الدولية، والحكومية، والخاصة في البلدان المتقدمة مدنياً، وتؤكد الأضرار الحتمية لتعاطي التدخين، وبالإحصائيات الدقيقة بعدد الإصابات، وأنواع الأمراض.

وقد أثبتت التحليلات العلمية انتقال أمراض التدخين من الأم الحامل إلى وليدها، وخاصة مرض الهزال، وفقر الدم.

وقد أثبتت التقارير العلمية ارتفاع نسبة الوفيات الناشئة عن التدخين بالمقارنة مع الأمراض الأخرى.

وقد يرد التساؤل على ألْسنة بعض المدخنين: بأنّ الكثير منهم لم يتضرّروا أو لم يموتوا من التدخين مع أنّهم يتعاطونه كثيراً، ولمدد طويلة؟؟!

والجواب على هذا التساؤل في غاية البساطة، والسهولة، ويتلخص في:

أولاً: بالنسبة للموت: فسبب الموت ليس المرض، وإنّما انتهاء الأجل. على اعتبار أنّ سبب الموت هو انتهاء الأجل. ولكن المدمن إنّما يأخذ بشواهد هذا السبب كمن يركب الأخطار، ولا يبالي بنتائجها، وعلى اعتبار أنّها ليست سبب الموت.

ثانياً: بالنسبة للمرض، فيجب التفريق بين عدم ظهور أعراضه وبين ظهورها. فعدم ظهور أعراض التدخين لا يعني عدم الإصابة بأمراضه، وبأنّه غير ضار.

فالدخان غاز سام يتجرعه المدخن داخل أحشائه، ومن ثمّ ينفذ إلى أعضاء الجسم الداخلية؛ وقد تظهر أعراضه، أي أمراضه التي يسببها، وقد لا تظهر. ومن ثمّ لا يجوز الادعاء بعدم مضار التدخين؛ لعدم ظهور أعراضه أحياناً.

ولقد ثبت علمياً أنّ نبات التبغ هو نبات سام، ويُصنّف ضمن النباتات السامة. فهو إذن ضار بفعل كونه مصدراً للضرر، وليس ناقلاً له فقط. ولم نسمع أحداً يدعي أنّ السم لا يضر إذا تناوله الإنسان.

ولا يستطيع أحد أن يشك في شدّة خطر سم النيكوتين الذي يحتويه التبغ على صحة الإنسان.

الدليل الثاني:

التدخين تبذير ـ والتبذير حرام؛ فهو إتلاف للمال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾(1).

والتدخين تبذير، لأنّه إنفاق في أمر محرّم؛ فقد ثبتت أضراره.

ويعرّف التبذير: بأنّه الإنفاق في الحرام، ولو كان قليلاً.

فالتدخين إنفاق في حرام حتى ولو في القليل من شرب الدخان.

---

(1) سورة الإسراء، آية 26, 27.

الدليل الثالث:

التدخين إسراف. والإسراف حرام.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1].

ويُعرّف الإسراف: بأنّه الإنفاق في الحلال من غير حاجة.

فالتدخين إسراف من غير حاجة، وليست هناك أية دوافع، أو مبررات، أو أسباب لتعاطيه، والإنفاق عليه، أو فيه. وهذه حجة على الذين يحلّلونه. حتى ولو كان ذلك، فهو إسراف من غير ضرورة؛ والإسراف حرام، فالتدخين حرام.

الدليل الرابع:

التدخين مفتّر للأعصاب.

عن أم سلمة أنّ رسول الله (ﷺ): «نَهى عن كلّ مُسْكرٍ وَمُفَتّر» رواه الترمذي.

والتدخين كالمخدرات، وهو منها يُخدّر، ويفتّر الأعصاب أي يخرجها عن طبيعتها في أداء وظائفها.

الدليل الخامس:

التدخين قتل للنفس، وهذا محرّم نصاً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2].

والتدخين قتل بطيء للنفس، وهو انتحار لها؛ وذلك لأنّ المدخن يأخذ بأسباب المرض، والضرر القاتل لنفسه.

---

(1) سورة الأعراف ،آية 31.

(2) سورة النساء، آية 29.

الدليل السادس:

التدخين إتلاف للضرورات الخمس التي يجب أن يحافظ عليها المسلم وهي: الدين، والنفس، والمال، والعقل، والبدن.

الحَقِيقَة العلمية التاسعة:

حقيقة مضار نكاح الحائض.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1].

لقد أثبت العلم حديثاً الأضرار الجسمانية، والنفسية الناشئة عن نكاح الحائض. وسواء بالنسبة للرجل أو المرأة على حد سواء.

وقد أثبت العلم أنّ أغشية الرحم المخاطية تحتقن وقت الحيض، ولذا فإنّ الاتصال الجنسي بالمرأة يحدث تمزقاً شديداً في تلك الأغشية، فتتسبب الالتهابات، وتتفشى الفيروسات والميكروبات داخل الرحم، وتتنقل من المرأة إلى الرجل بالجماع.

الحقيقة العلمية العاشرة:

حقيقة التلقيح بالهواء.

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[2].

يفسّر ابن كثير الآية بقوله: «أي تُلَقِّح السحاب فتدر ماءً، وتلقح الشجر، فتتفتح عن أوراقها، وأكمامها. وذكر الرياح بصيغة

---

(1) سورة البقرة آية 222.
(2) سورة الحجر، آية 22.

الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم فإنّه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج لأنّه لا يكون إلاّ بين شيئيْن فصاعداً».

وقد أثبت العلم حقيقة تلقيح الرياح للنباتات بنقل بذور اللقاح الذكريّة إلى الأنثوية.

الحقيقة العلمية الحادية عشرة:

حقيقة دوران النجوم، والكواكب.

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

فلسفة العلم حديثه، وقديمه، وبأجهزته، وعلمائه، تتهاوى رضوخاً واستسلاماً أمام هذه الحقيقة التي أوردها القرآن منذ نيف وأكثر من أربعة عشر قرناً.

الحقيقة العلمية الثانية عشرة:

حقيقة الضغط الجوي.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2].

رضخ العلم لهذه الآية حديثاً باكتشافه أنّ الضغط الجوي خارج غلاف الأرض يقل كثيراً، وتقل معه نسبة الأوكسجين في الهواء ممّا يؤدي إلى ضيق الصدر، والحشرجه، والاختناق. وتتأكد

---

(1) سورة يس، آية 38 - 40.

(2) سورة الأنعام، آية 125.

هذه الحقيقة وضوحاً باستخدام رواد الفضاء كمّامات موصوله بأنابيب مملوءة بالأوكسجين يستنشقونه أثناء رحلاتهم الفضائية.

وكذلك يلبسون ملابس فضائية خاصة مكيفة بضغط جوي يساوي الضغط الجوي على الكرة الأرضية.

الحقيقة العلمية الثالثة عشرة:

حقيقة دوران القمر حول الأرض.

قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[1].

ويعني هذا أنّ القمر في دورانه حول الأرض يمر بعدّة منازل، يبدو مختلفاً أثناءها في مظهره، ونوره، ولو كان ثابتاً لما تجلّت هذه المنازل.

الحقيقة العلمية الرابعة عشرة:

حقيقة تعدد السموات، والأرضين.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ سورة الطلاق آية 12.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ سورة نوح آية 15.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ سورة الملك آية 3.

يقول أبو السعود المفسّر اللغوي في تفسيره: «إنّ الجمهور على أنّها سبع أرضين بعضها فوق بعض». ويقول المفسر النيسابوري: «إنّها

---

(1) سورة يس، آية 39.

أراضين ما بين كلّ واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام، وفي كلّ أرض منها خلق».

حقائق تعدد السموات، والأرضين لا تزال مجهولة لدى العلم الحديث بالرغم من تقدمه، حقيقة هذا العدد ذكرها القرآن منذ نيّف وأربعة عشر قرناً.

وكلّ ما توصل إليه العلم هو أنّ هذه السبع سماوات ما هي إلاّ كواكب سبعة تدور حول الشمس وهي: الأرض، والقمر، وعطارد، ونبتون، والمريخ، والمشتري، وزحل.

ولنا التساؤل: هل ما اكتشفه العلم هو سبع سماوات أم سبع أراضين؟! وإن كانت كذلك فهل هي المعنيّة في القرآن؟! الله أعلم.

رابعاً: إنّ إعجاز القرآن العلمي يقيني في ثبوته، وحقائقه العلمية لا تنتابها شواهد الخطأ الظنّي؛ وهذا على العكس من العلوم البشرية التي نادراً ما تكون يقينية، أو ثابته؛ وقلما لا ينتابها الخطأ، والتَغيير. ولنا أن نفسح المجال للمفكر الإسلامي وحيد الدين خان ليشرح لنا هذا المعنى، وبأسلوبه في كتابه: «الإسلام يتحدى»(1) فهو يقول:

«إنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة، لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه، ولو أنّه كان كلاماً بشرياً لكان هذا ضرباً من المستحيل.

* * *

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة إلى كاهن «كنيسة بركلي» طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحي في أيام الأحد، وقالوا له بكل

---

(1) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ـ ص 121 - 134 بدون تصرف.

صراحة: إننا غير راغبين في اعتناق المسيحية، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية، واختار القسيس عالماً في الرياضة، والفلك، هو البروفيسور «بيترو ستونر»؛ للتدريس لهؤلاء الشبان. وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحي!!

أمّا الدوافع وراء هذا العمل المدهش؛ فلنسمعها من الأستاذ نفسه:

«لقد كان السؤال الأوّل أمامي: ماذا أقول لهم عن الدين؟ إنّهم لا يؤمنون بالإنجيل إطلاقاً، وتدريس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتي بفائدة ما، وفي ذلك الوقت تذكرت أني أثناء دراستي كنت ألاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة، وسفر التكوين في الإنجيل، ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب».

«وكنا ـ أنا والطلبة ـ نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء في هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض، والسماء، وكنا نشعر كذلك أن أفكار النّاس في زمن موسى ستبدو لغواً باطلاً، لو درسناها في ضوء معلومات العصر الحاضر.

«وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء في هذا السفر، ثمّ يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة. وعند انتهاء الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا إليه ليخبروه أنّهم يريدون اعتناق المسيحية، وقد أقروا أنّه ثبت لهم أنّ الإنجيل كتاب موحى من عند الله»[1].

* * *

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر:

«لقد غشى على الأغوار ظلام»[2]

---

(1) The Evidence of God, pp. 137 - 138.

(2) تقول الترجمة العربية للتوراة (المنقولة عن اليونانية): «وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه القمر ظلمة». الإصحاح:

وهذا هو أحسن تصوير للحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت، كما عرفناها من العلوم الحديثة، فكان سطح الأرض حاراً جداً، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة، ولم يصل النور إلى سطح الأرض، لأنّ مياه بحارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة، في الفضاء، وكان ظلام حالك يسود الأرض.

إنّنا نؤمن بأنّ الإنجيل، والتوراة من الكتب الإلٰهية، مثل القرآن الكريم، ولذلك توجد فيها قبسات من العلم الإلٰهي، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت، وطرأ فارق كبير بين الإنجيل الحقيقي، وإنجيل هذا العصر، بعد مضي ألفي عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى، ثمّ بأعمال التحريف البشري Human Interpolation الذي أصاب النسخة الإلٰهية أكثر ما أصاب، على حد تعبير العالم الأمريكي «كريسي موريسون»(1).

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها، نتيجة لما حدث، فقد أرسل الله تعالى: «طبعة جديدة» من كتابه إلى البشر، وهذا الكتاب هو «القرآن الكريم» وهو يحمل، من أجل صحته وكماله، كل الميزات والخصائص التي لا توجد منها سوى لمحات في الكتب القديمة.

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلاً ثالثاً من أدلتي على صدق القرآن الكريم، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة، ولكن أحداً من النّاس لم يستطع إبطال شيء مما جاء به، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر، لعد ذلك ضرباً من ضروب الإحالة.

* * *

نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف عن الطبيعة إلا القليل

---

(1) Man Does not Stand Alone, p. 120، ومن الثابت أن الأناجيل لم تكتب في حياة المسيح، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبي البابلي (٥٨٦ ـ ٥٣٨ ق. م.)

النادر، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء، وأن الأرض مستوية، كالفراش، وأن السماء سقف الأرض، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء، أو أنّها قناديل معلقة في الفضاء! وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني «البقرة الأم»، وهي حين تقوم بنقل أرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على البسيطة[1]. وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك، وأنّ الأرض تدور حولها، إلى أن جاء «كوبر نيك» (١٤٧٣/ ١٥٤٣ م)، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس.

* * *

وهكذا تقدم العلم رويداً رويداً، إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان، فكشف عن أسرار كثيرة. والآن لا نجد جزءاً ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم، وشعب العلم المختلفة، إلاّ وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية، وثبت بطلان عقائد العصر القديم.

ويدل هذا بكل صراحة على أنّه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كلياً. . . لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات، والعلوم في عصره، إنّه سوف يسرد ما وجده في زمنه، سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور. ولذلك لا نجد كتاباً مضى عليه حين من الدهر إلاّ وهو مملوء بالأغلاط، والأخطاء من سائر نواحيه، نظراً إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية! فهو حق وصادق في كل ما قال، كما كان في القرون الغابرة. ولم يطرأ على مقاله أي تغير رغم مضي قرون، وعصور طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل، وبالأبد علماً، وهو يعلم

---

(1) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك في أوساط العوام، وأشباه المتعلمين في شرقنا العربي، وإن كان تيار العامة الآن يقضي على مثل هذه الخرافات.

سائر الحقائق في صورها النهائية، والحقيقية، ولا يخضع علمه، ومعرفته لحواجز الزمان، والمكان، والأحوال. ولو كان هذا الكلام صادراً عن بشر محدودي النظر، والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة، كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله.

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أي من علومنا، وفنوننا الحديثة. ولكن حيث إنّه يخاطب «الإنسان» في حقيقة الأمر، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان، وهي مسألة دقيقة، وموقف جد خطير.. لأنّ المرء حين يكون جاهلاً، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما، ثمّ يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة ـ ولو إجمالاً ـ فلا بد أن يكبو في حديثه، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع، والحقائق!

وعلى سبيل المثال: قال أرسطو استدلالاً على أسبقية الرجل على المرأة: إن فم المرأة يحوي أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل!! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام، بل هو يدل على أنّ صاحبه جاهل بهذا العلم، فإنّ عدد الأسنان سواء لدى الرجل، والمرأة. ولكن من المدهش حقاً أنّ القرآن ـ حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى ـ لا يحتوي كلمة ما أثبت العلم فيما بعد، أنّها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع، وهذا يوضح صراحة أنّه كلام موجود فوق الطبيعة، وهو على معرفة تامة بكل شيء على حين لم يكن أحد يعلم شيئاً، وهو يعلم أيضاً كل ما يجهله البشر في هذا العصر، مع تقدم العلوم.

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أنّ القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم تعرف إلاّ في عصرنا هذا، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها.

ويجب أن أقول، تمهيداً لهذا البحث: إن مطابقة كلمات «القرآن» وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف

عن أسرار الواقعة موضوع البحث، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع. ولو أنّ دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدق القرآن، بل معناه أنّ المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن، وإنني لعلى يقين راسخ بأنّ الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لإشارات القرآن، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة.

* * *

تقسيم لآيات القرآن:

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين:

الأول: ما عرف عنه الإنسان ـ حتى ذلك العصر ـ أموراً جانبية وسطحية.

والثاني: ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئاً، مطلقاً.

إنّ هناك أشياءً كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جداً بالنسبة إلى المعرفة التي أتيحت للإنسان اليوم، بفضل الاختراعات الحديثة. وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى. فهو لم يكن كتاباً في العلوم، والهندسة، ولذلك لو أنّه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف النّاس فيما بينهم حول ما جاء في القرآن، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقي من نزول القرآن، وهو إصلاح العقل الإنساني، وتزكيته. فمن إعجاز القرآن أنّه تكلم في لغة العلم، قبل كشفه، كما أنّه استعمل كلمات، وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين، ولا معارفهم، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث!

النوع الأول:

أ ـ ذكر القرآن الكريم قانوناً خاصاً بالماء في سورتيْن: هما

الفرقان والرحمٰن. وجاء في السورة الأولى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ سورة الفرقان آية 53.

وأمّا الآية التي وردت في السورة الأخرى فهي تقول: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ سورة الرحمٰن آية 19 - 20.

إنّ الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور، وهي أنّه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد فماء أحدهما لا يدخل (أي لا يذوب) في الآخر. وهناك، على سبيل المثال، نهران يسيران في «تشاتغام» بباكستان الشرقية إلى مدينة «أركان»، في «بورما»، ويمكن مشاهدة النهرين، مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما، حداً فاصلاً، والماء عذب في جانب، وملح في جانب آخر. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث «المد البحري»، ولكنهما لا يختلطان، ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج. وهكذا شاهدت عند ملتقى نهري الكنج، والجامونا، في مدينة «الله آباد»، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما من الآخر(1).

إنّ هذه الظاهرة، كما قلت، كانت معروفة لدى الإنسان القديم.. ولكنا لم نكشف قانونها إلاّ منذ بضع عشرات من السنين. فقد أكدت المشاهدات، والتجارب أنّ هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة، يسمى «قانون المط السطحي» Surface Tension، وهو يفصل بين السائلين؛ لأنّ «تجاذب» الجزئيات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله. وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾. وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع

(1) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، قبل بناء السد العالي.

المشاهدة الحديثة، ونستطيع، بكل ثقة، أن نقول: إنّ المراد من «البرزخ» إنّما هو «المط أو التمدد السطحي»، الذي يوجد في الماءين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

ويمكن فهم هذا المط السطحي بمثال بسيط، وهو: أنك لو ملأت كوباً بالماء، فإنّه لن يفيض إلاّ إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معيناً.. والسبب في ذلك أنّ «جزئيات» السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب، تتحول إلى ما هو تحتها، وعندئذ توجد «غشاوة مرنة» Elastic Film على سطح الماء، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد، فإنّها لن تغوص! وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي، الذي يحول دون اختلاط الماء، والزيت، والذي يفصل بين الماء العذب، والملح.

ب ـ وجاءت في القرآن بيانات مماثلة، وعلى سبيل المثال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ سورة الرعد آية 2.

هذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم، فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته في الفضاء، مكوناً من الشمس، والقمر، والنجوم، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته، التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي، بيد أن هنالك «عمداً غير مرئية»، تتمثل في قانون «الجاذبية» Gravitation pull، وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحددة.

جـ ـ وقد قال القرآن عن الشمس، والنجوم: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ سورة يس آية 40.

وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك، وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين. ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم، واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه

التعبيرات ثوباً جديداً، فليس هنالك تعبير أروع، ولا أدق من «السباحة» لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف!

* * *

د ـ وقال القرآن الكريم عن الليل، والنهار: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ سورة الأعراف آية 54.

إنّ هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار.. ولكنها تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محورياً، وهو الدوران الذي يعتبر سبب مجيء الليل، والنهار، طبقاً لمعلوماتنا الحديثة.

وسوف أذكّر القراء ـ هنا ـ بأن من بين المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الروسي «جاجارين»، بعد دورانه في الفضاء حول الأرض: أنّه شاهد «تعاقباً سريعاً» Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس.

وهناك بيانات كثيرة جداً من هذا القبيل في القرآن الكريم..

* * *

النوع الثاني من الآيات:

وأما النوع الثاني من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئاً ما على الإطلاق. وقد تناول القرآن تلك الموضوعات، كاشفاً الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة، وسوف أعرض في الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة.

* * *

أولاً: علم الفلك:

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة، ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادي، ونهايته؛ وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الإنسان

الجديد قبل قرن من الزمان.. أما الإنسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها؛ وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء في القرآن الكريم.

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الأنبياء آية 30. أما عن نهاية الكون، فهو يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ الأنبياء آية 104.

فالكون، بناءً على تفسير هذه الآيات كان منضماً، ومتماسكاً (الرتق: منضم الأجزاء)، ثم بدأ يتمدد في الفضاء، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى في حيز صغير.

وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون، فقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم، ومشاهداتهم لمظاهر الكون، إلى أن «المادة» كانت جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن، كثيف، متماسك. وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل... ... ... ٥ سنة على الأقل، فبدأت المادة تتمدد، وتتباعد أطرافها. ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمراً حتمياً، لا بد من استمراره، طبقاً لقوانين الطبيعة، التي تقول: إن قوة «الجاذبية» في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة).

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ...، ١ مليون سنة ضوئية، في أول الأمر. وقد أصبحت هذه الدائرة الآن، كما يقول البروفيسور «إيدنجتون». عشرة أمثال بالنسبة إلى الدائرة الحقيقية. وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف. وكما يقول البروفيسور «إيدنجتون»:

«إن مثال النجوم، والمجرات: كنقوش مطبوعة على سطح بالون من

المطاط، وهو ينتفخ باستمرار، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية، في عملية التوسع الكوني»[1].

وأما الأمر الآخر، فقد ثبت لنا صدقه، كما ورد في القرآن. فكان الإنسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأي العين، ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض، وهي في حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية.

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد، بل عرفنا أيضاً أن تلك الأجسام والأجرام التي كنا نشاهدها في قديم الزمن، وكنا نحسبها كاملة، وسالمة، أكثرها يحتوي على فضاء خال. وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم، وسيارات كثيرة. ومن أمثلته نظام «الذرة». فنحن نشاهد الفضاء الخالي في «النظام الشمسي»، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء «النظام النووي» لصغر حجمه المتناهي.. حتى أنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام[2]. ومعنى ذلك أن كل شيء حتى لو بدا متماسكاً ـــ يحوي حيزاً من الفضاء في داخله. ومثاله: أننا لو جردنا الفضاء أو المكان (space) من الذرات المادية في الجسم الإنساني، ذات الستة الأمتار، فلن نجد إلا كمية قليلة جداً من المادة، تكاد تكون متناهية الوجود.

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro - Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكاناً، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفاً من حجم الشمس!! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي.

* * *

(1) The Limitations of Science, p. 20.

(2) انظر التفصيلات عن «الذرة» في الباب الرابع من هذا الكتاب: الإسلام يتحدى.

لقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم، إلى أنه لا بد في المستقبل القريب ـ وطبقاً لقانون دوران الأجرام السماوية ـ أن يقترب القمر من الأرض، حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء(1). وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناءً على نفس القانون الذي يحكم المد، والجزر في البحار. فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠ر٠٠٠ ميلاً، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يومياً، حيث ترتفع فيها أحياناً أمواج يبلغ طولها ستين متراً، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات!!

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماماً لصالح أهل الأرض. ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفاً من الأميال ـ على سبيل المثال ـ فسوف يحدث طوفان شديد في البحار، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة، وسوف يغرق كل شيء، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية!!

ويرى علماء الفلك أيضاً أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين، حتى وصلت إلى بعدها الحالي من القمر، بناءً على قانون الفلك، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى.. ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة(2). وعندئذ سوف ينشق القمر، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض في صورة حلقة.

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة في القرآن الكريم، حول انشقاق القمر، حين تقترب القيامة(3)؟

---

(1) Man Does not Stand Alone, p. 24.

(2) هذا مجرد تعبير عن الإمكان العلمي وحدوده الزمنية. وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة في وقت أقل مما حدده الفلكيون، وكلامهم لا ينفي هذا.

(3) رويت معجزة «انشقاق القمر» في الصحيحين وكتب الحديث الأخرى، بروايات =

اقرأوا قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ سورة القمر آية 1 - 2.

ثانياً: علم طبقات الأرض:

١ ـ جاء في القرآن الكريم، غير مرة، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على توازنها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ سورة لقمان آية 10. ولقد ظل العلم جاهلاً بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية، ولكن دارسي الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم «قانون التوازن» Isostasy. ولا يزال العلم الحديث في مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون، ويقول الأستاذ انجلن:

«من المفهوم الآن أن المادة ـ الأقل وزناً ـ ارتفعت على سطح الأرض، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، وهي التي

= صحيحة الإسناد، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضي الله تعالى عنه)، وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق، وبرغم ذلك لا تزال مسألة «انشقاق القمر» موضع خلاف شديد بين المفسرين، والعلماء.. فيرى الجمهور أنه حدث فعلاً، «.. وقال بعض المفسرين: سينشق» كما يرى صاحب التفسير «الكبير»، ومن القائلين به الإمام الحسن البصري، وقد نقل عنه أبو حيان الأندلسي القول التالي: «ان المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية». البحر المحيط، ج ـ ٨، ص ـ ١٧٣. وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر «التوفيق» بين الرأيين، فهم يرون أن معجزة شق القمر، التي جاء ذكرها في الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين، والمشركين «بمنى» في مكة المكرمة. ويرى الإمام الغزالي، والشاه ولي الله الدهلوي أنها وقعت «بتصرف البصر». ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلاً نتيجة انشقاق فلكي. وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التي سوف يجري وقوعها قرب القيامة. وفيها يقول المفسر الهندي الكبير العلامة شبير أحمد العثماني في تفسيره للقرآن: «لقد كانت معجزة شق القمر مثالاً على أن كل شيء سينشق هكذا عند اقتراب القيامة».

نراها الآن في شكل البحار. وهكذا استطاع الارتفاع، والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض»[1].

ويرى عالم آخر من باحثي الجغرافيا:

«وفي البحار، أيضاً، توجد وديان مثل وديان البر. ولكن وديان البحر أكثر غوراً، وأبعد عمقاً من تلك التي توجد في البر، كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان. ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار. (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر، وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعاً. ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحياناً أنه لو وضعت فيها قمة «إيفرست»، من سلسلة جبال «الهملايا»، والتي يبلغ طولها ٢٩,٠٠٢، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل)»!

ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدل أن توجد في أعالي البحار. ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل، الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار. ولكن قرب هذه الوديان من الجزر، والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال، والخنادق البحرية.. وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة). ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل. وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر، والبحر تترسب في هذه الوديان، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب. ولهذا من الممكن ـ بناءً على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية ـ أن تبرز جبال جديدة في أي وقت، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر، ومما يؤكد ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية.

---

(1) C. R. Von Anglen, Geomovphlogy pp. 26 - 27 - (N.Y., 1948).

وعلى كل حال، لا توجد نظرية ـ في ضوء المعلومات الحالية للإنسان ـ لتقوم بتفسير الوديان البحرية، وهذه المغارات الدائمة البرودة، والتي توجد في ظلام حالك، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة ـ لا زال ذلك كله لغزاً أمام الإنسان، كألغاز البحر الأخرى»[1].

وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ سورة النازعات الآيات 30 - 31.

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية، وهو: «نظرية تباعد القارات» أو انتشارها (Theory of Drifting Continents).

ومغزى هذه النظرية: أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات أجزاءً متصلة، ثم انشقت، وبدأت «تنقذف»، أو تنتشر من تلقاء نفسها، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة.

وقد طرحت هذه النظرية في العالم عام ١٩١٥، لأول مرة، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ «ألفريد واجنر» أنه لو قربت القارات جميعاً، فسوف تتماسك ببعضها، كما يحدث في ألعاب الألغاز التي تسمى Jigsaw Puzzle. ويمكن مشاهدتها في الأشكال الثلاثة، التي تبين هذه النظرية «أنظر ص ١٣١».

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة؛ كأن نجد جبالاً متماثلة عمرها الأرضي (واحد)، وكأن نجد فيها دواب، وأسماكاً ونباتات متماثلة أيضاً! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور

---

(1) The World We Live In, (N.Y., 1955.

رونالدجود (Ronald Good) في كتابه: جغرافية نباتات الزهور (Geography of flowering Plants)إلى أن يقول:

«لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلف قارات العالم إلا إذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كان بعضها متصلاً ببعض في وقت من الأوقات».

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماماً بعد تصديق «الجاذبية الحجرية» لها (Magnetism Fossil)، فإن العلماء اليوم - بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة - يستطيعون تحديد موقع أي بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة في الزمن القديم. وقد أكدت هذه الدراسة في «الجاذبية الأرضية» أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم بالأمكنة التي توجد بها اليوم، وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحدده «نظرية تباعد القارات» وفي هذا الأمر يقول البروفيسور بلاكيت[1]:

«إن دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب أفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة»[2].

لقد ورد في الآية المذكورة آنفاً لفظة «الدحو»، ومعناه تسوية الشيء ونثره، كما يقال: «دحا المطر الحصى عن وجه الأرض»، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية: «Drift» التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة.

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد، وما اكتشف بالأمس القريب - إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام

---

(1) P.M.S. Blacket أستاذ الطبيعة في الكلية الملكية بلندن - المعرب.
(2) أنظر للتفصيل: ريدرز دايجست، عدد يونيه (حزيران) من عام 1961.

صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي، والحال، والمستقبل، على السواء.

ثالثاً ـ علم الأغذية:

إن قائمة الأغذية التي يقررها لنا القرآن الكريم تحرم (الدم)، وكان الإنسان غافلاً عن أهمية هذا التحريم، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنياً على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة. فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» Uric Acid، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاءً. وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات. والمراد من «الذبح» في المصطلح الإسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان، وهي أن نقطع الوريد الرئيسي الذي يوجد في العنق، فقط، وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان؛ لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية، كالدماغ، أو القلب، أو الكبد، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق، وتسري إلى أجزاء الجسم، لو مات الحيوان في الحال ـ على أثر صدمة عنيفة ـ وهكذا يتسمم اللحم كله، نتيجة سريان «حمض البوليك» في أنحائه.

ولقد حرم القرآن لحم (الخنزير)، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئاً عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضاً كثيرة، لأنه يحتوي أكبر كمية من «حمض البوليك» بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض، أما الحيوانات الأخرى، غير الخنزير، فهي تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول. وجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة (الكليتين). ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج «حمض البوليك» إلا بنسبة اثنين في المائة (٢٪)، والكمية الباقية

تصبح جزءاً من لحمه؛ ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل، والذين يأكلون لحمه، هم الآخرون، يشكون من آلام المفاصل، والروماتيزم[1]، وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة[2].

إن الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها من هذا القبيل الذي أشرنا إلى بعضه في الصفحات الماضية، وهي دليل قطعي على أن القرآن صادر عن عقل غير إنساني. وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوءة، التي وردت في القرآن الكريم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ سورة فصلت آية 53.

وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي، وهو يقول:

«كان ذلك يوم أحد، من أيام سنة ١٩٠٩، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز - الأستاذ بجامعة كمبردج - ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل، والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: «ماذا تريد مني؟» فقلت له: «أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة

---

(1) ليكن مفهوماً هنا أنه عند وصف تأثير أي غذاء، لا يمكن إلا بيان تأثيره الذاتي من المنافع والمضار، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحداً لدى كل إنسان يأكله. والسبب في ذلك أن الإنسان لا يأكل بمفرده، وإنما يبتلعه مع مأكولات من أنواع عديدة، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء، أو يزول في بعض الأحايين، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أي شيء إلا بما عرف عنه بصفته الفردية.

(2) لعل العلة الأخرى في تحريم الخنزير أساساً أنه حيوان قذر، يأكل النجاسات، فإلى جانب التحريم القطعي النصي له، يمكن أن نلحظ فيه علة تحريم (الجلالة) التي تأكل النجاسة، فقد نهى الرسول ﷺ عن أكلها أو شرب ألبانها، أنظر: بداية المجتهد لابن رشد ج 2 ص 482.

المطر»، فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له: «وأما الأمر الآخر، فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم ـ مثلك ـ أن يتوجه إلى الكنيسة؟» وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: «عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي». وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت «ليدي جيمس» في تمام الساعة الرابعة، بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره. وعندما شعر بوجودي، سألني: «ماذا كان سؤالك؟»، ودون أن ينتظر ردي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية؛ ونظامها المدهش، وأبعادها، وفواصلها اللا متناهية، وطرقها، ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله، وجلاله. وأما (السير جيمس) فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة. ثم بدأ يقول: «يا عناية الله! عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلٰهي، وعندما أركع أمام الله، وأقول له: «إنك لعظيم!» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون، وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت، يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟!».

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي. وقلت له: «يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي، لقرأتها عليكم» فهز رأسه قائلاً: «بكل سرور»، فقرأت عليه الآية التالية:

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ سورة فاطر آية 27.

فصرخ السير جيمس قائلاً:

ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟ مدهش! وغريب، وعجيب جداً!! إن الأمر الذي كشفت عنه دراسة، ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً:

لقد كان محمد أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش..! وغريب، وعجيب جداً[1]!!.

وهنا ينتهي قول المفكر الإسلامي وحيد الدين خان.

خامساً: إنّ إعجاز القرآن التشريعي إلٰهي في مصدره؛ ولا يجوز مطلقاً أن يقارن بالتشريعات الوضعية. وكذلك يكمن الإعجاز التشريعي للقرآن في كماله، ونجاعه، وفعالية أحكامه، وديموتها حيث لا تقع

(1) مجلة «نقوش» الباكستانية، العدد الخاص بالشخصيات العالمية، شخصية (المرحوم ـ العلامة عناية الله المشرقي ص ١٢٠٨ ـ ٩).
والعلامة «المشرقي» هذا من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية، غير أنه ترك الميدان العلمي، فخاض غمار السياسة نظراً لسوء حالة المسلمين في الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس «حزب الخدام الإلٰهيين» Khaaksar Party وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب إقامة الفرائض الدينية بالقوة، واتخذوا من «المعول» شعاراً لحركتهم. ومن أهم مؤلفات العلامة: «التكملة» (لرسالة الإسلام)!، وقد طلبت منه «لجنة جائزة نوبل» أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية لإعطائه جائزة العلم، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلاً:
«لست في حاجة إلى جائزة لا تعترف لجنتها باللغة الأردية العظيمة!» ـ المعرب.

تحت شواهد التغيير، والتحوير، والإلغاء، وهي ثابتة بثبوت أوجه الإعجاز اللغوي، والعامي للقرآن الكريم.

لقد انطوت الحكمة الإلٰهية في الإعجاز القرآني على كبح جماح الطباع البشرية في اللغة، والفصاحة، والبيان، وفي التشريع، والمعالجة والتكليف.

فالقرآن كلّه معجز في بيانه، وفي حقائقه، وفي غيبيّاته، وفي أخباره، وفي تشريعاته، وفي علومه. شواهده الكمال في التشريع، والفصاحة في البيان، وستظل شواهد الإعجاز القرآني سواء بالفصاحة في البيان، أو المعالجة بالتشريع، ما دامت قوة الخَلْق في الإبداع، والكمال في الحلول في معزل عن قدرة المخلوق.

وما دامت قوة الخلق في الإبداع، وديمومة الكمال في الحلول في متناول القدرة الإلٰهية لا يعجزها شيء في الوجود، وهي تعجز كلّ شيء في الوجود.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ سورة الكهف آية 109.

والقرآن في إعجازه تتحدى آياته أن يأتي العرب بمثله حديثاً.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾. سورة الطور آية 34.

والقرآن في إعجازه تتعدى آياته التحدي بالمثلية البلاغية إلى التحدّي بالمثلية التشريعية. فالقرآن أساس العلوم الإلٰهية في الكتب السماوية كلّها فلم تكن معجزة، وكان هو معجزاً.

أخرج البيهقي عن الحسن قال: «أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة منها التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثمّ أودع علوم الثلاثة الفرقان»[1]

---

(1) السيوطي: الإتقان ـ جـ 2 ص 126.

وتكمن سرائر الإعجاز القرآني في منهاجيته الشاملة في المعالجة والحلول، وفي ديمومة هذا الإعجاز إلى أن يرث الله الأرض، ومَن عليها؛ غايته القصوى هداية البشرية، وسعادتها في الدارين الأولى، والآخرة.

فالقرآن أعجز العرب بياناً، وعلماً، وحقائق، وغيْبيات، وتشريعات، وتكاليف، وفرائض؛ فأدهش العقول، وحيّر العلماء، وأعجز المشرعين، وأقحم العرّافين حتى قطع بلا شك عندهم أنّ القرآن هو من عند الله العزيز الحكيم.

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[3].

وهذا سر إعجاز القرآن؛ فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[4].

سئل الإمام الغزالي عن معنى الآية، فقال: «الاختلاف لفظ مشترك بين معان، وليس المراد نفي اختلاف النّاس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن... وهو مسوق لمعنى واحد هو دعوة الخلق إلى الله تعالى، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين، وكلام الآدميين تتطرق إليه الاختلافات»[5].

وتكمن سرائر الإعجاز القرآني في منهاجيته الشاملة في التشريع

---

(1) سورة الجاثية، آية 2,1.
(2) سورة غافر، آية 1.
(3) سورة الزمر، آية 1.
(4) سورة النساء، آية 82.
(5) السيوطي ـ الإتقان ـ جـ 2 ص 124.

بدءاً بعقيدة التوحيد أساس الإيمان، بغرسها في أذهان النّاس؛ ناقلاً لهم من ظلمات عقيدة التعدد، والوثنيّة، والكفر إلى نور عقيدة التوحيد للإله الواحد الأحد، الخالق الصمد.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾(4).

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع أحكام الفرائض والتكاليف، والعبادات:

ومنها: عبادة الصلاة، والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(5).

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(6).

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾(7).

---

(1) سورة القصص، آية 70.
(2) سورة النحل، آية 2.
(3) سورة المؤمنين، آية 91.
(4) سورة الصمد، آية 1 - 4.
(5) سورة المزمل، آية 20.
(6) سورة البقرة، آية 43.
(7) سورة العنكبوت، آية 45.

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1].

ومنها: عبادة الصوم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[3].

ومنها: عبادة الحج.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[8].

---

(1) سورة البقرة، آية 238.
(2) سورة البقرة، آية 183.
(3) سورة البقرة، آية 185.
(4) سورة الحج، آية 27.
(5) سورة البقرة، آية 196.
(6) سورة البقرة، آية 197.
(7) سورة البقرة، آية 198.
(8) سورة آل عمران، آية 97.

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع عقيدة التوحيد للإله الخالق المعبود.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾[2].

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع عقيدة التوحيد للإله بالعلم والقدرة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[7].

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع عقيدة التوحيد للإله بالانفراد بالألوهية، والوجود.

---

(1) سورة العلق، آية 1 - 5.
(2) سورة الأنعام، آية 102.
(3) سورة الحديد، آية 3.
(4) سورة البقرة، آية 96.
(5) سورة فصلت، آية 54.
(6) سورة الشورى، آية 11.
(7) سورة الأنعام، آية 103.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3].

ومنها عبادة الدعاء، والاستغفار، والتسبيح.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[8].

وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[9].

---

(1) سورة الأنبياء، آية 22.
(2) سورة الإسراء، آية 42.
(3) سورة القصص، آية 88.
(4) سورة البقرة، آية 186.
(5) سورة غافر، آية 60.
(6) سورة محمد، آية 19.
(7) سورة نوح، آية 28.
(8) سورة الإنسان، آية 26.
(9) سورة الأعلى، آية 1.

وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[2].

ومنها عبادة التفكر والتدبر، والنظر، والاتعاظ.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7].

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع أحكام الفرائض في الحدود.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[9].

---

(1) سورة الواقعة، آية 96.
(2) سورة ق، آية 39 - 40.
(3) سورة غافر، آية 82.
(4) سورة ق، آية 6.
(5) سورة الأنعام، آية 50.
(6) سورة الحشر، آية 21.
(7) سورة الأعراف، آية 185.
(8) سورة البقرة، آية 179.
(9) سورة النور، آية 2.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع أحكام الفرائض في المعاملات.

وقال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ ﴾[6].

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع أحكام الفرائض في العلاقات.

قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[7].

---

(1) سورة النور، آية 4.
(2) سورة المائدة، آية 38.
(3) سورة المائدة، آية 33.
(4) سورة البقرة، آية 275.
(5) سورة البقرة، آية 188.
(6) سورة البقرة، آية 282.
(7) سورة النساء، آية 3.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾(2).

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع أحكام الحكم، والسياسة، والشورى.

قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾(4).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(5).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(6).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(7).

وتؤصل شواهد الإعجاز القرآني في التشريع قواعد الأخلاق.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(8).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(9).

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ

---

(1) سورة النساء، آية 22.
(2) سورة البقرة، آية 229.
(3) سورة آل عمران، آية 159.
(4) سورة الشورى، آية 38.
(5) سورة المائدة، آية 44.
(6) سورة المائدة، آية 45.
(7) سورة المائدة، آية 47.
(8) سورة القلم، آية 4.
(9) سورة الحجرات، آية 13.

عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(1).

الشبهة العاشرة:

إن القرآن غير معجز في غيبياته. ودليل ذلك أننا لم نر الله جهرة. ولم يثبت أن هناك غيباً وراء المادة، ونزل منها قرآن، أو علم، أو دين، أو عقيدة، أو شريعة. وما جاء به محمد من غيْبيّات إنما هو من قبيل الاستنباط، والتوقع، فضلاً عما أخذه وتلقاه من أهل الكتاب حيث كتبهم ملأى بمثل تلك الغيبيات.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن الإعجاز الغيبي للقرآن كغيره من أنواع الإعجاز الأخرى كالبياني، والعلمي، لا يتوقف ثبوته على رؤية الله؛ وإنما على رؤية آياته. وآياته العديدة نحس بها، ونراها، ونعيشها في كل لحظات حياتنا. والإيمان بها يقود لا محالة إلى الإيمان بالله، ووجوده دون أن نراه. وهذه حكمة الله في خلقه أن حجب ذاته عنهم، ولكن سخر آياته الدالة عليه لهم. فسواء في الآفاق، أو الأنفس، أو السمٰوات، أو الأرض، أو الليل، أو النهار، أو الدواب، أو الثمر... الخ. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة فصلت آية 53. وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ سورة الذاريات آية 20. وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الذاريات آية 21.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ سورة آل عمران آية 190.

(1) سورة النساء، آية 135.

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة النحل آية 12.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ سورة النحل آية 13. وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة النحل آية 67.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل آية 68 - 69. ولكن هذه شيمة الكفار لا يؤمنون بالله إلاّ إذا رأوا الله جهرة. مصداق قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ سورة النساء آية 153.

وهذه هي شيمة العلم الحديث لا يؤمن إلاّ بالمحسوس. وكأن هذا المحسوس ليس بدال على خالقه. وقد رأوا من آيات ربهم ما رأوا سواء في الآفاق، فغزوا الكون، وعرفوا أسرار الكواكب، ونزلوا على القمر؛ وسواء في الأنفس، فنبغوا في الطب البشري، واطلعوا على أسرار أجهزة هذا الجسم البشري العجيب: كالجهاز العصبي، والهضمي، والدموي، والتنفسي، والتناسلي، والبولي، ولكن هذا التعايش مع هذه الآيات الربانية لم تزدهم إلاّ بعداً عن الإله؛ ولم تزدهم إلاّ نكراناً وجحوداً للاله؛ ولم تزدهم إلاّ كفراً، وجحوداً بحجة أنّهم لم يروا الله جهرة. وكأن مثل هذه الآيات لم تقنعهم، ولم تكفهم للإيمان بوجود الله تعالى. وهكذا ديدن الكفار قديماً، وحديثاً؛ كلما جاءتهم آية من ربهم، قالوا هذا سحر مبين، ثم جحدوا بها. مصداق قول ربنا فيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ سورة النمل آية 13 - 14.

وهكذا ديدنهم قديماً، وحديثاً إذا تتلى عليهم آيات الله في كتابه، آيات الإعجاز الغيبي، والعلمي في قرآنه، قالوا أساطير الأولين. مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنعام آية 25. وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. سورة القلم آية 15، والمطففين آية 13. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ سورة الفرقان آية 5. وهكذا ديدن الكفار حتى من أهل الكتاب كم أتاهم الله من آيات بينات على صدق ما جاء به نبيه، وما جاء به قرآنه، ولكن هل آمنوا؟!! مصداق قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ سورة البقرة آية 211.

ومن هنا، ولذا فإن الله جزى الذين يخشون ربهم بالغيب بالمغفرة والأجر الكبير، والكريم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ سورة الملك آية 12.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ سورة يس آية 11.

ومن هنا كان الإحسان ذروة الإيمان. وهو أن نعبد الله كأننا نراه؛ فإن لم نكن نراه، فإنه يرانا.

ومن هنا، ولذا، فإن الله تعالى جزى الذين يكفرون بآيات الله من بعد ما جاءتهم البينات بالعذاب الشديد، والأليم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ سورة آل عمران آية 4.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سورة آل عمران آية 21.

ومن هنا كان كفرهم بغيبيات القرآن الكريم، وآياته شاهداً على يأسهم من رحمة الله، وأولئك لهم عذاب أليم. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة العنكبوت آية 23.

ثانياً: إنّ سر الإعجاز الغيْبي للقرآن يكمن حقيقة في أنه وقع كما أخبر. وهذا مما ليس في مقدور البشر، ولو كانوا أنبياءَ؛ إلاّ أن يوحى إليهم، فخرج القرآن بإعجازه الغيبي عن تكهنات، وغيبيات الناس، فكان متخطياً لشبهاتهم. فما وقع من غيبيات في الماضي، صدقه التاريخ؛ وما وقع من غيب الحاضر، صدقه ما جاء به الأنبياء، وما كشفت عنه العلوم والتجارب. وما يقع من غيْب المستقبل، يصدقه الزمن. ولو كان القرآن من عند محمد لما صدقت غيبياته جميعها، ولما اتصف وقوعها بالإطلاقية، ولظل صدقها نسبياً.

وهذا يعني أنّ القرآن الكريم أعجز البشر مسلمين، وغير مسلمين بحقائقه، وأخباره الغيبية؛ وبشكل خارق لعاداتهم، وعلومهم؛ وبشكل خارج عن قدراتهم التنبؤية، والإعلامية، والعلمية، ممّا يدل دلالة لا مِراء ولا جدال فيها أنّ هذا القرآن هو كتاب إلٰهي، ومن عند علاّم الغيوب لا يعلمها إلاّ هو مصداق قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام آية 59.

ولقد أكدت حقيقة الإعجاز الغيْبي للبشرية جمعاء صدق نبوّة الحبيب المصطفى ﷺ النبي الأمي، ونافية عنه علم الغيب، أو أن يكون القرآن المشتمل عليه من عنده.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة الشورى آية 52.

وهكذا فإنّ حقيقة الإعجاز الغيْبي الإلهي تناولت شواهد العبودية لله تعالى وحده، فكانت دعوة الأنبياء، والرسل نافين عن أنفسهم صفة العلم بالغيْب ناسبين إيّاه إلى الله تعالى وحده علاّم الغيوب، وكما ورد في القرآن الكريم على لسان النبي عيسى «عليه السلام».

قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ سورة المائدة آية 116.

وقد أفاض قرآننا الكريم في تأصيله لأحَقّية نسبة العلم إلى خالقه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ سورة البقرة آية 33.

والقرآن، وبغيْبياته الماضية، والحاضرة، والمستقبلية، يؤكد أحقية نسبته وبالحق في نزوله إلى الله تعالى صاحب تلك الغيبيات، والمخبر عنها.

قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ سورة الإسراء آية 105.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ سورة الزمر آية 2.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ سورة الزمر آية 41.

ويكمن سر الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم في أنّه وقع كما أخبر. فما وقع في الماضي صدّقه التاريخ، وما وقع من غيب الحاضر صدّقه ما جاء به الأنبياء، وما كشفت عنه التجارب، والعلوم، وما يقع من غيب المستقبل يصدقة الزمن.

وتحقيقاً للفائدة رأينا مناقشة موضوع الإعجاز الغيْبي للقرآن ضمن ثلاث حقائق.

الحقيقة الأولى: الإعجاز الغيْبي الماضي.

الحقيقة الثانية: الإعجاز الغيْبي الحاضر.

الحقيقة الثالثة: الإعجاز الغيبي المستقبلي.

الحقيقة الأولى:

الإعجاز الغيْبي الماضي:

ويتمثل في ما أخبر عنه القرآن الكريم من حقائق، وقصص، وأخبار غيْبيّة حصلت في الماضي، فكانت غائبة عن الرسول «ﷺ»، وصحابته.

وقد تناول القرآن الكريم في إعجازه الغيْبي سرد الأخبار، والقصص عن الأنبياء، والرسل، والسابقين، ومع أقوامهم، حيث يقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ سورة طه آية 99.

ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ هود آية 100.

وقد تجلّت حكمة الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم، وفي سوره لأخبار الأنبياء، والرسل السابقين في تثبيت فؤاد الرسول «ﷺ» ومؤازرته في دعوته، ونشر رسالته كما هو في قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة هود آية 120.

وقد تجلّت تلك الحكمة من سرد أخبار، وقصص أهل القرى السّابقين في ضرورة الاتعاظ والاعتبار ممّا حصلَ معهم، وبحيث يكون مصيرهم هو نفس مصير من يكذّب الرسول «ﷺ». قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا

﴿كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة الأعراف آية 101.

ومن غيبيات الرسل، والأنبياء السابقين التي تحدث عنها القرآن الكريم:

1 - غيبيّة قصة النبي نوح «عليه السلام» حيث قال تعالى فيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سورة هود آية 49.

2 - غيبيّة الأنبياء والرسل ممّن جاءوا بعد نوح، وهم: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، وحيث قال تعالى فيها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ سورة هود آية 100.

3 - غيبيّة قصة النبي يوسف «عليه السلام» حيث قال الله تعالى فيها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يوسف 102.

4 - غيبيّة النبي موسى «عليه السلام» حيث قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ سورة القصص آية 44.

5 - غيبيّة مريم أم المسيح عيسى «عليه السلام» حيث قال تعالى فيها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ سورة آل عمران آية 44.

الحقيقة الثانية:

الإعجاز الغيبي الحاضر:

ويتمثل في ما أخبر عنه القرآن الكريم في أخبار، وحقائق، وصفات الله تعالى، والملائكة، والجن، والإنس، والقيامة، والحساب،

والجنّة، والنّار، والثواب، والعذاب، ونحو ذلك ممّا لا سبيل للرسول «ﷺ» أو صحابته العلم به، أو رؤيته، وأمثلة هذا كثيرة جداً في القرآن الكريم.

ومن غيْب الحاضر أيضاً ما أخبر القرآن به عن المنافقين، والذين افتضح أمرهم، وفي عهد التنزيل القرآني، ومنهم: الأخنس بن شُريْق الثقفي الّذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ سورة البقرة آية 204 - 206.

ومن هؤلاء المنافقين أصحاب مسجد ضرار، وكانوا اثني عشر رجلاً، وهم: حزام بن خالد، ولبه بن حاطب، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأرعد، وعباد بن حنيف، وحارثة، وجارية، - إبنا مجمع - وزيد، ونبتل بن الحارث، ولحاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت. وهؤلاء الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ سورة التوبة آية 107.

الحقيقة الثالثة:

الإعجاز الغيْبي المستقبلي:

ويتمثل في ما أخبر عنه القرآن الكريم من حقائق، وأمور ستقع فيما بعد مستقبلاً؛ وهي غامضة على الرسول «ﷺ»، وعلى صحابته؛ ومنها ما وقع فعلاً في عهده، ومنها ما يقع على مدار الزمن، وإلى قيام الساعة.

ومن أمثلة ما وقع من غيْبيّات مستقبلية في عهده «ﷺ»:

1 - غيْبيّة انتصار الروم على الفرس في بضع سنين - والذي قال الله

تعالى فيه: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سورة الروم آية 1 - 5.

أخرج الواحدي عن المفسّرين قالوا: «بَعَثَ كسرى جيشاً إلى الروم، واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران، فسار إلى الروم بأهل فارس، وظهر عليهم، فقتلهم، وخرّب ديارهم، وقطع زيتونهم، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يُحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب ـ فغلب فارس الروم، وبلغ ذلك النبي «ﷺ»، وأصحابه بمكة، فشق ذلك عليهم، وكان النبي «ﷺ» يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكة، وَشَمَتُوا، فلقوا أصحاب النبي «ﷺ» فقالوا: إنّكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميّون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنّكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ . . .﴾ سورة الروم إلى آخر الأيات.

وفعلاً صدق إخبار الله تعالى، وقاتل الروم أهل الكتاب المجوس أهل الفرس مرة أخرى، وانتصروا عليهم، وكما أخبر القرآن، وكان ذلك في بضع سنين حيث تعني كلمة بضع من ثلاث إلى تسع. وحدّد بعض المفسّرين أنّ انتصار الروم على الفرس كان في السنة التاسعة فعلاً.

وفرح المؤمنون بهذا النصر وبنصرهم في غزوة بدر حيث تمّ في نفس الفترة.

2 ـ غيْبيّة دخول المسلمين مكة المكرّمة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين. وقد أراها الله رسوله «ﷺ» في منامه، وتحققت فعلاً في العام الّذي بعد عام الحديبية والتي قال الله فيها: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا

﴿تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ سورة الفتح آية 27.

أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أرى النبي «ﷺ» وهو بالحديبية أنّه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم، ومقصرين؛ فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟!! فنزلت: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ الآية.

3 ـ غيْبيّة انتصار المسلمين في غزوة بدر، وانهزام جمع المشركين. والذي قال تعالى فيه ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ سورة القمر آية 45.

روى ابن أبي حاتم، وابن مردويه: «أنّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ جعل يقول حيث نزلت هذه الآية: «أيّ جمع هذا؟!! فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ مصلتاً سيفه يقولها». وفعلاً فقد تحققت هذه النبوءة في المدينة بعد الهجرة بسنتين في حين أنّ نزول الآية كان في مكة حيث سورة القمر مكيّة؛ فكان الإخبار القرآني عن انتصار المسلمين في غزوة بدر مسبقاً، وهم ضعفاء في مكة.

4 ـ غيْبيّة نزول العذاب، والقحط، والجهد على كفار مكة في شكل الدخان الأسود يعمي أبصارهم، والذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ الدخان آية 10 - 16.

أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: «إنّ قريْشاً لمّا استعصوا على الرسول «ﷺ» دعا عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأُتِيَ

رسول الله «ﷺ» فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنّها قد هلكت؛ فاستسقى، فسقوا، فنزلت ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾. فلمّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. يعني يوم بدر.

5 ـ غيْبيّة إذلال، وتشتيت، وعذاب اليهود إلى قيام الساعة، والذي نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ آل عمران آية 112.

وهكذا تحققت، ولا تزال هذه الغيبية تتحقق، وإلى قيام الساعة؛ حيث أمضى اليهود أجيالهم، وأزمانهم مشتتين أذلاء في جميع أقطار العالم محتقَرين من قبل شعوب العالم مُقَطعين ضربت عليهم آيات الذلّة، ومعالم المسكنة؛ وهذه سنة الله تعالى فيهم، وهذه نُبوءته بهم مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة الأعراف آية 167.

وهكذا تحققت نبوءة هذه الغيبية بعذاب بني إسرائيل عدّة مرّات، كان أولاها قتل وسبي نَبوخَذْ نَصّر البابلي لهم، وتخريبه بيت المقدس عليهم، والّذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ سورة الإسراء آية 5.

ومنها أيضاً قتلهم، وسبيهم من قبل هريديان الروماني، وأيضاً من قبل الرسول «ﷺ»، ومن قبل كثير من حكام الكفر، والشرك كأمثال هتلر زعيم ألمانيا النازية في العصر الحالي. وبإذن الله يكون القضاء الأخير عليهم من قبل المسلمين، وبعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض وتطهيرها من رجس الكفر، وقتل الخنزير، ودلق الخمر، وقتل أعور الدجال، بعدها بإذن الله سيقتلون على، وبأيدي المسلمين قضاءً مبرماً.

وما احتلالهم لفلسطين، وتدنيسهم لبيت المقدس هذه الأيّام إلاّ شواهد على تجمعهم ثانية في بلد الأنبياء تنفيذاً لوعد الله فيهم، وقتلهم، وليس لبقائهم كما يدّعون إلى قيام الساعة. وما جرائمهم، وقتلهم للمسلمين، وإخراجهم من بلدهم فلسطين، وتدنيسهم بيت المقدس عند احتلالهم له سنة 1967م، وقولهم: «محمد مات خلّف بنات» ما هذه عوامل بقاء، وما هذه شواهد حبهم للسلام، وإنْ هي إلاّ امتداد لشذوذهم، ومنكراتهم التي تكلّم القرآن عنها، لتكون بإذن الله سبب هلاكهم على أيدي المسلمين هلاكاً تامّاً.

ثالثاً ـ إنّ صدق وقوع تنبؤات القرآن الغيبية في هذا العالم المادي، وفي هذا الواقع المحسوس، ينبىء قطعاً بوجود غيب وراء المادة، وأن هناك إلٰهاً عالماً مدبراً لمخلوقاته، وعالماً لكل صغيرة، وكبيرة في هذا الكوْن لا يغيب عنه شيء.

قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾. سورة لقمان آية 16.

وقال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ سورة سبأ الآيات 2 - 3.

ولعل أشد خطأ وقع فيه أصحاب هذه الشبهة أنهم شبهوا تنبؤات البشر غير الصادقة، وغير المتحققة بتنبؤات القرآن الغيبية الصادقة والمتحققة دوماً وأبداً، وما زالت تتحقق وإلى أبد الآبدين.

ولعل الأنكى من ذلك أنهم نسبوا مثل هذه التنبؤات إلى أناس من

البشر غير عاديين، ومعروفين بالصدق، والأمانة، والاستقامة كالرسول محمد «ﷺ»، والذي أبت عليه نفسه - وهم يعرفون ذلك - أن يكذب، أو أن يدعي العلم، أو الغيب سواء قبل البعثة، أو بعدها.

وحيث صدق فيه قول ربه ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الأنعام آية 50.

وقول ربه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ الأعراف آية 188.

روى البخاري: جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بن معوذ الأنصارية، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال «ﷺ»: «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين».

ولعل أفضل ما زكّى به الله تعالى نبيّه بالصدق أنه نفى عنه أي ادعاء فيه بعلم الغيب حيث يقول فيه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الأنعام آية 50.

ولعل من المفيد في هذا المقام أن نستشهد بما يقوله المفكر الإسلامي وحيد الدين خان في كتابه «الإسلام يتحدى» فهو يقول[1]:

«إن عظمة القرآن الكريم تتجلى في تنبؤاته المختلفة، التي ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة.

إن عدداً كبيراً من أذكياء الناس، ومن العباقرة، قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم. ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقاً، بل جاء يكذبها بكل قسوة، ولقد تحفز الفرص المواتية، والأحوال المساعدة، والكفاءات العالية، وكثرة الأعوان والأنصار،

(1) وحيد الدين خان. الإسلام يتحدى. ص ١١١ - ١٢٠ حرفياً، ودون تصرف.

والنجاح الخارق في البداية للكثيرين ـ وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية ـ أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى، ويكذبها دائماً. والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جاء في القرآن من التنبؤات في حين أنها جميعاً جاءت في أحوال غير مواتية، أن هذه التنبؤات ـ وقد وقعت فعلاً على ما يحدثنا التاريخ ـ تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها. وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية، فلن نستطيع إدراك حقائقها، إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشري.

* * *

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش في عصره، وقد دلت فتوحاته الأولى على أنّه سوف يكون نداً لقيصر، والإسكندر المقدوني. وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون، فأصبح يتوهم أنّه هو مالك القدر. وازداد هذا الشعور لديه، حتى أنّه ترك مستشاريه، وادعى أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض. ولكنا جميعاً نعرف النهاية التي كتبت له في لوح القدر.

سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونية، سنة ١٨١٥، مع جحفله العظيم، ليقضي على أعدائه، وهم في الطريق. ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق «دوق ولنجتون» شر هزيمة بجيش نابليون الجبار، في «ووترلو» بأراضي بلجيكا. وكان «الدوق» يقود جنود انجلترا، وألمانيا، وهولندا. ولما يئس نابليون، وأيقن من مصيره المحتوم، فر هارباً من القيادة الفرنسية متوجهاً إلى أمريكا. ولم يكد يصل إلى الشاطىء حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية، وانتهى به القدر إلى أن أرسل إلى جزيرة غير معمورة في جنوب الأطلنطي، هي جزيرة «سانت هيلينا». ومات القائد العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس، والشقاء، والوحدة، في ٥ مايو سنة ١٨٢١.

والبيان الشيوعي المعروف، الذي صدر سنة ١٨٤٨، تنبأ بأن أول

البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا)، ولكن ألمانيا، على الرغم من مضي مائة وعشرين عاماً من هذه النبوءة، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة..

ولقد كتب كارل ماركس في مايو سنة ١٨٤٩ قائلاً: «إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس!» ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالي باريس!.

وقد قال أدولف هتلر في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونيخ في ٤ من مارس سنة ١٩٣١:

«إنني سائر في طريقي، واثق تمام الثقة بأن الغلبة، والنصر قد كتبا لي[1]». والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو الهزيمة، والانتحار.

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة في «الهند».. فقد أعلن زعيم الشيوعيين: س. ب. جوشي، في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الهندي، الذي انعقد في (مدوراي) بجنوب الهند، في يناير سنة ١٩٥٤، بأن الحزب الشيوعي سوف يحكم، مستقلاً بنفسه، في الانتخابات العامة القادمة، في ولايات ترانكو ـ كوتشين (كيرالا)، مدراس، وآندهرا، والبنغال الغربية، وآسام. وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية أخرى) في هذه المدة الطويلة. ولم يستطع الحزب الشيوعي تأليف وزارة مستقلة في أية ولاية من ولايات الهند[2].

---

(1) A study Of History Abridgment p 447.

(2) تمكن الحزب الشيوعي من تأليف وزارة ائتلافية في كوالا في الانتخابات العامة لسنة ١٩٦١، كما تمكنت «الجبهة المتحدة» في البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية في الانتخابات التكميلية التي أجريت في الولاية في ١٩٦٩، وكان الشيوعيون يتمتعون بالأغلبية في الجبهة المتحدة.

وسط هذه الجحافل من المتنبئين، والنبوءات، لا نجد غير «القرآن» الذي تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً. وهذا الواقع يكفي في ذاته لإثبات أن هـذا الكـلام صـادر مـن عقـل وراء الطبيعـة يمسـك بـزمـام الأحـوال والحوادث، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد.

وسوف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التي أدلى بها رسول الإسـلام، وتحققـت بكـاملهـا. والشهـادتـان اللتـان سنـذكـرهمـا، تتعلـق إحداهما بغلبة الإسلام نفسه، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة أخرى..

أ ـ عندما بدأ النبي «ﷺ» دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده، وكان على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد:

أولاها: القبائل المشركة، بعد أن أصبحوا أعداء حياته.

وثانيتها: الرأسمالية اليهودية.

وثالثتها: أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم، من داخل معاقلهم.

وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات: قوة المشركين، والرأسمالية اليهودية، والطابور الخامس. وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغي وقفات رائعة لا مثيل لها، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين، والأنصار، وجماعة أسلمت من العبيد. ومما لا شك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم، وذويهم، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبي.

وقد سارت هذه الحركة بمكة قدماً، تكافح وتناضل، حتى أصبحت الأمور غاية في السوء، واضطر النبي، وأصحابه أن يهاجروا إلى جهات مختلفة، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة، وهم في أشد حالات العوز، والفقر، بعدما تركوا ثرواتهم في مكة ـ موطنهم الأصلي ـ. ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوي، حيث لم تكن لديهم بيوت، وكانوا ينامون على «صفة» في فناء

المسجد النبوي، فأطلق عليهم: «أهل الصُفَّة». ومما روي في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام، الذين عاشوا على «الصُفة» بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابي.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه، مخافة أن تبدو عورته».

وعنه «أبي هريرة» رضي الله عنه أنه قال: «لقد رأيتني أصرع بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها، فيقول الناس: إنه مجنون، وما بي جنون، ما بي إلاّ الجوع!».

وفي هذه الحالة البائسة، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم، مكشوفين في عراء المدينة المنورة، خائفين، يترقبون الأعداء من كل جانب، مخافة أن يتخطفوهم في أي وقت، في هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ سورة المجادلة آية 21.

وقال أيضاً:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ سورة الصف آية 8 - 9.

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم، فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول، ولا الأسلحة، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة، والعدة، والعتاد.

وليس بوسعنا تفسير هذا التنبؤات في ضوء المصطلحات المادية، إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه، وإنما كان خليفة عن الله، فلو أنه كان إنساناً عادياً لاستحال كل

الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ. وكما قال البروفيسور (ستوبارت): «إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنساني بأكمله يقارب شخصية محمد».

وهو يضيف قائلاً:

«ألا.. ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية، فلن نجد فيه اسماً منيراً هذا النور، وواضحاً هذا الوضوح، غير اسم النبي العربي»[1].

إن هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه «ﷺ» مرسلاً من لدن الحق تبارك وتعالى. وقد اعترف السير وليام ميور، ذلك العدو اللدود للإسلام، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة، حين قال:

«لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه في التراب، وكان يثق بانتصاره ليل نهار، مع حفنة من الأنصار، والأعوان؛ رغم أنه كان مكشوفاً عسكرياً من كل ناحية؛ وبعبارة أخرى: كان يعيش في عرين الأسد، ولكنه أظهر عزيمة جبارة، لا نجد لها نظيراً غير ما ذكر في الإنجيل، من أن نبياً قال لله تعالى: «لم يبق من قومي إلا أنا»[2].

ب ـ أما النبوءة الثانية التي وردت في القرآن، فهي الإخبار بغلبة الروم على الفرس. وقد جاء في أول سورة الروم قوله تعالى:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ سورة الروم آية 1- 4

كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرقي الجزيرة العربية، على

(1) Islam and Its Founder, p. 228.

(2) Life of Mohammad, p. 228.ـ وربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن حكاية على لسان موسى عليه السلام: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ ـ المائدة/ ٢٥.

الساحل الآخر للخليج العربي، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربي الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود. وقد سميت الأولى ـ أيضاً ـ بالامبراطورية الساسانية، والأخرى بالبيزنطية. وكانت حدود الامبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة، في شمال الجزيرة العربية. وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر.

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية ـ كما يرى المؤرخ «جبن» ـ في القرن الثاني بعد الميلاد، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية في العالم.

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى[1]. وليس يغني كتاب من الكتب التي ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ «أدوارد جبن»؛ «تاريخ سقوط وانحدار الامبراطورية الرومانية»[2] أكثرها تفصيلاً وثقة، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا.

* * *

اعتنق الملك «قسطنطين» الدين المسيحي عام ٣٢٥ م، وجعله ديانة البلاد الرسمية، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم. وعلى الجانب الآخر، رفض الفرس ـ عباد الشمس ـ هذه الدعوة.

وكان الملك الذي تولى زمام الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي هو «موريس»، وكان ملكاً غافلاً عن شؤون البلاد والسياسية، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده، بقيادة «فوكاس Phocas. وأصبح فوكاس ملك الروم، بعد نجاح الثورة، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية، وأرسل سفيراً له إلى إمبراطور إيران «كسرى أبرويز الثاني»، وهو ابن «أنوشيروان» العادل.

---

(1) Western Civilization, p. 210.

(2) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, by Edward Gibbon

وكان «كسرى» هذا مخلصاً للملك «موريس»، إذ كان قد لجأ إليه عام ٥٩٠ ـ ٥٩١م، بسبب مؤامرة داخلية في الامبراطورية الفارسية، وقد عاونه «موريس» بجنوده لاستعادة العرش. ومما يروى أيضاً أن «كسرى» تزوج بنت «موريس»، أثناء إقامته ببلاد الروم، ولذلك كان يدعوه «بالأب».

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم، غضب غضباً شديداً، وأمر بسجن السفير الرومي، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة.

وأغار «كسرى أبرويز» على بلاد الروم، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام. ولم يتمكن «فوكاس» من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي «أنطاكية، والقدس»، فاتسعت حدود الامبراطورية الفارسية فجأة إلى وادي النيل. وكانت بعض الفرق المسيحية ـ كالنسطورية، واليعقوبية ـ حاقدة على النظام الجديد في روما، فناصرت الفاتحين الجدد، وتبعها اليهود، مما سهل غلبة الفرس.

* * *

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الافريقية يناشدونه إنقاذ الإمبراطورية، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب «هرقل»، فسار بجيشه في الطريق البحرية، بسرية تامة.. حتى إن «فوكاس» لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل وهي تقترب من السواحل الرومانية، واستطاع هرقل ـ دون مقاومة تذكر ـ أن يستولي على الامبراطورية، وقتل «فوكاس» الخائن.

بيد أن هرقل لم يتمكنْ ـ برغم استيلائه على الإمبراطورية، وقتله «فوكاس» من إيقاف طوفان الفرس.. فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة، وجنوبيها. لم يعد العلم الصليبي يرفرف على العراق، والشام، وفلسطين، ومصر، وآسيا الصغرى، بل علتها راية الفرس: «درفش كاوياني»!! وتقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم القحط،

وفشت الأمراض الوبائية، ولم يبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق. وكان الشعب في العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة، ودخولهم فيها، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة، وتحولت معاهد العلم، والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة.

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية.. فبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسالمين. وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار، واغتصبوا الصليب المقدس، وأرسلوه إلى «المدائن».

ويقول المؤرخ «جبن» في المجلد الخامس من كتابه:

«ولو كانت نوايا «كسرى» طيبة في حقيقة الأمر، لكان اصطلح مع الروم، بعد قتلهم «فوكاس»، ولاستقبل «هرقل» كخير صديق أخذ بثأر حليفه، وصاحب نعمته «موريس»، بأحسن طريقة؛ ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب»[1].

ويمكن قياس الهوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه «كسرى» إلى «هرقل» من بيت المقدس، قائلاً:

«من لدن الإله كسرى، الذي هو أكبر الآلهة، وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغافل هرقل: إنك تقول: إنك تثق في إلهك! فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يدي؟!».

واستبد اليأس، والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة، وقرر العودة إلى قصره الواقع في «قرطاجنة» على الساحل الإفريقي.. فلم يعد يهمه أن يدافع عن الإمبراطورية، بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه. وأرسلت

---

(1) كتاب جبن/ مجلد/ ٥ ص ٧٤.

السفن الملكية إلى البحر، وخرج «هرقل» في طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختياري.

وفي هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح، ونجح في إقناع «هرقل» بالبقاء، وذهب «هرقل» مع الأسقف إلى قربان «سانت صوفيا» يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذي اختاره الله له.

وبإشارة من الجنرال الإيراني سين (Sain) أرسل «هرقل» سفيراً إلى «كسرى» طالباً منه الصلح، ولكن لم يكد القاصد الرومي يصل إلى القصر، حتى صاح «كسرى» في غضب شديد: «لا أريد هذا القاصد! وإنما أريد «هرقل» مكبلاً بالأغلال تحت عرشي، ولن أصالح «الرومي» حتى يهجر إلٰهه، الصليبي، ويعبد الشمس ألهتنا»[1].

وبعد مضي ستة أعوام على الحرب، رضي الإمبراطور الفارسي أن يصالح هرقل على شروط معينة هي أن يدفع ملك الروم «ألف تالنت[2] من الذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب[3] من الحرير، وألف جواد، وألف فتاة عذارء».

ويصف «جبن» هذه الشروط بأنها «مخزية» دون شك، وكان من الممكن أن يقبلها «هرقل»، لولا المدة القصيرة التي أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة، والمحدودة الأرجاء، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثورة كمحاولة أخيرة، ضد أعدائه.

* * *

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية، والرومية هذه الأحداث،

---

(1) (ص ـ ٧٦ ـ ج ٥).
(2) Talent، ميزان يوناني قديم، حوالي ستة وعشرين كيلو جراماً، لدى الأثينيين، وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التي تزنه.
(3) الثوب: ثلاثون متراً من القماش تقريباً.

فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية ـ وهي «مكة» المكرمة ـ مشكلة مماثلة: كان الفرس مجوساً من عباد الشمس والنار، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح، وبالوحي، وبالرسالة، وبالله تعالى. وكان المسلمون مع الروم ـ نفسياً ـ يرجون غلبهم على الكفار، والمشركين، كما كان كفار مكة مع الفرس؛ لكونهم من عباد المظاهر المادية. وأصبح الصراع بين الفرس، والروم رمزاً خارجياً للصراع الذي كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك في «مكة». وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي هي نفس مآل صراعهما الداخلي. فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م، واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين، قائلين: لقد غلب إخواننا على إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم، إذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد!! وكان المسملون بمكة في أضعف، وأسوأ أحوالهم المادية، وفي تلك الحالة البائسة، صدرت كلمات من لسان الرسول «ﷺ»:

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الروم: 1 - 6.

وتعليقاً على هذه النبوءة يكتب «جبن»:

«في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً؛ لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة «هرقل» كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية»(1).

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن

(1) ص ـ ٧٤ المجلد ٥.

على كل الوسائل: والأحوال، ومن بيده قلوب الناس، وأقدارهم؛ ولم يكد جبريل يبشر النبي بهذه البشرى، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية!!.

ويرويه «جبن» على النحو التالي:

«إنها من أبرز البطولات التاريخية، تلك التي نراها في «هرقل». فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل، والتمتع بالملذات، وعبادة الأوهام في السنين الأولى، والأخيرة من حكومته؛ كان يبدو كما لو كان متفرجاً أبله، استسلم لمصائب شعبه؛ ولكن الضباب الذي يسود السماء ساعتي الصباح، والمساء، يغيب حيناً من الوقت لشدة شمس الظهيرة، وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول «أرقاديوس[1] القصور» إلى «قيصر ميدان الحرب[2]» فجأة، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس. وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة؛ تبياناً لأسرار هذه اليقظة، والنوم. وبعد هذه القرون التي مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية، فقد انقطع عن كافة الملذات، حتى أنه هجر ابنة أخته «مارتينا» ـ التي تزوجها لشدة هيامه بها، رغم أنها كانت محرمة عليه»[3].

* * *

هرقل ـ ذلك الغافل الفاقد العزيمة ـ وضع خطة عظيمة لقهر الفرس، وبدأ في تجهيز العدة، والعتاد؛ ولكن رغم ذلك كله، عندما خرج هرقل مع جنوده، بدا لكثيرين من سكان «القسطنطينية» أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

---

(1) أرقاديوس (٣٧٧ ـ ٤٠٨ م)، أحد أباطرة الرومان، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول، تولى العرش سنة ٣٩٥ م. واشتهر بالجبن ـ المراجع.

(2) قيصر أو «سيراز» (١٤٤ ـ ١٠١ ق. م.) قائد وسياسي روسي عظيم.

(3) ص ـ ٧٦ ـ ٧٧، المجلد الخامس.

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف. وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى «أرمينيا»، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً في نفس الميدان الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس؛ لما زحف على أراضي مصر والشام. ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة، فلاذوا بالفرار.

وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً في «آسيا الصغرى»، ولكن «هرقل» فاجأهم بأساطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمة فادحة، بعد إحراز هذا النصر الكبير عاد «هرقل» إلى عاصمته «القسطنطينية» عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars)، واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم.

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاث حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥ م. واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسود، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية، نتيجة هذه الحروب، وأصبح «هرقل» في مركز يسمح له بالتوغل في قلب الإمبراطورية الفارسية، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية ـ تلك الحرب التي خاضها الفريقان في «نينوا» على ضفاف «دجلة» في ديسمبر عام ٦٢٧ م.

* * *

ولما لم يستطع «كسرى أبرويز» مقاومة سيل الروم، حاول الفرار من قصره الحبيب «دستكرد»، ولكن ثورة داخلية نشبت في الإمبراطورية، واعتقله ابنه «شيرويه»، وزج به في سجن داخل القصر الملكي، حيث لقي حتفه، لسوء الأحوال في اليوم الخامس من اعتقاله، وقد قتل ابنه «شيرويه» ثماني عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه.

ولكن «شيرويه» هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، حيث قتله أحد أشقائه، وهكذا بدأ القتال داخل البيت

الملكي، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام. ولم يكن من الممكن، أو المعقول في هذه الأحوال السيئة، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم.. فأرسل «قباد الثاني» ابن كسرى أبرويز الثاني يرجو الصلح، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، كما أعاد الصليب المقدس؛ ورجع «هرقل» إلى عاصمته «القسطنطينية» في مارس عام ٦٢٨ م، في احتفال رائع، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير، خارج العاصمة، وفي أيديهم المشاعل، وأغصان الزيتون[1]!!

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم في مدته المقررة، أي في أقل من عشر سنين، كما هو المراد في لغة العرب من كلمة: «بضع»!.

وقد أبدى «جبن» حيرته، وإعجابه بهذه النبوءة؛ ولكنه كي يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبي «ﷺ» إلى «كسرى».

يقول جبن:

«وعندما أتم الإمبراطور الفارسي نصره على الروم، وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر من «مكة»، دعاه إلى الإيمان بمحمد، رسول الله، ولكنه رفض هذه الدعوة، ومزق الرسالة. وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب، قال: سوف يمزق الله دولته تمزيقاً، وسوف يقضي على قوته».

«ومحمد، الذي جلس في الشرق على حاشية الإمبراطوريتين العظيمتين، طار فرحاً، مما سمع عن تصارع الإمبراطوريتين وقتالهما؛ وجرؤ في إبّان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين. وفي ذلك الوقت، حين ساق الرجل هذه

---

(1) جبن: ص ـ ٩٤، ج ـ ٥.

النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً؛ لأن الأعوام الإثني عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشي بنهاية الإمبرلطورية الرومانية»[1].

بيد أن جميع مؤرخي الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التي وجهها النبي إلى «كسرى أبرويز»؛ لأن تلك الرسالة إنما أرسلت في العام السابع من الهجرة، بعد صلح الحديبية، أي عام ٦٢٨ م، في حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام ٦١٦م، أي قبل الهجرة بوقت طويل، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثني عشر عاما[2].

(1) المرجع السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤.
(2) Encyclopaedia of Religion and Ethics:

الباب الحادي عشر

شبهات حول تطبيق القرآن وتفنيدها

الشبهة الأولى:

فصل القرآن عن الحياة. أي فصل الدين عن الحياة.

فالعلمانيون ينادون بفصل القرآن عن شؤون الأفراد الحياتية، وترك معالجتها للقوانين الوضعية. وهم يرون أن يحصر الاهتمام بالقرآن في الصلاة، والتلاوة في المساجد فقط. وهم يقيسون ذلك على التوراة والإنجيل حيث فُصلت الكنيسة عن حياة الأفراد الدنيوية. ودليلهم: أن تعقد علائق الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية لا تسمح، ولا تتسع لتدخل الكتب السماوية حيث أضحت قاصرة في معالجتها؛ وأصبحت الضرورة قصوى لأن تحصر مهمات الديانات في تأدية الشعائر الدينية في الكنائس، والأديرة، والمساجد، وأن يترك للمبادىء العلمانية، والقوانين، والأنظمة الوضعية معالجة شؤون الحياة للأفراد، والدول تأصيلاً لقول المسيح «عليه السلام»: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

تفنيد هذه الشبهة:

إنه لمن نافلة القول التغاضي عن مفارقات، وتناقضات، ومغالطات هذه الشبهة، والتي لا تستقيم لأدنى، وأقل الدلائل في تفنيدها، ونقضها والرد على أصحابها، ومن خلال عدة أمور نختار منها ستة تدور كلها حول فكرة ضرورة عدم جواز مقارنة القرآن الكريم بالكتب السماوية الأخرى.

أولاً: إن القرآن الكريم ناسخ للكتب السماوية الأخرى:

فهو ناسخ، وثابت. وهي منسوخة، وغير ثابتة، وقابلة للتغيير، والتحوير. والقرآن الكريم بثبوته، ونسخه لغيره من الكتب السماوية يحمل في دلالاته ومفاهيمه معاني الكمال، والسمو، والشمولية، والفعالية في المعالجة لأمور الدين، والدنيا معاً؛ وبالتالي من الخطأ الفادح مقارنته بالكتب السماوية الأخرى، وحصره في بعض الأمور دون أخرى أو حصره في المساجد، أو قصره على التلاوة، والتعبد. وقد حملت الكتب السماوية، وعلى رأسها التوراة، والإنجيل شواهد البشرى للقرآن، والمنزل عليه «محمد» «ﷺ»؛ والكتاب يقرأ من عنوانه. فكلمة الإنجيل تعني البشرى باللغة الإغريقية القديمة. وقد شاءت العناية الإلٰهية أن تبقى هذه البشرى سليمة من الطمس باكتشاف إنجيل «برنابا» أصدق الأناجيل على الإطلاق. وفيه «وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله»[1]. ولأجل صدقه صودر هذا الإنجيل، وأتلف عدة مرات، ولكن دون جدوى. وشاء القدر أن يظهره على يد راهب إيطالي لاتيني هو «فرامينو» والذي عثر على رسائل «الابريانوس» حيث يذكر إنجيل برنابا من بينها. وقد وجده «فرامينو» في مكتبة البابا «سكتش الخامس»، ومكتوب باللغة الإيطالية، وعلى الورق الإيطالي المعروف بالآثار المائية فيه؛ مما يدل على صحته،

(1) إنجيل برنابا. ص 318.

وصدق هذه النسخة الإيطالية. وفي إسبانيا عثر على نسخة من إنجيل برنابا الشاهد على، والذاكر لنبوة الرسول محمد «ﷺ» في أوائل القرن الثامن عشر. وقد أعلن القس «تشارلز فرانسيس بوتو» في كتابه: «السنون المفقودة من عيسى تكشف» فيقول: «إن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول»[1].

وفي فلسطين، وبالقرب من البحر الميت عثر على مخطوطات ثمينة في هذا القرن الذي نعيش فيه، والتي قال عنها الدكتور: «د. ف البرايت». وهو عمدة في علم الآثار: «إنه لا يوجد أدنى شك في العالم حول صحة هذه المخطوطات، وسوف تعمل ثورة في فكرتنا عن المسيحية»[2]. وقال عنها أيضاً في واشنطن القس: أ. باول ديفز رئيس كنيسة كل القديسين بواشنطن في كتابه: «مخطوطات البحر الميت»: «إن مخطوطات البحر الميت ـ وهي من أعظم الاكتشافات أهمية منذ قرون عديدة ـ قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل» وقد جاء في هذه المخطوطات. «إنّ عيسى كان مسيا للمسيحيين، وإن هناك مسيا آخر. وكلمة مسيا بالأرامية تعني رسولاً»[3].

وفي باريس عثر على نسخة من إنجيل برنابا ترجمه إلى العربية من ترجمته الإنجليزية دكتور خليل سعادة. وقد طبعه الشيخ محمد رشيد رضا على نفقته. وقد جاء في آخر مقدمته ما يلي: «وَمَنْ لاحظ أن بعض القسيسين يجعلون العمدة في إثباب الأناجيل الأربعة ما فيها من التعاليم الأدبية العالية ثم قرأ إنجيل برنابا، يظهر له مكانه العالي في تعاليمه

---

(1) عبد المجيد عزيز الزنداني. كتاب: توحيد الخالق. جـ 1 ص 96-99. وجـ 3 ص 89 سنة 1977 م.
(2) عبد المجيد عزيز الزنداني. كتاب: توحيد الخالق. جـ 1 ص 96-99. وجـ 3 ص 89 سنة 1977 م.
(3) عبد المجيد عزيز الزنداني. كتاب: توحيد الخالق. جـ 1 ص 96-99. وجـ 3 ص 89 سنة 1977 م.

الإلٰهية، والأدبية، فإذا صرفنا النظر عن فائدته التاريخية، وعن حكمه لنا في المسائل الثلاث الخلافية، وهي: التوحيد، وعدم صلب المسيح، ونبوة محمد «ﷺ»، فحسبنا باعثاً على طبعه وراء قيمته التاريخية ما فيه من المواعظ، والحكم، والآداب، وأحاسن التعاليم»[1].

وقد أقرّ العلماء، والقساوسة، ورجال الدين المسيحيون في أوروبا أن الأناجيل المكتوبة في القرون الأولى للمسيح «عليه السلام» عديدة، وأهمها أربعة: إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. وهي المعتمدة عندهم. وقرر نقاد المسيحية أن عقائد هذه الأناجيل الأربعة هي من وضع، ورأي القديس بُولُسْ. وبينوا أنهم يجهلون زمن كتابتها، وبأي لغة كتبت.. يقول «إيفارلستر». «إن الأناجيل كتبت باللغة الإغريقية في القرنين الرابع، والخامس، ومنهم من جعل أصول تعاليمها مأخوذة من الأديان الوثنية»[2].

ثانياً: إن القرآن الكريم مصدق، ومهيمن، وشاهد على الكتب السماوية الأخرى: وهكذا نزل القرآن الكريم مصدقاً للكتب السماوية السابقة، وقبل تحريفها. وكيف يقارن بها، وهو مهيمن عليها، وحاكماً عليها، وهو آخرها، وأعظمها، وأسماها. مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ سورة المائدة آية 48.

قال الزمخشري في الكشاف: «أي رقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة، والثبات»[3]. وهذا قبل تحريفها. وقال ابن كثير: «اسم المهيمن يتضمن ذلك؛ فهو أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جمع الله فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في

---

(1) محمد رشيد رضا. إنجيل برنابا ـ الترجمة العربية. ص 1326 هـ.
(2) دكتور يوسف شويحات: العودة إلى النصرانية. ص 5.
(3) الزمخشري ـ الكشاف ـ جـ 1 ص 497.

غيره»[1]. وهكذا جاء القرآن مبيناً لليهود، والنصارى كثيراً مما كانوا يخفونه في كتبهم: كنبوّة الرسول «ﷺ»، وآية الرجم، وقصة أصحاب الكهف، وقصة الذين مسخوا قردة، وخنازير. مصداق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ سورة المائدة آية 15. وجاءهم نور، وكتاب مبين. مصداق قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ سورة المائدة آية 15. أي مزيل لظلمات الشرك، والشك، وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز. قال في التسهيل: «والآية دليل على صحة نبوة الرسول «ﷺ»؛ لأنه بيّن ما أخفوه في كتبهم، وهو أمي لم يقرأ كتبهم»[2]. وهكذا نزل القرآن هادياً لكل من اتبعه، وصدق به، وبنبوّة صاحبه محمد «ﷺ»، مصداق قوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ سورة المائدة آية 16. أي يهديهم الله طريق النجاة، والسلامة، ومناهج الاستقامة. وهكذا جاء القرآن الكريم يبين لليهود، والنصارى شرائع الدين على فترة من انقطاع الرسل حيث كانت الفترة بين عيسى «عليه السلام» ومحمد «عليه الصلاة والسلام» خمسماية وستون عاماً، وذلك حتى لا يكون لهم على الله حجة إن لم يسلموا، ويؤمنوا بالقرآن. مصداق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة المائدة آية 19.

قال ابن جرير: «أي قادر على عقاب من عصاه، وثواب من أطاعه»[3].

---

(1) ابن كثير ـ المختصر ـ جـ 1 ـ ص 524.

(2) ابن جزي ـ التسهيل لعلوم التنزيل ص 172، ومحمد علي الصابوني ـ صفوة التفاسير. جـ 1 ص 334.

(3) محمد علي الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ جـ 1 ص 336.

ثالثاً: إن القرآن الكريم يتصف بالكمال، والعمومية، والعالمية.

وهكذا، فكيف يقارن القرآن الكريم بغيره من الكتب السماويه، وهو الذي جاء بالهدي التام، والكمال، ودين الحق الذي أعلاه على جميع الأديان الوضعية، والشرائع السماوية الأخرى؟!! مصداق قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ سورة الفتح آية 28.

فالقرآن الكريم ـ على عكس الكتب السماوية الأخرى ـ جاء للناس كافة يعالج شؤونهم الدينية، والدنيوية. فشواهد عالميته، وكماله تتسع لمعالم عموميته في المعالجة. وبديهي أن الكتاب الذي ينزل، ويأتي للناس كافة يحمل في دلالات نزوله عمومية المعالجة لشئونهم الدينية والدنيوية كافة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ سورة الأعراف آية 158. ودلالة العمومية يؤصلها ورود قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في القرآن الكريم نحو ثمان وعشرين مرة. والقرآن الكريم في حمله لشواهد الرحمة للناس كافة تقتضي مفاهيمه، ودلالاته ألاّ تجزأ هذه الرحمة، وتقتصر على أمور الدين دون الدنيا. فلا مجال مطلقاً للقول بفصل القرآن عن الحياة، أو فصل الدين عن حياة الأفراد. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الأنبياء آية 107. والقرآن الكريم في إخراجه للناس من الظلمات إلى النور من البديهي ألا تقتصر شواهده هذه على أمور الدين دون الدنيا. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ سورة إبراهيم آية 1.

وإن دلالة عمومية القرآن الكريم، وكماله، وسموه على الكتب السماوية الأخرى تؤكدها الأحاديث النبوية الشريفة. ومنها ما رواه أئمة الأحاديث عن أنّ الرسول «ﷺ» عندما رأى عمر بن الخطاب يقرأ في نسخة من التوراة قال له فيما ورد في الحديث: «لو كان أخي موسى حياً ما وَسِعَهُ إلاّ أنْ يَتبعني». وقال فيما قال: «لقد تَركْتُكم على المَحَجّةِ البيضاءَ ليلُها كنهارها» والمَحَجَّةُ البيضاءُ تبقى حجة بيضاء لنا وعلينا،

وفي ديننا، ودنيانا ـ فقرآننا قرآن الدين، والدنيا معاً، ودستور المادة، والروح معاً، وقانون العبادة، والسياسة معاً. فما صح، ولا يصح القول: بفصل الدين عن الدنيا، أو فصل القرآن عن الحياة. لا يصح بل يجب ألا يصح بالنسبة لقرآننا أو ديننا.

رابعاً: إن القرآن الكريم محفوظ من التحريف، والضياع. فقد صانته العناية الإلٰهية من كل تحريف، أو تغيير، أو نقصان، أو ضياع؛ وهذا كله على عكس الكتب السماوية الأخرى. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ سورة الحجر آية 9. قال المفسرون: تكفل الله بحفظ هذا القرآن؛ فلم يقدر أحد على الزيادة، والنقصان، والتبديل والتغيير فيه كما يجرى في غيره من الكتب؛ فإن حفظها موكول إلى أهلها لقوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. وانظر الفرق بين هذه الآية: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ حيث ضمن حفظه، وبين الآية السابقة، حيث وكل حفظه إليهم، فبدلوا، وغيّروا. ولنا التساؤل هنا: كيف يعقل أن يقارن مثل هذا الكتاب الذي أولته العناية الإلٰهية بالحفظ من كل عبث أو لهو، ومن كل نقصان أو زيادة، ومن كل تحريف أو ضياع؟! أن يقارن بكتب أخرى ـ ولو سماوية ـ لم تنل شرف هذه النعمة؟! ومن ثم يجب أن يبقى ما يستند إليها من مفاهيم اللغو، والباطل كالفصل بينها، وبين الحياة، أو بين الدين، والدنيا، بعيداً كل البعد عن قرآننا الكريم، وبعظمة شواهده في السمو والكمال في المعالجة لشؤون الأفراد والدول، الدينية منها، والدنيوية، وإلاّ انتقصت شواهد الحكمة بحفظه الأبدي، وإلى قيام الساعة. وهكذا فإن مفاهيم فصل القرآن عن الحياة، ووجوب الدنيوية للمبادىء العلمانية لا تقاس مطلقاً على قرآننا كتاب الدين، والدنيا والحياة؛ وإن صح قياسها، فليكن لغيره، أو بالنسبة لغيره مما لم تحفظه العناية الإلٰهية من التحريف كالتوراة، والإنجيل. وحسبنا شهادة الإله، بل وقرآنه على ذلك التحريف. قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ سورة النساء آية 46. ومن هنا اقتضت معالم الكمال للقرآن في المعالجة للدين، والدنيا معاً أن يكشف، أو أن يأتي

بذاته، وبرسوله كاشفاً لمعالم، وشواهد أهل الكتاب في التحريف، والتغيير، والإخفاء لكتبهم أو لما في كتبهم. مصداق قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ سورة المائدة آية 15. ومن هنا اقتضت شواهد الحكمة الربانية في الإعجاز القرآني أن يظل مصاناً من التحريف، وإلى أبد الآبدين مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر آية 9.

ولنا القول: بأنّ الإعجاز القرآني بمعنى عدم التحريف لا يعني عدم القدرة على الزيادة فيه، أو النقصان منه، أو عدم الاستطاعة عن إحداث التغيير بالحذف، والتقديم، والتأخير في كلماته، وآياته أو بينهما؛ فهذا قد يكون مقدوراً عليه من قبل الأفراد. ولكن المقصود بعدم إمكانية تحريف القرآن هنا يتمثل في إمكانية كشف ذلك التغيير، أو النقص أو الزيادة فيه. فمن المستحيل أن يبقى التحريف خافياً على المسلمين، وبحيث يؤدي إلى ضياع القرآن، والاختلاف فيه، كما حدث بالنسبة لاختلاف اليهود، والنصارى في كتبهم، ومن ثم ضياع السماوية منها. فالعناية الإلٰهية حفظت القرآن الكريم من التحريف بكشفها لكل تحريف، وبحفظها له من الضياع له، والاختلاف فيه.

وبهذا ترى المسلمين في بقاع الأرض، وفي مختلف الأزمان والعصور، وعلى اختلاف أعراقهم، ومذاهبهم يقرأون قرآناً واحداً. أخرج أبو داود عن جابر «رضي الله عنه» قال: «خرج علينا رسول الله «ﷺ» ونحن نقرأ القرآن - وفينا الأعرابي، والعجمي - فقال: اقرأوا فكل حسن».

وهذا كله عكس ما عليه الكتب السماوية الأخرى، ومنها التوراة مثلاً، وهي كتب موسى الخمسة: التكوين، والخروج، واللاويون، والعدد، والتثنية، فكلها محرفة، ولم تثبت صحتها عن موسى، وألفت في أزمان متفاوتة تزيد على ألف عام. وكذلك يقال نفس الشيء بالنسبة للعهد القديم الذي يضم تسعة وثلاثين سفراً قسمت إلى ثلاثة أقسام: التوراة، والأنبياء، والكتب.

ومن أمثلة ما جاء من تحريف التوراة: ما ورد في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين وهو: «من حيلة ولدي يعقوب على شكيم وأبيه حمور التي أدت إلى ذبحهم، وتدمير مدينتهم خديعة، ومكراً». وما ورد في الإصحاح السادس من سفر يشوع: «أن داود تآمر على زوجة قائده حتى يتزوجها. وأنّ سليمان الحكيم عبد الأصنام إرضاءً لزوجته. وأنّ النبي لوط زنى بابنتيه. والأمر بإبادة الأجناس الآخرين. وحل الربا، وأكل أموال الأميين ـ أي الشعوب الأخرى غير اليهودية ـ وحل سرقة أموالهم؛ وحرق مدينة أريحا، وقتل كل من فيها من الرجال، والنساء، والأطفال، والشيوخ، حتى البقر، والغنم، والحمير بحد السيف. وإحراق مدينة أريحا بكل ما فيها. والاحتفاظ بالذهب، والفضة، وآنية النحاس، والحديد. وإنجاء الزانية، وجماعتها. وأنّ إبراهيمَ كذاب. وأن هُرون دعا الإسرائيليين لعبادة العجل. ومن أدلة التحريف أيضاً ما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين: «وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير، والشر».

والإصحاح السادس من السفر نفسه: «فحزن الرب أنه عمل الإنسان، وتأسف في قلبه». وما جاء في سفر التكوين أيضاً: أن إبراهيم رأى الرب آتياً يمشي بين ملكين، فقال له إبراهيم: إن كان عبدك يرى نعمة بين عينيْك، فتعال، فتغد معنا. وأنّ إبراهيم ذبح لهم عجلاً سميناً، فأكلوه معاً. وكان ذلك تحت شجرة بلوط كان يجلس تحتها إبراهيم في قرية نمرة قرب القدس. وأيضاً: أن إسرائيل ـ يعقوب ـ صارع الرب، وصرعه. وأيضاً: أن موسى مات عن عمر مائة وثلاثين عاماً، وناحت عليه نساء بني إسرائيل أربعين يوماً، ودفن في إحدى عرصات جبل مؤاب (جنوب الأردن).

وأيضاً: أن مريم العذراء زنت بالراهب يوسف النجّار حيث كانت تتعبد معه في إحدى الأديرة. وقد زنا بها، وهو خاطبها، وقبل الدخول الشرعي بها.

وهم يتشبّثون بهذه، وبمثل هذه الافتراءات، ودون أي دليل عقلاني علمي، أو تاريخي، أو نقلي؛ وذلك كفراً من عند أنفسهم، وبهتاناً عظيماً؛ وحيث صدق فيهم قول ربنا دليلاً إلٰهياً نقلياً، ولا دليل لهم. ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ سورة النساء آية 156. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ سورة البقرة آية 102. وأما تحريف الإنجيل، فيصدق عليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ سورة المائدة آية 14.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ سورة المائدة آية 15.

وقد أشار دكتور موريس بوكاي الفرنسي في كتابه: «القرآن، والتوراة، والإنجيل، والعلم. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» إلى التناقضات العجيبة في الأناجيل الأربعة بقوله: «فخيالات متى، والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل، والأمور غير المعقولة، وعدم التوافق بين معطيات العلم الحديث، والتحريفات المتوالية للنصوص، كلّ هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات، وفقرات تنبع من خيال الإنسان وحده. لكن هذه العيوب لا تضع في موضع الشك وجود رسالة المسيح؛ فالشكوك تخيم على الكيفية التي جرت بها»[1].

وقد أضاف هذا الطبيب الفرنسي موريس بوكاي: «بهذا يتضح ضخامة إضافة الإنسان إلى العهد القديم. . . والتحولات التي أصابت نص العهد القديم الأوّل من نقل إلى آخر، ومن ترجمة إلى أخرى، وبكل ما ينجم حقاً عن ذلك من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفي عام»[2].

---

(1) دكتور موريس بوكاي: كتاب: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والعلم، ص. 131.
(2) دكتور موريس بوكاي. المرجع السابق نفسه ص 19.

ثم قال: «في سفر التكوين توجد أكثر التناقضات وضوحاً مع العلم الحديث. وتخصّ هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية:

1 ـ تاريخ خلق العالم، وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض ـ 2 ـ خلق العالم ومراحله، ـ 3 ـ رواية الطوفان»[1].

وقد قاده حياده العلمي إلى الاعتراف بصحة القرآن، وسلامته من التحريف، فذكر في نهاية كتابه: «لذلك فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنّه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جداً، حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه؛ وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنّها تتحدى أي تفسير وضعي؛ عقيمة حقاً المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية»[2]. وعملاً بقاعدة: الإقرار حجة على المقر، فقد أورد حاخام باريس «أجوليان ويل» في كتابه: اليهودية، ما يفيد بأن شهادات كل علماء الغرب تؤكد أن التوراة الموجودة الآن قد كتبها أحبار اليهود؛ ومنها ما كتب أيام المملكة الإسرائيلة؛ ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين؛ ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون[3].

ولنا التساؤل في هذا المقام: أَبَعْدَ هذا التحريف في، ولكتبهم المقدسة، هل يجوز لنا أن نطمئن على شبهاتهم حول قرآننا الكريم، وهم الذين أحاطوا كتبهم بكل شبهات التحريف؟! ومن ثم أنى، وكيف يتسنى لهم أن يَصدُقوا في شبهاتهم؟! وأنّى، وكيف يتسنى لنا أن نطمع فيهم، وفيمن والاهم من أئمة العلمانية، وكفارها؛ وأن نطمع في أن

---

(1) دكتور موريس بوكاي. المرجع نفسه ـ ص 40.

(2) دكتور موريس بوكاي. المرجع نفسه. ص14 - 56 - 117 - 142 - 284 - 286 سنة 1978 م.

(3) مجلة رابطة العالم الإسلامي. العدد السابع، السنة الرابعة عشرة. يوليو سنة 1976 م، ص 30.

يؤمنوا أو يقلعوا عن شبهاتهم، وافتراءاتهم؟!! وخير مؤنس لنا في هذا المقام قول ربنا فيهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة آية 75.

خامساً: إن القرآن الكريم كتاب سماوي منهجي: بينما الكتب السماوية الأخرى غير منهجية، فضلاً عن أنها حرفت وغدت كتباً بشرية وضعية، فلا يجوز أن يقارن القرآن بها. فما يصلح أن يقال فيها لا يصلح أن يقال بالنسبة للقرآن الكريم. ولذلك فإن سمحت شواهدها، ومعالمها اللامنهجية فصلها عن الحياة فلا غبار على ذلك؛ فهي أصلاً كتب مواعظ، وعبر، وليست كتباً منهجية؛ ولم تنزل لمعالجة شؤون حياة الأفراد، والدول، وكذلك ما جاءت به من عقائد جاء مجملاً؛ وخلت من تفاصيل التشريع المتعلقة بالأحكام التي تعالج أمور الدين، والدنيا، فضلاً عن أنّها لم تعد سماوية. ولذلك يناسبها الفصل عن الحياة، والدنيا. وهذا كله على عكس القرآن الكريم؛ فهو كتاب سماوي منهجي، وسيبقى كذلك، وإلى قيام الساعة يعالج أمور الدين، والدنيا معاً. وقد جاء للبشرية بمناهج التشريع، والعقائد كاملة، ومفصلة؛ وقد أرسى قواعد المنهجية الحقيقية في المعالجة لمشاكل الحياة والأفراد، والدول. فقد أرسى قواعد وأصول المنهج السياسي، والمنهج الاقتصادي، والمنهج الاجتماعي؛ وفي نفس الوقت أرسى قواعد، وأصول النظام الدستوري، والإداري، والمالي، وكذلك أسس، ومعالم القانون الجنائي، «أي الجزائي»، والدولي. فهو لم يترك شأناً من شؤون الدين، والدنيا إلاّ عالجها؛ ولكن بشيء من الإيجاز، وفي شكل قواعد كلية، ومبادىء شرعية عامة تستند إلى النصوص، أو الاجتهاد؛ وبالتالي فإن معالمه المنهجية في الكمال والشمولية، والفعالية في المعالجة لجميع الأمور لا تسمح أبداً بالقول بفصله عن الدنيا، أو عن الحياة، أو الدين الذي جاء به عن شؤون الأفراد الحياتية، والدنيوية.

ويصدق على هذا قول ربنا في كتاب ربنا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ سورة النحل آية 89.

قال عبد الله بن مسعود: «قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء»[1]. وأيضاً قول ربنا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل آية 44.

ولنا القول: بأن ما تفيده الآيتان، وغيرهما أن الله تعالى لم ينزل قرآنه على الرسول «ﷺ» إلا ليبين، وليفصّل لهم أحكام حياتهم، وشؤونهم الحياتية الدينية، والدنيوية دون استثناء؛ وضمن معايير الحلال، والحرام حتى تستقيم حياتهم؛ وحتى لا تكون لهم بعد ذلك على الله حجة. ومثل هذه المعاني تتنافى كلية مع القول: بأنّ القرآن يجب فصله عن الدنيا، أو فصل الدين عن الحياة.

فالقرآن الكريم سام، وكامل في تنظيمه لحياة الأفراد سواء فيما يتعلق بحياتهم الخاصة، أو علاقاتهم فيما بينهم أو فيما بينهم وبين الدولة؛ وكذلك فيما بينهم، وبين ربهم. وقد أورد صاحب العقيدة الطحاوية أن لله تعالى تعاليم، ووصايا أوحى بها إلى رسله، وأنبيائه. منها ما دوّن في الكتب، ومنها ما لا علم لنا به. فلكل رسول رسالة بلغها قومه كما قال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ سورة البقرة آية 213. وقال جلّ جلاله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ سورة آل عمران آية 184.

والكتب المدونة هي: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، والقرآن الكريم. وما أثبته المفسرون أنّه

---

(1) د. محمد علي الصابوني ـ مختصر ابن كثير ـ ج 2 ـ ص343.

ـ وباستثناء القرآن الكريم ـ فإن الكتب السماوية الأخرى كانت جميعها عِبَراً، وأمثالاً، ووصايا، وأخلاقاً، ولم تكن كتباً منهجية تعالج شؤون الحياة. أخرج ابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم، وقال صحيح الإسناد عن أبي ذر «رضي الله عنه» قال: «قلتُ يا رسولَ الله، ما كانت صحفُ إبراهيم؟! قال: كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلط، المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها، وإن كانت من كافر. وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله «عز وجل»، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم، والمشرب. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو لمعاش، أو لذة في غير محرم.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله، قل كلامه إلا فيما يعنيه. قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح. عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك. عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب. عجبت لمن رأى الدنيا، وتقلبها ثم أيقن إليها. عجبت لمن أيقن بالحساب غداً، ثم هو لا يعمل»[1].

ويقول دكتور يوسف شويحات: «إني أعتقد أن النصرانية كانت ترتكز تعاليمها على الأخلاق أكثر مما كانت تهتم بالشعائر الدينية؛ ولذلك اعتنقتها الشعوب البربرية، فهذبت أخلاقها. ولكن بُولُسْ الرسول الفيلسوف اليهودي أدخل على النصرانية الفلسفة اليونانية، والمفاهيم اليهودية. كما أدخل عليها البيزنطيون التعاليم الزرادشتيه. فالمسيحية ديانة

---

(1) عبد الحميد السائح: عقيدة المسلم وما يتصل بها ـ ص 236 والسيد سابق. العقائد الإسلامية ص: 160 - 161.

أسرار، ولاهوت، وسياسة؛ بينما النصرانية ديانة أخلاق، ومبادىء؛ فالمسيحية ديانة الغرب، والنصرانية ديانة عربية». يؤيد قوله ما ورد في الموسوعة الكاثوليكية من أن آريوس ليبي المولد كان يدافع عن عقيدة قائمة هي النصرانية الخالية من التحامل الفكري الحاذق، والفلسفة الجدلية البيزنطية التي سموها المسيحية بقصد القضاء على النصرانية. وهو يستند في هذا إلى ما كتبه «فيشر» عن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وإلى ما كتبه سليم واكيم عن تاريخ إيران في الحضارة[1].

سادساً: إن القرآن الكريم كتاب غير متناقض. يتصف بثبات العقائد، والشرائع، وصحة الإعجاز. فحقائقه ثابتة ناصعة لا تتعارض مع العلم، وحقائقه. وما ثبتت قطعيته من العلم، فهو قطعي في القرآن الكريم. وحقائق الكون في الآفاق، وحقائق النفس في الأجسام كلها تتناسب مع كلام الله، وهي مخلوقاته. وكل ما أخبر به القرآن عنها، وما يكتشف من حقائقها تتلاءم مع ما أخبر الله به عنها. فلا تناقض البتة بين كلام الله وهو القرآن، وبين عمل الله، وهي المخلوقات. وكلام الله، وعمله لا يتناقضان أبداً. وكل ما جاءت به الحقائق العلمية يصدق ما جاء به، وأخبر به القرآن سواء فيما يتعلق بحقائق الكون في الآفاق، أو في الأنفس. مصداق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. سورة فصلت آية 53.

ولنا القول: بأنّ كتاباً ربانياً سماوياً يصدق بعضه بعضاً، وتصدق حقائقه حقائق الخلق في الكون، والنفس، ويحمل في ثنايا دلالاته ومفاهيمه، ومعانيه، ومعالمه، وآياته سمو خلوده، ومعالم صدقه، وشواهد كماله، وصدق حقائقه، فهو جدير، بل وأكثر جدارة من غيره من الكتب حتى السماوية منها أن يحيط بكل معالم، ومظاهر الحياة

(1) عبد الحميد السائح: المرجع نفسه ـ ص 248.

الإنسانية حكماً، ومعالجة، وتنظيماً، وعلى جميع المستويات، والشؤون سواء بالنسبة للأفراد، أو الأسر، أو المجتمعات، أو الدول؛ وبحيث أثبتت الدلائل النقلية، والعلمية، والتاريخية، والتطبيقية العملية أنّه لا غنى للبشرية أبداً عن هذا الكتاب الرباني؛ ولحل مشاكلهم، وتنظيم حياتهم، وإدارة شؤونهم. فكيف، وبعد ثبوت مثل هذه الحقائق ثبوت جبل أُحدٍ أن يُزعم، أو أن يُقال بوجوب فصله عن الحياة، أو عن الدنيا، أو عن شؤون الأفراد؟!! إنّه لعمر الله، الكفر، والعناد، والجهل، والضلال!!!

ولنا القول أيضاً: فعندما يقول الله تعالى في قرآنه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ سورة الذاريات آية 20. فهو يشير كما يقول ابن كثير: إلى الآيات الدالة على عظمة خالقها، وقدرته الباهرة. سواء أكانت هذه الآيات تتعلق بالنبات، أو الماء، أو الحيوان، أو الإنسان، أو جميع بدائع خلقه. فمما لا شك فيه أن دلائل هذه العظمة لا تصدق، ولا تتحقق إلاّ بتحقق تناسق شواهد الخلق، فلا ترى فيها عوجاً، ولا أَمْتاً، ولا فطوراً، ولا تناقضاً. فإن حقائق القرآن لا تنتابها شواهد الزيغ، أو الاعوجاج، أو التناقض، أو التفاوت، أو الفطور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ سورة الملك آية 3.

فكلام الله عن السماوات يصدق حقيقة خلقها، وبأنها متطابقة بعضها فوق بعض. وكذلك يصدق حقيقة تناسقها، وبديع صنعها؛ فلا يمكن أن يرى فيها، أو في خلق الله كله أي نقص، أو خلل، أو اختلاف، أو تنافر، بل هي غاية في الأحكام، والاتقان. وإنما قال: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ولم يقل: فيهن؛ تعظيماً لخلقهن، وتنبيهاً على قدرة الله، وتأكيداً على هذه القدرة الإلٰهية. قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ سورة الملك آية 4.

قال الإمام فخر الدين الرازي: «المعنى: أنك إذا كررت نظرك، لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود الخلل والعيب، بل رجع خاسئاً

مبعداً لم ير ما يهوى من الكلال، والإعياء»[1]. وقال الإمام القرطبي: «أي أردد طرفك، وقلب بصرك في السماء (كرتين). أي مرة بعد مرة أخرى، يرجع إليك البصر خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك العيب والخلل: وإنما أمر بالنظر كرتين؛ لأنّ الإنسان إذا نظر في الشيء مرة، لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى. والمراد بالكرتين التكثير بدليل قوله: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾. وهو دليل على كثرة النظر»[2].

ولنا القول أيضاً: وعندما يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ سورة الذاريات آية 21. فهو يشير كما يقول ابن عباس: «إلى اختلاف الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع، والبصر، والعقل، إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم»[3]. وكما يقول قتادة: «من تفكر في خلق نفسه، عرف أنّه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[4]. ومما لا شك فيه أن دلائل هذه العظمة الإلٰهية في الخلق للنفس الإنسانية تتجلى واضحة جلية ضمن تناسق شواهد التوافق في خلقها، والاختلاف في صورها، وألسنتها، وألوانها، وطبائعها، وغيرها من صور بدائع خلقها. ولذلك لا ترى في حقيقة خلقها أي تناقض، أو خلل، أو نقص، أو زيادة.

أ ـ فالقرآن الكريم، وهو يتكلم عن توافق شواهد خلق النفس، وفي جميع أطوارها ومراحلها، فهو يصدق هذه الحقيقة. فحقيقة خلق أطوار آدم هي نفسها حقيقة خلق أطوار كل نفس سواء أكانت أطوار الجنين، أو أطوار الخلق ما بعد الولادة. مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ سورة نوح آية 14. فكل نفس آدمية خلقت أطواراً، ومرت

---

(1) الإمام الفخر الرازي ـ التفسير الكبير ـ جـ 30 ص 58.
(2) الإمام القرطبي ـ التفسير ـ جـ 18 ـ ص 209.
(3) الإمام الخازن ـ التفسير. جـ 4. ص 203.
(4) الإمام الخازن المرجع السابق نفسه.

في خلقها بنفس مراحل خلق آدم في الرحم. من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام إلى لحم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ سورة المؤمنون الآيات 12 - 14.

وكل نفس أيضاً خلقت أطواراً، ومرت في خلقها بمراحل خلق آدم نفسها بعد الولادة: من طور الطفل إلى طور البلوغ إلى طور الشيخوخة. مصداق قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾ سورة غافر آية 67.

ب ـ والقرآن الكريم، وهو يتكلم عن اتساق حقيقة اختلاف النفس في ألسنتها، وصورها، وألوانها، فهو يصدق هذه الحقيقة. مصداق قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ سورة الروم آية 22. وبذلك جعل الله حقيقة هذا الاختلاف في الخلق للنفس البشرية دلالة إعجازه، وقدرته في الخلق تؤيدها مكتشفات العلم في كل عصر. ومنها حقيقة خلق البنان أي الأصبع حيث ثبت علمياً اختلاف تركيب، وخيوط، ودقائق كل أصبع عن الآخر. وبذلك يتخذ العلماء منه دليلاً للتعرف على صاحبه. وصدق ربنا، وهو خير الصادقين، إذ يقول: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ سورة القيامة آية 4.

وهذه سنة الله في خلقه، وآياته، وحقائقه، وكتبه، ورسله، وعلومه، لا تجد فيها ولا تجد في أعظم كتاب أحاط بها قرآنه الكريم لا تجد فيه تناقضاً، أو اختلافاً، أو تفاوتاً. وهذه سنة الله تشهد على كتاب الله بالكمال، والسمو، وتؤصله ليكون دستور البشرية في الهداية، والاستقامة، والعيش، والحياة ذخراً لنا في حياتنا، وآخرتنا؛ فلا مناص

لنا، وللبشرية جمعاء من التمسك به، والعمل به، فلا مجال بإبعاده عن حياتنا، أو فصله عن دنيانا. وهذه سنة الله في هدايتنا، وصلاحنا، وبكتاب ربنا.

وصدق ربنا، وهو يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ سورة الأحزاب آية 62، وسورة الفتح آية 23. وصدق ربنا، وهو يقول: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ سورة الإسراء آية 77. وصدق ربنا، وهو يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ سورة فاطر آية 43. وصدق رسولنا، وهو يقول: «من ابتغى الهدى في غيره، أضله الله» فهذا كتاب اقتضت المشيئة الإلٰهية له الخلود، فكيف يريدون له عدم الخلود؟!! وهذا قرآن اقتضت العناية الإلٰهية له عدم التحريف، والتصحيف، أو التغيير، أو التبديل، أو الضياع، أو الاندثار، فكيف يريدون له الضياع، والاندثار؟!.

وهذا فرقان اقتضت الإرادة الإلٰهية له العزة في الحق، والهداية، فكيف يريدون له التجاهل، والإبعاد، والابتعاد، والبطلان؟!!.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الآيتان 41 - 42.

وهذا فرقان باركته العناية الإلٰهية ليكون للعالمين نذيراً، فكيف يريدون أن يفصلوه عن حياتهم، ويبعدوه عن معايشهم، وشؤونهم؟! ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ سورة الفرقان آية 1.

الشبهة الثانية:

فصل القرآن عن الدولة، أي فصل الدين عن الدولة.

وحجة أصحاب هذه الشبهة تتمثل في أنّ القرآن كتاب ديني، والإسلام دين روحي، وهو مجرد رسالة دينية روحية، ولا علاقة بالقرآن أو الإسلام بالدولة، والسياسة، والسلطان. وهم يستندون في حجتهم إلى

أنّ القرآن الكريم لم ينص على إقامة الدولة، ولم يجعلها ركناً، أو أصلاً من أصول الدين. والقرآن الكريم لم يتكلم عن الرسول «ﷺ» كرئيس دولة، أو ملك، أو زعيم، أو رجل سياسة، وإنما ذكره كنبي، ورسول، أي رجل دين. ومنطلق أصحاب هذه الشبهة هو ما أثاره المرحوم الشيخ علي عبد الرزاق من 1887 م ـ 1966 م في كتابه «الإسلام، وأصول الحكم»، ومن حمل لواءه من بعده من الإعلاميين أمثال دكتور محمد أحمد خلف الله، وسلامة موسى، وغيرهم، من أن الرسول محمداً «ﷺ» لم يكن ملكاً، أو مؤسس دولة، أو رئيساً لدولة.

ولقد ذكر الشيخ علي عبد الرزاق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» الذي أصدره في ابريل سنة 1925 م «أنّ محمداً «ﷺ» ما كان إلاّ رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا حكومة. وأنّه «ﷺ» لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة، ومرادفاتها. ما كان إلاّ رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل؛ وما كان ملكاً، ولا مؤسس دولة، ولا داعياً إلى ملك»[1]. وذكر دكتور محمد أحمد خلف الله كبير العلمانيين في هذا العصر، وفي مقال له بعنوان: «النص والاجتهاد، والحكم في الإسلام» نشره في مجلة العربي الكويتية ما نصه: «إن القرآن الكريم لم يجعل النبي العربي محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ملكاً، أو رئيس دولة. وظل ينعته بالنبي الرسول، وليس من حقنا بأي حال من الأحوال أن نلتزم بغير ما جاء به القرآن الكريم، ونستبدله بغيره. لم يكن نبي الإسلام في أي وقت من الأوقات ملكاً، أو رئيس دولة، وإنما ظل دائماً النبي الرسول»[2].

وذكر سلامة موسى في كتابه: «اليوم والغد» الذي نشره سنة

---

(1) علي عبد الرزاق. كتاب: الإسلام وأصول الحكم. طبعة بيروت. سنة 1972 م. ص 154.

(2) د. محمد أحمد خلف الله: مقاله في مجلة العربي الكويتية. عدد 307 رمضان سنة 1404 هـ. يونيو سنة 1984. ص 43.

1979 م ما يفيد بإنكاره للدين، وعلاقته بالدولة، وبأنّ الرابطة الدينية أصلها كاذب. وجاء قوله بالحرف الواحد: «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة؛ لأنّها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة. فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا.. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان؛ وحكومة ديمقراطية برلمانية كما هي في أوروبا؛ وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هٰرون الرشيد، أو المأمون، أو أتوقراطيه دينية... وكلما ازددت خبرة وتجربة، وثقافة، توضحت أمامي أغراضي... يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوروبا؛ فإني كلما زادت معرفتي بالشرق، ازدادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوروبا، زاد حبي لها، وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني، وأنا منها. وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً، وجهراً، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب»[1].

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن القرآن الكريم أوجب إقامة الدولة الإسلامية حكماً وفرضاً، وإن لم يذكرها نصاً، ولفظاً. فقد أوجبها بذكره لوظائفها، ونصه على واجباتها. فقد أوجب فرائض، وتكاليف دينية، ودنيوية كثيرة، وأوكل تنفيذها، وإقامتها إلى الدولة، والحاكم، وجعل أداءها، وقيامها من أساسيات الوظائف العامة للسلطة، والسلطات الحكومية. إن القرآن الكريم جعل أداء الواجبات الدينية مَنُوطاً، ومتعلقاً بوجود الدولة. فالواجب الديني يقتضي واجباً مدنياً هو الدولة. ووجوب الدولة إسلامياً يعود إلى أنها مما لا سبيل إلى أداء الواجب الديني إلا به. وكل ما لا

---

(1) سلامة موسى: كتاب: اليوم والغد. القاهرة سنة 1927 م. انظر النص في: د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ص 212 ـ 215 ـ القاهرة ـ سنة 1980 م.

يتم الواجب إلاّ به، فهو واجب. ومن هنا، ومن أجل إقامة شعائر الدين، أوجب الدين إقامة الدولة، والسلطة، وأوجب الإسلام وجود السلطان، والحاكم.

فالقرآن الكريم لم يفرض على المسلمين إقامة الدولة الإسلامية كواجب ديني، ولكن فرض عليهم من الواجبات الدينية ما يستحيل القيام به والوفاء بحقوقه إذا هم لم يقيموا دولة الإسلام. بل وألزمهم بالنسبة لذلك إطاعة الحاكم، والسلطان، وتنفيذ أوامر الدولة. مصداق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ سورة النساء آية 59.

وبالمقابل أوجب على الحاكم، والسلطان القيام بأمانة أداء الواجبات الموكولة إليه، وفيما يتعلق بأمور الدين، والدنيا معاً.. مصداق قوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ سورة النساء آية 58.

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فوجود «ولاة للأمر» يجب عليهم أداء الأمانات إلى المحكومين... ووجود رعية تجب عليها طاعة «ولاة الأمر» هؤلاء، هي فرائض دينية لا سبيل إلى الوفاء بها إذا غابت الدولة من عالم المسلمين، والإسلام.. وهذه الدولة ليست مطلق دولة من حيث النهج الذي تلتزمه، والشرع الذي تحتكم إليه، وإنما هي «الدولة الإسلامية»، لأنّها هي وحدها الكافلة لإقامة الواجبات الشرعية الإسلامية التي لا تقوم، ولا تقام إلاّ بهذه الأداة... وهكذا نجد أن «الدولة» ـ رغم أنّها ليست فريضة قرآنية، ولا ركناً من أركان الدين ـ إلاّ أنّه لا سبيل في حال غيابها إلى الوفاء بكل الفرائض القرآنية الاجتماعية، والواجبات الإسلامية الكفائية التي يقع الإثم بتخلفها على الأمة جمعاء، والتي كانت ـ لذلك ـ آكد من فروض الأعيان.. فوجوب «الدولة» إسلامياً راجع إلى أنّها مما لا سبيل إلى أداء الواجب الديني إلاّ به..

ومن هنا تأتي علاقتها وعلاقة السياسة بالدين في نهج الإسلام... إنّها واجب مدني اقتضاه ويقتضيه «الواجب الديني» الذي فرضه الله على المؤمنين بالإسلام»[1].

ثانياً: إن إقامة الدولة الإسلامية أمر ضروري، وواجب شرعاً وعقلاً، وإن لم يذكرها القرآن كركن أو أصل من أصول الإسلام. فالدولة الإسلامية واجب أمرها شرعاً، أو عقلاً.

وهذه حقيقة متفق عليها من قبل أئمة المسلمين، وإن خالفهم القلة منهم: كأبي بكر الأصم من المعتزلة 279هـ ـ 892 م، والنجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي 36 هـ ـ 59 هـ ـ 656 688 م من الخوارج. وكما يقول الجاحظ مبرراً قيامها: «اتفاق المسلمين على ضرورة الدولة، ووجوبها شرعاً أو عقلاً؛ أو للاعتبارين؛ لأن الناس يتظالمون فيما بينهم بالشره، والحرص المركب في أخلاقهم؛ فلذلك احتاجوا إلى الحكام»[2].

وكما يقول الإمام الماوردي: «ولأن الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانته صفة لازمة لطبعه، وَخِلْقةٌ قائمة في جوهره»[3].

وكما يقول أيضا: «ولأن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: **أوّلها**: ما ينتظم به أمور جملتها. **والثاني**: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها»[4].

ولذلك فإن لم تكن الدولة ركناً من أركان الدين، أو أصلاً من أصوله، فإن هذا لا يعني أنها غير ضرورية، أو أنّ إقامتها لَيْسَ ضَرورياً.

---

(1) شيخ الإسلام ابن تيمية: كتاب: منهاج السنة النبوية ـ جـ 1 ص 70 وما بعدها، القاهرة ـ سنة 1962 م.

(2) الجاحظ جـ 1 ص 161. تحقيق عبد السلام هٰرون ـ القاهرة. 1964.

(3) الماوردي ـ أدب الدين والدنيا ـ ص 132 وص 134 تحقيق مصطفى السقا. القاهرة ـ سنة 1973 م.

(4) الماوردي ـ أدب الدين والدنيا ـ ص 132 وص 134 . تحقيق مصطفى السقا. القاهرة ـ سنة 1973 م.

وإن لم تكن الدولة واجباً دينياً، فهي واجب مدني، وضرورة مدنية يتوقف على حقيقتها، ووجودها أداء الواجبات الدينية. فمن الاستحالة قطع العلاقة بين الضرورة المدنية، والواجب الديني، ومن العسير فصم العلاقة بين الدولة، وبين الدين، فهما متلازمان أبداً. ولا تستقيم شرعاً، وعقلاً دعاوى العلمانيين بالفصل بينهما. وكما يذكر الإمام الماوردي: فصلاح الدنيا لا يستقيم إلاّ بما ينتظم أمور جملتها، وإلاّ بما يصلح حال كل واحد من أفرادها. وصلاح الدنيا من صلاح الدين، وكلاهما متعلق أمر تنفيذه، والقيام بشواهده، ومعالمه بوجود الدولة، ينفذ سياستها في الإصلاح الحاكم أو المسؤول أو الخليفة أو أمير المؤمنين. وحتى الواجبات الدينية في ذاتها يتعلق أمر القيام بها بالحاكم، أو الوالي، أو رئيس الدولة: كجمع الزكاة من أصحابها، ومصادرها، ووضعها، وصرفها في مصارفها؛ والقصاص، وما يقتضيه من إجراءات في الإثبات، وشهادة الشهود والإقرار، ورعاية المصالح العامة الإسلامية على النحو الذي يحقق النفع، ويمنع الضرر عن الجميع؛ وتنظيم أمر الشورى، وإقامة حكمه؛ والقيام بإدارة المرافق، وإقامة الحدود، ونشر العلم؛ وإشباع الحاجات، وتحقيق مقاصد الشريعة، وهي الضرورات الخمس... إلخ.

وبذلك فإن ضرورة، وحتمية وجود الدولة الإسلامية، يستدعي إقامتها، وإن لم تكن أصلاً أو ركناً من أركان الدين. ولم يقل أحد بذلك، وبالمقابل لم يقل أحد إنّها غير ضرورية. ولنا أن نستأنس بقول شيخ الإسلام ابن تيمية 661 ـ 728 هـ ـ 1263 ـ 1328 م. «والدولة ـ الإمامة ـ الخلافة ليست ركناً من أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر...».

وكما يقول أيضاً: «ولا ركناً من أركان الإحسان التي يجمعها: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك». وكما يقول أيضاً: «ولم يقل أحد من هؤلاء الأعلام: إنّ الوحي القرآني قد فصل للدولة الإسلامية نظاماً؛ ولا أن الله قد أوجب على رسوله في القرآن إقامة

الدولة كما أوجب إقامة أركان الإسلام، وفرائض الدين، وأصول الاعتقاد. فالدين وضع إلٰهي، وهو في الرسالة الخاتمة قد اكتملت أركانه وعقائده، وأصوله، وشريعته في القرآن الكريم الذي لم تشتمل آياته على نظام للحكم، ولا تشريع للدولة، ولا تفصيل للحكومة التي يزكيها كي تسوس مجتمع الإسلام».

وكما يذكر: «وبالطبع فليس بين أهل الإسلام من يعتقد أن هذا السكوت القرآني عن تفصيل شأن الدولة، ونظام الحكم السياسي راجع إلى السهو، أو القصور أو التقصير. فحاشا لله، وتنزه سبحانه. لكن الذي يعتقده المسلمون هو أن القرآن ـ ذلك الكتاب لا ريب فيه ـ لما كان كتاب الرسالة الخاتمة، فإنه قد وقف عند النهج، والمقاصد، والغايات، والفلسفات في كل ما يتصل بالأمور التي هي محل، وموضوع للتغير، والتطور الذي هو قانون طبيعي، وسنة من سنن الله في الكون الذي أبدعه ويرغاه. ومن هذه الأمور إقامة الدولة الإسلامية، وقيادة الأمة، وسياسة المجتمعات»[1].

ولنا أن نؤكد: أن القرآن، وإن لم يذكر الدولة، ويصنفها ضمن الأركان، والأصول ولكنه لم ينف ضرورتها. بل أصّل هذه الضرورة من خلال تأصيله لواجباتها، وأساس وظائفها، وعلى رأسها الدينية. وكذلك، وإن لم يحدد شكلاً معيّناً، أو قانوناً جامعاً للسياسة، والإدارة، لكنه لم يهمل ذلك كلية. فبعد استيفائه لذكر الثوابت، وانتقاله للمتغيرات كنظام الحكم، فقد وقف عند تحديد المقاصد، والفلسفات، والغايات؛ والتي صاغها في صورة مُثُل عليا، ووصايا، وكليات، وأطر حاكمة ومرنة، وما سكت عنه هي النظم، والنظريات، والقوانين حيث تركها للعقل، والتجربة، والتقنين، لنهتدي بهذه الأمثلة على درب الخلق، والإبداع، والإضافة، والتجديد في ميادين الحكم، والسياسة. ولنا أن

(1) ابن تيمية. منهاج السنة النبوية. ج 1 ص 7270. المرجع السابق.

نؤكد ثانية: إن عدم ذكر القرآن للدولة كركن أو أصل من أصول الدين، لا يعني أبداً انقطاع أو انتفاء العلاقة بينهما؛ ولا ينفي ضرورتها وحتميتها.

ولنا أن نستأنس في هذا بقول حجة الإسلام الغزالي: «ومع اتفاق علماء الإسلام على ضرورة الدولة، ووجوبها، فإنهم قد اتفقوا ـ خلا الشيعة الإمامية ـ على أنها من الفروع، وليست من أصول العقائد، ولا من أركان الدين فهي واجب مدني اقتضاه الواجب الديني المشتمل على تحقيق الخير للإنسان في هذه الحياة»[1].

ثالثاً: إنّ الرسول «ﷺ» أقام الدولة الإسلامية الأولى، وجعل دستورها القرآن، ونظامها الإسلام. وهذا يفند الزعم بفصل القرآن عن الدولة.

وبذلك فإن إقامة السنة النبوية العملية لأوّل دولة سياسية تحكم بشريعة القرآن يدحض القول: بوجوب فصل القرآن عن الدولة، أو الدين عن الدولة.

ويرد كيد العلمانيين، وأسيادهم الحاقدين على كل ما هو إسلام، أو قرآن، وهم قد فقدوا كل حجة في زعمهم أن الإسلام دين روحي، وأن القرآن كتاب ديني، وليس حياتياً، وأن منهجه فقط منهج تعبد، وليس منهج دولة، أو سياسة.

فالرسول «ﷺ» أقام الدولة، وأسس بنيانها على عقد شرعي، وجعل دستورها القرآن؛ ومنهجها أحكام الحلال، والحرام؛ ونظامها الإسلام. وهو بذلك أقام كياناً سياسياً، ودولة جديدة اكتملت معالمها، وأركان

---

(1) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد. ص 134. دون تاريخ. وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة طبعة القاهرة سنة 1907، ص 15. والإمام الجويني ـ الإرشاد. القاهرة ـ 1250. ص 410. والشهرستاني: نهاية الإقدام. ص 478. والجرجاني: شرح المواقف. جـ 3 ص 261 القاهرة ـ سنة 1311 هـ.

حكومتها، وأدوات ولايتها، ودوائر سلطاتها، وأجهزة قسماتها، وسلطنة عمالتها، وولاية عمالاتها، ومظاهر علاقتها، وتقسيمات أقاليمها، ومهمات أمرائها؛ فكانت دولة إسلامية بحق، لها معالمها، ومقوماتها. ونشأت كدولة مدنية ترعى شؤون الدين، والدنيا، والدينية، والمدنية معاً. وإذا كانت أحداث الحروب، والغزوات، والسرايا، والبعوث قد ملأت كتب ومصادر السنة، ومراجع التاريخ، فإن هذا لا يعني أنّها خلت من الكلام أو ذكر معالم هذه الدولة؛ ولو أنّها جاءت متناثرة مفرقة بين، وعلى صفحات هذه المصادر، والمراجع. ولقد قيّض الله لهذه الأمة من العلماء، من جعل شغله الشاغل في السيرة النبوية الكلام عن المعالم الأساسية، والمقومات الأصلية للدولة النبوية، وعلى رأسهم الإمام الخزاعي أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود بن أبي غفرة الخزاعي 710 ـ 789 هـ 1026 ـ 1103 م. حيث أشار في كتابه «تخريج الدلالات السمعية» إلى معالم، وأركان، ودوائر، ووظائف، وأدوات، وقسمات دولة الرسول «ﷺ»؛ فجاء كتابه هاماً، ومفيداً، ومن أهم مراجع التراث الإسلامي الأول[1].

1 ـ **وبالنسبة لعقد التأسيس**: فقد تم بين الرسول «ﷺ»، وبين قادة الأوس، والخزرج، وممثليهم الذين التقوا به في موسم الحج ذلك العام. فكانت بيعة العقبة عقداً سياسياً، وعسكرياً، واجتماعياً، وشرعياً حقيقياً لا مفترضاً؛ تأسس بناءً عليه أول دولة إسلامية في التاريخ العربي والإسلامي. وقد تمت هذه البيعة بين النبي «ﷺ»، وبين خمس وسبعين من وجوه الأوس، والخزرج بينهم امرأتان هما: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي. وقد تضمنت بنود العقد التأسيسي أهم شواهد إقامة الدولة: مكانها يثرب؛ ورئيسها الرسول «ﷺ» طيلة حياته؛ وقيادتها الأولى

---

(1) أنظر خلاصة هذا الكتاب في: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ـ جـ 4 ص 481 وص 765. وكذلك كتاب: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية لعبد الحي الكتاني جـ 1 جـ 2. طبعة بيروت ـ دار الكتاب العربي.

اثنا عشر نقيباً أنصارياً يكونون مجلس مستشاري الحكومة النبوية ويُنتخبون من قبل جمعيتها التأسيسية، وهم أصحاب بيعة العقبة الخمس وسبعين حيث قال لهم الرسول «ﷺ»: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فاختاروا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس[1].

وقد لخص عقد التأسيس معالم العلاقة بين أطرافه: بين رئيس الدولة، وبين أعضاء الجمعية التأسيسية؛ والتي تشير إلى حماية الجمعية التأسيسية لقائد الأمة، ويمنعونه مما يمنعون منه أنفسهم، ونساءهم وأبناءهم. وقال لهم: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفلة الحواريين لعيسى بن مريم. وأنا كفيل على قومي».

وتذكر كتب السيرة النبوية عن معالم عقد التأسيس هذا ـ بيعة العقبة ـ، قال كعب بن مالك: فلما اجتمعنا في الشعب، ننتظر رسول الله «ﷺ»، جاءنا، ومعه العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على دين قومه إلاّ أنّه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويستوثق له ـ فلما جلس كان أول متكلم قال: يا معشر الخزرج، إنّ محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه؛ فهو في عزمة من قومه، ومنعة في بلده، وإنّه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم، وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه؛ فإنّه في عزة، ومنعة من قومه، وبلده. قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله؟ فخذ لنفسك، وربك ما أحببت. فتكلم رسول الله «ﷺ»، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني منه نساءكم وأبناءكم». قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده، وقال: نعم.

(1) رفاعة الطهطاوي ـ الأعمال الكاملة ـ جـ 4 ص 159 - 160 ـ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة ـ بيروت 1977 م.

فوالذي بعثك بالحق، لنمنعنّكَ مما نمنع منه أزرنا، فبايعْنا يا رسول الله؟ فنحن ـ والله ـ أبناء الحروب، ورثناها كابراً عن كابر. فقال أبو الهيثم بن التيهان، يا رسول الله، إنّ بيننا، وبين الرجال ـ اليهود ـ حبالاً. وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك، وتدعنا!! قال: فتبسم رسول الله «ﷺ» ثم قال: «بل الدمُ الدمُ، والهدمُ الهدمُ. أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم[1]. بمعنى: أفاديكم بدمي إن أحل أحد دمكم، وبمنزلي إن حاول أحد أن يهدم منازلكم. بمعنى: أفاديكم بروحي، وحياتي، وما أملك.

وقد تضمن التأسيس دين الدولة، وأركان الإيمان، وشواهد الإسلام. وهذا ما يتجلى دائماً في لقاءات وَبِيَعِ الرسول «ﷺ»: كبيعة العقبة الأولى؛ حيث تذكر كتب السيرة النبوية عن عبادة بن الصامت قوله: «بايعنا رسول الله «ﷺ» ليلة العقبة الأولى: أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. قال الرسول «ﷺ»: «فإن وفيتم، فلكم الجنة؛ وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأخذتم بحده في الدنيا، فهو كفارة له؛ وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله؛ إن شاء عذب، وإن شاء غفر»[2].

هذا هو رسولنا محمد «ﷺ»، وهذه هي عقوده، وبيعه. وهذه هي أسس دولته، أقامها على الشرعية في التأسيس، والوفاء بالعقد، والالتزام بالإسلام في الحكم، والإيمان في العمل.

2 ـ **وأما بالنسبة للدستور**: فقد جعله الرسول «ﷺ» مستنداً إلى القرآن الكريم في تنظيمه لعلاقات الرعية السياسية. منها ما يتعلق بالله تعالى، ومنها ما يتعلق بالمؤمنين فيما بينهم، ومنها ما يتعلق بعلاقاتهم

---

(1) الشيخ محمد الغزالي. فقه السيرة. ص 158. طبعة دار الكتب الحديثة ـ القاهرة 1976.

(2) محمد الغزالي ـ المرجع الآنف الذكر. ص 155.

مع غيرهم. وبلغت مواده خمسين بنداً تناولت أهم أمور الدولة، والحقوق، والواجبات، وفي السلم والحرب.

أ ـ فبالنسبة لعلاقة الرعية بالله تعالى ـ فقد جعل منطلقها المسجد حيث بناه الرسول «ﷺ» في مكان بركت فيه ناقته يملكه غلامان في كفالة أسعد بن زرارة في المدينة المنورة. وجعل الرسول «ﷺ» من المسجد منطلق عمل الرعية بدستور الإسلام، تنظم أوّل ما تنظم بنوده علاقة الإخلاص مع الله تعالى. وكان فيما يقوله لهم ما روى البيهقي عن عبد الرحمٰن بن عوف قال: «كانت أوّل خطبة خطبها الرسول «ﷺ» بالمدينة أن قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أمّا بعد: أيها النّاس، فقدّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنّ واللهِ، لَيُصْعَكَنَّ أحدُكُم، ثم لَيدَعَنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ـ ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه ـ: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً، وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه، فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي نفسه من النار، ولو بشق تمرة، فليفعل. ومن لم يجد، فبكلمة طيّبة؛ فإن بها تجزى الحسنة عشراً أمثالها إلى سبعماية ضعف. والسلام عليكم، وعلى رسول الله. . . »[1].

ب ـ وبالنسبة لعلاقة الرعية فيما بينهم: فقد وثق رباط المؤاخاة فيما بينهم فكانوا عباد الله إخواناً. تفننوا في تطويع هذه العلاقة لبنود الدستور، وما تقتضيه من ظواهر الإخلاص، والحب، والأثرة، والتعاون، والمعاونة، والإحسان. حتى جعل الأنصاري منهم يتنازل عن أهم ما يملك من مال أو زوجات لأخيه المسلم المهاجر. وقد جعلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة «بدر» حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة الأنفال آية 75. فألغى التوارث بعقد الأخوة،

---

(1) محمد الغزالي ـ فقه السيرة ـ ص 191.

ورجع إلى ذوي الرحم. وقد آخى الرسول «ﷺ» من بينهم: حمزة مع زيد؛ وأبو بكر مع خارجة. وعمر مع عتبان بن مالك؛ وعبد الرحمٰن بن عوف مع سعد بن الربيع. وتذكر كتب السيرة أن سعد بن الربيع الأنصاري قال لأخيه عبد الرحمٰن بن عوف المهاجر: «إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك! فسمها لي، أطلقها فإذا انقضت عدتها، فتزوجها. قال عبد الرحمٰن بن عوف: بارك الله في أهلك ومالك، أين سوقكم؟»[1]. واستناداً إلى هذا الدستور يتحرك الفرد بروح الجماعة، ومصلحتها، وآمالها؛ كيانه من كيانها، ومصلحته من مصلحتها، وسعادته من سعادتها.

جـ ـ وبالنسبة لعلاقة الرعية المؤمنة مع غيرها كفلها الدستور ضمن مظاهر الوفاء، والند للند. وكفل الدستور حرية الاعتقاد، والدين للجميع تطبيقاً، وعملاً بالحكم الرباني في القول الرباني: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ سورة البقرة آية 256.

وقد نظم الدستور علاقة من بقي على دينه مع الدولة الإسلامية، وأدخلهم كجزء من رعيته السياسية، وأبقى لهم حرية الاعتقاد الديني. ثم نظم حقوق، وواجبات الرعية من مؤمنين، وغير مؤمنين. وكذلك علاقات الدولة الإسلامية مع غيرها من الجماعات والدول زمن السلم، وزمن الحرب. وقد أطلق المؤرخون على هذا الدستور اسم الصحيفة مرة، والكتاب مرة أخرى. وسمي أهلها أهل الصحيفة مرة، وأهل الكتاب مرة أخرى.

وقد جُعل القرآن حكم الجميع فيما اختلفوا فيه؛ فهم رعية دولته الإسلامية. فنصت الصحيفة على مادة تقول: «وأنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإنّ مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله»[2].

---

(1) محمد الغزالي ـ فقه السيرة ـ ص 192.

(2) انظر هذه الصحيفة في أمهات كتب السيرة. مثل: النويري: نهاية الأرب. جـ =

وبالنسبة للمؤمنين من الرعية السياسية فمرجعهم القرآن مصداق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ سورة النساء آية 59. وقد ذكر ابن إسحٰق ما ورد في الوثيقة التي تنظم علاقات الدولة الإسلامية مع رعاياها من اليهود، والوثنيين، والتي جاءت تحت معاني التسامح، والتلطف، والمعاونة. وجاء فيها: «وإن يهود بني عوف أمّة من المؤمنين؛ ولليهود دينهم، وللمسلمين دينهم؛ وأن ليهود بني النجار، والحارث، وساعدة، وبني جشم، وبني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح، والنصيحة، والبر دون الإثم. وأنّه لم يأثم امرؤ بحليفه. وأن النصر للمظلوم؛ وأن الجار كالنفس غير مضار، ولا آثم. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب. وأنّ من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة آمن إلاّ من ظلم... وأن الله جار لمن بر، واتقى»[(1)]. وغيرها من البنود الأخرى في الدستور، والتي تجمع كلها على مضامين التعاون، والتكافل، والضرب على أيدي المخربين، والمعتدين على رعية الدولة من مسلمين، وغير مسلمين.

3 ـ **وأما بالنسبة لمعالم وأركان الدولة الإسلامية**: 1 ـ فكان الرسول «ﷺ» الرئيس، والقائد، والإمام، والمرجع الأعلى للدولة. 2 ـ وكان مجلس وزرائه، ومشورته كبار الصحابة من مهاجرين، وأنصار: كالعشرة المهاجرين الأول، ونقباء الأنصار الاثني عشر. 3 ـ وكان من الإداريين من اختص بالحجابة، والسقاية، والكتابة، والترجمة، وحمل الخاتم، وكاتم الأسرار، وهو حذيفة بن اليمان. وإمارة الحج... الخ. 4 ـ وكان من العمالات على الفقه، والعلم: عمال تعليم القرآن، وتعليم

= 16. ص 348 ـ و 351 القاهرة. ومحمد حميد الله الحيدر أبادي: الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. ص 15 ـ 16. القاهرة ـ سنة 1956 م.

(1) ابن إسحٰق. جـ 2 ص 16 ـ 18. ومحمد الغزالي. فقه السيرة. ص 197.

الكتابة، والقراءة، والإفتاء، وتعليم الفقه، وإمامة الصلاة، والآذان... الخ. 5 ـ وكان من عمال العلاقات الخارجية، والإعلام: السفراء، والتراجمة، والشعراء، والخطباء... الخ. 6 ـ وكان من أمراء الجهاد: قواد السرايا، والجيوش، وأمراء القتال. وكتاب الجيش، وفارضو العطاء، والعرفاء، ورؤساء الجُند... الخ. 7 ـ وكان من أمراء النواحي: ولاة الأقاليم، والقضاة، وعمال الجباية، وعمال الزكاة، والصدقات، وعمال الخراج، والخارصون للثمار، وفارضو المواريث، وفارضو النفقات، وصاحبو المساحة... الخ. 8 ـ وكان من عمال الأمن المحتسب، وصاحب العَسَس، ومتولي حراسة المدينة، والعين (الجاسوس)، والسجان، والمنادي، ومقيم الحدود، ومتولي التطبيب والعلاج... الخ. 9 ـ وكان من العمال الآخرين: المستنفرين للقتال على المدينة، وأصحاب السلاح، وأصحاب اللواء والراية، وأمراء أقسام الجيش الخمسة، وحراس القائد، والقائمون على متاع السفر، والذين يخذلون الأعداء، والذين يبشرون بالنصر... الخ. 10 ـ وكان من الموظفين الإداريين غير ذلك. ومنهم الذين عينهم الرسول «ﷺ» بداءة ثم ثبتهم؛ ومنهم الذين عزلهم، واستبدلهم، والبدلاء عنهم... الخ.

فكنا بذلك، أمام دولة اكتملت معالمها، ومقوماتها، وأركانها، وأسسها، ودستورها... ودولة الإسلام قائمة على الإمارة، والسياسة، وشؤون الدولة، والمعبر عنها في ذلك الوقت: «بالأمر ومنه الائتمار»، ومنه الإمارة، ومنه «الأمير». وحتى يتميَّزُ الأمر عن الوحي، والدين الخالص كان الأمر شورى في شرعة الإسلام. وكان الحكم السياسي قائماً على مبدأ الألوهية في الشورى عملاً بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ سورة آل عمران آية 159. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ سورة الشورى آية 38.

وكما كان الرسول «ﷺ» معصوماً في البلاغ، لا ينطق عن هوى، فبلاغه وحي يوحى. وكان في الأمر ـ السياسة ـ مجتهداً، ومستشاراً،

ومستشيراً. فهو في البلاغ الديني بشر يُوحَى إليه. وهو في سياسة الدولة بشر يَجتهد، وَيَسْتشير.

ومن هنا يأتي المَعْلَمُ الثاني من معالم دولة الإسلام أنّها دولة مدنية، ترعى الشؤون الدينية، والسياسية. وهي دولة دين، وحياة، ودين ودنيا، لا دولة كهنوت، ودين وأتوقراطية. فالرسول «ﷺ» أرسى دعائم أول دولة في الإسلام، أساسها العقد، ودستورها القرآن، ومعالمها الشرعية، سار على نهجها أمراء المؤمنين، وفقهاء الإسلام. أقاموا إسلامها، وطبقوا أحكامه، ونفذوا حدوده، وما قتال أبي بكر للمرتدين مانعي الزكاة - جماعة مالك بن نويرة - وهم موحدون، يصلون ويصومون؛ إلا تأكيداً لوجود هذه الدولة، وتحقيقاً لمقوماتها، وتأصيلاً لعلاقتها بالدين. فكان وجود الدولة ضرورة مدنية، وواجباً سياسياً لتنظيم جباية الزكاة، وتنظيم شؤون الأفراد، وتحقيق الحكم الإسلامي بأداء الواجبات الدينية لا فرق بين صلاة، وزكاة، أو صوم، وحج. وهذا المعنى الحقيقي لعبارته المشهورة لأصحابه: «والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرّقَ بين الصلاةِ، والزكاةِ؛ فإن الزكاة حقُّ المال. واللهِ لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدّونها لرسول اللهِ «ﷺ»، لقاتلْتُهُمْ على مَنْعِها». فقد ربط بين الدين، والدولة.

فالسنة النبوية أقامت الدولة، وجعلت دستورها القرآن، وربطت بين القرآن، والدولة. والآثار الصحابية ثبتت دعائم الدولة، وربطت بين الدين، والدولة

وآراء أهل الحل، والعقد حققت استمرارية الدولة، وربطت بين الدين، والسياسة. وفتاوى فقهاء المسلمين ركزت على ثبات، وضرورة الدولة، وربطت بين وجودِها، وبين الدين. وسياسات حكام المسلمين أثبتت شرعية الدولة المدنية لإقامة الواجبات الدينية. وكل ذلك أثبت نقلاً، وعملاً، وتاريخاً، أن الإسلام دين، ودولة، ولا فصل بين القرآن والدولة، أو الدين والدولة. وأن لا مكان لقول العلمانيين: بالفصل بين القرآن، والدولة؛ أو بين الدين، والدولة، وقد ثبت بطلان زعمهم: بأنّ الإسلام رسالة روحية تعبدية فقط، وأن القرآن كتاب روحي فقط.

الشبهة الثالثة:

فصل القرآن عن السياسة ـ أي فصل الدين عن السياسة

وحجتهم في ذلك: أن القرآن، والدين الإسلامي روحيان، ولا علاقة لهما بالسياسة قياساً على الديانتيْن: اليهودية، والمسيحية.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إن الديانة الإسلامية إلٰهية سماوية بينما الديانات الأخرى كاليهودية، والمسيحية، والبوذية، والهندوسية، وغيرها، ديانات غير إلٰهية، وغير سماوية؛ وإنما هي ديانات وضعية بشرية. وبذلك تنتفي أوجه المقارنة بينها، وبين الديانة الإسلامية. وإذا جاز فصل مثل هذه الديانات عن الدولة أو عن السياسة، فهذا لا يصح، ولا يجوز مطلقاً بالنسبة للديانة الإسلامية. فكونها ديانة إلٰهية سماوية فهي تحكم، وتنظم شؤون الناس والدول، شؤون الدين، والدنيا، لا فرق بالنسبة للأمر سواء كان يتعلق بالأفراد أو الدول. ولعل منبع الخطأ في مستند هذه الشبهة ـ شبهة فصل الدين عن السياسة ـ يكمن أساساً في محاولة المساواة بين اليهود، والمسيحية، وبين الإسلام من حيث المصدرية، والألوهية. فإنه لم تثبت معالم الألوهية، والشواهد السماوية لكلتا الديانتيْن. فمن الثابت، وبالأدلة القطعية، أنّه لم تنزل ديانة الٰهية من السماء يهودية صحيحة ثم حرفت، أو ديانة مسيحية سماوية صحيحة ثم حرفت. وإنما نزل دين واحد بعقيدة واحدة، وهو دين الإسلام، وعلى جميع الأنبياء، والرسل، وفي جميع الكتب السماوية. فالدين الذي نزل على موسى هو الإسلام، فحرفه قومه بنو إسرائيل، وسموه بالدين اليهودي نسبة إلى الٰههم يهوه أو يهوذا. والدين الذي نزل على عيسى هو الإسلام فحرفه قومه، وسموه بالدين المسيحي نسبة إلى الٰههم المسيح. ولذلك فإن اصطلاح الديانات السماوية الثلاث خاطىء، ويكون شبهة قائمة في حد ذاتها. وكذلك فإن تعدد الكتب السماوية لا يعني تعدد الدين.. ولذلك

فإن صح أن فصلت اليهودية، والمسيحية ـ وهما غير سماويتين أصلاً ـ عن السياسة، وحصرتا في الكنائس، والأديرة، وحصرت ممارسة شعائرها في فئة البابوات، والقساوسة، والرهبان، والأحبار، فهذا لا يصح مطلقاً بالنسبة للإسلام؛ وهو سماوي إلٰهي في أصله. فهو ديانة الجميع، يمارس شعائرها الجميع، ويعملون بأحكامها في جميع لحظات حياتهم، وبالنسبة لجميع علائقهم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والمالية. فلا فصل عندنا بين الدين، والسياسة، أو بين الدين، والدولة. وشواهدنا على وحدة الدين، وبالنسبة لجميع الأنبياء، والرسل قطعية في ثبوتها، ونصوصها، فقد قال تعالى مؤصلاً وحدة دينه، ومنذ خلق آدم، وقبله، وبعده، وفي سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آية 19.

وقال أيضاً في السورة نفسها نافياً عن عباده القبول بدين غير دين الإسلام، وإلاّ كانوا خاسرين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ سورة آل عمران آية 85.

ولنا القول: بأن وحدة الدين الإلٰهي السماوي لا تنفي تعدد الشرائع الإلٰهية السماوية. فالله تعالى يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة آية 48. ولكنه لا يقول: لكل جعلنا منكم ديناً، أو عقيدة. لذلك يصح القول: بأن هناك شريعة يهودية سماوية، وإلٰهية في أصلها ثم حرّفت. ولذلك هناك شريعة مسيحية سماوية، وإلٰهية ثمّ حرّفت. فالدين لجميع الأمم، ويتمثل في افعل، ولا تفعل، واعتقد بإلٰه خالق واحد، فهو إذن واحد غير متعدد. وأمّا الشريعة فتتمثل في كيف تفعل، وكيف لا تفعل، وكيف تعتقد بالله، وكيف تؤمن بالله، وكيف تعبد الله. فهي إذن متعددة، وغير واحدة. ولكل أمة شريعتها، ومنهاجها في العبادة. وبما أن كلتا الشريعتين اليهودية والمسيحية حرفتا أيضاً كالدين، فقد أصبحتا وضعيتين غير سماويتيْن، وبذلك لا يقارن دين الإسلام، وشريعة الإسلام بهما. فإن جاز فصلهما، أي الدين والشريعة اليهودية، والمسيحية عن الدولة، فلا غرو، ولا عجب؛ فهما بشريتان،

وضعيتـان. أمّـا ديانة وشريعة الإسلام فلا، وألف لا. فهما إلٰهيتان سماويتان، وأين الثرى من الثريا. وأمّا بالنسبة لنصوص، وأدلة وحدة الدين للجميع هي:

1 ـ بالنسبة للجميع: قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آية 19. وقال في السورة نفسها: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آية 85.

2 ـ وبالنسبة إلى نوح ـ قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ آية 13. وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ آية 72.

3 ـ وبالنسبة إلى إبراهيم ـ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ آية 127 ـ 128. وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آية 130 - 131. وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آية 67.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ سورة آل عمران آية 84. ولذلك نفى الله تعالى الهداية باعتناق اليهودية أو المسيحية. فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آية 135.

4 - وبالنسبة إلى يعقوب- قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ آية 133.

5 - وبالنسبة إلى يوسف- قال تعالى في سورة يوسف: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آية 101.

6 - وبالنسبة إلى موسى- قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ آية 126.

وقال تعالى في سورة يونس- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ آية 84.

7 - وبالنسبة إلى سليمان- قال تعالى في سورة النمل:
﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ آية 30 - 31.

وقال تعالى في سورة النمل- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ آية 38. وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ آية 42.

8 - وبالنسبة إلى بلقيس- قال تعالى في سورة النمل: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آية 44.

9 - وبالنسبة إلى عيسى- قال تعالى في سورة آل عمران ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آية 52.

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ آية 111.

10 ـ وبالنسبة إلى الأنبياء والرسل جميعهم: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ آية 136.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ آية 140.

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ آية 84.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ سورة المائدة آية 44.

ولنا القول أيضاً: إن وحدة الدين الإلهي ـ وهو الإسلام ـ تلتقي عنده وحدة العقيدة في جميع الرسالات، والكتب. ويتفق عندها جميع الأنبياء والرسل. وإن قمة شواهد تلك الوحدة في العقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد، وهذا الشاهد هو عنوان جميع الرسالات مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ سورة الأنبياء آية 25.

وينتظم مفهوم العقيدة ستة أمور هي:

أولاً: المعرفة بالله، وأسمائه، وصفاته.

ثانياً: المعرفة بالغيبيات التي أخبرنا عنها، ولم نرها: كالملائكة، والجن، والروح، والجنة، والنار... الخ.

ثالثاً: المعرفة بكتب الله جميعها، فهي سماوية، ودينها واحد: كالزبور، والتوراة، والإنجيل.

رابعاً: المعرفة بأنبياء الله، ورسله. والمذكورون في القرآن خمسة وعشرون.

خامساً: المعرفة باليوم الآخر.

سادساً: المعرفة بالقدر.

ولذلك توحدت شواهد هذه المعرفة في جميع الكتب السماوية، وهي تؤصل الدين الإسلامي الواحد لجميع الأنبياء، والرسل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران آية 19. وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. آل عمران آية 85.

ولذلك روى الإمام البخاري أن الرسول «ﷺ» قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد» وقال صاحب العقيدة الطحاوية: «دين الله في الأرض والسماء واحد». أما بالنسبة للشريعة؛ فهي متعددة، ومتنوعة، شريعة موسى غير شريعة عيسى؛ وشريعتهما تختلف عن شريعة محمد «ﷺ». وإذا كانت الديانة تتعلق بالعقيدة، فإن الشريعة تتعلق بالأساليب، ووسائل الخطاب، والإرشاد، وكيفية التعامل مع فرائض العبادة، وتأديتها. ولذلك قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة آية 48. وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الجاثية آية 18.

قال في بصائر التمييز: وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، فذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: ما سخّر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحرّاه مما يعود على مصالح العباد، وعمارة البلاد، وذلك المشار إليه بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ سورة الزخرف آية 32.

والثاني: ما قيّض له من الدين، وأمره به، ليتحراه اختياراً مما تختلف فيه الشرائع، ويعترضه النسخ، ودل عليه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾.

وقال ابن عباس: «الشرعة ما ورد في القرآن. والمنهاج ما ورد في السنة». وقوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية. إشارة إلى الأصول تتساوى فيها الملل، ولا يصح عليها النسخ: كمعرفة الله تعالى، ونحو ذلك مما دل عليه قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ سورة النساء آية 136.

ويدل هذا كله على أن دين الأنبياء، والرسل واحد، وأما شرائعهم فمتعددة... الخ.

ثانياً: إن الديانة الإسلامية عامة، وشاملة، وعالمية، وليست خاصة، وهي أبدية، ومؤبدة، وممتدة، وليست وقتية. فقد نزلت لجميع الأمم، والأزمان، والأمكنة. بينما الشريعتان اليهودية، والمسيحية خاصتان ومؤقتتان. وقد نزلتا فقط لبني إسرائيل، ومؤقتتان تنتهيان بقدوم، ونزول الإسلام. ولذلك لا يقارن الإسلام بهما؛ وهو لا يفصل نفسه عن السياسة أبداً. وشواهده العالمية، والأبدية في الهداية، والحكم، والفرضية، والتكليف، تؤهلانه لأن يكون دين دولة، وعبادة؛ ودين روح وسياسة؛ ودين تعبد، واقتصاد، ودين تأمل، واجتماع؛ ودين دنيا، وآخرة. وبذلك فالعلمانية، وهي تستند في شبهتها بفصل الدين عن السياسة إلى شرائع اليهود، والنصارى، فإن شواهدها قد تسمح لذلك؛ فلا عجب عندهم أن يعطى ما لله لله، وما لقيصر لقيصر. ولا عجب أن تمنع الكنيسة عن التدخل في شؤون السياسة، ويبقى البابوات، والقساوسة، والرهبان، والأحبار منعزلين يمارسون فقط شعائرهم الدينية في كنائسهم وأديرتهم. فدياناتهم وضعية، وسمة الوضع يكمن في الفصل، والإبعاد، والتغيير. وهذا كله يتنافى مع شريعة الإسلام الناسخة لشرائعهم أولاً، والهادية للبشرية ثانياً؛ والأبدية ثالثاً؛ والعالمية للإنسانية

رابعاً؛ والمؤصلة للألوهية خامساً. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الأنبياء آية 107. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ سورة الأعراف آية 158. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة سبأ آية 28.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ سورة الفرقان آية 1. وتؤصل السنة النبوية القولية عالمية الرسالة المحمدية، ومنها ما رواه الإمام البخاري أن الرسول «ﷺ» قال: «أعطيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ منَ الأنبياء قَبلي: نُصرتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شَهرٍ؛ وجُعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وَطَهوراً. فأيّما رجلٌ منْ أمتي أدركته الصلاة، فليصل. وأحلَّت لي الغنائم. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس كافة، وأعطيتُ الشفاعة».

وقد وطدت السنة النبوية معالم العالمية تلك، وأحاطتها بشواهد الإيمان، وعدم الانعزال؛ ففصلتها، وفرقت بين عالمية الرسالة، وبين نتانة العصبية، وتفاهة الجاهلية. فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن الرسول «ﷺ» أنه قال: «دعوها، فإنها منتنة» وروى الإمام مسلم في صحيحه أن الرسول «ﷺ» قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية» وكذلك تؤصل السنة النبوية العملية عالمية الرسالة المحمدية، ومن خلال الرسائل والكتب التي كان يبعث بها الرسول «ﷺ» إلى الأمراء، والملوك، والقياصرة، يدعوهم فيها إلى اعتناق الإسلام، وهم يقيمون خارج الجزيرة العربية. وبالنسبة لداخلها فقد تأصّلت شواهد عالمية الرسالة بدعوة الرسول «ﷺ» للأعاجم المقيمين فيها أمثال: بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي.

وأمّا بالنسبة للشريعة اليهودية فإنّه لا أدلة لها على عموميتها أو تأبيدها. حتى ولو وردت نصوص في التوراة تؤيد تأبيدها مثل: «هذه الشريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض» ومثل: «الزموا يوم السبت

أبداً» فإن لفظ التأبيد كثيراً ما يستعمله اليهود معدولاً عن حقيقته، ومن ذلك ما جاء في البقرة التي أمروا بذبحها: «هذه سنة لكم أبداً». وما جاء في القربان: «قربوا كل يوم خروفين قرباناً دائماً».

وهذان الحكمان منسوخان باعتراف اليهود أنفسهم رغم التصريح بأنهما مؤبدان. ومما يثبت عدم تأبيدها أيضاً نسخ الشريعة اليهودية بالإسلام. وكذلك قوله ﷺ: «لو كان أخي موسى حياً ما وَسِعَهُ إلا اتِّباعي». وكذلك الأمر بالنسبة للشريعة المسيحية فإنه لا أدلة على عموميتها، أو تأبيدها. وأما بالنسبة لقول المسيح عليه السلام: «السماءُ والأرض تزولان، وكلامي لا يزول». لا يدل على التأبيد لها، وإنّما قالها بالنسبة لتنبؤاته المستقبلية، والتي ستقع لا محالة. وهذا هو المقصود بقوله: وكلامي لا يزول.

ويكفينا الدليل على خصوصيتها قول المسيح «عليه السلام» في الإنجيل: «إنّما بعثت لخراف بني إسرائيل الضالّة».

ثالثاً: إن الديانة الإسلامية عادلة: وعدالتها إلٰهية. وهذه لا تتجزأ، ولا تحصر في نطاق دون آخر، أو نشاط دون آخر. وشواهد العمومية للعدالة تتنافى تماماً مع خصوصية التطبيق لها. وإن العدالة الإلٰهية تتنافى تماماً مع جزئية التناول لها. فهي تتنافى تماماً مع مبدأ فصلها عن الدولة، وحصرها في نطاق الأفراد. وإن مبدأ عمومية العدالة في الإسلام يمتد ليشمل جميع جوانب الحياة، وهذه سنة الله في خلقه. يمتد ليشمل السياسة، والاقتصاد، والاجتماع؛ وضمن جميع العلاقات والنشاطات، سواء فيما بين الأفراد، أو فيما بينهم وبين الدولة. وإلا وإن حصرت العدالة، أو جزئت، فقدت أهم خصائصها؛ وهي العمومية في التطبيق. ومن هنا يستحيل القول بالفصل بين الدين، والدولة؛ أو بين الإسلام، والسياسة.

فالإسلام في عمومية عدالته روح الحياة، وجوهر الانتظام للعلاقات الإنسانية، وفي جميع القطاعات. والإسلام في عمومية عدالته عماد

معالم الإنسانية لكل القيم، والمُثُل الإنسانية، لكل فضائل الاستقامة والإتقان، والإخلاص؛ والمبنية كلها على معالم، وأسس العقيدة الإسلامية، وسمو ثقاتها، وعمق عدالتها، واتساع شمولها لجميع شؤون الحياة؛ حياة الأفراد، والدول؛ ومع كل تناسق، وتوازن في إعطاء الحلول؛ ومع كل تكامل، وتعامل يتوازن مع نظرتها الإنسانية، وعدالة قيمها، ومُثلها، وإلى درجة أنّه تستحيل الحياة بدون تلك القيم، وتتعقد الحياة بدون تلك العدالة.

وإذا كانت العدالة تعني وضع الأمور في نصابها، وفي أماكنها الصحيحة، وإذا كانت تعني وضع الحق في نصابه، أو الحكم بالحق، فهذا عام للمسلمين حكاماً، ومحكومين مصداق قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ سورة النحل آية 90.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ سورة المائدة آية 8. قال الزمخشري: «وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله؛ وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه، وأحباؤه»(1). وإذا كانت التقوى أهم بواعث إقامة العدل، فهذا يجب تحقيقه من قبل الدولة، والأفراد، وإذا كان الحق أحق أن يتبع فهذا واجب تحقيقه في جميع الأوضاع، وسائر النشاطات، وكل العلاقات، سواء المتعلقة بالدين أو الدنيا. فكيف إذن يستقيم الفصل بين الدين والدنيا، أو بين الدولة في سياستها، والعمل بالدين في حكمها.

فالواجب يقتضي من الدولة إقامة العدالة في حكمها، وبالنسبة لسائر محكوميها، وبالنسبة لجميع نشاطاتها لا فرق بين نشاط ديني، أو

---

(1) الزمخشري: الكشاف ـ جـ 1 ص 476.

دنيوي، يحكمها في كل ذلك مبدأ السواسية بين الناس لا فرق بين حاكم ومحكوم، وغني، وفقير؛ وقوي، وضعيف، مصداق قوله «ﷺ»: «الناسُ سَواسِيَةٌ كأسنانِ المِشْط» رواه البزّار في مسنده عن أنس بن مالك.
وكذلك تقتضي عمومية العدالة في الإسلام إقامة صلاح التوازن في، وبين أولويات الإشباع للمصالح، والمقاصد بدءاً بالضرورات ثم الحاجيات، ثم الكماليات. وهكذا تستقيم الحياة بهذه العدالة، وهكذا ساد الوئام بين العلاقات في المجتمعات الإسلامية، وازدهرت نظم الحياة، ومستويات المعيشة بين الأفراد طيلة عهود الدولة الإسلامية؛ والذي أساس كل هذا التطبيق الكلي لمبادىء الديانة الإسلامية، والعمل الكلي لقواعد الشريعة الإسلامية، والتنفيذ الكلي لمعالم العدالة الحقة لمعالم النظام الإسلامي.
ولنا التساؤل في هذا المقام: إذا كانت أنماط الحياة السعيدة، والرتبية يتعلق تحققها دائماً بتطبيق معالم العدالة للشريعة الإسلامية فكيف يتسنى، وكيف سيكون الحال لو تخلينا عن مثل هذه العدالة، وفصلنا عدالة الدين عن وجوب تحقيق عدالة الدنيا أي فصلنا الدين عن الدولة؟!! ونحن نجيب بدورنا عن مثل هذا التساؤل: لو تم ذلك لخسرنا كل ذلك، ولفقدنا كل شيء. ولا يبقى لنا شيء. وبالتالي نحكم بالقطع أن الفصل بين الدين، والدولة لا يصلح لنا، ولو أنه يصلح لهم. بل هو الصالح لهم. فتعاليم الكنيسة طيلة عهودها إنما تعني في أذهان ـ حتى معتنقيها ـ الظلم، والاضطهاد، والاستغلال، والتعذيب، والقتل، والغصب، والحرق، بعيداً عن جميع شواهد ومظاهر الإنسانية. وحيث تحولت الكنيسة بعد سقوط روما إلى نظام رسمي تحالف فيه البابا كبير الدين مع الملك كبير الظلم على ظلم الناس في جميع شؤونهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية؛ وحرمت عليهم العمل، والعلم، والتجارة؛ وبحجة تطبيق تعاليم المسيح، والمسيح منهم براء. ونسب إليه «جيروم» القول: بأن الغني ظالم، أو وارث لظالم. وهكذا حورب العلم، وأحرق العلماء أحياءً، وأحرقت وأتلفت الكتب جهاراً. وهكذا ساد التسيب الكنسي حياة المجتمعات الأوروبية طيلة قرون عديدة.

وعندما شعر الناس بالظلم ثاروا، وأشعلوا الثورات، وكان شعارهم كما حصل بالنسبة للثورة الفرنسية سنة 1789 م: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

وهذا حال الديانة المسيحية، فكيف لا يستقيم الحال بالنسبة لها إذا فصلت الديانة عن السياسة، وأبعدت الكنيسة عن السياسة؟!! فهذا هو اللائق بالنسبة لهم. وإبعاد ظلم الدين الكهنوتي عن التدخل في شؤون الدولة أو حكم الأفراد هو الأقرب إلى العدالة. وبفصل الدين عن السياسة يربح الناس، ويجنون ثمرات هذا الفصل، وهو الحصول على حرياتهم، وحقوقهم، فليس هناك شيء يخسرونه، وتطبيقاً لقاعدة: الإقرار حجة على المقر، وعملاً بحكمة: من فمه أدينه، فلنسمع إلى شاهد منهم هو «امري ريفر» حيث يتناول تسيّب المسيحية، وفشلها في حكم الأفراد والدول في كتابه: «تحليل السلام» فهو يقول: «إن القتل الواسع النطاق، والتعذيب، والاضطهاد، والضغوط التي شهدناها في منتصف القرن العشرين لأدلة قاطعة على الإفلاس الكامل للمسيحية كوسيلة لترويض الانفعالات الإنسانية الغريزية؛ ولتحويل الإنسان من حيوان إلى مخلوق اجتماعي معقول. وإن بعث البربريه، والاستعمال المطلق للقتل الجماعي في العالم بأسره لا يمكن اعتباره كعمل لقلة من الأفراد الذين لا يؤمنون بالله أصابهم مرض التلذذ بالتعذيب «الساديزم» أو جماعة من المتعصبين للشنتويه اليابانية: لقد قتل ملايين من الأبرياء دون أن تهتز شعرة في جسم من قتلوهم. كما نهب عشرات الملايين من البشر، وجُردوا مما يملكون، ونُفوا عن بلادهم، واسْتُعبدوا. وقد لقوا هذا المصير على أيدي مسيحيين انحدروا من أصلاب أسر مسيحية انتسبت منذ قرون إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أو إلى الكنيسة الشرقية البروتستانتية. ولقد ارتكبت فظاعات، ومآس مفزعة، ومجردة من كل مظهر إنساني، لا على يد ألمان ويابانيين فحسب بل على أيدي إسبان، وطليان، وبولنديين، وورومانيين، ومجريين، وفرنسيين، وصرب، وكروات، وروس. ولقد أغمضت كل المجتمعات المسيحية ـ على

اختلاف مذاهبها ـ عينيْها عنها. وإن مجرد حصول هذه النكسات قاطع الدلالة على عدم كفاية المسيحية في تكييف الأخلاق، والإنسانية. كم هي ضعيفة قبضة المسيحية على العالم الغربي؛ ذلك لأنها من أجل عَرَضٍ الدنيا قد تخلت عن تعاليمها الروحية مستسلمة أمام غرائز الإنسان البركانية التي يحطم بعضها بعضاً.

ولسوء الحظ فإن المسيحية كدين منظم تحولت شيئاً فشيئاً إلى منظمة ذات سلطة رئاسية مطلقة، وبذلك انحدر القانون الواحد العالمي إلى ديكتاتورية من ناحية، وإلى انتشار الفرق، والمذاهب على أوسع نطاق من ناحية أخرى. وفي هذه اللحظة بدأت الأوطان، والقوميات الحَديثة تتبلور، كما بدأ الشعور الوطني يسود العالم الغربي، ويتفوق على الشعور المسيحي، فانقسمت الكنائس المسيحية فيما بينها إلى عدد جديد من الفرق المذهبية. وجعل كل فريق منها يؤيد المثل الأعلى الجديد الناشىء؛ أعني المثل الأعلى الوطني. وما لبثت المسيحية أن تشبهت بالوطنية، وفي كل وطن اعتبرت السياسة الوطنية كأنها سياسة مسيحية لمناقشة الاتجاهات الاشتراكية، والنزاعات الحرة»[1].

رابعاً: إنّ حتمية التعانق بين الأحكام في الإسلام يمنع فصل الدين عن السياسة. وأحكام الشرع، وأحكام السياسة متعانقة متلازمة لا مجال للفصل بينهما. فأحكام الشرع، وهي ما شرعه الله تعالى من الدين: كالصلاة، والزكاة، والحج، والصوم... الخ، وأحكام السياسة، وهي القانون الموضوع لرعاية الآداب، والمصالح، وانتظام الأحوال، متلازمة من حيث إقامتها، وتنفيذها، وإناطة الدولة بهما.

فأحكام الدين والسياسة كلها خاضع لهيمنة الشريعة الإسلامية، وحكمها وتنظيمها. وكما يقول المقريزي 766 ـ 845 ـ هـ 1365 ـ 1441 م في معرض كلامه عن السياسة: «اعلم أن الناس في زماننا بل ومنذ الدولة

---

(1) د. يوسف القرضاوي. كتاب: الإسلام والعلمانية. ص 57 - 58.

التركية ـ المملوكية ـ بديار مصر، والشام يرون أن الأحكام على قسمين: حكم الشرع، وحكم السياسة.

فالشريعة هي: ما شرع الله تعالى من الدين، وأمر به: كالصلاة، والحج، وسائر أنواع البر. والسياسة هي: القانون الموضوع لرعاية الآداب، والمصالح، وانتظام الأحوال. والسياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر؛ فهي من الأحكام الشرعية. وسياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها»[1].

فإن أمر صلاح الدين بأحكام الشرع، وأمر صلاح السياسة بأحكام وقوانين رعاية الآداب، والمصالح وانتظام الأحوال، كله يقع ضمن دائرة مراعاة الأحكام الخاضع تنفيذها للدولة المطبقة لأحكام الشريعة الإسلامية. فلا فصل في المراعاة المنوطة بالدولة بين ما هو ديني شرعي، وبين ما هو قانوني سياسي. وكلاهما تهيمن عليه الشريعة الإسلامية.

فالدعوة العلمانية اليوم إلى الفصل بين الدين، والسياسة، أو بين أحكام الشرع، وأحكام القانون هي دعوة باطلة؛ وشاهدها التقليد الأعمى لحضارات الكفر، وواقع النظم السائدة في مجتمعات الاشتراكية والرأسمالية. فإن استبداد الكنيسة، وتجاوزات تدخلها في شؤون الأفراد، والمجتمعات المادية، والفكرية استدعى إبعادها عن الحياة السياسية، وحصر نشاطها في الأمور الروحية. فإن كون المسيحية ظالمة، وغير منهجية، وروحية كهنوتية جاز فصلها عن السياسة، وإبعادها عن الدولة. وبذلك فإن فصل الدين عن السياسة أو عن الدولة أمر له ما يبرره. فضلاً عن أن المسيحية ليست شريعة دنيا أو سياسة. ومن هنا جاء خطأ العلمانيين في التقليد، والاتباع، والقياس. فالإسلام دين منهجي يعالج الشؤون الروحية، والزمنية، وشامل في عدالته لأمور الحياة، وجميع الأحكام شرعية دينية، وسياسة قانونية. فالهيمنة في إدارة جميع شؤون

(1) المقريزي ـ الخطط. جـ 3. ص 60 و ص 61 و ص 63. القاهرة. طبعة دار التحرير.

الحياة سواء بالنسبة للأفراد أو الدول، كلها للشريعة ـ فلا فصل بين القرآن والسياسة؛ وبين الدين، والسياسة؛ أو بين السياسة، والدولة.

أضف إلى ذلك كله أن مصطلح «سياسة» إنما جاء على أثر بداية الانحراف عن إسلامية القانون الذي بدأه المماليك عندما جاؤوا بـ «ياسة» جنكيز خان التتري 562 ـ 624/ 1167 ـ 1227 م. فجعلوا الياسة القانون الذي يتحاكم إليه الجند، وتخضع لأحكامه أجهزة الدولة ـ الدواوين السلطانية ـ، فأخرجوا جهاز الدولة من نطاق هيمنة الشريعة. ومنذ ذلك الحين ظهر اصطلاح السياسة بإضافة سين أول كلمة «ياسة» ثم أدخلوا عليها الألف واللام فصارت السياسة ـ وبدأ مفهوم الفصل بينها، وبين الشريعة أو الدين يظهر شيئاً فشيئاً. ويقرر المقريزي أن مصطلح السياسة ليس عريقاً في الشريعة الإسلامية؛ وكذلك تعبير فصل السياسة عن الدين. وحيث جاء وشاع مع بداية انحطاط الدولة الإسلامية زمن المماليك. فهو يقول: «وليس ما يقوله أهل زماننا في شيء من هذا، وإنّما هي كلمة «مغلية» أصلها «ياسة»، فحرّفها أهل مصر، وزادوا بأولها سيناً، فقالوا: «سياسة»، وأدخلوا عليها الألف واللام، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية. وما الأمر فيها إلا ما قلت لك... واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر، والشام... إن جنكيز خان قرر قواعد، وعقوبات أثبتها في كتاب سماه «ياسة» ومن الناس من يسميه «يسق». والأصل في اسمه «ياسة» جعله شريعة لقومه، فالتزموه كالتزام أول المسلمين حكم القرآن. فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال، وبلاد القبجاق، وأسروا كثيراً منهم، وباعوهم، تنقلوا في الأقطار؛ واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية. ومنهم من ملك ديار مصر، وأولهم المعز إيبك.. وكانوا إنما رُبوا بدار الإسلام، ولُقنوا القرآن، وَعَرفُوا أحكام الملة المحمدية؛ فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديء، وفوّضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج؛ وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام؛ وجعلوا إليه النظر في الأقضية

الشرعية. . واحْتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع إلى عادة جنكيز خان، والاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب؛ ليقضي بينهم على مقتضى «الياسة»؛ وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية»[1]. وبذلك فالمماليك هم الذين سنوا هذه السنة السيئة؛ سنة إخراج جهاز الدولة من إطار هيمنة الشريعة الإسلامية. ثم جاءت الغزوة الأوروبية الحديثة، فأمعنتْ في السير على ذات الطريق. ثم جاء العلمانيون ينادون باتباع هذه السنّة السيئة، وبالترويج لعبارة: فصل الدين عن السياسة، أو الدين عن الدولة؛ وهم يعلمون أن بداية تطبيق هذا المصطلح أو هذا الشعار، بدأ ببدء مرحلة انحطاط المسلمين في عصر المماليك.

ولنا القول: ومن هنا نستطيع التأكيد على بطلان دعوى العلمانيين بالنسبة لهذا الشعار، فلا فصل عندنا بين الدين، والسياسة؛ أو بين الدين والدولة. وإننا عندما كان شعارنا في الحكم الإسلام دين، ودولة؛ وعندما كنا نحتكم إلى إسلامنا في ديننا، كانت الغلبة، والعزة لنا. وعندما فصلنا بين الدين والدولة؛ وأبعدنا الدين عن السياسة كانت الهزيمة لنا. ونحن نعايشها الآن، ويصر العلمانيون على معايشتها، واستمرارها بمناداتهم بشعار الهزيمة في التطبيق، شعار فصل القرآن عن السياسة، أو كما يحلو لهم أن يصوغوه: فصل الدين عن السياسة.

ونحن أمة الإسلام ـ هذه هداية الله لنا، وهذا هو حق ربنا لنا، وعلينا أن يكون ديننا، وأن يكون إسلامنا دين روح، وحياة. ودين دولة وسياسة، ودين حياة أخروية، ودنيوية. وهذا أمر الله فينا؛ به نسعد، وبدونه نشقى. وهو بالنسبة لنا قضاء حق، وهو بالنسبة للعلمانيين قضاء بطلان وخسران. وصدق قول ربنا: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ سورة غافر آية 78.

وقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سورة غافر آية 85.

---

(1) المقريزي ـ الخطط ـ جـ 3 ص 60، وص 61، وص 63.

الشبهة الرابعة:

فصل القرآن عن الزكاة:

أي إلغاء الزكاة لأن الضريبة تقوم مقامها. ودليلهم في ذلك: أن الزكاة في مفاهيمها تشبه الضريبة، والأفراد متساوون أمام القانون، وتحكمهم شعارات المساواة، والديمقراطية؛ وبذلك لا داعي لبقاء الزكاة والجزية، وبذلك يريدون إلغاء الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام الأساسية.

ويصنّف البعض من المفكرين المعاصرين الزكاة كضريبة، أو أنّها نوع من أنواع الضرائب الحكومية مستندين في ذلك إلى معيارين، وهما: وحدة المفهوم، ووحدة التكاليف.

فبالنسبة لوحدة المفهوم: فهم يرون أنّ الزكاة تشبه الضريبة من حيث عناصر الاشتراك بينهما في المفهوم، والتعريف، وبالتالي لا داعي للتفريق بينهما.

وأمّا بالنسبة لوحدة التكاليف: فهم يرون أنّ الزكاة تشبه الضريبة من حيث كونها تكاليف مالية يدفعها أفراد مجتمع واحد متساوون أمام القانون، وبالتالي لا داعي للتفريق بينهما خاصة، وأنّ الضريبة، وهي أهم التكاليف المالية تحقق نفس أغراض الزكاة.

تفنيد هذه الشبهة:

ولكنّنا نرى أنّ هذا التصنيف باطل، وأنّ الزكاة لا يجوز أن تصنف كضريبة. فالفكر الاقتصادي الإسلامي يؤصل الزكاة على أسس، ومفاهيم ونظريات تبنى أصلاً على النصوص القرآنية، والنبوية بحيث يجعلها تختلف دائماً عن الضريبة التي تنبني على أسس، ومفاهيم، وأفكار وضعية ظالمة.

ويمكننا تأصيل الوضع القانوني للزكاة من الضريبة ضمن ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: تفنيد وحدة المفهوم بين الضريبة، والزكاة.

المطلب الثاني: المفاهيم الذاتية للزكاة.

المطلب الثالث: المبرّرات، والنظريات الذاتية للزكاة.

المطلب الأول

تفنيد وحدة المفهوم بين الضريبة والزكاة

لقد استند القائلون بوحدة المفهوم بين الضريبة، والزكاة إلى وحدة وتشابه عناصرهما، ومكوناتهما، في التعريف والاصطلاح.

فالفكر الاقتصادي الوضعي يعرّف الضريبة بأنّها: «فريضة نقدية تقتطعها الدولة أو من ينوب عنها من الأشخاص العامة قسراً، وبصفة نهائية، ودون أن يقابلها نفع معين، وطبقاً للمقدرة التكليفية للأفراد الممولين، وتستخدمها لتغطية النفقات العامة، والوفاء بمقتضيات السياسة المالية العامة للدولة»(1).

واستناداً إلى هذا التعريف يرى مفكرو الاقتصاد الوضعي توافق عناصر الضريبة مع الزكاة، وإنّ هذا التعريف يمكن إطلاقه على الزكاة حيث تتوافق الضريبة من حيث عناصرها، وهي: الفرضية المالية لكل منهما، واقتطاع الدولة لهما وبصفة قسرية، ونهائية، وبلا مقابل، وطبقاً للمقدرة التكليفية للأفراد، وأنّ كلاً منهما يستخدمان للوفاء بمقتضيات

---

(1) أنظر في تعريف الضريبة: دكتور عاطف صدقي ـ كتاب: مبادىء المالية العامة ـ دار النهضة العربية، القاهرة، جـ 1 سنة 1977 ص 150 ـ 154 ـ وانظر: دكتور شريف رمسيس تكلا كتاب: الأسس الحديثة لعلم مالية الدولة ـ دار الفكر العربي، القاهرة سنة 1979 م. وانظر: دكتور إبراهيم فؤاد أحمد كتاب: الموارد المالية في الإسلام. مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، سنة 1972 م ص 23. ودكتور غازي عناية ـ المالية العامة والنظام المالي الإسلامي ـ طبعة بيروت ـ دار الجيل ص 341.

السياسة المالية العامة للدولة، ومن هنا يرون أنّه لا مانع من تصنيف الزكاة على أنّها ضريبة، وأنها من بين الضرائب.

ومن جهتنا نؤكد أنّ التوافق بين عناصر الضريبة، والزكاة هو شكلي فقط، وليس توافقاً حقيقياً. وبتحليل عناصر الضريبة نجد أنّها على درجة قوية من الاختلاف عن عناصر الزكاة، بحيث يبقي هذا الاختلاف الزكاة دائماً في منأى عن الضرائب كما سنرى.

أولاً: الفرضية المالية للضريبة والزكاة:

تتناول الفرضية المالية للضريبة المالية النقدية فقط، فهي لا تتناول المالية العينية. فالضريبة في الاقتصاد الرأسمالي أو الاقتصاد الاشتراكي هي نقدية، وليست عينية. والمالية العينيّة فيهما غير مقبولة في السداد حتى ولو كانت متقوّمة: كالخمر، والخنزير.

وممّا أدّى إلى تحقيق تعميق، واستقرار المفهوم النقدي للضريبة في البلدان الرأسمالية والاشتراكية أمور عديدة أهمها: ارتفاع تكلفة التحصيل، والنقل، والتخزين، والصيانة المالية العينيّة أي للأموال العينيّة حصائل الضرائب. وكذلك عجز هذه الحصائل عن تغطية متطلبات الإنفاق النقدي السائد حالياً، وتعارضها مع جدية الدولة في التدخل الاقتصادي.

أمّا بالنسبة للفرضية المالية للزكاة فهي تتناول المالية النقدية، والعينيّة على حدّ سواء. فهي أعم، وأسمى في الفرضية، والمعالجة سواء على نطاق التحصيل أو الإنفاق.

فالزكاة في النظام الاقتصادي الإسلامي، وبفرضيتها النقدية والعينيّة، تؤصل مبدأ التوسعة على الناس في التعامل والسداد، وعلى اعتبار أنّ الاقتصاد الإسلامي أصلاً هو اقتصاد عيني قبل أن يكون نقدياً؛ ومن ثمّ فالزكاة فيه عينيّة أصلاً قبل أن تكون نقدية.

واستناداً إلى النصوص الشرعية للزكاة كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ سورة التوبة آية 103.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ سورة الذاريات آية 19.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ سورة المعارج الآيتان 24 - 25.

يقرّر العلماء: أنّ مثل هذه النصوص، وغيرها تؤصل الجمع بين العينيّة، والنقدية للزكاة. فهذه النصوص تؤصل فرضية الزكاة بالمال دون تخصيص بالعين أو القيمة.

ويقرّر العلماء أيضاً: أنّ ذكر النصوص الشرعية للزكاة بمفهومها النقدي كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ سورة التوبة آية 103.

أو مفهومها العيني كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ سورة الأنعام آية 141. ليس من قبيل التحديد، والتخصيص، وعلى سبيل الوجوب، وإنّما هو من قبيل التيسير، والتخفيف على الأفراد المكلّفين. ومن هنا أَجاز العلماء إخراج قيمة الزكاة العينية بالمال النقدي.

ففي الحديث الشريف: «في كلّ أربعينَ شاة شاة» متفق عليه. الأمر هنا ليس على سبيل الوجوب بإخراج الزكاة عيناً، وإنّما الأمر للتيسير على النّاس لا لتقييد الواجب في الإخراج، فجاز إخراج زكاة الماشية بالنقد أو العين.

وكذلك بالنسبة لزكاة الزروع، والثمار: فقوله ﷺ: «فيما سَقَتِ السماء والعيونُ العُشْرُ، وفيما سُقيَ بالنَّضحِ والغَرْفِ نِصْفُ العُشر» متفق عليه.

أو قوله ﷺ: «ليْسَ فيما دونَ خمسةِ أَوْسُقٍ صَدَقة» متفق عليه. فإنّ

الأمر في هذه الأحاديث لم يرد لتقييد الواجب في إخراج الزكاة بالعين، فجاز إخراجها نقداً، أو عيناً.

وممّا يؤكد ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «انّه كان يأخذُ العروضُ في الصدقةِ من الدراهم» رواه سعيد بن منصور في سننه عن عطاء.

وما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «أنّه قال لأهل اليمن ائتوني بَعَرضٍ ثيابٍ آخذهُ منكُمْ مكانَ الذرةِ، والشّعير»[1] رواه البيهقي والبخاري عن طاووس.

ومن هنا نلاحظ أنّ فرضية الزكاة تسمو على فرضية الضريبة في جمعها للنقدية والعينيّة؛ استناداً إلى عمومية النصوص الشرعية القرآنية والنبوية في الفرضية للزكاة دون تقييد أو تخصيص في الإخراج بالنقد أو بالعين.

ثانياً: الفرضية العمومية الحكومية للضريبة والزكاة:

فالضريبة تفرضها، وتقتطعها الدولة الوضعية، أو من ينوب عنها من هيئات عامة، أو أفراد عموميين: كالوزارات، والدوائر، والمجالس المحلية أو الولاة، أو الوزراء، أو رؤساء الدوائر، والأقسام.

والدولة في النظام الوضعي هي دولة الحزب الواحد في النظام الاشتراكي أو الحرب الفائز في النظام الرأسمالي. فالدولة التي تفرض الضريبة هي دولة العقل البشري المحدود في الإنشاء، والتكوين، وهي دولة العقد الاجتماعي في التأسيس. فهي بالتالي، وبمثل هذه المفاهيم الوضعية في النشوء والتكون دولة القهر، والتسلط؛ وما الضريبة إلاّ من نتاج هذه المفاهيم فتحمل في طياتها شواهد الظلم، والابتزاز للأفراد، وتحت شعار الوطنية أو الديمقراطية أو المساواة أمام القانون بين الأفراد.

(1) أنظر: دكتور يوسف القرضاوي لكتاب: فقه الزكاة، جـ 2 ص 799.

وأما بالنسبة للزكاة: فإنّ الدولة التي تفرضها، وتقتطعها من أموال الناس هي دولة الإسلام، وليس دولة الأحزاب، والدولة الإسلامية في فرضيتها للزكاة تكون نائبة عن الشارع ليس إلاّ، سواء في الاقتطاع أو الإنفاق.

والدولة الإسلامية ليست دولة العقد الاجتماعي في التأسيس والتكوين؛ وبالتالي ليست دولة قهر، أو تسلط، أو استغلال، أو ابتزاز. وهي دولة أساسها المفاهيم الشرعية في الإنشاء والتكوين، كمفاهيم: العدالة، والحرية، والشورى، وما فرضها للزكاة إلاّ لأنّها نائبة عن الشارع، وهي دولة ربانية، وتكاليفها شرعية، ومنها الزكاة بمفاهيمها اسلامية في العدل، والحلول. وهي تنأى عن الضريبة بمفاهيمها، ولا يمكن تصنيفها كضريبة بحجة التشابه في الفرضية الحكومية لكل منهما، فحكومية الإسلام غير حكومية الوضع، سواء أكانت اشتراكية أو رأسمالية، يأتمر حكامها بأوامر الأحزاب في حين يأتمر رئيس الدولة الإسلامية بأوامر الشرع الإسلامي في الفرضية، والاقتطاع للأموال من الأفراد، وهو حين يفرض الزكاة يتقيد بالحدود الشرعية، فتتجلّى فرضية الزكاة واضحة ضمن مبادىء العدل، والمساواة الحقيقية، سواء في التكليف، أو التنفيذ، أو في التحصيل، أو الإنفاق.

ثالثاً: الفرضية القسرية للضريبة والزكاة:

فالضريبة تجبى على سبيل القسر، والجبر، والإكراه؛ انطلاقاً من فكرة التبعية السيادية للدولة الناشئة عن نظرية العقد الاجتماعي، والتي بموجبها يدفع بل يلزم الأفراد بدفع الضرائب مقابل أن تقدم لهم الدولة خدمات الدفاع، والأمن، والصحة، والتعليم، والمواصلات وغيرها من المرافق العامة التي يتعلق بها تحقيق المصالح العامة، والتي يعجز أو لا يجوز تحقيقها من قبل الأفراد.

ولعلّ الصفة القسرية للضريبة تتأتى من عدم ضرورة مشورة الأفراد حين فرضها أو إنفاقها، بل وفي عدم حقهم على الاعتراض؛ وكذلك في حق الدولة في الانفراد بوضع النظام القانوني للضريبة بتحديد: وعائها، وسعرها، ونصابها، ومواعيد تحصيلها، والقائمين عليها... فالقسرية بالنسبة للضريبة هي قسرية مجحفة في حقيقتها، ظالمة في فرضيتها، يبررها فقط صدور القوانين الشكلية من قبل مجالس الشعب، أو برلمانات الأحزاب.

أمّا بالنسبة لفرضية الزكاة: فهي تجبى أيضاً، وتفرض بالقسر والجبر والإكراه، إلاّ أنّها في قسريتها منصفة، عادلة، مزكية، مثيبة، وقسريتها تتأتى من أداء الواجب للتكليف الشرعي قبل المادي في الإنفاق.

ولعل عدالة فرضية الزكاة تنبع من كون أنّ التكليف بها إنّما جاء بنصوص شرعية إلٰهية في القرآن، أو نبوية في السّنة، ومن هنا يفرق بين فرضية الزكاة عن فرضية الضريبة التي جاءت بأوامر بشرية حزبية أو حكومية على شكل قوانين، أو مراسم، أو قرارات رئاسية، أو ملكية. ومن هنا فإنّ قسرية الضريبة غالباً ما تكون قسرية هوائية ظالمة يتهرب الأفراد المموّلون منها، ويحاولون التهرب من دفعها. وهذا على عكس الزكاة، فقسريتها حافز لأدائها، والإقبال عليها، لأنّها قسرية عادلة مثيبة يدفعها المكلّف، ولا يتهرب منها بل يقبل عليها طمعاً في ثواب الله وغفرانه.

وتقرّر السّنة النبوية التحصيل الجبري للزكاة في حالة التهرب منها. وفي ذلك فائدة دنيوية وأخروية لدافعيها. ويقرّر الإمام إسحٰق بن راهويه: اقتطاع شيء من مال الممتنع أو المتهرب من دفع الزكاة فضلاً عن الزكاة المستحقة استناداً لقوله ﷺ: «من أعطاها مؤتجراً فله أجْرُها، ومن أباها فإنّي آخذُها وشَطْرَ مالهِ عزمةً من عزماتِ ربنا» رواه أبو داود، والنسائي.

رابعاً: الفرضية النهائية للضريبة والزكاة:

فالضريبة تكون فرضيتها نهائية، بمعنى أنّها لا تسترد، ولا يحق للأفراد المطالبة باستردادها في حالة إذا لم تتحقق المصلحة الإنفاقية لها. فنهائية الضريبة تحمل في طياتها معاني التسلط، والظلم، وخاصة أنّها قد تصدر بناءً على قوانين هي في الغالب تخدم مصلحة الحكومة أو الحزب الحاكم أكثر ممّا تخدم الأفراد. وكثيراً ما تصدر بناءً على مراسيم جمهورية أو ملكية، وليس بناءً على قوانين، وكذلك فقد لا يكون هناك منافع تقابلها يحصل عليها الأفراد، وفي هذا مخالفة لشروط العقد الاجتماعي الذي قامت على أساسه الدولة الوضعية: اشتراكية كانت أم رأسمالية. وفي حالات كثيرة أيضاً قد تؤخذ من الأفراد المعوزين الفقراء دون مراعاة لأحوالهم المادية أو الاجتماعية كما هو الحال بالنسبة للضرائب غير المباشرة التي تفرض على السلع المنتجة أو المستوردة، حيث تضاف الضريبة إلى أثمانها فيدفعها المستهلكون بطريقة غير مباشرة، وبالتالي لا يحق لهم استردادها، وتبقى بالنسبة إليهم ضريبة نهائية مجحفة.

أمّا بالنسبة للزكاة: ففرضيتها أيضاً نهائية، ولكنّها لا تحمل في طياتها معاني التسلط، والظلم؛ لأنّ المكلّف الدافع لها لا ينتظر أي مقابل مادي أو نفع دنيوي؛ وإنّما حافزه على دفعها الثواب، والغفران الإلٰهي؛ وبالتالي فهو يقبل على دفعها بنفس طيّبة، وروح متسامحة؛ وهي بالتالي لا تثير صفتها النهائية بالنسبة له أية إشكالات، بل لا يفكر مطلقاً في استردادها، فالحكمة من فرضية الزكاة تؤصلها الرحمة الربانية، وقد تكون خافية بالنسبة للمزكّي، وهو بالتالي لا يكون بحاجة إلى المطالبة باستردادها حتى ولو تحوّل من الغنى إلى الفقر؛ لأنّه في هذه الحالة يصبح من فئة الأفراد الذين تدفع لهم الزكاة بعد أن كانت تحصّل منه.

خامساً: فرضية انتفاء النفع المقابل للضريبة والزكاة:

فالضريبة تقتضي عدم وجود نفع أو اشتراط نفع كمقابل يحصل

عليه دافعها، وكذلك تقتضي عدم وجود علاقة بين ما يدفعه المكلف المموّل، وبين ما يحصل عليه من منافع محدّدة من الدولة. بل قد لا يحصل على أي منها أو بعضها. فالفرد إنما يدفع الضريبة ليس ليحصل على مقابل، بل يدفعها بصفة أحد أفراد المجتمع، وتربطه بالدولة روابط اقتصادية، واجتماعية، وسياسية؛ وعليه أن يساهم في كل الأعباء العامة للدولة، وله أن يستفيد من خدماتها كما تملي ذلك قواعد وشروط العقد الاجتماعي، ولكن على شرط ألاّ تتساوى المنافع التي يحصل عليها الفرد مع الضرائب التي يدفعها في المقدار؛ بل إنّ فرضية الضريبة غالباً ما تتوقف على طاقة المكلّف، والمقدرة التكليفية له.

وأمّا بالنسبة للزكاة: فهي تختلف عن الضريبة في معنى المقابل، وهو حسب المعيار الأخروي مقابل عظيم، وينتظره بل يرجوه دافع الزكاة، ولكن من الله تعالى، وليس من الدولة أو رئيسها. فالزكاة لا، ولن ينتفي النفع الذي يحصل عليه دافعها مقابلاً لها، وهو النفع الأخروي الأسمى عن النفع المادي الأدنى. والزكاة عندما يدفعها المسلم لا يشكل النفع المادي الذي قد يحصل أو لا يحصل عليه مقابلها أية قضية أو إشكال؛ وذلك في مقابل ما يرجوه من ثواب، وغفران، ورضا من الله؛ وهو غاية ما يرجوه الإنسان إذا ما غمر الإيمان قلبه. معياره في دفع الزكاة عمل الخير، مصداق قوله تعالى في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ آية 7.

وما مقابل الزكاة إلاّ البركة، والنمو، والزيادة للمال المزكى، وما مقابل الزكاة إلاّ البركة، والصحة، والعافية للمسلم المزكي، وما مقابل الزكاة إلاّ الثواب، والأجر من الله تعالى يرجوه المسلم دافع الزكاة، ومع هذه المفاهيم السامية تنتفي أهمية عنصر فرضية النفع المادي المقابل للزكاة، وهذا ما يفرقها بل يفنّد الاشتراك بينها، وبين الضريبة بالنسبة لهذا العنصر.

سادساً: فرضية المقدرة التكليفية للضريبة والزكاة:

فالضريبة يدفعها الأفراد المكلّفون طبقاً لقدراتهم التكليفية؛ باعتبار أنّ الأفراد متساوون أمام القانون، وكلّ يساهم حسب مقدرته.

وفي الحقيقة أنّ التساوي بين الأفراد، والدفع حسب القدرات التكليفية هو أمر شكلي بالنسبة للضريبة، وذلك لأسباب منها:

أ - أنّ التساوي في القدرات التكليفية للمواطنين يتنافى تماماً مع النظام الوضعي لهياكل الضرائب حيث يراعى فيها مصلحة الأفراد المحسوبين على الحزب الحاكم، وبالتالي قد يتهرب هؤلاء من دفع الضريبة، أو لا يبلّغون عن قدراتهم الحقيقية. فيكون المتهرب من الضرائب من أغنى النّاس، وأكثرهم قدرة على الدفع، في حين يكون الملتزم أقل الناس قدرة على الدفع.

ب - أنّ القدرة التكليفية على دفع الضريبة معيار ظالم. لأنّه لا يراعي ظروف الفقراء فيساويهم مع الأغنياء بالنسبة لدفع بعض أنواع الضرائب: كالضرائب غير المباشرة، والتي يدفعها الأغنياء، والفقراء معاً كجزء من أثمان السلع والحاجيات التي يستهلكها جميع المواطنين، والتي لا غنى لهم عنها.

أمّا بالنسبة للزكاة: فمعيار القدرة التكليفية في دفعها معيار عادل؛ لأنّه ينبني على القدرة التكليفية الحقيقية للأفراد، وليس القدرة الشكلية. ومعيارها هذا أصّلته الآية القرآنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ سورة البقرة آية 219. وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ سورة الأعراف آية 199.

والعفو الذي أشارت إليه الآيات هو الزائد عن الحاجة من المال، وبغض النظر عن الدافع هل هو من الحكام، أو الرعاع، أو من أعضاء مجلس الشورى أو من المحكومين؛ يؤيد ذلك أيضاً أخذ الاقتصاد الإسلامي بمبدأ تحقيق حدّ الكفاية، وليس حدّ الكفاف في المعيشة فقط.

سابعاً: فرضية مقتضيات السياسة المالية العامة للدولة.

فبالنسبة للضريبة: حصر الفكر المالي الوضعي هدف الضريبة في تغطية النفقات العامة للدولة. ويقول الاقتصادي «جيز»: «إنّ العلاقة بين الضريبة والنفقات العامة من القوة حيث يمكن القول: إنّ الإنفاق من أجل الصالح العام هو أساس الضريبة والمحدّد لها».

ويحدّد الفكر المالي الوضعي هدفاً آخر للضريبة، وهو: تحقيق تدخل الدولة في الحياة العامة، وتحقيق أهداف اقتصادية، واجتماعية معيّنة.

وأمّا بالنسبة للزكاة: فإنّنا نجزم بأنّ الفكر المالي الإسلامي كيّف للزكاة أهدافاً أسمى وأبعد من أهداف الضريبة فيما يتعلق بتحقيق مقتضيات السياسة العامة للدولة، بل وجعل الزكاة أكثر تحقيقاً لمثل تلك الأهداف الاقتصادية، والاجتماعية، وهو إلى جانب هذه الأهداف كيّف الزكاة لتحقق أهدافاً مالية، وسياسية، وإنسانية.

أ ـ **فبالنسبة للأهداف الاقتصادية**: فالزكاة تستهدف الاستثمار والتنمية، وكما ورد في الحديث الشريف: «اتجروا بأموال اليتامى حتى لا تأكلها الصدقةُ» متفق عليه، وذلك لأنّ في حبس الأموال تآكل لها. فوجوب إخراج الزكاة عنها يحفز أصحاب الأموال إلى مسارعة استثمار أموالهم وتشغيلها، مما يحفز بالتالي إلى مضاعفة الأموال المتداولة، والمموّلة للمشروعات التنموية العديدة.

ب ـ **وبالنسبة للأهداف الاجتماعية**: فالزكاة تعتبر من أهم الأدوات المالية في تحقيق مبدأ التكامل الاجتماعي، ومبدأ التكافل الاجتماعي، ومبدأ التضامن الاجتماعي، وتعتبر أهم الأدوات المالية في تحقيق مقتضيات السياسة العامة للدولة في نطاق الأغراض الاجتماعية. فالزكاة إنقاص لمال الغني، وزيادة لمال الفقير يسدّ بها رمقه؛ وتكفل له

مستويات من المعيشة لائقة به كإنسان، هو وأفراد عائلته، وهو ما يعبر عنه بمستوى حدّ الكفاية في المعيشة.

فالزكاة إذن تحدّ، وتقلل من فوارق الطبقات بين الأغنياء، والفقراء، بإعادة توزيع الثروات، والدخول من الأغنياء إلى الفقراء.

والزكاة أيضاً عامل هام في إعادة توزيع الثروات في المجتمع.

جـ- وبالنسبة للأهداف السياسية: فالزكاة استخدمت لتحقيق أغراض سياسية، حماية، وقوة للدولة الإسلامية كاستمالة المؤلفة قلوبهم.

د- وبالنسبة للأهداف المالية: فالزكاة تساهم بدرجة كبيرة في توفير الأموال لخزينة الدولة لمواجهة سبل الإنفاق العديدة، وأهمها: السبل الاجتماعية: كالإنفاق في مصارفها الثمانية، ومنها: الإنفاق على الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والغارمين، وكذلك سبل الإنفاق الإدارية، ومنها: الإنفاق على العاملين عليها. وكذلك سبل الإنفاق في سبيل الله، والذي يتسع لكل ما فيه مصلحة، وخير للدعوة الإسلامية ومنها: الدعوة إلى الله، وبناء المساجد، والتعليم، وغيرها.

هـ- وبالنسبة للأهداف الإنسانية: فالزكاة تساهم في إنقاذ ابن السبيل، وهو المنقطع عن أهله، ولا مال له؛ وكذلك الغارمين، وهم الذين فقدوا أموالهم في الإصلاح بين النّاس، وسداد ديونهم، ومغارمهم؛ وكذلك إعتاق الرقاب.

ونخلص إلى القول: بأنّ سمو الزكاة عن الضريبة إنّما يتمثل في تحقيقها الأمثل والأجدى، والأكثر إنسانية للأهداف العديدة، ممّا يجعلها أكثر تفوقاً من الضريبة في مجال فرضية تحقيق مقتضيات السياسات العامة للدولة؛ حيث إنّ الضريبة حصرتها في أوجه الإنفاق العام فقط، وفي بعض الأغراض الاجتماعية، والاقتصادية فقط.

المطلب الثاني

المفاهيم الذاتية للزكاة

وهذه مفاهيم ذاتية هي في حدّ ذاتها سمات لصيقة بالزكاة تجعل منها فرضية شرعية، وعبادة مالية، وتكليفاً أخروياً، تبعدها عن الضريبة كفريضة عقلية، وتكليف مالي وضعي. ونؤصلها ضمن ستة مفاهيم هي:

المفهوم الأوّل:

سمو الدّلالة على المعنى: سواء فيما يتعلق بالإنسان المزكّي، أو المال المزكى.

فدلالة الزكاة تتناول معنى: النمو، والزيادة، والبركة.

يقال: زكا المال: أيْ نما، وزكا الزرع: أي زاد، وكثر، وزكت النفقة: أي بورك فيها.

وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ البقرة آية 276.

وتتناول معنى: الطهارة. فالمال المزكّى: يطهر من دنس الحرام، بإخراج الجزء المستحق فيه لأصحابه من المصارف الثمانية. والإنسان المزكّي: تطهر نفسه أيضاً من الشح.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ سورة التوبة آية 103.

وتتناول معنى: الفلاح. مصداق قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ سورة الشمس آية 9.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ سورة المؤمنون آية 1 - 4.

وتتناول معنى المضاعفة في الرزق. مصداق قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة آية 261.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ سورة الحديد آية 18.

وتتناول معنى الإيمان. مصداق قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ سورة السجدة آية 16.

وتتناول معنى التقوى. مصداق قوله تعالى: . ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾سورة آل عمران 133 - 134.

وتتناول معنى الثواب، والأجر. مصداق قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة آية 262.

وتتناول دلالة الزكاة أيضاً معنى: الحصانة من الدنس، والنقص، والأذى، والحرام، والشح.

مصداق قوله (ﷺ): «حَصِّنوا أموالَكُمْ بالزكاة». رواه الشهاب.

وتتناول أيضاً معنى: عدم النقصان: مصداق قوله: (ﷺ): «ما نَقَصَ مالٌ مِنْ صَدَقةٍ». رواه الترمذي.

وتتناول معنى: استنزال الرزق. مصداق قوله(ﷺ): «استنزلوا الرزقَ بالصَدَقةِ». رواه البيهقي.

وتتناول معنى: الحماية، والظل للمؤمن المزكّي. مصداق قوله (ﷺ): «ظِلُّ المؤمن يوم القيامة صَدَقَتُه». رواه أحمد.

وتتناول معنى: دفع السوء، والشر. مصداق قوله (ﷺ): «الصَّدَقَةُ تَسُدُّ سبعين باباً مِنَ السوء». رواه الطبراني.

وتتناول معنى: تفريج الكرب، واستجابة الدعوى.

مصداق قوله ﷺ: «من أرادَ أن تُستجابَ دعوتُه، وأن تُكْشَفَ كُربَتُه، فليفرّجْ عن معسر». رواه أحمد.

وتتناول معنى: حسن الخلافة على التركة.

مصداق قوله ﷺ: «ما أحسنَ عبدٌ الصَّدَقَةَ إلاّ أحسنَ اللهُ الخِلافَةَ على تَرِكَته». رواه أحمد.

وهكذا، فإنّنا نرى أنّ مفهوم الزكاة في الدلالة يتناول معاني السمو في الطهارة، والبركة، والحصانة، والفلاح للمال، والإنسان.

فالمسلم الذي يخرج الزكاة تطهر نفسه من الشح، وإثم الحرام، ويبارك له في ماله وأهله وتركته. وكذلك المسلم الذي تدفع إليه الزكاة تطهر نفسه من إثم الحرام باكتساب المال من الحرام، وتطهر نفسه من إثم الحقد، والغل، والحسد، والسرقة، والثأر، ويحل محلها الرضا والقناعة في نفسه.

ولنا التساؤل هنا: إذا كانت هذه دلالات الزكاة فأين دلالات الضريبة من مثل هذه المعاني السامية؟!!.

إنّ دلالة الضريبة على النقيض من دلالة الزكاة. فدلالة الضريبة تعني: المغرم، والنقص، والعبء، والذل، والمهانة، والصغار، مصداق قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ سورة التوبة آية 29.

ولنا القول أيضاً: إنّ الاختلاف في دلالات المعنى بين الزكاة

والضريبة يجد أساسه أيضاً في الاشتقاق اللفظي، واللغوي: فالزكاة: لفظ مشتق من الفعل زكا يحسن وقعه على الأذن، وترتاح له النفس.

أمّا الضريبة: فهي لفظ مشتق من الفعل ضرب يثقل وقعه على الأذن، ويصعب على النفس، ويوحي بالعقوبة والمغرم والصّغار. مصداق قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ سورة البقرة آية 61.

وسمواً بلفظ الزكاة فقد أشار إليه المشرع الإسلامي أحياناً بلفظ الحق بدلاً من لفظ الضريبة. مصداق قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ سورة الذاريات آية 19. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ سورة المعارج آية 24 - 25.

المفهوم الثاني:

الزكاة عبادة: بينما الضريبة التزام مدني محض، وتكليف دنيوي لا غير، فالزكاة على عكس ذلك فهي التزام شرعي، وتكليف أخروي. فالزكاة عبادة مالية، وهي خالصة لوجه الله تعالى يؤديها المسلم كغيرها من العبادات، والفرائض الأخرى: كالصلاة، والصيام، والحج، يؤديها المؤمن امتثالاً لأمر الله تعالى طوعاً، وكرهاً.

وكون الزكاة عبادة، فهي أيضاً الركن الثالث من أركان الإسلام، لا يكتمل إيمان المسلم إلاّ بأدائها.

قال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا». رواه البخاري ومسلم.

وكون الزكاة عبادة، فقد قرنها القرآن الكريم، وفي أكثر من آية، بعماد الدين، وهي الصلاة. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ سورة المزمل آية 20.

وكون الزكاة عبادة، فموقعها من الفقه الإسلامي هو ركن العبادات.

ولذلك فهي لا تجوز إلاّ بالنيّة حيث لا عبادة إلاّ بنيّة. مصداق قوله ﷺ: «إنّما الأعمالُ بالنيّاتِ وإنّما لكلّ امرىءٍ ما نَوَى». رواه البخاري ومسلم.

وكون الزكاة عبادة فوجوبها على المسلم فقط، وهي لا تجب على الكافر، ولا تنفق على الكافر.

وحكم الزكاة في الوجوب يوجب التحصيل الجبري لها إذا لم يخرجها المسلم المكلف من ماله مصداق قوله ﷺ: «مَنْ أدّاها مُؤتجراً فله أجرُهُ ومن أباها فإنّي آخذُها منه، وشطرَ مالِهِ عزمةً من عَزَماتِ ربنا». رواه أبو داود، والنّسائي.

وكون الزكاة عبادة، يقتضي محاربة مانعها جحوداً، واعتباره مرتداً، ويقتضي مقاتلة مانعها كسلاً، وإهمالاً، ولو كان مسلماً.

وكون الزكاة عبادة، يجعلها على النقيض تماماً من الضريبة. فهي - أي الضريبة - لا تجب فيها النيّة، وهي التزام مدني دنيوي، وتكليف مالي وضعي لا معنى للعبادة، والتقوى فيها. والصالح في المجتمع قد يكون المتهرب منها، والطالح في المجتمع قد يكون المحافظ على أدائها. وكم من أفراد لا يؤدّونها، ومع ذلك لهم شأنهم في مجتمعهم وذلك لانتمائهم إلى حزب الحكومة الحاكم، أو لتقديمهم خدمات شخصية لرؤسائهم. والضريبة قبل كل شيء لا علاقة لها بمعايير العبادة والتقوى، والصلاح، والاستقامة مما يجعلها دائماً أدنى مرحلة في ميدان التكاليف، والفرائض المالية من فريضة الزكاة.

المفهوم الثالث:

الزكاة فريضة إلٰهيّة: أوجبها الله على عباده المسلمين المكلفين، ووجوبها محل استقطاعها، أي أنّها من العباد للعباد يثاب مؤديها، ويأثم مانعها، وهي من واجبات الإيمان، لا يتم، ولا يصلح إلاّ بأدائها.

والزكاة كونها فريضة إلٰهية، فهي لا تخضع لمعايير التلاعب في

أحكامها، فرضها القرآن الكريم، وفصّلتها السنة النبوية: كمقاديرها، وأنصبتها، وأوعيتها، وأوقاتها، ومستحقيها، ومصارفها... الخ.

وكون الزكاة إلٰهية، فقد أصّلتها الآيات القرآنية ضمن معايير الإيمان والفلاح مصداق قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾ سورة المؤمنون الآيات 1 - 4.

وفي الحديث الشريف قوله ﷺ: «ما مَنَعَ قومٌ الزكاةَ إلاّ ابتلاهم اللهُ بالسنين». رواه الطبراني. عقوبة إلٰهية لمن ترك هذه الفريضة الإلٰهية.

وكون الزكاة فريضة إلٰهية، فوجوبها على سبيل التأكيد، والفور. ووجوبها جامع للإيمان مانع للآثام. وأحكامها في الجمع والصرف محدّدة من قبل الشارع من ربع العشر إلى نصف العشر. وكذلك الإعفاء دون أي حق أو عذر في الترك، أو التغيير فيها في حالة وجوب استحقاقها.

وكلّ هذا بخلاف الضريبة: فهي فريضة مالية وضعية، ومؤديها معياره المصلحة الشخصية. وقد يرى في السداد الحصول على مآرب شخصية ينتفي السداد بانتفائها.

وتبعاً للمعايير الوضعية في التكليف قد يكون الصالح هو المتهرب من الضريبة له التجاوز في السداد.

المفهوم الرابع:

الثبات والاستمرار: فالزكاة على النقيض من الضريبة تتصف بالثبات والاستمرار في أحكامها، فلا تخضع لتقنين التعديل، والتحويل، والتبديل، والإلغاء. وهي فريضة أبدية لا تخضع لقاعدة: «لا ينكر تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان».

وإنّما تخضع لقاعدة: «لا مساغ للاجتهاد في مورد النص».

وكلّ هذا بخلاف الضريبة، والتي تبعاً لكونها فريضة وضعية، اقتضت فرضيتها مسايرة الظروف، والأحوال، ممّا جعل ثباتها ينتفي مع تغيّر تلك الظروف والأحوال، ممّا يسبغ عليها صفة التقنين في التعديل والإلْغاء تبعاً لأهواء السلطة أو الحزب الحاكم، وتحت شعار الديمقراطية الزائف.

فالضريبة على خلاف الزكاة، فهي تكليف زماني تتحدّد أحكامها تبعاً لمشيئة الوضع الحكومي. وأمّا الزكاة فهي تكليف إلٰهي يبقى في منأى عن مشيئة الوضع، أو هوى الحاكم، أو متطلبات الظروف والأحوال. وهي إلٰهية في وجوبها، ووقتها، ومقاديرها، وأنصبتها، وأوعيتها، وإعفاءاتها، وشروطها، وبقية أحكامها؛ تتصف بصفة الديمومة، والثبات، والاستمرارية، والاستقرار.

المفهوم الخامس:

تحديد سبل الإنفاق: فالزكاة محدّدة أوجه مصارفها في الإنفاق من قبل القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع. مصداق قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ سورة التوبة آية 60.

ومن أجل هذا تخصص لمصارف الزكاة ميزانية خاصة مستقلة عن الميزانية العامة للدولة تنفق حصائلها في مصارفها كما هي محدّدة في القرآن الكريم دون تعد أو تحد.

وهذا كله على خلاف الضريبة، فمصارفها غير محدّدة، وتحكم فرضيتها المشاركة في تحمّل الأعباء العامة، وتغطية أوجه الإنفاق العام المحدّد، والمرسوم.

المفهوم السادس:

سمو الأَهداف والمقاصد: فالزكاة تسمو على الضريبة في روحانية أهدافها ومقاصدها، وهي تسمو على الضريبة في شمولية أهدافها وتنوّعها. فهي لا تنحصر فقط في تحقيق الأغراض المادية لتغطية أوجه النفقات العامة، أو تغطية بنود الميزانية لتحقيق الأغراض والأهداف الاقتصادية والاجتماعية المحضة، وبالمعنى الجامد لها. فالزكاة تتعدى في روحانية أهدافها الأغراض المادية في الاقتصاد، والاجتماع، والإنفاق إلى كل الأهداف الإنسانية الأخرى: الروحية، والأَخلاقية، والإنسانية، والاجتماعية الحقة.

وتتعدى نوعية روحانيتها جميع أوجه الإنفاق العامة التقليدية إلى كل ما يعتبر لازماً لحياة الفرد، والمجتمع الإسلاميين.

فالزكاة تتمثل روحانية أهدافها، وسمو أغراضها في تحقيق المثل الإنسانية الرفيعة، والمثل الأخلاقية النبيلة، والقيم الروحية العالية، وذلك تأكيداً لشواهد الهداية في العبادة، وبعيداً عن شواهد الجباية في الفريضة.

فالزكاة تتعدى عوامل الجباية من الأغنياء والإنفاق على الفقراء، إلى شواهد وعوامل العلو في الرفعة، والرعاية بالإنسانية، والاهتمام بالروح، والتعالي على المادة، والخضوع للدّين، والصّغار للدنيا؛ وهي بذلك عامل تهذيب، وتدريب للنفس البشرية على السخاء، والبذل، والمعاونة، والمساعدة، والتطهّر. فالزكاة تطهّر المزكي، والمزكّى عليه في آن واحد.

فهي تطهر المزكي من دنس الشح، والبخل، وتحرّره من عبودية المادة وتنقله إلى عبودية الله. مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الحشر آية 9 وسورة التغابن آية 16.

فالزكاة تهذب نفس المسلم، وتدربها على البذل، والعطاء؛ تأكيداً

لمعاني الثناء، والشكر للخالق، اعترافاً بفضله، ومنّه، ورزقه؛ ممّا يرفع بالتالي النفس عن الهوى، تزهداً في الدنيا، وابتغاءً للآخرة فتعف نفسه، ويطهر ماله، ويحصن في نفسه، وماله، ويبارك له في ورثته، وتحسن الخلافة في تركته.

وهي أيضاً تطهر المزكّى عليه من دنس الضغينة، والحسد، والبغضاء، والحقد؛ وتنقله إلى الارتفاع بنفسه عن الهوى، والتحدث بالثأر والانتقام؛ وتخلصه من كفر الفقر، والعوز، وذلّ المسكنة، والمسألة والانقطاع؛ وتؤهله لاسترجاع أهليته في العبادة، والعمل، ولما فيه خيره، وخير مجتمعه.

هذه أهداف وشواهد فردية تؤصلها روحانية الزكاة، فما بالك في سمو الأهداف العامة، والتي تتسع في مضمونها عن مضامين الأهداف العامة للتشريعات المالية الوضعية.

ويكفي القول في هذا المقام: إنّ سمو الأهداف الاجتماعية للزكاة يتسع ليشمل هدف التكافل الاجتماعي بنواحيه المتعدّدة المادية منها والمعنوية: كالتكافل الأدبي، والتكافل العلمي، والتكافل السياسي، والتكافل الدفاعي، والتكافل الأمني، والتكافل الجنائي، والتكافل الأخلاقي، والتكافل العبادي، والتكافل الحضاري، والتكافل المدني... الخ.

ويكفينا القول أيضاً: إنّ سمو الزكاة في تحقيق أهدافها الاجتماعية يتناول أيضاً جميع نواحي الضمان الاجتماعي: كالتأمين الاجتماعي للمعوزين، والضمان الاجتماعي للمعوقين، والضمان الاجتماعي لكبار السن، والشيخوخة، والتأمين الاجتماعي لإصابات العمل، والضمان الاجتماعي للمرضى... الخ.

ويكفينا القول أيضاً: إنّ سند تسيير عوامل الضمان الاجتماعي والتكافل بأنواعها، ومجالاتها إنّما يتمثل في تخصيص ميزانية مستقلة

تعرف بميزانية الضمان، والتكافل الاجتماعي مواردها حصائل الزكاة، وعطاءات الدولة والمحسنّين من المسلمين، والجمعيات الإسلامية، تلك الحصائل والموارد المستمرة، وذلك عوضاً عن الصدقات الفردية غير الثابتة ممّا يجعله ضماناً شاملاً للمعوزين من المسلمين، وغير المسلمين؛ أو الزمنى، أو المقعدين، أو ذوي العاهات، أو المسجونين، أو العزاب المستنكحين. وهذا الضمان قديم بقدم الإسلام ذاته تنبهت إليه الدول حديثاً حيث لم يكن أمام المحتاجين عندهم سوى الاستجداء، أو الموت(1).

ناهيك عن الاعتبارات الاقتصادية للزكاة في حفز الهمم على الاستثمار، والاتّجار، والتنمية، تعويضاً للاستقطاع بالزكاة من رأس المال، أو الدخل، أو الربح.

المطلب الثالث

المبررات والنّظريات الذاتية للزكاة

يحصر التشريع المالي الإسلامي أسس فرضيّة الزكاة في نظريات تختلف في مفهومها، وشرعيتها، ومبرراتها، عن نظريات التشريع المالي الوضعي في فرضه للضريبة. فالنظربات الوضعية لا تصلح أساساً تنبني عليه فرضية الزكاة في الإسلام.

ففرضية الزكاة أساسها التشريع الإلٰهي الإسلامي المستمد من القرآن والسّنة النبوية؛ وقسريتها أساسها التطبيق الكامل لأحكام القرآن، والسنة. وتستند الدولة الإسلامية في أحقيتها، وسلطتها في فرضية الزكاة،

(1) هذا ما تفوه به المستشرق دانيل حيرج. أنظر حلقات الدراسات الاجتماعية التي انعقدت بدمشق سنة 1952 دورة 3، ص 217. موضوع تطور التكافل الاجتماعي.

وجبايتها من المسلمين إلى كونها المكلّف الفعلي لتنفيذ الأحكام الشرعية المتعلقة بالأموال؛ وذلك لما لها من حق السيادة على رعاياها أولاً، وإلى كونها المكلف الفعلي لضمان تطبيق أحكام الشرع في تطبيق مبادىء التكافل والضمان الاجتماعي في المجتمع الإسلامي ثانياً.

ومن هنا فإنّنا نرى أنّ التشريع أو الفكر المالي الإسلامي أصّل عدّة نظريات، ومبرّرات يستند إليها في فرضية الزكاة، وهذه النظريات نوجزها في أربع هي:

أولاً: نظرية الاستخلاف ـ ومنشأ هذه النظرية أساسه: أنّ المال لله وحده؛ والإنسان مستخلف فيه، وعليه أن يقوم بأعباء الخلافة من تصرف وإنفاق وغيره، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ النجم آية 31.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ سورة طه آية 6.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ سورة الحديد آية 7.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ سورة النور آية 33.

وقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ سورة البقرة آية 254.

فكلّ ما في الكون ملك لله تعالى حتى الذرة في السموات والأرض وما بينهما. وما المال في يد الإنسان إلاّ نعمة من نعم الله، وفضل منه على عبده. والله تعالى استخلفه على ما رزقه، والإنسان مؤتمن على ما استخلف عليه، وعليه أن يحسن الخلافة؛ فلا يتصرف بمال الله إلاّ بأوامر الله وتشريعه. فالإنسان المستخلف على مال الله يجمعه، وينفقه، ويتصرف به حسب شرع الله، فينمّيه، ويزكّيه كما أمر الله.

والله تعالى هو الذي يعطي ويهب، ويمنح ويرزق. والعبد يتصرف بمال الله كوكيل بالتصرف على مال الله، والوكيل عليه أن يلتزم بقواعد الوكالة في الإنفاق للأموال.

يقول الإمام الرازي في تفسيره: «الفقراء عيال الله، والأغنياء خزّان الله، لأنّ الأموال التي في أيديهم أموال الله، فليس بمستبعد أن يقول المالك لخازنه: اصرف طائفة ممّا في تلك الخزانة إلى المحتاجين من عيالي»(1).

فإذا ضمن الخازن أي الغني بمال موكله ـ وهو الله ـ على عياله ـ وهم الفقراء ـ استوجب نكال الله.

وفي الحديث القدسي يقول تعالى: «المال مالي، والفقراء عيالي، والأغنياء وكلائي؛ فإذا بخل وكلائي على عيالي، أذقتهم وبالي، ولا أبالي»(2).

وتؤكد الدلائل الشرعية رسوخ نظرية الاستخلاف في مال الله، وتوجب التزاماً مالياً على المستخلف لهذا المال بالتصرف، والإنفاق ضمن الحدود والأوجه التي شرعها الله.

ثانياً: نظرية التكاليف العامة ـ ومنشأ هذه النظرية أساسه: حقّ الله في التكليف لعباده، وبما يشاء من تكاليف شرعية: بدنية، أو مالية، عبادة خالصة لوجهه تعالى حمداً وثناءً على خلقه، ونعمائه، وتأصيلاً لحكمته في خلقِه لعباده، وهي العبادة. مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات آية 56.

---

(1) أنظر: الإمام فخر الدين الرازي ـ لكتاب: التفسير الكبير المسمى: مفاتيح الغيب. المطبعة المصرية سنة 1938 جـ 16 ص 103.

(2) أنظر: دكتور يوسف القرضاوي. كتاب: فقه الزكاة. جـ 3 ص 1015.

فأساس الخَلقِ الرباني للإنسان هو العبادة، والعبادة تكليف؛ فمن عبد الله، وقام بالتكليف، فقد ربح وفاز، ومن نكص عن عبادة الله طاح وخسر.

قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ سورة النجم آية 31.

فالإنسان يُسأل عن عمله ساء أم حسن، فهو مكلف، ولم يُخلق عبثاً.

قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ سورة القيامة آية 36.

فمن قام بالتكليف فحقّه على الله مضمون، ومن لم يقم بالتكليف، فحقّه على نفسه مرهون. قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ سورة المدثر آية 38.

فالتكليف عبادة، والقيام به طاعة. فالصلاة تكليف، وهي عبادة. والزكاة تكليف، وهي عبادة يؤديها المسلم المكلّف، استجابة للأمر الإلٰهي بالتكليف، طهرة للمال، وتزكية للنفس. وأساس فرضيتها الأوامر الإلٰهية في التكاليف العامة لعباده المسلمين، والمسلمون هم المكلّفون.

ثالثاً: نظرية الإخاء ـ ومنشأ هذه النظرية أساسه: قواعد الإخاء في العقيدة، والأخوة في الإيمان. وهذه القواعد تؤصل تنظيماً روحياً شواهده الترابط، والتلاحم، والتضامن، والتعاطف بين أخوّة العقيدة، وأخوّة الإيمان. مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ سورة الحجرات آية 10.

وصدّقت السّنّة النبوية قواعد الأخوة في الإيمان، وشيدتها بشواهد البنيان المشدود كل عضو فيه حقّه على العضو الآخر في مد يد المعونة، وبذل المساعدة مصداق قوله ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بَعْضًا». من حديث أبي موسى الأشعري. متفق عليه.

وقد صدّقت السّنّة النبوية قواعد الأخوة في الإيمان، وشيدتها بشواهد الجسد الواحد تكفل أعضاؤه بعضها بعضاً. مصداق قوله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في تَوادّهِمْ وتراحُمِهِم كَمَثَلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسَدِ بالحُمّى، والسَهَر». من حديث النعمان بن بشير. متفق عليه.

وقد ربطت السّنّة النبوية بين شواهد الإيمان، وبين واجبات الأخوة في المساعدة، والإغاثة، والإنفاق. مصداق قوله ﷺ: «ما آمنَ بي من باتَ شَبْعاناً وجاره جائعٌ إلى جنبه، وهو يعلم»، رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود[1].

وقد وضع القرآن شواهد وأسس قواعد التلاحم، والترابط، والتعاطف، والتضامن بين أفراد المجتمع الإنساني أيضاً، مصداق قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات آية 13.

فالإسلام في وضعه لقواعد الترابط، والتلاحم، والتعاطف والتضامن بين أفراد المجتمع الإنساني، فقد حرص بالتالي على تأصيل شواهد تلك القواعد من خلال فريضة الزكاة، تطبيقاً لهذه القواعد في التلاحم والتعاطف، وفي النصرة والإغاثة بين أفراد المجتمع الإسلامي؛ سداً لرمق الفقير، وقضاء حاجة المسكين، وإغاثة المنكوب الغارم، أو ابن السبيل تأكيداً لحق هؤلاء، وغيرهم في الحياة الأمثل وتطهيراً لأموال الأغنياء، وتزكية لأنفس المزكين من دنس شرورها وحرام بخلها، وإثم مكسبها. ومبرر ذلك كلّه مبدأ الأخوة في الله؛ وسنده معالم الروحية في بذل المساعدة والعطاء، وحب البذل، والإيثار، وبلا مقابل مرجو تعبيراً عن شواهد مبدأ الأخوة في التعاطف، والتراحم، وتطبيقاً لمعالم الإيمان في حب الأخ المسلم لأخيه المسلم.

---

(1) المنذري. كتاب: الترغيب والترهيب جـ 3. ص 389. طبعة محمد الحلبي.

رابعاً: نظرية التكليف الاجتماعي ـ ومنشأ هذه النظرية أساسه: حقّ المجتمع الإسلامي في مشاركته أموال أفراده، وهم أعضاؤه. وحقّه عليهم أن يدعموه، ويحموه، ويعينوه، وأن يخففوا من عنائه، وأن يقلّلوا من أعبائه، وأن يساهموا في خدماته فرضاً مستحقاً عليهم لا منّة أو إحساناً منهم عليه.

فالمجتمع المسلم يوفر لأفراده العيش الرغيد، والمكسب الوافر في المادة، والعلم، والثقافة، والروحانية. وأفراده يحيون فيه حياة تضامن، وتكافل، وتكامل. فالفرد الإنساني مدني بطبعه يألف الحياة مع بني جنسه، وما يكسبه في مجتمعه هو بفضل الجماعة، وماله من مالها، وحياته من حياتها، وبقاؤه من بقائها. ومن هنا فالفرد في المجتمع لا يتصرف بالمال مكسباً وإنفاقاً إلاّ ضمن مصلحة مجتمعه. فكلّ إساءة في التصرف إساءة لمال الجماعة. ومن هنا فالإسلام نظّم التصرف. فالإسلام يقرّر مبدأ الفصل بين مالية الحاكم، ومالية الدولة.

ويقرّر الإسلام مبدأ الاستقلال المالي للزوجة عن زوجها:

قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ سورة النساء آية 4.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ سورة النساء آية 20.

ويقرّر الإسلام حرمة أكل أموال اليتيم ظلماً:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سورة النساء آية 10.

ويقرّر الإسلام مبدأ التصرف بالمال ببلوغ الرشد:

قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ سورة النساء آية 6.

ويقرّر الإسلام الأخذ على يد السفهاء بمنعهم من التصرف بأموالهم: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ سورة النساء آية 5.

ويقرّر الإسلام مبدأ عدم تبذير الأموال:
قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ الإسراء آية 26 - 27.

ويقرر الإسلام عدم أكل أموال الناس بالباطل: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ سورة النساء آية 29.

فالقرآن الكريم يوحّد أموال الجماعة. واختار تعبير: ﴿ أَمْوَٰلَكُم ﴾[1] وتعبير ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ للتأكيد على أنّ مال البعض هو مال الكل، وأنّ النفوس واحدة، والتكافل بينهم عام، وشامل. فأعضاء المجتمع المسلم يعيشون وحدة تضامنية متكافلين متضامنين، مالهم مال الجماعة، ومال الجماعة مالهم. وللجماعة حقّها في أموال أفرادها دون تعد أو سلب أو حرمان بل مساهمة منهم لضمان استمرار جماعتهم، وبقائها، وقيامها بأعبائها، وواجباتها، والمالية على وجه الخصوص.

---

(1) يقرّر الإمام محمد رشيد رضا صاحب المنار تعليقاً على الآية: «لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ»: أنّ هذه الآية قرّرت قاعدة الاشتراك التي ينادي بها دعاة الاشتراكية في هذا العصر، ولم يهتدوا إلى سنة عادلة لها، ولو التمسوها في الإسلام لوجدوها، حيث إن الإسلام يجعل مال كلّ فرد مالاً لأمته كلّها مع احترام الحيازة والملكية، وحفظ حقوقها، فهو يوجب على كل ذي مال كثير حقوقاً معيّنة للمصالح العامة.
أنظر: دكتور يوسف القرضاوي ـ كتاب: فقه الزكاة ـ ص 108.

خلاصة القول: استناداً إلى ما سبق من تفنيد عناصر الاشتراك بين الزكاة، والضريبة، ومفاهيم الزكاة، ونظرياتها يمكننا القول: بأنّ الزكاة ليست ضريبة، ولا يجوز تصنيفها ضمن الضرائب، فمدلول الضريبة الوضعي بمعنييه القديم، والحديث لا يتناول مدلول الزكاة.

ويكفينا القول: بأنّ الزكاة عبادة مالية، وفريضة إلٰهية شرعية وليست ضريبة نقدية. وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة لا يكتمل إسلام المسلم إلاّ بها، وحكمها حكم الفرائض، والعبادات الأخرى: كالصلاة، والصوم، والحج، يستحق مؤديها الأجر، والثواب؛ ومانعها الإثم، والعقاب.

الباب الثاني عشر

شبهات حول صلاحية القرآن وتفنيدها.

ونجملها في شبهة واحدة للعلمانيين وهي: فصل القرآن عن الحكم. أي عدم صَلاحية القُرآن للحكم.

وتتمثل شبهتهم في أن القرآن لا تصلح تعاليمه، ولا يصلح أن يكون دستوراً للحكم هذه الأيام. ودليلهم على ذلك: أنّه لا يوجد إسلام مثالي، أو حكم إسلامي مثالي حكم الأفراد، والدول. اللهم إلاّ في فترة النبي ﷺ وعمر بن الخطاب. ويدعم هذا القول فشل التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة الإسلامية. وكما يقول أحدهم، وهو فؤاد زكريا: «أمّا التجارب التاريخية، فلم تكن إلاّ سلسلة طويلة من الفشل؛ إذ كان الاستبداد هو القاعدة، والظلم هو الأساس في العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وأمّا العدل، والإحسان، والشورى، وغيرها من مبادىء الشريعة لا تعدو أن تكون كلاماً يقال لتبرير أفعال حاكم يتجاهل كل ما له صلة بهذه المبادىء السامية. ولا جدال في أنّ لجوء أنصار تطبيق الشريعة ـ مهما اختلفت آراؤهم في الأمور التفصيلية ـ إلى الاستشهاد

الدائم بعهد الخلفاء الراشدين، وبعمر بن الخطاب بوجه خاص، هو في حدّ ذاته دليل على أنّهم لم يجدوا ما يستشهدون به طوال التاريخ التالي الذي ظل الحكم فيه يمارس باسم الشريعة. أي أن التطبيق الذي دام ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً كان في واقع الأمر نكراناً لأصول الشريعة وخروجاً عنها. إنّ أنصار تطبيق الشريعه يركزون جهدهم كما قلنا على الاستشهاد بأحداث، ووقائع تنتمي إلى عصر الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب. ولكن ألا يعلم هؤلاء الدعاة الأفاضل أنّ عمر بن الخطاب شخصية فذة فريدة ظهرت مرة واحدة، ولن تتكرر!! وإذا كانت تجارب القرون العديدة، وكذلك تجارب العصر الحاضر، قد أخفقت كلها في الإتيان بحاكم يداني عمر بن الخطاب، فلم يداعبون أتباعهم بالأمل المستحيل في عودة عصر عمر بن الخطاب؟!! وإذا كان الخط البياني للحق، والعدل، والخير، قد ازداد هبوطاً على مرّ التاريخ، وبلغ الحضيض في التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة، فعلى أي أساس يأمل هؤلاء في أن تكون التجربة المقبلة التي يدعون إليها في مصر هي وحدها التجربة التي ستنجح، فيما أخفقت فيه الأنظمة الإسلامية على مر القرون؟!!».

ويعقب دكتور فؤاد زكريا في مقدمة كتابه «الحقيقة والوهم» على تباشير الصحوة الإسلامية، واتّساع نطاق المطالبه بتطبيق الشريعة الإسلامية هذه الأيام مقللاً من شأنها حيث يقول: «إنّ الدعوة إلى تطبيق الشريعة ـ التي تعلو أصواتها في الآونة الراهنة ـ ترتكز بلا شك على قاعدة جماهيريه واسعة. وكثير من أنصارها يتخذون من سعة الانتشار هذه حجة لصالحها؛ ويستدلون على صحة اتجاههم من كثرة عدد أشياعهم، وأنصارهم». ويعقّب أيضاً في ختام كتابه المذكور بالتهوين والتقليل من شأن المناداة بتطبيق الشريعه حيث يقول: «ولم تكن صيحة المطالبة بتطبيق الشريعة إلاّ صيحة خافتة، لا تأثير لها على المجرى العام لحياة النّاس. هذه هي صورة الدين كما عرفه شعبنا طوال أجيال عديدة.

أمّا الموجة الحالية، فإنّها ـ برغم انتشارها الواسع ـ ظاهرة جديدة ودخيلة على التدين المصري العاقل الهادىء. وكأي ظاهرة دخيلة ينبغي علينا أن نتعقب أسبابها إلى عوامل طارئه».

ويبرّرُ ظهور القاعدة الجماهيرية العريضة، والمطالبة بتطبيق الشريعة بمعسول القول، وهناته، حيث يقول: «وفي رأيي أنّ اتّساع القاعدة الجماهيرية التي تنادي بمبدأ معين لا يمكن أن يكون مقياساً لنجاح هذا المبدأ إلاّ في حالة واحدة فقط هي التي يكون فيها وعي هذه الجماهير ناضجاً كلّ النضج. وأستطيع أن أقول من وجهة نظري الخاصه: إنّ الانتشار الواسع للاتجاهات الإسلامية بشكلها الراهن إنّما هو مظهر صارخ من مظاهر نقص الوعي لدى الجماهير..، وذلك لغلبة الطابع الشكلي على فهمها للدين، وتركيز جهدها على الجانب الشعائري من الدين؛ وعلى التحريمات الجنسية، وشكل الملبس... الخ. ونتصور أن أوّل جوانب تطبيق الشريعة وأهمها هو تطبيق حدود الخمر، والسرقة، والزنى؛ ونتجاهل كلية مشكلات الحياة الاقتصادية، والسياسية بتعقيداتها التي لا تنتهي. هذا الانقياد لا يمكن أن يكون علامة صحة، وإنّما هو حالة شاذه طارئة لم تعرفها مصر إلاّ في ظل عهود الحكم الفردي المتلاحقة، وفي العهد الذي فتح الباب لتسرب الفكر المتخلّف الوافد من مجتمعات بترولية تستخدم الدين أداة للحفاظ على مصالحها في الداخل، ونشر أيديولوجيتها الهابطة في الخارج». وفي الندوة التاريخية التي أقيمت في دار الحكمة للحوار بين «الإسلام والعلمانية» منذ سنتين، والذي دعت إليه نقابة الأطباء بالقاهرة يذكر د. فؤاد زكريا تأييداً لشبهته في عدم صلاحية تطبيق الشريعه، وصلاحية العلمانية في الحكم ما يسميه بواقع التعصب الطائفي كما هو الحال في لبنان، والهند، وبأن كثرة وجود الأديان يتعارض مع التفرد في تطبيق دين الإسلام.

تفنيد هذه الشبهة:

أولاً: إنّ أصحاب هذه الشبهة أمثال فؤاد زكريا، وجماعة

العلمانيين يتناقضون مع أنفسهم، ويقعون في أشر تناقضاتهم. فهم بنكرانهم لصلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق هذه الأيام، والعودة إلى الحل الإسلامي، يعترفون في قرارة أنفسهم بصلاحية القرآن للحكم الإسلامي. ودليل ذلك أنّهم يستشهدون على تلك الصلاحية بالحكم على عهد النبي «ﷺ»، وعهد عمر بن الخطاب «رضي الله عنه». فهم ينكرون على الشريعة الإسلامية صلاحيتها في التطبيق، وهم في الوقت نفسه يعترفون بهذه الصلاحية، وإن حصروها في فترة من الفترات. واعترافهم هذا حجة عليهم؛ لأنّ ما صلح تطبيقه، ولو في فترة من فترات الزمن، يصلح لكل الفترات الأخرى إذا ما أحسن تطبيقه، وأخلص في استخدامه. وبالعقلانية السليمة تمكن المحاجة: إنّ الصالح يبقى صالحاً إلاّ إذا انتقضت صلاحيته بفقدان بعض شروطها، وعلى رأسها حسن التطبيق. وبالمنطق الصحيح أيضاً تمكن المحاجة: أنّ الإساءة في تطبيق الشريعة الإسلامية أحياناً لا يجب، بل، ولا يجوز أن ينفي عنها صلاحيتها في الأحيان الأخرى. فالصالح دوماً صالح إلاّ إذا أسيء استخدامه. وبذلك فإن فؤاد زكريا يقع في شر تناقضاته عندما يستدل بإساءة التطبيق على عدم إمكانية التطبيق. وهو عندما يذكر أن إساءة تطبيق الشريعة ـ والذي دام طيلة ثلاثة عشر قرناً ـ يعتبر نكراناً لأصول الشريعة، وخروجاً عنها، فإنّ قوله هذا يوحي باعترافه بأنّ حسن تطبيق الشريعة لا يعتبر نكراناً لها، أو خروجاً عنها، وهو بالتالي يقر بأصالتها، ونجاعتها إذا لم يسأ استخدامها وحسن تطبيقها. وإذا سلّمنا جدلاً أن واقع المسلمين لم يعرف تطبيقاً مثالياً للإسلام طيلة ثلاثة عشر قرناً كما يقول العلمانيون ـ وهذا لم يحصل البتة ـ واعتبروا ذلك نكراناً لأصول الشريعة، وخروجاً عنها، فلنا أن نتساءل: متى كان الواقع حكماً على الإسلام؟!! ومتى كان الإسلام يقاس على الواقع؟! ومتى كانت شواهد الحكمة تقتضي منا، أو من البشرية جمعاء، أن نستند في حكمنا على شريعة الله تبْعاً للواقع البشري حتى ولو كان مثالياً؟!! أليس في هذا نكران لأصول الشريعة الغراء، وخروج عن أصالتها، ومثاليتها؟!! ومن البداهة بمكان ـ وهذا يعرفه العلمانيون ـ وهم

الذين لا يقرون بالإلحاد كما يزعمون ـ أنّ الإسلام دوْماً كان حجة على المسلمين، وليس العكس. لقد أسلم قسيس مدينة أسيوط في الستينات من هذا القرن ـ وكان رئيساً للكنيسة القبطية، وأستاذاً لعلم اللاهوت والشريعة المسيحية، قاده إلى ذلك تجرده من التعصب الديني أولاً، وحياده في الحكم على صلاحية الأديان ثانياً، فعاتبه أهل دينه، وعيّره اثنان من زملائه القساوسه على تغيير دينه، وَنَعَيا عليه انحطاط تفكيره الذي قاده إلى اعتناق دين يمثل واقع أهله المسلمين أدنى، وأكثر مراحل المجتمعات الإنسانية تخلفاً سواء في علومهم أو أخلاقهم. فهداهُ الله إلى قوله لهم: إنّي لا أتّخذ من المسلمين حجة على الإسلام، ولكنني أتّخذ من الإسلام حجة على المسلمين. هذا هو قولنا لأكابر العلمانيين في جدالهم، ومناقشتهم.

ومشكلة العلمانيين هذه الأيام أنهم لم يفهموا دينهم، ولم يحسنوا عرض دينهم للآخرين؛ ولم يهتدوا إلى مقاييس السلامة في الحكم على دينهم إن بقيت في قلوبهم ذرة من دين.

ثانياً: إنّ أصحاب الشبهة من العلمانيين يغالطون أنفسهم، ويقعون في شرّ مغالطاتهم. إنّهم ينكرون مثالية التطبيق الفعلي للإسلام طيلة عهود الدولة الإسلامية. وكما يقول أستاذ العلمانيين فؤاد زكريا: «أمّا التجارب التاريخية فلم تكن إلاّ سلسلة طويلة من الفشل، وهم يدّعون أنّ الإسلام لم يطبق على حقيقته على مر القرون» وكما يقول فؤاد زكريا أيضاً: «فعلى أي أساس يأمل هؤلاء أن تكون التجربة المقبلة التي يدعون إليها في مصر هي وحدها التجربة التي ستنجح فيما أخفقت فيه الأنظمة الإسلامية على مر القرون؟!!».

وهو بدوره يتخذ من عمر بن الخطاب شخصية فذة فريدة ظهرت مرة واحدة، ولن تتكرر. وذلك حتى يقنط الدعاة المسلمون، ويستكينوا، ويقلعوا عن الدعوة إلى الله، وتطبيق شريعة الإسلام. فهو ييئسهم بقوله: وإذا كانت تجارب القرون العديدة، وكذلك تجارب العصر الحاضر قد

أخفقت كلها في الإتيان بحاكم يداني عمر بن الخطاب، فلم يداعبون أتباعهم بالأمل المستحيل في عودة عصر عمر بن الخطاب؟!!.

وهكذا دَيدن العلمانيين في افتراءاتهم يبنونها على ظواهر الأمور وجزئياتها؛ وأوهى الأمثلة، وأضحلها. وكما يقول ربنا في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ سورة العنكبوت آية 41.

وهكذا ديدنُهم في الحكم على الأمور، وعن هوى، وبعد عن كل حقيقة، وتجرد عن كل برهان أو دليل، ويصدق فيهم قول ربنا دوماً: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة النمل آية 64. وهكذا الأدلة العلمية، والنقلية، والتاريخية، والتطبيقية، تسعف حقيقة الرد المفند لزعمهم المزعوم. والتي تثبت دوماً أن الشريعة الإسلامية طبقت أحكامها وتعاليمها، وأن الدين الإسلامي سادت نظمه، وقوانينه، وأن راية الإسلام ظلت خفاقة طيلة عهود الدولة الإسلامية منذ نشأتها على عهد النبوة إلى انتهاء الدولة العثمانية بإلغاء الخلافة الإسلامية رسمياً سنة 1924 م، ومن قبل ربيب الماسونية، وساحر العلمانية، مصطفى كمال أتاتورك.

وخير شهادة لنا في هذا المقام قول شهيد الحق سيد قطب في مقدمة كتابه: «مُقومات التصور الإسلامي»: «وارتفع لواء الإسلام عالياً، وظل مرفوعاً أكثر من ألف عام بل حوالي مئتين وألف عام ممثلاً في النظام الإسلامي في ظل الأقطار الإسلامية. وهو النظام الذي يرجع النّاس فيه إلى شريعة الله وحدها. ولا يحكم قضاة هذه الأمّة إلاّ بالشريعة الإسلامية في كل أمر من أمور الحياة، ولا يتحاكم النّاس إلى غير هذه الشريعة في شأن واحد من شؤون المعاش»[1].

---

(1) الشيخ محمد الغزالي ـ كتاب: مائة سؤال عن الإسلام. جـ 2 ص 352. 354. القاهرة.

ولعل ما يبرز شرور مغالطات العلمانيين في تبرير شبهتهم أنّهم يحكمون على حقيقة الكلية بجزئياتها، وعلى سلامة الأُمور بهناتها. وهم يحكمون على ديمومة حكم الإسلام بقلائل هفوات حكامه. وهم يعلمون أن شواهد عصمة الإسلام في صلاحيته، واستمراريته ليس من الضرورة أن تمتد لتتناول شواهد تنفيذه، ومعالم تطبيقه، وأعمال الحكام في تطبيق أنظمته، وتعاليمه. فالفكر البشري، والعمل الإنساني صنوان في الفهم للفكر الإسلامي، وكلاهما يدور في حلقة عدم العصمة لكل منهما. وكما يقول شيخنا محمد الغزالي: «نعرف الفرق بين الإسلام، والفكر الإسلامي، وبين الإسلام، والحكم الإسلامي... فالإسلام وحي معصوم لا ريب فيه. أمّا الفكر الإسلامي، فهو عمل الفكر البشري في فهمه، والحكم الإسلامي هو عمل السلطة البشرية في تنفيذه؛ وكلاهما لا عصمة له». وليس من الضروري بأي حال من الأحوال ـ والعلمانيون يعرفون ذلك ـ أنّ عدم العصمة للعمل البشري يجب أن تبقيه دائماً في حلقة الأخطاء أو تقوده دائماً إلى مجافاة الصواب. فالحاكم المسلم قد يخطىء، وهو غير معصوم من الخطأ. ولكن لا يطول خطؤه، فيندم، ويعود إلى صوابه. وقد يَزِلُّ، ولكن لا يستمر زلله؛ فيقومه أصحابه، وأمته. والأمة الإسلامية لا تجتمع على خطأ. وهذا هو التصور العقلاني السليم للحكم في الإسلام حيث جعل ـ وهو معصوم ـ في متناول أيدي الحكام المسلمين ـ وهم غير معصومين ـ وهذا هو الابتلاء الحقيقي لمن استخلفهم الله في حكمه؛ ومن فشل في هذا الابتلاء من الحكام المسلمين، فقليل ما هم، ولو كره العلمانيون، يقول أستاذنا محمد الغزالي: وعندما يخطىء مفكر فإن خطأه لا يبقى طويلاً حتى يستدرك عليه مفكرٌ آخر. وعندما يخطىء حاكم، فإنّ زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد، والأمة الإسلامية ـ بفضل الله ـ لا تجتمع على خطأ، وجهاز الدعوة بها حساس. وهو عن طريق التعليم، والأمر والنهي ينصف الحق. ولما كانت هذه الأمّة حاملة الوحي الخاتم، فإنّ القدر يؤدبها لذا استرخت، أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم، ويتعهدها بالمجددين الذين يغارون على حقائق الوحي، وسبل

فقهه، وأساليب حكمه. قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ سورة الأعراف آية 181.

وأيضاً كما يقول شيخنا محمد الغزالي: «يظهر أنّه لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي، والسياسي؛ وإنّما الغرابة في التستر على هذه الأخطاء، أو الاستحقاق في معالجتها، والتعمية على آثارها»[1].

ولنا القول: واستناداً إلى معايير الموضوعية في الحكم على الأمور، فنحن نعترف بحدوث تجاوزات في تجارب الحكم الإسلامي، ولكننا في نفس الوقت ننعي على الفيلسوف المثقف فؤاد زكريا في خروجه عن كل موضوعية عندما يحكم على جميع التجارب التاريخية للحكم الإسلامي بأنها فاشلة، ويحصر المثالي الناجح منها فقط في عصر عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»، ودون أي دليل، أو مستند تاريخي سليم، أو مسوغ عقلاني صحيح.

ونحن بدورنا أيضاً ننعي عليهم أن يتخذوا تجربة واحدة، أو من تجارب قليلة خاطئة، مسوغاً لهم للخروج عن حدود الموضوعية؛ ويحكمون على عدم صلاحية التطبيق المثالي للإسلام قديماً، وحديثاً. وهم بذلك يتجاوزون كل حدود المنطق العقلاني السليم. وهم يتوّجون تجاوزهم في حكمهم هذا بشواهد سوء النيّة المبيتة للطعن في الإسلام. ودليل ذلك أنّهم لا يطبقون حكمهم هذا على تجاوزات التجارب العديدة والفاشلة في الرأسمالية، والاشتراكية. بل ويتمادون أكثر من ذلك فلا يصفونها بالفاشلة، وحتى وقد يلتمسون الأعذار لها. وهم كما يقول شيخنا يوسف القرضاوي «إن العلمانيين، والماركسيين يتعاملون بمنطقيْن مخْتلفين: منطق مع الإسلاميين، ومنطق مع أنفسهم. فهم مع الإسلاميين يحمّلون الإسلام كل الأخطاء، والانحرافات في التاريخ، وكل الأخطاء والانحرافات في التطبيق المعاصر. فالإسلام عندهم هو مجموع

---

(1) الشيخ محمد الغزالي. كتاب: مائة سؤال من الإسلام. جـ 2. ص 352 - 354 ـ القاهرة.

الانحرافات القديمة، والجديدة معاً. ولا يقولون يوماً: إنّ الإسلام شيء والتطبيق شيء آخر؛ وإنّ المسؤولية مسؤولية المسلمين، وليست مسؤولية الإسلام نفسه. على حين تراهم مع المذاهب الأخرى يفرقون بين صلاحية المبدأ في ذاته، وبين سوء التطبيق له. أجَل، نراهم إذا دعوا إلى الاشتراكية الماركسية مثلاً، يبرئونها من الشوائب، والانحرافات التي صاحبت تطبيقاتها المختلفة من اعتداء على الحقوق، ووأد للحريات، وانتهاك للحرمات، وإهدار لكرامة الإنسان، وقتل للديمقراطية، وتصفية طبقة لتحل محلها طبقة جديدة. وكذلك الذين يدعون إلى الديمقراطية لا يحمّلونها مسؤولية ما يشوبها من انحرافات، وتحريفات. حتى ارتكبت باسمها عظائم الجرائم. وحتى قال رئيس مصري: إنّ الديمقراطية لها أنياب، ومخالب، وإنّها أشرس من الديكتاتورية. وكم زورت باسمها انتخابات، واستفتاءات كانت نتيجتها التسعات الخمس 99.999 فضلاً عن شكوى كثير من الغربيين في بلاد الديمقراطية الأم من زيف الديمقراطية التي توجهها قوى ظاهرة، وخفيه لمصالح فئات معيّنة»[1].

ولعل من شواهد سوء نية الفيلسوف فؤاد زكريا أنّه ـ وهو الذي لم يلتمس عذراً واحداً لتجربة أو تجارب قليلة خاطئة للحكم الإسلامي ـ نجده يلتمس الأعذار لفشل جميع تجارب الاشتراكية، والرأسمالية في البلدان العربية. فهو يعتذر لفشل تجربة الاشتراكية في مصر بقصر المدة، وذلك بقوله: «وخلال هذه الفترة القصيرة لم تكن هناك جديّة كافية في التطبيق. ويكفي أنّها كانت اشتراكية بغير اشتراكيين، وأن المكلفين بحراسة التجربة، ورعايتها كانوا في معظم الأحيان يختارون على أسس شخصية تضمن ولاءهم للحاكم لا على أساس إيمانهم بالمبدأ نفسه واستعدادهم للتضحية في سبيله»[2]. وهو أيضاً يعتذر لفشل تجربة

(1) د. يوسف القرضاوي كتاب: الإسلام والعلمانية ص 186.
(2) د. يوسف القرضاوي. المرجع المشار إليه آنفاً ص 187. ود. فؤاد زكريا: كتاب: الحقيقة والوهم. ص 171.

الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية في مصر بقصر المدة أيضاً. فهو يقول: «إنّها لم تستمر أكثر من ثلاثين سنه «1923 ـ 1952 م»[1]. ويحاسب تجربة باكستان على بضع سنين، وتجربة السودان على سنة، أو سنتين. ألا بئس الذنب الكفر بعد الإيمان.

ثالثاً: إنّ أصحاب هذه الشبهة من العلمانيين يخطّئون أنفسهم، ويقعون في شرّ أخطائهم عندما يقصرون مثالية الحكم الإسلامي في التطبيق على عمر بن الخطاب فقط. ومن الخطأ الفاحش القول: بأنّ عمر بن الخطاب شخصية فذة فريدة لا تتكرر. وهذا القول ـ وكما يعلم العلمانيون أنفسهم ـ يجافي الحقيقة، ويجانب الصواب فيما يتعلق بالحقائق التاريخية للحكم الإسلامي. ولعل حقدهم الأعمى على الإسلام أنساهم حقيقة تكرار الشخصية العمرية طيلة عهود الدولة الإسلامية. ولعل ضغينة مكرهم أفقدتهم الرؤية الصحيحة حتى عن أجلاء صحابة عمر بن الخطاب نفسه، وهم الخلفاء الراشدون: وكما يقول دكتور محمد حسين هيكل في كتابه «الصديق أبو بكر»: «أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟!! في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ثائرة، وتصبح أمّة متحدة قوية، مرهوبة الكلمة، عزيزة الجانب حتى لتغزو الامبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم، وتوجهان حضارته، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قروناً بعد ذلك. هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله، فلا عجب أن يقتضي من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصبة أولو القوة... وقد تخطى الستين يوم بويع»[2].

وتجاهلهم كذلك لمثالية حكم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ذو النورين والذي نال رضا الله، ورضا رسوله، وكما ورد في الحديث الشريف: «اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راضٍ» وذلك على أثر شرائه

---

(1) د. يوسف القرضاوي: المرجع المشار إليه آنفاً. ص 187. ود. فؤاد زكريا: كتاب: الحقيقة والوهم. ص 171.

(2) د. محمد حسين هيكل: كتاب الصديق أبو بكر. ص 945.

لبئر «رومه» وهبته لها للمسلمين، والذي نال بمثاليته حسن مروءة الكرم والسخاء. وكما ورد في الحديث الشريف: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم» على أثر تجهيزه لجيش العسرة في سبيل الله. والذي نال مكارم الحياء، والأخلاق، كما ورد في الحديث الشريف: «ألا أستحي من رجل تستحي منه ملائكة الرحمٰن». عثمان بن عفان الحيي البَكَّاء، والذي وصلت مثالية حكمه بقاع الأرض من أدناها إلى أقصاها. وتجاهلهم كذلك لمثالية حكم علي بن أبي طالب العالم الورع، والذي قال فيه الرسول «ﷺ»: «أنا مدينة العلم، وعلي بابها»، والذي قال فيه الرسول «ﷺ»: «ألا ترضى أن تكون مني كمنزلة هٰرون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي»، علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والذي تمثلت مثالية حكمه بالشجاعة، والقضاء، وكما ورد في معنى الحديث الشريف: «لأعطين الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله، ورسوله. فبات النّاس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما كان الصباح، اجتمع النّاس بباب خيمة الرسول «ﷺ» كلهم يرجو أن يعطها. يقول عمر: ظننت أنّه يبحث عني، فأخذت أتطاول على رؤوس أصابعي. فنظر إلي ثم حول بصره عني، فعلمت أنّه لست أنا. فقال «ﷺ» أين علي بن أبي طالب؟!! قالوا: هو مريض يشتكي عينيه. فقال: أرسلوا له. فلما جاء تفل الرسول «ﷺ» في عينيه، ودعا له، وسلمه الراية، وقال له: اذهب، فقاتل. ففتح الله على يديْه الحصن» وكان ذلك أثناء غزوة خيبر.

هؤلاء الخلفاء الراشدون، والذين تجاهلهم العلمانيون، وانفرد كبيرهم الذي علمهم السحر فؤاد زكريا الطبيب الفيلسوف بأحدهم، وهو عمر بن الخطاب، والذين وردت الأحاديث الشريفه بتزيكتهم، وسمو مثاليتهم، وعلو شخصياتهم، فكانوا أعلاماً فريدين أيضاً. وكما ورد في الحديث الشريف ما يفيد: «أرحم أمتي بأمّتي أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأشد امتي حياءً عثمان، وأعلمهم بالفرائض علي بن أبي طالب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤهم لكتاب الله عبد الله بن مسعود. ولكل أمّة أمين، وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة»؛ وتجاهل

العلمانيون لصحابة الرسول «ﷺ» أوقعهم في شرّ أخطائهم، ومغالطاتهم. وهؤلاء الذين قال فيهم حبيبنا المصطفى «ﷺ»: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم، ولا نصفه». والذي قال فيهم أيضاً: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم». وهؤلاء الصحابة النجوم منهم الفريد الفذ بحكمه، والفريد الفذ بقضائه، والفريد الفذ بجهاده، والفريد الفذ بعلمه، والفريد الفذ بأخلاقه، والفريد الفذ بحسن سياسته. هؤلاء الصحابة النجوم الذين بأيهم اقتدينا، اهتدينا.

ولنا القول في هذا المقام: إنّ التكرار للشخصية العمرية في مثالية الحكم الإسلامي ـ والعلمانيون يعلمون ذلك ـ يفند زعمهم بعدم تكرارها. والأمثلة الحية للعديد من الحكام المسلمين في عدالتهم ـ والعلمانيون يفتكرون ذلك ـ تؤكد فحش افترائهم، وطيلة عهود الدولة الإسلامية، يملأون الأرض بمعالم عدالتهم، وحسن تفكيرهم، وصفاء مثاليتهم؛ بدءاً من عصر الخلفاء الراشدين، ومروراً بالعصر الأموي، والعباسي، والطولوني، والأخشيدي، والفاطمي، والأيوبي، والمملوكي، والعثماني، والأندلسي. فالواقع التاريخي ـ والعلمانيون يستندون إليه تجاهلاً لحقيقته ـ يكذّب أخطاءهم. وأمثلته العديدة شاهد عيان يملأ الآفاق على عدالة ومثالية حكام المسلمين. ومنهم: خامس الخلفاء الراشدين «عمر بن عبد العزيز»، الذي مكن دين الله في أرضه، وملأ الأجواء في عدله، وغمر الأصقاع بحسن سيرته، وسلوكه.

وقد روى البيهقي عنه في الدلائل عن عمر بن أسيد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب قال: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهراً. لا والله، حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث تروه في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذاكر من يضعه فيه، فلا يجده، فأغنى الناسَ عمرُ». هذا الخليفة العادل، والذي قال واليه على صدقات أفريقيا يحيى بن سعيد: كنت أجمع الصدقات ولا أجد أحداً من أصحابها، فكنت أشتري به الرقاب، وأعتقها.

وهكذا شخصية فريدة أخرى تتكرر أيضاً، ورغم جهالة الجاهلين، ورغم نكران العلمانيين. وهكذا أيضاً شخصية معاوية بن أبي سفيان ـ مؤسس الدولة الأموية ـ والذي خاض في سيرته الخائضون سواء من المستشرقين أو العلمانيين. فبالرغم من خطئه، وانحرافه في نظام توليه الحكم من مبدأ الشورى، والاختيار إلى مبدأ التعيين، والوراثة، فإنّ هذا الخطأ لم يثنه أبداً عن مبدأ الحكم بالإسلام، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والاحتكام إلى نظام الإسلام في جميع شؤون الحياة، وتنفيذ قواعد العدالة في حكمه بين الأفراد. ونحن نتحدى أن يثبت أحد أن معاوية لم يحكم بالإسلام؟!! أو لم يكن حكمه مثالياً في تطبيق أحكام الله على العباد؟!! أو أنّه احتكم إلى غير نظام الإسلام في الاقتصاد، أو الاجتماع، أو السياسة، أو الإدارة، أو الجهاد؟!!.

ومعاوية بن أبي سفيان ـ هذا الخليفة العادل ـ والذي شوهت حسن سيرته الضغائن، والأحقاد ـ هو القائل: لو كان بيني، وبين النّاس شعرة، ما قطعتها. والكل من حكام الاشتراكية، والرأسمالية قطعوا هذه الشعرة بينهم وبين الناس، بل وجعلوها سيوفاً على رقابهم يقتلون بها، ويبطشون بها.

ومعاوية هذا ـ الخليفة اللين السمح العافي عن النّاس ـ هو الذي يَروي عنه الحافظ الذهبي في «سير الأعلام» عن ابن عون قال: «كان الرجل يقول لمعاوية: والله، لتستقيمن بنا يا معاويه، أو لنقومنّك. فيقول: بماذا؟! فيقولون: بالخشب. فيقول: إذن، أستقيم. والخشب: جمع خشيب، وهو السيف الصقيل. ويدخل عليه أبو مسلم الخولاني، فيقول: «السلام عليك أيّها الأجير. ويرد عليه من حول معاوية مصححين عبارته: السلام عليك أيها الأمير. ويصر أبو مسلم على قوله. فيقول معاوية: دعوا أبا مسلم، فهو أعلم بما يقول. فقال أبو مسلم: أنت أجير المسلمين أستأجروك على رعاية مصالحهم». ومعاوية بن أبي سفيان هذا هو الذي تنازل له عن الإمامة حفيد رسول الله «ﷺ» الحسن بن علي.

حيث قال فيه جدّه ﷺ: «إنّ ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» رواه البخاري.

ولو كان معاوية على مثل هذا الانحراف عن العدل في الحكم، والسوء في الإدارة، لما تنازل عن الإمامة له الحسن بن علي «رضي الله عنه». وهل يعقل أن يتنازل له عن الإمامة لو كان يحكم بغير الإسلام؟! أولم يكن مثالياً في حكمه لشريعة الإسلام؟! وهكذا كان معظم الحكام الأمويين، ومنهم عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك؛ شخصيات فذة، ملأت إصلاحاتهم آفاق الميادين الإسلامية، وحروبهم في سبيل الله آفاق البلدان المجاورة. وهكذا الحكام العباسيون ـ ومنهم أبو جعفر المنصور، وهٰرون الرشيد ـ أصحاب شخصيات فذة، ملأت الآفاق أعمالهم وجهادهم، وغمرت البلدان سيرهم في العدالة، وحسن القضاء، والتعبد، والورع. وهذا هٰرون الرشيد ـ الذي لم يسلم حكمه من شواهد التشويه، وفساد الإدارة، وهو من كل ذلك براء كبراء الذئب من دم يوسف. وحيث دافع عنه العلامة ابن خلدون دفاعاً رصيناً في مقدمته. وهو الذي تتناقض روايات المستشرقين، والعلمانيين عمّا عرف عنه بتقسيم وقته بين الحج، والجهاد، والقضاء.

وهكذا الحكام الحمدانيون ـ ومنهم سيف الدين الحمداني ـ الذي تفنن في قتال الروم، ومنعهم من تجاوز حدود الدولة الإسلامية.

وهكذا الحكام الزنكيون وعلى رأسهم نور الدين زنكي ـ والملقب بالشهيد ـ والذي شبه بالخلفاء الراشدين في سيرته، وعدله، وقضائه، وجهاده.

وهكذا الحكام الأيوبيون ربائب الزنكيين ـ وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي ـ الذي ملأ صيته الآفاق، والأمصار نقاءً في الحكم، وعدلاً في القضاء، وجهاداً في القتال. وتكفيه شخصيته الفريدة الفذة فخراً أنّه هو الذي قهر الصليبيين في فلسطين، وأخرجهم منها، وخلص بيت المقدس من جبروتهم، وبعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة في معركة حطين

بشمال فلسطين سنة 1187 م. وهكذا الحكام المماليك - وعلى رأسهم قطز، والظاهر بيبرس - الذين خلّصوا البلاد الإسلامية من هجمات التتار والمغول، وهزموهم في معركة عين جالوت بشمال فلسطين سنة 1260 م.

وهكذا الحكام الأندلسيون - وعلى رأسهم الملك الناصر - الذي يشهد له التاريخ جهاده ضد الصليبيين، وعمارته لكثير من المدن الأندلسية، والتي ما زالت آثارها قائمة إلى اليوم تشهد له حنكته في إدارته، وعدله في قضائه، وإخلاصه في جهاده. وهذا قائد الجيوش الإسلامية عبد الرحمٰن الغافقي، والذي يشهد له المستشرقون جهاده وإخلاصه لقيادته، ومثاليته في حروبه، وهو الذي ما يزال التاريخ الفرنسي يذكر دخوله جنوب فرنسا، واستشهاده في معركة بلاط الشهداء في سهل «ثور». وحيث تدرس سيرته في المدارس الفرنسية الآن. وهكذا حكام المرابطين، والموحدين في الشمال الإفريقي المسلم، ومنهم يوسف بن تاشفين الذي اعترفت بشخصيته الفذة الفريدة كتب التاريخ، وسير الأبطال، وهو الذي وحد الأندلس بعد تفرق حكامها، وأخّر سقوطها حوالي مائتي سنة، وبعد أن هزم الصليبيين في معركة الزلاقة. وإنّ مثل هذه الأمثلة لهؤلاء الحكام المسلمين كفيلة لتدحض افتراءات أصحاب هذه الشبهة وغيرها من العلمانيين، والمستشرقين الذين يدعون أنّه لم يكن هناك حاكم مثالي إلا عمر. وما عمر - ونحن نشهد معهم على مثاليته - إلاّ واحداً يأتي ذكره على رأس هرم هؤلاء الأفذاذ من الحكام.

ونحن بدورنا نناشد كل هؤلاء العلمانيين أن يحتكموا حكمهم على التاريخ إلى شواهد الحقيقة من التاريخ؛ وأن يستقوا أخبارهم من كتب الثقة، وضمن شواهد التحري المحكم السليم للأخبار. ولكن، وللأسف الشديد أن بعض مصادر المسلمين تناولتها شواهد التحريف، وعدم الثقه ككتاب: الأغاني للأصفهاني. والذي سمّاه البعض «بالنهر المسموم».

ومثل هذا الكتاب، وغيره لا يصلح مستنداً أو حجة قوية يستند إليها في روايات التاريخ؛ وكثير منها ما لا تقبله العقول السليمة، مثل أن الوليد بن يزيد قد شرب الخمر من فوق الكعبة، وأنّه مزق القرآن، وقال فيه:

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

ولكن، ولا نبالغ في القول: بأن شبهات هؤلاء العلمانيين ـ والكثير منهم لا يجاهر بالكفر، أو الإلحاد ـ إنّما مصدرها الحقد على الإسلام؛ ومستندها الأباطيل في الروايات؛ وشواهدها سوء النيّة المبيتة على الحكام؛ ومعالمها الكذب على التاريخ؛ ومظاهرها المغالطة في الوقائع والحقائق. وإلاّ فنحن نتساءل: أي مستند نقلي أو علمي، أو تاريخي يستند إليه أديب العربية طه حسين عندما يحكم على فشل المَنْهج الإسلامي في الحكم، والإدارة ابتداءً من أواخر عهد عمر بن الخطاب إلاّ الحقد، والضغينة على الإسلام؟!! وكذلك دعوته إلى انتهاج الثقافة الغربية دون مبالاته بتناقضها مع الثقافة الإسلامية؟! وكذلك الدوافع التي تجعل من عبد الرحمٰن الشرقاوي ـ المعروف بماركسيته العلمانية ـ أن يبحث في سير الصحابة «رضوان الله عليهم»، وبمنهجية التفسير المادي للتاريخ؟!! ومنها رواية: «الحسين شهيداً» إلاّ النيّة السيئة المبيتة للإسلام!! هذه الرواية التي قال عنها العلماء أبو زهرة، والنجار، والشرباصي: إنّ الشرقاوي كان حريصاً على تصوير المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول «ﷺ» بنصف قرن فقط بصورة بشعة. وكان هذا المجتمع قد تداعى، وتهاوى، وصار مجتمع عربدة وفجور، ومجتمع شقاق ونفاق؛ ومجتمع جبن وضعف؛ ومجتمع خيانة ونكث للعهود، مع أنّ المجتمع كان لا يزال فيه عدد كبير من صحابة رسول الله «ﷺ»، وفيه عدد ضخم من التابعين لهم بإحسان. وكذلك، الأسباب التي دفعت بالعلماني المجاهر بعدائه للإسلام حسين أحمد أمين أن يهاجم السلف الصالح، ومنهم أبو ذر الغفاري تشويهاً لسمعته. وعمر بن عبد العزيز الذي يصفه بالتسيب في الإدارة، والاقتصاد. وعبد الحميد الثاني آخر

سلاطين الدولة العثمانية، وغيرهم، ومبرزاً لاهتماماته بثورة الزنج، وتاريخ القرامطة، وغيلان الدمشقي؟! وما أسباب هذا النهج المشوه في البحث، والاهتمام إلاّ حقد متكامل، وعنفوان باطل تمتلىء به قلوب هؤلاء على الإسلام؛ تشويهاً لنقائه، وتمويهاً لحقائقه، ونيلاً من حكامه، وطمعاً في رضا أساتذتهم، وعلى رأسهم ساحر العلمانية مصطفى كمال أتاتورك؛ والذي يسير حسين أحمد أمين على هديه، وخطاه. وأتاتورك هذا هو الذي يلخص منهَجَهُ العلماني في محاربة الإسلام بقوله: «إنّ الأمّة التي تصر على التمسك بأساطير لا أساس لها من الواقع، من الضعف بل من المستحيل أن تتقدم».

ونحن بدورنا نتساءل بعجاله: أيّة أساطير هذه التي يتكلم عنها عميل الماسونية أتاتورك؟!! أهي تعاليم الإسلام التي أوجدت الأتراك، وأقام بها عثمان أوّل، وأقوى دولة تركية على الإطلاق؟!! أهي أحكام الإسلام التي استند إليها سلاطين بني عثمان ـ وعلى رأسهم سليم الأوّل ـ والذي حكم الشرق، والغرب بها في يوم من الأيام؟!! وسجد لله شكراً على توفيقه له في فتح سصر، والشام؟!! أليست تعاليم الإسلام هي التي أنجبت محمد الفاتح من بين سلاطين عثمان جعل منها دستوره في تحطيم قوى الظلم، والطغيان، وسار على هديها في فتح القسطنطينية، وجاءت سيرته وفتوحاته تصديقاً للسنّة النبوية، وبأنّ القسطنطينية ستفتح من قبل أحد القواد المسلمين. وذكر الحديث الشريف: نعم الأمير أميرها، ونعم الجيش كذلك؟!! أليست أنظمة الإسلام التي سار على هديها سلاطين بني عثمان في حكمهم، وعدلهم، وجهادهم، واستشهادهم في سبيل الله، وعلى رأسهم السلطان محمود الذي نال الشهادة، وهو يتفقد قتلى إحدى معاركه في المجر؟!! وأخيراً أليست شريعة الإسلام التي تربّى على هداها سلاطين بني عثمان في إخلاصهم وتفانيهم في خدمة الإسلام، والمسلمين، ومنهم آخرهم السلطان عبد الحميد الذي يذكر له التاريخ تمسكه ببلد الإسراء والمعراج، بلد بيت المقدس فلسطين، وعدم تفريطه بها للصهاينة، والصليبيين؟!!.

رابعاً: إن أصحاب هذه الشبهة من العلمانيين يفترون الكذب على دين الإسلام، وتاريخه. ويجترون الباطل على الشريعة الإسلامية، ونقائها. فالعلمانيون ـ وأكثرهم ملحدون، وإن ادعوا أنّهم مسلمون ـ حاقدون على الإسلام، أعمت بصائرهم معالم، وظواهر اقتدائهم الأعمى بنهج أسيادهم مفكري الكفر في المشرق الشيوعي الملحد، أو الغرب الرأسمالي الكافر. وتتجلى شواهد ضغائنهم على الإسلام جلية واضحة في بحثهم الدؤوب عن مخالفات، وتجاوزات الحكام المسلمين مستندين إليها، وجاعلين منها مدخلاً صالحاً يدخلون منه ليبثوا سمومهم، وقاذوراتهم، وبأن الشريعة الإسلامية غير صالحة كمنهج للحياة. وهم بذلك كما وصفهم العلامة أبو الحسن الندوي في مؤتمر: «الإسلام والمستشرقون» الذي عقد منذ سنوات في الهند: «بأنّهم أشبه شيء بمفتشي القمامة؛ لا تقع أعينهم إلاّ على القاذورات، وأكبر همهم هو البحث عنها». وهل يعقل أن تُتخذ تجاوزات بعض الحكام على الشريعة حكماً قاطعاً على عدم صلاحيتها؟!! والأنكى من ذلك أنّهم يتخذون من بعض المخالفات السياسية لبعض الحكام المسلمين سنداً قوياً للحكم على عدم صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق. وهم يعلمون تمام العلم أن الشريعة الإسلامية شيء، وتطبيقها شيء آخر. فقد يحسن تطبيقها، وقد يسوء. ولكن هذا السوء في التطبيق لا يصلح أن يُستند إليه في الحكم على عدم صلاحية هذه الشريعة، والتي دامت وامتدت حوالي أربعة عشر قرناً. والأغرب من ذلك جرأة العلمانيين في الحكم على الأمور لا يضبطهم ضابط، ولا يحفزهم حافز إلاّ شهوة التتبع لعورات الحقائق الدينية، والتاريخية. فكبيرهم الفيلسوف العلماني فؤاد زكريا يحكم، وبكل جرأة، على الشريعة الإسلامية بقوله: «التطبيق الذي دام ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً كان في واقع الأمر نكراناً لأصول الشريعة، وخروجاً عنها». وهو يقول أيضاً: «إنّ الخط البياني للحق، والعدل، والخير، قد ازداد هبوطاً على مر التاريخ، وبلغ الحضيض في التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة». ولا عجب أن يصدر مثل هذا الافتراء من أناس أغمضوا عيونهم حتى عن

حقائق التاريخ في التجارب والتطبيق، وساروا على هدي، بل عُمي أسيادهم من دعاة الكفر الصليبي الحاقد، أو الشيوعي الملحد. ونحن نتعجب من هذا القول!! وهل شريعة يدوم تطبيقها ثلاثة عشر قرناً يُحكم عليها، وبكل بساطة، أنّها لا تصلح للتطبيق؟!! ولنا التساؤل أيضاً: فكيف، وأنّى لمثل هذه الشريعة هذا الدوام، والاستمرار، لولا أنّها فعلاً صالحة، وناجحة للحياة؟!! ولنا أن نتساءل ما الذي يدوم، ويضمن استمراريته: الصالح أم الطالح؟!! وهل جميع من حكم بها من الولاة والحكام المسلمين كانوا على درجة كبيرة من الغباء، فلم يعلموا صلاحها فتجاهلوا تطبيقها؟! أم كانوا على درجة كبيرة من الفسق، فأساؤوا تطبيقها؟!! والجواب: لم يكن هذا، ولم يكن ذاك، ولكن هو الصلاح دوماً للشريعة، والدين، والحاكم بهما، ولو كره المشركون، مصداق قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ سورة الصف آية 9.

والصلاح دائماً للدين في حكمه، وتعاليمه، وتكاليفه، وفروضه، وحدوده، ولا دين غيره؛ وليظهره الله على كل دين غيره، وكفى بالله شهيداً. مصداق قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ سورة الفتح آية 28.

وإننا بدورنا لنؤكد أن ما استند إليه العلمانيون للطعن في الشريعة الإسلامية، ومنها مقولة فيلسوفهم فؤاد زكريا: «بأنّ الخط البياني للحق، والعدل، والخير قد ازداد هبوطاً، وبلغ الحضيض في التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة» لا، ولم، ولن تسعفهم أبداً في تأييد شبهتهم ـ سواء بالنسبة لصلاحية الشريعة الإسلامية، أو عدالة حكامها من المسلمين.

ولا نبالغ في القول: بأنّ معالم الألوهية، ومظاهر الربانية للشريعة الإسلامية ستظل تسمو بها عن أية شبهة، حتى ولو سيء تطبيقها.

ولا نبالغ القول أيضاً: إنّ ما صاحب تطبيق الشريعة الإسلامية على

مر العصور لم يكن أبداً نكراناً لها أو خروجاً على أصولها، حتى وبالنسبة عمن اشتهر بظلمه من الحكام المسلمين: كالحجاج بن يوسف الثقفي. وهو في ظلمه لم يتنكر للشريعة الإسلامية أبداً، ولو تجاوز في حكمه السياسي تثبيتاً للحكم الأموي، وهذا الحاكم في ظلمه لأشد عدلاً من عدل أي حاكم علماني، أو نصراني، أو يهودي، أو شيوعي ملحد. ولا نقول هذا على عواهنه. فشريعتهم وضعية، فهي تبقى ظالمة، وشريعتنا إلٰهية فهي تبقى عادلة. فالحجاج ـ ونحن نقر أنه قتل عبد الله بن الزبير بن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ـ كان من أتقى النّاس، وقرّاء القرآن، والبكائين من خشية الله في الليالي الطوال.

والحَجّاج ـ ونحن نعترف أنّه قتل الكثيرين، وسجنهم في العراق ـ كان قد أصْلح رسم القرآن في أحد عشر موضعاً؛ فأصبح أوضح قراءة، وأيسر فهماً. كما ذكر أبو داود في كتابه المصاحف، وكما ذكر أيضاً: أنّ الحجاج أمر بتشكيل، وتعجيم المصحف.

وكما ذكر أيضاً أبو أحمد العسكري في كتابه التصحيف: أن نصر بن عاصم الليثي هو أوّل من نقّط القرآن بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي حين سأله كتابه أن يضعوا علامات على الحروف المتشابه(1).

وكما ذكرت كتب التفاسير وعلوم القرآن أن الحجّاج بن يوسف الثقفي كان أغير النّاس على الدين، وأشدهم تطبيقاً للشريعة الإسلامية؛ وأكثرهم حرصاً على سيادة أحكامها سواء بالنسبة للمسائل المدنية، أو العسكرية. وحروبه للخوارج تشهد له على جهاده. وقد ذكرت تلك الكتب أيضاً أن الحجاج بن يوسف الثقفي من أكثر الحكام خدمة للقرآن الكريم، وإصلاحاً لكتابته، ورسمه، وتجزئته، وتحزيبه، وتعشيره، وإحصاء آياته، وكلماته، وحروفه. وهي تذكر أنّ سلامة أبا محمد

---

(1) ابن خلكان. كتاب: وفيات الأعيان. طبعة 1310 هـ ـ ص 125.

الحماني روى: «أن الحجاج بن يوسف الثقفي جمع القرّاء، والحُفّاظ والكُتّاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟! قال: ـ وكنت فيهم ـ فأجمَعْنا على أن القرآن ثلاثماية ألف حرف، وأربعون ألف حرف، وسبعماية حرف، وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن؟! فإذا هو في الكهف في ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في الفاء. قال: فأخبروني بأثلاثه؟ فإذا الثلث الأوّل ـ رأس مائة من «براءة»، والثلث الثاني ـ في رأس مائة وواحدة من ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء، والثلث الثالث ـ ما بقي من القرآن. قال فأخبروني عن أسباعه؟ فإذا أوّل سبع في «النساء»: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ في الدال، والسبع الثاني في «الأعراف»: ﴿حَبِطَتْ﴾ في التاء. والسبع الثالث في «الرعد»: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ في الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع في: «الحج»: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ في الألف، والسبع الخامس في «الأحزاب». ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في الهاء، والسبع السادس في «الفتح»: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن. قال سلام: علمناه في أربعة أشهر. وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة رُبعاً. فأوّل ربعه ـ خاتمة الأنعام، والربع الثاني ـ في الكهف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، والربع الثالث ـ خاتمة الزُّمَرَ. والرابع ما بقي من القرآن» هذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي حجة العلمانيين في شبهتهم، ولا بينة واحدة لهم على انحرافه عن جادة الشريعة الإسلامية في التطبيق لأحكامها وتعاليمها. وهو أظلم الحكام المسلمين ينصفه العلماء والمفسرون المسلمون، فيضعون حكمه بين أعدل التطبيقات؛ ويصنفون تطبيقه للإسلام ـ وهم يقرون بظلمه السياسي ـ من بين أحرص الحكام المسلمين على تطبيق شريعة الإسلام. وهذا هو مستند العلمانيين في انحراف الحكام المسلمين؛ وهو بانحرافه لم يخرج أبداً عن حكم الإسلام، إفساداً أو تحريفاً، أو إلغاءً، أو تشويهاً. فسقطت بذلك شبهة العلمانيين، وبالنسبة لمستندهم في الظلم. فما بالك، وأنّى تستقيم إذا تعلق الأمر بالعادلين من الحكام المسلمين، وهم كثير، وما أكثرهم. وإسقاطاً

لشبهات العلمانيين في عدم صلاحية الشريعة الإسلامية استناداً إلى حكم الظلم الحَجّاجي، يورد الدكتور يوسف القرضاوي في إحدى محاضراته على مسامع طلاب وطالبات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة في سبتمبر سنة 1989 م رواية تؤكد تقوى الحجاج، وخشيته من الله تعالى، فهو يذكر عنه أنّه اعتقل رجلاً وأدخله السجن، ثمّ أوتي به، فقال له: ما الذي جاء بك إلى السجن؟!! قال: أخذني وُلاتُك. قال له: وفيم أخذوك؟! قال: جنى جان من عرض العشيرة - أي من أقاربه في العشيرة - فبحثوا عن الجاني، فلم يجدوه، فأخذوني بدله. فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيكَ مَنْ يَجني عليكَ وقد تُعْدي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُرُبِ

أي أن قريبك الجاني هو الذي جَنى عليك، كمثل الإبل الجرباء تعدي بالمرض الإبل الصِحاح. وقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر أيضاً:

وَلَرُبَّ مَأخوذٍ بَذَنْبِ عَشيرةٍ ونَجا المُقارِفُ صاحبُ الذَّنْبِ

وكأن الحجاج يريد أن يبرىء نفسه من ظلم هذا الرجل. فقال الرجل إنّي سمعت الله يقول شيئاً آخر. فقال الحجاج: وماذا يقول؟؟ قال الرجل: إنّه يقول على لسان يوسف عندما عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلاً من أخيهم «بنيامين» أصغرهم الذي وجد المتاع المسروق في رحله: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ سورة يوسف آية 78 - 79.

وما سمع الحجاج الآيتين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ حتى صرخ قائلاً: أطلقوا سراح الرجل، لقد صدق الله وكذب الشاعر.

خامساً: إنّ أصحاب هذه الشبهة من العلمانيين يتنكرون لأبسط

قواعد الحقيقة، ودلالتها في حكمهم على تباشير الصحوة الإسلامية. وهم ينكرون أن يكون اتساع المطالبة بتطبيق الشريعة حجة لصالحها؛ وهم يبررون ذلك الاتساع بنقص الوعي لدى الجماهير. فأستاذهم دكتور فؤاد زكريا يقول في مقدمة كتابه: «الوهم والحقيقة» وبالحرف الواحد: «إنّ الدعوة إلى تطبيق الشريعة ـ التي تعلو أصواتها في الآونة الراهنة ـ ترتكز بلا شك على قاعدة جماهيرية واسعة، وكثير من أنصارها يتخذون من سعة الانتشار هذه حجة لصالحها؛ ويستدلون على صحة اتجاههم من كثرة أشياعهم وأنصارهم». وهو يقول أيضاً مبرراً هذا الانتشار الواسع: «إنّ الانتشار الواسع للاتجاهات الإسلامية بشكلها الراهن إنّما هو مظهر صارخ من مظاهر نقص الوعي لدى الجماهير». وهو يعلق إيجابية، وفعالية، وحجية سعة المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية على تحقيق النضج الكامل عند الأفراد. فهو يقول بالحرف الواحد: «وفي رأيي أن اتساع القاعدة الجماهيرية التي تنادي بمبدأ معين لا يمكن أن يكون مقياساً لنجاح هذا المبدأ إلاّ في حالة واحدة فقط، هي التي يكون فيها وعي هذه الجماهير ناضجاً كل النضج». وهكذا، يحكم، ويحلل، ويبرر العلمانيون مؤشرات الصحوة الإسلامية بعقليات مقفلة، وذهنيات منحرفة، وضلالات زائفة، فلنا أن نناقشهم قليلاً.

1 ـ أي منطق عقلاني واع تنطلقون منه، وتحكمون، وتقررون أن سعة انتشار المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية لا يصلح أن يكون حجة لصالحها؟!! وهل عدم، أو ضيق، أو قلة المطالبة هو الحجة الصالحة لذلك؟!! إن عقولنا لا تستطيع أن تعي مثل هذا المنطق بالنسبة لمثل أنواع هذا التحليل والتبرير. ولنا التساؤل هنا: أليست شرائع الاشتراكية والرأسمالية تتخذ من مبدأ سعة المطالبة ـ والذي تسميه الأغلبية أو الأكثرية ـ معياراً للحكم على صلاحية السياسة، أو أهلية الحزب للحكم، والتي تستند دوماً إلى اتساع القاعدة العريضة للجماهير؟!! ألا تتخذ سعة القاعدة العريضة للجماهير في إضرابهم، ومظاهراتهم، واحتجاجاتهم معياراً سليماً لا يمكن تجاهله في الحكم على الأنظمة، والسياسات،

والخطط القومية، والقرارات والأحكام؟!! ولماذا عندما يتعلق الأمر بالدعوة الإسلامية، أو تطبيق الشريعة الإسلامية ينتفي هذا المعيار، وتصبح السعة ضيقاً وحجة على عدم الصلاحية، وليس لها؟!!.

2 ـ أي دليل تستندون إليه في قولكم: إن اتساع القاعدة العريضة للإسلاميين ينقصها الوعي؟!! وإن انتشارها الواسع بالشكل الراهن مظهر صارخ من مظاهر نقص الوعي لدى الجماهير؟!! وهذا افتراء كاذب لا يؤيده دليل، ولا يشهد له واقع. فالعلمانيون يعلمون، وفيلسوفهم فؤاد زكريا يعلم، أنّ جماهير الدعوة إلى الإسلام هذه الأيام نخبة شباب، وصفوة رجال الأمّة العربية، والإسلامية وعياً، وعلماً؛ وأكثرهم نضجاً، فكراً؛ وسياسة؛ وأغلبهم ينتمون إلى فئات العلم، والثقافة في الجامعات والمعاهد، والمدارس، وكثير منهم ينتسبون إلى جمعيات، ونقابات ومؤسسات يتعلمون فيها شتى أنواع العلوم، والمصارف، والثقافات، ويتدربون فيها على فهم مشاكل الحياة؛ ومعظمهم يشاركون في ملتقيات فكرية، وندوات علمية، يناقشون فيها شتى أنواع الثقافات، في السياسة، والاجتماع، والاقتصاد.

ومن يعنيهم العلمانيون بنقص الوعي هم الأقلية القليلة، والشاذه؛ والشاذ لا يؤخذ به كمعيار في الحكم على الأمور.

3 ـ إنّه لثالثة الأثافي أن يتناسى العلمانيون أنّ الأكثرية الإسلامية هي أكثرية مبدأية روحية قبل أن تكون أكثرية عددية زمنية. إنّها أكثرية دين نهلت من معينه تعاليم الألوهية، والربانية في العبادة والتوحيد.

ومن عقيدته تعاليم التوحيد في الإيمان، والاقتداء؛ ومن شريعته تعاليم التطبيق، والعمل بالأحكام. ومن نظامه المنهجية في التعلم، والدعوة إلى العلم. ومن دستوره تعاليم الإخلاص، والإتقان في العمل. إنّ أكثرية المطالبين اليوم بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية هم خريجو المساجد بيوت الله في أرضه، يسارعون إلى حفظ قرآن ربهم، وتطبيق أحكامه، وفهم علومه، وتنفيذ علومه، وتدارس موضوعاته، والتحلي

بفضائله وأخلاقه؛ فتسودهم روح الإخاء والمودة في العلم، وحب الخير، والتعاون والإحسان، وإسداء المشورة، والنصح في الله، ولله يعايشون الناس، ويشاركونهم همومهم ومشاكلهم، وأحزانهم وأفراحهم، ويتدارسون معهم مشاكلهم الحياتية، والدينية. فكيف يوصف هؤلاء أو من أوتي منهم مثل هذه الفضائل بالجهالة، ونقص الوعي؟!! تلك الجهالة أخرى أن تتصف بها جماهير الأحزاب، والحركات العلمانية في كثير من البلدان الاشتراكية والرأسمالية المتقدمة منها، والمتخلفة. والأحرى أن يُتهم بنقص الوعي جماهير اللا مبدأ، جماهير المصالح والمنافع، جماهير العلمانية الدنيوية، لا جماهير الدينية الروحية، المبدأية الإسلامية.

4 - إنّ علمانية دكتور فؤاد زكريا تتناقض مع نفسها. فهو يهاجم جماهير المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، ويتهمها بالعقم؛ ثم يعترف بإنجازاتها. فهو يقول في رده على دكتور حسن حنفي: «وتبقى بعد هذا كله نقطة جوهرية ينبغي أن نلتمس فيها العذر لأي كاتب يتعاطف مع هذه الاتجاهات؛ ذلك لأنّ الشباب المنتمي إلى هذه الجماعات المتطرفة هو وحده الذي استطاع أن ينجز شيئاً بغض النظر عن دوافعه في هذا الإنجاز. وهو الذي تمكن من إزالة الجمود الذي بدا، وكأنه استقرّ، وسوف يستمر سنوات طويلة؛ وهو الذي ألقى في البركة الآسنة حجراً ضخماً حرك مياهها، وأحدث فيها دوامات قد تتحول يوماً إلى أمواج وعواصف عاتية. وفي مقابل ذلك، فإن التقدميين، والديمقراطيين، والعلمانيين لم يكن لهم دور في هذا التحريك المفاجيء للأحداث، بل كان يبدو في الوقت الذي حدثت المفاجأة، أنّهم وصلوا إلى طريق مسدود لا مخرج منه»[1].

سادساً: إنّ أصحاب هذه الشبهة من العلمانيين، يجانبون الصواب، ويجافون الحقيقة عندما يدّعون أن تطبيق الإسلام يتعارض مع واقع تعدد

---

(1) د. يوسف القرضاوي - الإسلام والعلمانية. ص 92.

الأديان، وأن العلمانية هي الكفيلة بضبط الطائفية الدينية. وقولهم هذا لا يسعفه دليل، ولا يشهد له واقع.

1 ـ إنّ شبهة التعارض هذه تنتفي إذا علمنا أنّ التعددية المقصودة هنا هي التعددية المحلية، وليس التعددية الدولية. فتعدد الديانات داخل المجتمع الإسلامي المَعْنيّة. ومن ثم فمن الطبيعي جداً أن يسود دين هذا المجتمع دين الأغلبية، وأصحاب الديانات ـ وهي الأقلية ـ يقرون هذا المبدأ.

2 ـ إنّ شبهة التعارض هذه تنتفي إذا علمنا أن التعددية المقصودة هنا هي التعددية غير المتجانسة، إذ ليس كلها سماوية ربانية. ومن الطبيعي أن يسود الدين السماوي، والدين الإلٰهي، دين الإسلام، وفي مجتمع إسلامي. فالديانات الأخرى: يهودية، أو نصرانية، أو هندوسية، أو بوذية، أو وثنية ليست سماوية إلٰهية، وإن لم يعترف أصحابها بذلك. فنحن ما زلنا نتكلم عن تطبيق الإسلام في أرض الإسلام. فليس من المنطق أن تنافس هذه الديانات البشرية ديانة الإسلام السماوية، وفي سيادته على مجتمعه، إذ لا مجال للمنافسة والتعارض بينها.

3 ـ إنّ شبهة التعارض هذه تنتفي إذا علمنا أنّ التعددية المقصودة هنا هي التعددية غير المتكافئة. فعدالة دين الإسلام تسمو شواهدها على معالم ظلم الأديان الأخرى. فلا مجال للمقارنة بين عدالة الإسلام، وبين جور الأديان.

4 ـ إن شبهة التعارض هذه تنتفي إذا علمنا أنّ التعددية المقصودة هنا هي التعددية غير المتنافسة. فالإسلام في سيادته، وتطبيق شريعته داخل المجتمع الإسلامي، لا يعني بالضرورة أنّه منافس للأديان الأخرى في اعتناقها، أو العمل بأحكامها من قبل أهلها ومعتنقيها. فالحرية الدينية مكفولة للجميع؛ وأهل الذمة في المجتمعات الإسلامية لا ينافسهم أحد، ولا يجبرهم أحد على عدم التمسك بدياناتهم؛ ولا يمنعهم أحد أن يمارسوا شعائرهم الدينية؛ ولا يحرمهم أحد أن يطبقوا فرائض دينهم،

وأن يعملوا بأحكامه، وتكاليفه. فلا تنافس، ولا تضاد، ولا تصادم؛ فكل يطبق شريعته؛ وكل يعمل بأحكام دينه. فكيف إذن يمكن أن يكون هناك تعارض بين المسلمين، والذميين في الحياة، أو بين الإسلام، والديانات الأخرى في التطبيق؟!! فكل له مجاله، وكل له دائرته.

5 ـ إن شواهد التجارب التاريخية تسعفنا، وتسعف كل من تحرى الحقيقة بعيداً عن الحقد، والكفر، والعناد، أنّه ـ وبسبب فضائل الإسلام في شواهد ألوهيته، وسماويته، ومعالم فضائله، ومكارمه، وأخلاقه، وتسامحه ـ ساد الوئام بين شرائح المجتمعات الإسلامية من مسلمين، وغير مسلمين، وساد التسامح بين دين الإسلام، وبين الديانات الأخرى. وبحيث يمكننا القول: ألاّ تعارض البتة بين تطبيق الإسلام، وبين واقع التعددية للأديان، وطيلة عهود الدولة الإسلامية، وتجارب التاريخ، وشواهده تشهد على ذلك.

6 ـ إنّ ما يستند إليه العلمانيون من تجارب بعض الدول ذات الطوائف الدينية المتعددة كلبنان، والهند، هو حجة عليهم، وليس حجة لهم.

فإننا نقول، وبكل ثقه: إنّ مثل هذه البلدان عاشت التجربة الإسلامية طوال عدة قرون؛ وساد الوئام بين جميع طوائفها من مسلمين وفرقهم؛ ومن يهود وفرقهم؛ ونصارى وفرقهم؛ وهندوس وفرقهم؛ وبوذيين وفرقهم؛ وبين المسلمين جميعهم، وبين غير المسلمين جميعهم.

وعاش الجميع ينعمون برحابة الإسلام في سماحته وتسامحه، وفي رحاب الإسلام بعدله، وعدالته، فلم يَشْكُ أحد، ولم يخرج أحد، ولم يتعصب أحد، ولم يقتتل أحد.

ولا نبالغ في القول: بأنّ ما تتصف به بعض البلدان الآن مثل لبنان والهند من ظهور شواهد التعصب الديني، ومعالم الاقتتال الطائفي سواء بين المسلمين أنفسهم، أو بين المسلمين وغيرهم، إن هو إلاّ بسبب غياب

الإسلام عن التطبيق. فلا الديانات الأخرى حلت مشاكلهم؛ ولا العلمانية الكافرة منعت الاقتتال بينهم؛ ولا الاشتراكية أو الرأسمالية ضبطت التعصب الديني عندهم. وإنّي لأنعي على فيلسوف العلمانية في مصر فؤاد زكريا كيف لم يع هذه التجربة التاريخية لحكم الإسلام في مصر، وكيف عاش المسلمون مع الأقباط النصارى على خير وئام، وطيلة قرون عديدة. وكيف دبّ الخلاف بينهم في هذا القرن في غياب التطبيق للشريعة الإسلامية؛ وعندما أخذت نظم الحكم في مصر بالعلمانية، وساهمت في أحداث الفتن بين طوائف المجتمع المصري من مسلمين وأقباط. والأنكى من ذلك أن يفاخر أصحاب هذه النظم بفصل الدين عن الدولة، وتطبيق العلمانية. ففي ندوة عقدت في إسرائيل في 19 ـ 12 ـ 1980 م قال دكتور مصطفى خليل رئيس وزراء مصر للإسرائيليين مفتخراً بعلمانيته: «أودّ أن أطمئنكم أننا في مصر نفرق بين الدين، والقومية، ولا نقبل أبداً أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة إلى معتقداتنا الدينية».

فيقول: وهو بذلك يكرس سياسة سيده فرعون مصر أنور السادات حيث أشعلت علمانية حكمه أقذر أنواع الصدامات الدموية بين المسلمين والأقباط في مصر، والتي انطلقت من حي الزاوية الحمراء في تلك الفترة والتي راح ضحيتها العديد من الطرفين.

ونقول: وما أن انتهى مصطفى خليل من كلامه حتى وقف البروفسور اليهودي «دافيد» يرد عليه مهيناً له قائلاً: إنّكم أيّها المصريون أحرار في أن تفصِلوا بين الدين، والسياسة، ولكنني أحب أن أقول لكم: «إننا في إسرائيل نرفض أن نقول: إنّ اليهودية مجرد دين فقط. بل إننا نؤكد لكم أن اليهوديه هي دين، وشعب، ووطن». ثم قال البروفسور اليهودي «تفي يافوت»: أود أن أقول للدكتور مصطفى خليل: إنّه يكون على خطأ كبير إذا أصر على التفريق بين الدين، والقومية. وإننا نرفض أن يعتبِرنا الدكتور خليل مجرد أصحاب دين لا قومية له. فنحن نعتبر اليهودية ديننا، وشعبنا، ووطننا. وأحب أن أذكر الدكتور خليل بأنّ الشرق

الأوسط كان موطن الديانات السماوية؛ المسيحية، والإسلامية، واليهوديه، ولم يكن موطن قوميات. أمّا القوميه: فقد كانت من ابتكار الأوروبيين الذين أزعجهم انتشار الحروب الدينية في أوروبا، فابتكروا الفكرة القومية؛ للتخفيف من حدة الصراع الديني في أوروبا. ومن خلال هذا الشعار ـ شعار القومية ـ حاولوا الانتقام من شعوب الشرق الأوسط، فباعوا ابتكارهم إلى شعوب الشرق الأوسط. وهكذا أصبحت حياة الشباب في الشرق الأوسط تتوه في الحروب القومية[1].

(1) د. يوسف القرضاوي: الإسلام والعلمانية ـ ص 196.

خاتمة الكتاب

لقد أوضحت لنا هذه الدراسة أصالة قرآننا قرآن ربنا، معجزة رسولنا إلى أبد الآبدين، وكيف تتحطم دوماً على صخرته في الإعجاز كل محاولات الهدم، والدس، والطعن، والنيل من فضائله، وهداياته، وأحكامه، وتطبيقاته. وأنّه الكتاب الرباني الوحيد الذي تتلاشى أمامه بدع الضالين، وشبهات الحاقدين، سواء حول وحيه، أو جمعه، أو كتابته، أو تواتُره، أو مكيه ومدنيه، أو سبعة أحرفه، أو محكمه ومتشابهه، أو نسخه، أو ترجمته، أو إعجازه، أو تطبيقه، أو صلاحيته.

وهكذا أبانت لنا هذه الدراسة صموده بإعجازه أمام شبهات الباطل من أهل الكفر من صليبيين، ويهود، ومجوس، وشيوعيين، وملحدين، ووجوديين، وبوذيين، ووثنيين. فما من شبهة كفر إلاّ وقد فنّدها، وما من حجة إلحاد إلاّ أبطلها، وما من دسيسة حقد إلاّ رد كيدها، وَما من تفاهة علم إلاّ سخر منها، وما من دعوى كذب إلاّ كشفها، وما من سند علماني إلاّ أبطله وأفحمه. وهكذا مكر أولئك يبور.

ولقد أثبتت هذه الدراسة إعجاز قرآن ربنا في عقيدة التوحيد،

وسلامة التطبيق، وصلاحية التنفيذ، وفعالية العمل بأحكامه. وبحيث يبقى مؤصلاً لحقائق وجوده، وحكم الإِلٰه في إنزاله كقرآن دين، وكتاب دولة، ومنهاج سياسة، ودستور مجتمع، ونظام حكم وأسلوب عمل، ومنهاج اقتصاد، وأداة اجتماع، وطريقة حياة. وما أحيط به من شبهات لم يكن عمل فكر بقدر ما كان معالم حقد وحسد، ومظاهر طعن، وقذف لا تصمد لأصالته البتة. وبحيث يمكننا القول: بأنّ هذه الدراسة لم تكن في حقيقتها دفاعاً عن القرآن أعظم كتاب، بقدر ما كانت كشفاً لصلاحيته وإعجازه، وبحيث يبقى دوماً قرآن دين ودنيا، تتحطم عند صرحه جميع محاولات الفصل بينه وبين الدولة، أو بينه وبين السياسة، أو بينه وبين أركان الإسلام، ومنها الزكاة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وبه نستعين

فهرس

موضوعات الكتاب الصفحة